صادق هدايت

البومة العمياء

وقصص أخرى

• ترجمة ودراسة

وقى شتا

مكت

BORLÄNGE KOMMUN
Huvudbiblioteket
871 00 07 6529 D0

البومة العمياء

حقوق الطبع محفوظة
١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م

صادق هدايت

البومة العمياء

وقصص أخرى

• ترجمة ودراسة

د. إبراهيم الدسوقي شتا

مكتبة مدبولي

إهداء

مرة أخرى
إلى هذا الزمان
وإلى أهله ....

شتا ج

تصـــديــر

أقدم فى هذا الكتاب الطبعة الثانية لبعض أعمال الكاتب الايرانى المعاصر صادق هدايت الذى لم يبلغ كاتب أيرانى معاصر آخر ما بلغه من شهرة على المستوى العالمى ، وكانت الطبعة الأولى لمجموعة القصص القصيرة التى أقدمها فى هذا الكتاب قد صدرت عن الهيئة العامة للكتاب فى يناير ١٩٧٥ ، كما صدرت الطبعة الأولى عن القصة الطويلة أو الرواية القصيرة « **البومة العمياء** » عن نفس الدار فى يناير سنة ١٩٧٦ ، ومن نافلة القول إذن أن الطبعة الأولى من الكتابين قد نفدت تماما وأقدمهما الآن فى كتاب واحد ، وكان ما حفزنى على إخراج هذه الطبعة عدة أمور :

الأول : أن كثيرا من الطلاب والدارسين ــ ليس فى مصر فحسب بل وفى العالم العربى ــ يلحون فى طلب نسخ من الكتابين منى شخصيا لتصويرهما وذلك لاحتياجهم إليهما فى دراستهم عن الأدب الفارسى المعاصر والأدب المقارن .

الثانى : هو أن الطبعة الأولى بالرغم من نفادها ــ لم يقدر لها الذيوع والأنتشار على المستوى العربى بالذات بحيث بت أخشى على العمل النقل أو الأقتباس ــ جملة أو أجزاءا ــ وهو أمر شائع أيضا ، لأن هدايت مشهور أيضا على مستوى الدارسين فى العالم العربى ، وطالما سمعت عن محاولات لترجمة البومة العمياء بالذات على أساس أنها لم تترجم ولم تنشر ، وكان مما له مغزى فى هذا المجال أن تنشر صحيفة عربية شهيرة تصدر فى لندن خبرا يبشر القراء بقرب صدور ترجمات عن هدايت إلى العربية لأول مرة (؟) ، ولا أدرى أن كانت الترجمة قد صدرت أو لم تصدر، ولا أدرى أيضا أن كانت الصحيفة قد نشرت التصحيح الذى أرسله أحد طلابى أو لم تنشره .

الثالث : أن هدايت بتشاؤمه الفلسفى العميق وأبعاده الفكرية وتصويره للشعب الايرانى لا تخلق جدته ، وفى كل مرة يستطيع القارىء الواعى أن يخرج بالجديد من كتاباته فهو كاتب متعدد المستويات من نفس الأرض التى أخرجت الخيام وحافظ الشيرازى وسعدى وجلال الدين الرومى .

وبالرغم من أننى كنت قد تعرفت على هدايت ــ أقصد أعماله بالطبع ــ وطمحت إلى ترجمتها فور تخرجى منذ ما يزيد عن ربع قرن من الزمان ، وكانت الترجمة التى صدرت عن هيئة الكتاب نتاج الفترة الأولى من حياتى العلمية ، إلا أننى عند مراجعتها لاصدار هذه الطبعة لم أجدها فى حاجة إلى تغيير يذكر ، وأظن أن روح الترجمة الأولى والتجاوب الموجود بين الكاتب والمترجم أمران لا يتكرران ، كما أننى لازلت مدينا بالأعتراف بالفضل والجميل لأولئك الذين ساعدونى وأخذوا بيدى عند قيامى بالترجمة الأولى : أستاذى الدكتور **مرتضى آية الله** زاده الشيرازى الأستاذ بجامعة طهران الذى ساعدنى فى فك طلاسم هدايت المغرقة فى العامية ، والأستاذ **محمد رشاد إسماعيلى** زاده الذى راجع الترجمة آنذاك بتكليف

رسمى من الهيئة العامة للكتاب وكان تدقيقه فى المراجعة واخلاصة النادر فى العكوف على النص العربى باعثا على جودة الترجمة ودقتها ومعلما لى فى كثير من الأحيان ، كما أكرر شكرى لكثير من القائمين على هيئة الكتاب آنذاك الذين تحمسوا لاصدار الطبعة الأولى لدارس لم يكن له أسم آنذاك ومنهم الصديق الشاعر حسن توفيق والأستاذ عبد الحميد سليم فأجدد شكرى ودعائى لهم جميعا .

والفضل أولا وأخيرا لله وحده ، منا جهد المقل ومنه سبحانه وتعالى العون والتوفيق .

العمرانية

أول المحرم ١٤١٠ للهجرة

٣ أغسطس ١٩٨٩ للميلاد

دكتور

إبراهيم الدسوقى شتا

استاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية

كلية الآداب — جامعة القاهرة

مقدمة المترجم

القصة فى الادب الفارسى الكلاسيكى :

للقصة فى الادب الفارسى الكلاسيكى منزلة فريدة[1] ، فالشعب الايرانى منذ اقدم العصور مغرم بالقصص والحكايات ، يتخيرها أحيانا وسيلة لتربية الملوك وتهذيب الشعوب ، وأحيانا أخرى لبث الحماسة فى نفوس المحاربين ، وآونة لتصوير قصص من الحب جميلة وعذبة وذات نزعة قومية . وقد بقيت من الروايات الفارسية التى أعيدت صياغتها بعد الاسلام قصص كثيرة ؛ منفردة بذاتها أو منبثة فى كتب التاريخ والادب ، وأغلبها تلعب الاسطورة فيه دورا كبيرا ، ولكنها مع ذلك لاتقدم قبسا من الحقيقة ، ففيها الاصالة فى المعنى ،وفيها وحدة الاحداث حينا تتكرر فى أكثر من كتاب ، وقد ضمنت هذه القصص كتب من كانوا يعرفون اللسانين ، كابن المقفع فى الأدبين الصغير والكبير ، والجاحظ فى عامة كتبه ، وبخاصة كتاب التاج المنسوب إليه ، وقد اثرت هذه الروح القصصية إلى حد كبير فى امتزاج الثقافتين

(١) انظر : أمين عبد المجيد بدوى : القصة فى الأدب الفارسى – طبعة دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٦٤

مـن أقـدم الـعـصـور، يـستدل على ذلك من نهج أبى الفرج الاصفهانى فى كتابه الاغانى ، ومن ظهور قصص الحب وتدوينها والتوسع فيها ، ومن أحاديث القصاص والعباد فى المساجد .

وثمة خاصية بارزة ينفرد بها النثر الفارسى الاسلامى وهى : أن كل من ألف كتابا فى أى موضوع ؛ سواء فى التاريخ أو التصوف أو الادب ، لابد أن يورد فى منتصف الحديث حكاية توافق مقتضى الحال ، وتحتوى فى ثناياها على ضرب من ضروب الحكمة يتصل بما كان يتحدث عنه أو بما هو مقبل على الحديث فيه ، يستوى فى ذلك أقدم الكتب وما كتب منها فى القرن التاسع عشر . ومن الكتب المنثورة ماكتب فى قالب الحكاية فحسب مثل كلستان سعدى الشيرازى[1] الذى قلد كثيرا وظهر من بعده بهارستان (أى المربع) لعبد الرحمن الحامى (١٤١٤ - ١٤٩٢ م / ٨١٧ - ٨٩٨ هـ) وبريشان (أى متفرقات) لقاآنى (١٨٣٧ - ١٨٨٧ م / ١٢٢٠ - ١٢٧٠ هـ) ، هذا مع ملاحظة أن القصد من الحديث عن القصة فى الادب الفارسى لا يعنى القصة بمعناها الحديث ، وإنما يعنى الروح القصصية التى ساعد فى اذكائها عند الفرس غرام الاديب الايرانى بالاستقصاء والجرى وراء المعنى حتى يوفيه حقه كما لاحظ الاستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أثناء دراسته لملحمة الفرس الشهيرة « الشاهنامه »[2] .

وهذا القصص الذى ذكرته قد كتب لأغراض أخلاقية أو تعليمية أو صوفية ، طغت عليه هذه الاغراض حتى أنقصت كثيرا من قيمته

---

(١) ترجمة إلى العربية جبرائيل المخلع سنة ١٢٦٣ هـ - ومحمد الفراتى دمشق سنة ١٩٦١ - دار الكتاب وامين عبد المجيد دار النهضة ١٩٨٤ .

(٢) انظر : مقدمة شاهنامه ابى الفتح البندارى . نشر عبد الوهاب عزام - سنة ١٩٣١ - سنة ١٩٣٢ .

الفنية كأعمال قصصية. وثمة طابع مميز آخر للقصة الفارسية التقليدية ؛ إنها اعتمدت أيضاً على الشعر خاصة هذا الضرب من الشعر المعروف بالمثنوى ، حيث تتكرر القافية فى البيت الواحد مرتين ، وتتغير من بيت إلى بيت . ومن القصص الشعرية ما كتب لأغراض أخلاقية مثل بوستان سعدى[1] أو لأغراض صوفية كالقصص المتفرقة فى مثنوى جلال الدين الرومى[2] (٦٠٤ – ٦٧٢ هـ / ١٢٠٧ – ١٢٧٣ م) ، أو لأغراض أخرى مختلفة كخمسة نظامى للشاعر نظامى الكنجوى[3] (٥٣٥ – ٥٩١ هـ / ١١٤٠ – ١٢٠٣ م) . وبعد هذه الاشارة القصيرة إلى اصالة الروح القصصية فى الادب الفارسى ينبغى أن أذكر أن هذه الحكايات التى كانت ترصع الكتب قد بقيت جامدة فى قوالبها بل اتسمت فى أغلب الاحيان بالتكرار والتفصيلات المملة والاحالة والبعد عن الأصالة .

القصة فى الادب الفارسى المعاصر :

ليس المقصود بالقصة الفارسية المعاصرة أن هناك قصصا بالمعنى المعاصر نشأ فى ايران واعتمد على تراث العصور السابقة للأدب الفارسى ، وإنما المقصود القصة الاوربية بهيكلها واهتماماتها والميادين التى تطرقها ؛ تلك القصة التى فرضت نفسها – عن أصاله – على جميع الآداب العالمية . وقد أدت عوامل عدة تشبه العوامل التى أدت إلى النهضة الادبية إلى حركة بعث الشعر العربى فى مصر إلى نهضة النثر الفارسى فى أواخر القرن الماضى . فقد وجد فى ايران ناصر الدين شاه

---

(١) ترجمة إلى العربية : محمد موسى هنداوى – جـ ١ ١٩٥٤ جـ ٢ سنة ١٩٦١ .

(٢) ترجم المرحوم محمد عبد السلام كفافى جزاين منه إلى العربية ولم يسعفه الاجل لاتمامه – بيروت سنة ١٩٦٦ .

(٣) انظر : عبد النعيم حسنين : نطاى الكنجوى : شاعر الفضيلة – القاهرة سنة ١٩٥٤ .

القاجارى (١٨٤٨ - ١٨٩٦ م) وتوفرت له طبيعة الثراء ، أخذ فى اشباعها برحلات عديدة إلى أوربا ، فتأثر بالحياة الاوربية وتحمس لتمثلها فى بلده ، وكان لظهور المطبعة قبل ذلك بفترة (١٨٢٤ م) أثر كبير فى بعث التراث القديم ونشره وتداوله بين الناس ، كما كان لاكتشاف الآثار القديمة أثر كبير فى اذكاء الروح القومية فى الشعب وفى أدبائه . أما الذى لعب الدور الاكبر فى حركة الاحياء الادبى هذه فهو قيام حركة الترجمة ، فقد أخرجت المطابع ترجمات لكتب اسكندر دوماس الكبير وغيره من الكتاب الاوربيين .(١)

وقد ظهرت بوادر النهضة الادبية حين كتب ميرزا فتح على آخوندوف فى مدينة تفليس عدة مسرحيات باللغة التركية قلد فيها موليير وجوجول ، وترجم ميرزا جعفر قراجه داغى سبع مسرحيات منها إلى اللغة الفارسية ونشرت ما بين عامى ١٢٨٨ و ١٢٩١ هـ فى طهران ، وقد أثرت هذه المسرحيات تأثيرا مباشرا فى الادب الفارسى فى تلك الفترة ، كما كان لكتاب حاجى بابا الاصفهانى الذى كتبه جيمس موريه وترجمه اسماعيل الطهرانى أثر كبير(٢) ، والجدير بالذكر أن جرجى زيدان كان يكتب فى أعقاب تلك الفترة سلسلة روايات الاسلام ، وقام بترجمة بعضها إلى الفارسية عبد الحسين ميرزا قاجار ، فكانت ذات أثر عظيم فى ازدياد حركة تأليف الروايات التاريخية التى حمل لواءها محمد باقر خسروى والشيخ موسى نثرى وحسن بديع وصنعتزاده الكرمانى وآخرون . (٣)

---

(١) Kamshad, Modern Persian Prose Literature, pp. 9-13, Camb. 1966.

(٢) لمعلومات أكثر اتساعا عن حركة الترجمة أنظر
Kamshad, Modern Persian Prose Literature, pp. 27-29.

(٣) Ibid., pp. 41-51.

وكان من نتيجة حركة الترجمة والتوسع الذى بلغته الصحافة واعتمادها فى رواجها على القصص المترجمة ، والقصص التى كان يكتبها كتاب فترة الانتقال أمثال مشفق كاظمى وربيع الانصارى وجها نكير جليلى ومحمد مسعود وعلى دشتى ومحمد حجازى ، كان من نتيجة ذلك أن راجت القصة بمعناها المعاصر فى ايران . وكان أوائل من حملوا لواء القصة الايرانية المعاصرة كثيرون منهم صادق هدايت ومحمد على جمالزاده وبزرج علوى وصادق جوبك وجلال آل أحمد ، ولكن صادق هدايت - باجماع نقاد ايران (وأوربا) - ينفرد من بينهم بمقام الاستاذية ، وبأنه يعد بحق خالق القصة الايرانية المعاصرة .

صادق هدايـت :

(ا) حياتـه :

يقول صادق هدايت عن نفسه « ... مهما يكن فليس فى تاريخ حياتى ما يلفت النظر ، لم يحدث فيها ما هو جدير بالانتباه ليس لى منصب هام ، ولا أنا من حملة الشهادات العظيمة ، لم أكن ابدا طالبا بارزا ، على عكس ذلك كان نصيبى دائما هو عدم التوفيق ، ومهما كنت أعمل كنت أبقى خاملا ورؤسائى غير راضين عنى ، ربما لو استقلت لرضوا »[1] . ومع ذلك فبعد انتحار صادق هدايت الفجائى فى باريس سنة ١٩٥١ ، وجد هذا الرجل الذى لم يكن يرى فى نفسه أية أهمية الكثيرين الذين أخذوا يجمعون أعماله ويقيمونها على ضوء جديد .

ولد صادق هدايت فى السابع عشر من فبراير سنة ١٩٠٣ م (بالتقويم الايرانى ٢٨ بهمن سنة ١٢٨١ هـ . ش) فى مدينة طهران

---

(١) عن مقدمة الترجمة الروسية لمنتخبات آثار صادق هدايت . ترجمها كميسروف وروزن فيلد . وترجم المقدمة إلى الفارسية حسن قائميان – ونشرها ضمن مقالات المستشرقين عن صادق هدايت تحت عنوان :

« نظريات نويسند كان بزركك خارجى درباره صادق هدايت » ص ٢٧٧ طهران سنة ١٣٤٣ هـ : ش .

لأسرة من الطبقة الارستقراطية، وجده لأبيه رضا قلى هدايت المؤلف المشهور الذى عاش فى القرن التاسع عشر . ولا يذكر شيء عن حياة صادق هدايت المبكرة اللهم الا ما يقال أنه كان منذ صغره غير راض عن حياته الارستقراطية ، تواقا إلى الانفصال عن أسرته ، بالرغم من أنه كان يستطيع أن يصل إلى النفوذ الثروة عن طريقها لو أراد .

أنهى صادق هدايت تعليمه الثانوى فى المدرسة الفرنسية بطهران سنة ١٩٢٥ ، ثم أوفد إلى بلجيكا للتخصص فى هندسة الطرق ، ومنها إنتقل فى السنة التالية مع جمع من زملائه لمواصلة الدراسة فى الكلية المعمارية بفرنسا . ولكن هدايت سرعان ما أدرك أن ميوله أدبية صرفة فترك الهندسة ، ولم يتم تعليمه العالى . كان يتقن اللغة الفرنسية ، كما كان يستطيع الاستعانة باللغتين الانجليزية والعربية ، ومن ثم فقد صرف كل قواه إلى مطالعة الأدب وعلم اللسان والتاريخ والفنون .

لم يكن العمل الادارى ملائما لطبعه ، وكان يأخذ من وقته الكثير ، ولم يكن أمامه سبيل آخر لكسب العيش . وبعد أن عاد من باريس سنة ١٩٣٠ دخل هدايت فى خدمة البنك الايرانى ، وبعد ذلك بقليل انتقل إلى الادارة العامة للتجارة ، ثم فى شركة للانشاءات ، وفى سنة ١٩٣٧ انتقل إلى ادارة الموسيقى الشعبية ، واشترك فى اصدار مجلة الموسيقى ، وفى النهاية عمل مترجما فى كلية الفنون الجميلة وبقى فيها حتى سفره إلى باريس (سنة ١٩٥٠) ذلك السفر الذى لم يعد منه .(١)

---

(١) لمعلومات أكثر تفصيلا عن حياة وأعمال صادق هدايت انظر :
A. Kamshad, Modern Persian Literature, pp. 137-202.
(ب) كتاب حسن قائميان سالف الذكر .
(جـ) عقايد وأفكار درباره صادق هدايت بس از مرگش . طهران ١٣٤٦ هـ . ش .

وأهم ما يلاحظ فى حياة هدايت أنه كان يعيش فى عسر مادى ، ولم يجد بدا من اصدار اعمال ونشرها فى نسخ محدودة العدد ، فأول طبعة لشامخته «البومة العمياء» كانت من مائة وخمسين نسخة ، ومسرحية « اسطورة الخليقة » نشر منها مائة نسخة وخمس ، وبالرغم من أن محبى العلم والادب قد عرضوا عليه مساعداتهم المالية إلا أنه رفض ، إذ رأى أن ذلك لا يتناسب ورغبته فى أن تنشر أعماله فى أضيق نطاق .(١) .

(ب) نشاطه الفكرى والقومى :

حينما عاد هدايت من باريس سنة ١٩٣٠ تعرف على ثلاثة من الكتاب هم بزرج علوى ومجتبى مينوى ومسعود فرزاد ، وحينما التقى هؤلاء الادباء الاربعة أخذوا يتباحثون فى مشكلات الادب والفكر والفن ، ولما ازدادت الصلة بينهم كونوا جماعة أدبية عرفت باسم « ربعة » نسبة إليهم ، ولم تلبث هذه الجماعة أن توسعت وانضم إليها اعضاء جدد مثل عبد الحسين نوشين وبرويز ناتل خانلرى ومعين باشيان وغيرهم .

يقول مجتبى مينوى بشأن الاصول الفكرية لهدايت وجماعته الادبية : « كنا نكافح باصرار ونجاهد من أجل الحصول على حريتنا ، وكان هدايت هو مركز دائرتنا ، كانت لكل منا شخصيته ، وتجمعنا على حب الفنون ، كما كان بيننا أوجه شبه فى كثير من الجوانب ، أما اجتماعاتنا فكانت تتم فى المقاهى والمطاعم – وأحب أن لا تعتبروا ما أقول من قبيل المجاهرة بالفسق – فاننا كنا فى بعض الأحيان نشرب

---

(١) كتاب حسن قائميان السالف الذكر ص ٢٣٢ (من مقال كميسروف عن هدايت) .

مشروبات أقوى من الماء ، ثم تعلو اصواتنا بالاحاديث العنيفة والانتقادات المرة ، وكثيرا ما اتفق ان كنا - من أجل ذلك - عرضه للوم الآخرين ونفورهم ، أما مقاومتهم لنا فلم تتعد أن يمنعنا موظفو الحكومة من لعب الشطرنج ، أو أن يرسلوا فى اثرنا من يراقبنا أينما ذهبنا »[1] .

وقد صادفت عودة هدايت أياماً عصيبة فى تاريخ وطنه ، فبين عامى سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٠ كانت البطالة والفقر والفاقة وكل هذه الآفات تقضى تدريجيا على شعب ايران ، وأقل اعتراض كان يخمد بقسوة ، وكانت عمليات الارهاب التى توجه ضد المكافحين بالقلم تكاد تخنق اصوات الناس والكتاب ، ولم يساير هدايت الظلم والضغط والاضطهاد ، ومن أجل أن يتحرر من ذل « التقوقع بين حوائط أربعة » أو يعمد إلى الحديث عن « مقبرة الحياة والافكار » سافر إلى الهند سنة ١٩٣٦ ، ولم تتيسر له اقامة طويلة هناك لما كان يعانيه من ضيق مالى ، كما لم يرد أن يسيء الاستفادة من كرم الضيافة الذى يسره له اصدقاؤه هناك فعاد إلى طهران بعد عام واحد ، وحتى ذلك الوقت لم يكن يستطيع أن ينشر عملا واحدا من أعماله فى طهران .

ولما ازدادت الامور تعقيدا بعد مهزلة محاكمة اكثر من خمسين كاتبا دون تهمة واضحة ، ومع ازدياد القسوة والارهاب لم يكن هدايت قد فقد الامل فى الحرية . كتب برزج علوى فى مقالة عن هدايت « كان هدايت رجل مقاومة ومبارزة ، ويعلم اصدقاؤه المقربون ، أنه فى ايام الشدة حين تغلبت قوى أهريمن (اله الظلام) ، كان يكافح فى حماسة

(١) عن مقدمة كميسروف وروزن فيلد : فى كتاب قائميان السالف الذكر ٢٧٢ - ٢٧٣ .

KMH

وايثار من أجل تسكين آلام المطالبين بالحرية ، زاجا بنفسه إلى التهلكة »[٢] .

فى هذه الايام العصيبة التى بلغت عشر سنوات صرف هدايت كفاحه الفكرى إلى النقد الادبى ، ومن خلاله اظهر آراءه ، كما اظهر قربه الشديد من الشعب وفهمه الدقيق للنصوص الفارسية ، وفى عام ١٩٤٢ أصدر « أنغام الخيام : ترانه هاى خيام » مع مقدمة تحتوى على حياة الشاعر وآثاره ، كما أبرز نظرية الحاد الشاعر ، وأفاض على الخصوص فى الحديث عن جرأة الشاعر فى افشاء مفاسد مجتمعه ، وكأنما كان بطريق خفى يسر من شكه والحاده ، ويؤيده فيما يذهب إليه من أن :

لو علم الذين لم يولدوا بعد ما نلاقيه .
من الدهر ما أتوا ابدا .

أما مقاله « بضع نقاط بشأن ويس ورامين » فهو بحيث فيما وراء هذه القصة القديمة من معان قومية .

واستطاع هدايت حين أخذ فى جمع الفنون الشعبية وتحقيقها أن يلفت الانظار إليها . وقد نشر سنة ١٩٣١ مجموعة صغيرة تحتوى على أشعار وأغان وألغاز وألعاب شعبية تحت عنوان « أسطورة : أفسانه » وقد أشار فى هذا الكتيب إلى أن « القاعدة الشعرية عند عامة الناس لم تترك بعد طريقة ما قبل الاسلام » ونبه هدايت إلى أهمية الفنون الشعبية ، فنشرت دراسات شعبية عديدة فى مجلة « سخن » وتعاون معه فى ذلك كثير من الكتاب من أعضاء جماعة « ربعة » .

ونتيجة للدراسات الجدية التى قام بها هدايت فى اللغة الايرانية القديمة « الفهلوية » أثناء وجوده فى الهند ، نشر فى عام ١٩٣٦ بضع

مقالات فى علم اللسان ، وأصدر عام ١٩٣٩ من كتاب صغير هو « اللعنة الخالدة : كجسته اباليش » من اللغة الفهلوية إلى اللغة الفارسية ، وفى نفس العام أصدر أصعب كتبه فى هذا الميدان ، وهو تحقيق لنص من أعظم نصوص الأدب الفارسى الوسيط (الفهلوى) وأكثرها تفصيلا تحت عنوان « كتاب أعمال اردشير بابكان : كارنامه اردشير بابكان » ، وبعد ذلك نشر هدايت الترجمة الفارسية لكتاب « سيرة قاهر الخيال كزارش كمان شكن » من المتن الذى حققه الدكتور وست وترجمه إلى الانجليزية ، ثم نشر عام ١٩٤٣ الترجمة الفارسية لكتاب « تذكار جاماسب يادكار جاماسب » المشتمل على بعض النقاط الدينية الخاصة بايران القديمة ، وبعد عام نشر السفر الخاص ببهمن فى الاوستا (بهمن يشت) .

كل هذه الاعمال عمقت شعور هدايت بقوميته . وفى عام ١٩٤٠ بدأت مناقشات الطبقة الايرانية المثقفة من أجل اصلاح الابجدية الايرانية المأخوذة من العربية وكتب هدايت مقالا مفصلا بعنوان الخط البهلوى والأبجدية الصوتية ، يشرح فيه ويحلل بالتفصيل خط الاوستا والخط الفهلوى ، وفى نهاية المقال المذكور اعتبر تغيير الخط الفارسى الموجود حاليا أمرا لازما ، واقترح الأخذ بالابجدية اللاتينية مع مراعاة الاستفادة من أصول علم الاصوات ، وفى المقال وجه هدايت انتباه المهتمين بالامر إلى تجربة الاصلاحات الخطية التى تحققت فى الجمهوريات السوفيتية فى آسيا الوسطى وآذربيجان .

وهناك كتابات كثيرة لهدايت تتعلق بالانسانيات والفنون الايرانية منها مقاله « الفن الايرانى فى غرفة الميداليات » ، أما كتابه « موطن السحر أو الشعوذة : نيرنكستان » فقد وضعه هدايت عن عقائد الايرانيين الشعبية وأمثالهم وعاداتهم ، كما وضع كتاباً آخر تحت عنوان

اصفهان نصف العالم : اصفهان نصف جهان » تناول فيه بالتحليل وضع اصفهان الطبيعى وآثارها وأخبار الناس فيها .[1]

وقد ساعد تحسن الوضع السياسى بين عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٥ على ازدهار فنون عديدة عند عدد من الكتاب الايرانيين الموهوبين ، واستطاعت هذه الفترة أن تبرز استعدادات هدايت بدرجة كافية . فى تلك الفترة كان هدايت من أعظم المناضلين الاجتماعيين نضجاً ، وكان يعرف وجهته دائماً ... الشعب الكادح التواق إلى مستقبل حر ، ومنذ عام ١٩٤٢ أصدر قصصا وروايات نشر فيها على الملأ المفاسد الاجتماعية للشعب الايرانى ، وبالرغم من أن العلاقات الايرانية السوفيتية لم يمكن دائما على ما يرام ، كان هدايت ينظر دائماً إلى حرية الفكر وقدسيته وأصالته ونبوغه من الشعب أولا وأخيرا ، فاشترك فى إتمام أعمال جمعية العلاقات العلمية بين ايران وروسيا ، ونشر بعض مؤلفاته وترجماته فى مجلة « بيام نو : الرسالة الجديدة » اللسان الرسمى للجمعية ، ثم قبل هدايت سنة ١٩٤٤ برضا الدعوة للاشتراك فى احتفالات العيد الخمسينى لانشاء جامعة طشقند ، وبعد أن أقام شهرين فى أزبكستان أظهر اعجابه الشديد بتقدم الفنون والعلوم والآداب فى جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية ، وفى سنة ١٩٤٦ اشترط هدايت اشتراكا جديا فى أعمال مؤتمر للكتاب الايرانيين الذى عقد تحت شعار « الكفاح فى سبيل آداب جديدة راقية » وكان أحد أعضاء الهيئة التى انتخبت رئيس المؤتمر ، ولاول مرة اجتمعت أكثر القوى الادبية الايرانية احتراما من أجل البحث فى المشاكل الاساسية

---

(١) Kamshad, pp. 141-151.

المتعلقة بالادب الفارسي ، وباتفاق الاراء دعا جميع الادباء إلى العمل فى سبيل خدمة الشعب وتثقيفه .

ولـكـن فـتـرة الاستـقـلال هـذه لم تـطـل ، فـفـي عـامـي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ وفى أثر حوادث اذربيجان اشتد الضغط على القوى الفكرية ، وإنقلب غضب هدايت إلى يأس وحزن بعين من القلب ، فأصدر « رسالة كافكا » وينظر بعض النقاد إلى هذا العمل كاعلان عن عودة الكاتب إلى يأسه القديم ، كما يرى آخرون أنه صدر ضد المتجمهرين الـذين نظموا نهضة اليسار فى ايران ، وحين هب الشعب الايرانى ثائرا من أجل السلام والحرية كان هدايت فى المعمعة بقلبه وروحه . ولكنه بسبب مـشـكلات العمل الادارى لم يستطع أن يستجيب لجوليو كورى للاشتراك فى أول مـوتـمـر عالمى للسلام وكتبه إليه « لقد حول الاستعمار يون وطننا إلى سجن كبير، فالكلام جرم، والتفكير السليم جرم، وأنا أحبذ مجهودكم من أجل الدفاع عن السلام » .

(جـ) هدايت والثقافة الأوربية :

يرى الناقد الفرنسي باستور فاليرى رادو أنه عند قراءة هدايت ترد إلى الذهن ثلاثة أسماء : ديستيوفسكى وادجار ألن بو وكافكا ، وهذا الأخير يحتاج إلى وقفة خاصة .[1]

والواقع أن هدايت قام بالترجمة من تيارات متعددة إلى اللغة الفارسية ، وكان أول مترجم لأعمال تشيكوف إلى اللغة الفارسية ، ونشر ترجمات لبعض قصصة سنة ١٩٣٢ و سنة ١٩٣٤ ، ولكن

(١) ترجمت المقالة فى كتاب حسن قائميان – وانظر ص ١٣٤ .

ترجماته لكافكا كانت كثيرة فقد ترجم له المسخ والمحاكمة ونشر سنة ١٩٤٨ رسالة كافكا التى يؤيده فيها فى رفضه للحياة . ومن المسلم به أيضاً أن هدايت كان من أشد المعجبين بجان بول سارتر ، وكان لا يفتأ يكرر اعجابه بكتابة الغثيان ، كما قام بترجمة قصة الحائط إلى اللغة الفارسية . ويخيل للقارىء أن بعض عبارات هدايت منقولة من أعمال سارتر مثل « الظلام .. هذه المادة الغليظة السائلة التى تلوث كل مكان وكل شيء » ثم : ألا ترمز جهنم فى رواية البومة العمياء لهدايت وذلك الرجل الذى حبس نفسه بين جدران حجرته الأربعة ... ألا يذكرنا ذلك بجحيم سارتر ؟ » .

ويقارن الاستاذ هنرى ماسيه[1] بين هدايت والكاتب الفرنسى جيراردى نرفال ، فكل الاحساسات التى عرفت عن دى نرفال عرفت عن هدايت ايضا ، والتشابه الذى تراه بين آثارهما يرجع إلى التشابه الذى يرى فى حياتيهما الخاصة ، فالتشابه بين أعمال هدايت ودى نرفال لا يرجع إلى تأثر هدايت به ، وقد سأل روجيه ليسكو هدايت ذات مرة أثناء لقاء لهما فى طهران : هل عرفت جيراردى نرفال ؟ فأجابه : أجل ولكن معرفتى له للاسف كانت متأخرة جدا .

وعلى كل حال كان هدايت يعتبر الترجمة جانبا من نشاطاته الفنية ، ولذلك تميزت ترجماته بالفصاحة وجمال اللفظ ، يدل على ذلك المستشرق كريستنسن كتب – بخلاف أعماله العلمية وتحقيقاته الضخمة – مجموعة من القصص الايرانية باللغة الفرنسية ، ثم أرسلها إلى هيئة تحرير مجلة « سخن » طالبا أن يترجمها هدايت إلى اللغة

---

(١) من خطبه قالها فى الذكرى الرابعة لصادق هدايت فى باريس – انظر حسن قائميان نظريات ... ص ١٤٥ – ص ١٤٦ .

الفارسية ، وترجم هدايت بعضها بمقدمات وتوضيحات .[1] وقد كان هدايت مزيجا من الثقافة الايرانية القديمة والثقافة الايرانية الاسلامية فإلى جانب دراسته عن الخيام ، تتناثر فى قصصه الكثيرة أشعار فارسية وحكم وأمثال وجمل مأخوذه من كتب التراث وخير مثال على ذلك قصته « الرجل الذى قتل نفسه » يضاف إلى ذلك أن خلفيات قصصه تحتوى مشكلات كثيرة قتلت بحثاً من خلال الفلسفة الاسلامية كالجبر والاختيار وغير ذلك .

(د) نشاطه الأدبى :

يقسم المستشرق الروسى كميسروف أعمال هدايت الأدبية المائة التى كتبها خلال اثنتين وعشرين سنة إلى فترتين ... الفترة الاولى من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٤١ ، والثانية من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٥٠ .[2]

ظهرت أولى قصص هدايت سنة ١٩٢٩ فى باريس وعنوانها « حى فى مقبرة : زنده بكور » ثم نشرها فى نفس العام مع مجموعة من القصص كتبها ايضا فى باريس وتحمل المجموعة عنوان القصة الاولى . وفى سنة ١٩٣١ أخرج « ظل المغول : سايه مغول » فى مجموعة « أنيران » . وفى سنة ١٩٣٢ اصدر مجموعة بعنوان « ثلاث قطرات من الدم : سه قطره خون » وتشتمل على احدى عشرة قصة ، وفى سنة ١٩٣٣ اصدر هدايت قصة « علوية هانم » وهى

---

(١) من مقال كميسروف المترجم إلى الفارسية فى كتاب قائميان – ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣ .
من مقال كميسروف المترجم إلى الفارسية فى كتاب قائميان ص ٢٤٣ .

مليئة بالاوصاف العامية والحوار الشعبى ، وفى العام نفسه أصدر مجموعة « الظل المضىء : سايه روشن » وهى تحتوى على سبع قصص . والقيمة الفنية لقصص المجموعات الثلاثة ليست على مستوى واحد . وفى سنة ١٩٣٤ نشر فى طهران كتاب صغير نسبياً بعنوان ساخر هو « كتاب مستطاب وغ وغ ساهاب » ولم يذكر اسم المؤلف ، ومع ذلك فسرعان ما عرف أن هذا الكتاب الممتلىء بالهجاء الساخر للمحققين والعلماء والمترجمين والممثلين الكتاب والناشرين وباعة الكتب فى ذلك الزمان ليس إلا من نتاج قلم صادق هدايت ومسعود فرزاد . وقد حازت راوية « البومة العمياء » التى صدرت أول طبعة لها فى بمباى سنة ١٩٣٦ نجاحا كبيرا ، أما الطبعة التالية فلم تظهر فى طهران إلا سنة ١٩٤١ .

وأثناء اقامته فى بومباى كتب هدايت قصتين بالفرنسية هما الدوران والهذيان ، وقد ذكر فنسان مونتيه أن القصة الثانية نشرت فى العدد الثانى من « جورنال دى طهران » ولكن هيئة تحرير الجريدة تصرفت فى النص بما لم يرض المؤلف فطلب منها الا تنشر له العمل الآخر . ثم أنه نشر العملين مع ترجمتها الفارسية سنة ١٩٥٤ فى مجموعة صغيرة من أعمال هدايت تحت عنوان عام هو « بروين بنت ساسان : بروين دختر ساسان » .

ويبدو تأثير آداب أوروبا الغربية واضحا فى فن صادق هدايت فى فترته الاولى هذه . ويبدو هذا التأثير بوضوح فى مجموعته الظل المضىء وبخاصة فى قصته « الأراجوز: عروسك ست برده » ، وفى قصة أخرى فى المجموعة نفسا هى « الخليقة : آفرينكان » حيث تقع الحادثة فى العالم الآخر ، إذ تتناجى أزواح الموتى عن الحياة على وجه

الأرض وفى علل ظهورها فى الحياة الاخرى . وهناك قصص لهدايت تشمل انعكاسات عن الوضع غير المستقر للروح ، يصفها دائما بأنها مختلطة بالفقر والثورة والمرض ، وفى هذه الفترة الفياضة بالنشاط الفنى نجد الميل إلى الواقع عند هدايت واضحا ومشهودا - وفى مجموعاته قصص تصف بصدق كامل بعض الابطال الايرانيين وهم يصدمون ببعض نتائج الفساد الاجتماعى السائد مثل قصة « المرأة التى فقدت زوجها من مجموعة الظل المضىء وطلب الغفران والمحلل من مجموعة « ثلاث قطرات من الدم » .

أما عن وجهة نظر هدايت فى التعبير عن الحياة فى أدبه فى تلك الفترة فقد اختلف فيه النقاد اختلافا كبيرا ، فالنقاد الفرنسيون يرون أن هدايت كان يبث اليأس فى قرائه ، ويروج للتشاؤم وفقدان الامل ، ويحتجون على ذلك بقصته حى فى مقبرة وروايته البومة العمياء ، أما حى فى مقبرة فموضوعها مخلوق يائس فقد الامل فى الحياة ، بل أن نفسه ميتة وان كان جسده حيا صامداً وتتردد فى قصص هدايت تعبيرات السخط والرفض والعبث وعدم جدوى الحياة . وفى « حى فى مقبرة » يموت البطل منتحرا بالغاز . وبينما رأى النقاد الفرنسيون أن هذه القصة توحى بالتشاؤم والرفض ، رفض كميسروف هذا الرأى كلية[1] ، وبالرغم من أن هذا هو الانطباع الذى يخرج به أى قارىء عادى من القصة ، كما يرى أن هذين العملين لا يمثلان أعمال الكاتب بشكل كامل ، وأن النقاد لم يلتفتوا إلى جزئياتها التى تظهر أشياء خفية عن أبطالها . وتبدأ قصة حى فى مقبرة بالجمل الآتية « سقطت فى الفراش مشلولا بلا ارادة وأنا بالتقط أنفاسى ببطء ، والدموع تقطر من

---

(١) مقال كميسروف ص ٢٤٦ وما بعدها .

عينى ، وفمى ذو طعم مر ، رأسى تؤلمنى وجسدى مريض منهار ... كانت أنفاسى كأنها من فتحة أبرة محقن ..... » هذا الموجود اليائس يبحث عن الموت لأنه يرى فيه الخلاص من آلامه وعذابه ، فهو يعذب نفسه ويهم بتناول السم ، ولكن الموت لا يستطيع أن يحد من قدراته ، وحينما يضيق البطل بعذابه يصيح « تذكرت أنهم يشعلون النار حول العقرب فتنتحر وتلدغ نفسها ! أليست حولى حلقة من نار ؟ » ان الحادثة تقص بضمير المتكلم ، ومن هنا ظن كل النقاد إلى حد ما أنها سيرة ذاتية للمؤلف ، وفهموا أنها مأساة فردية تخصه ، ومع ذلك فهذا الفرض ممكن وناشىء من أن المؤلف كان يخشى من الرقابة على أعماله - ولكن بالنظر إلى النسق الذى جرى به الوصف فى القصة فإن الفرض لايستقيم ، فليس صحيحا أنها مغرقة فى الفردية ، أنها تصور وضعا كامل الواقعية بين الحقيقة ، أما صوت الرفض واليأس فى هذه القصة ، فيشبه اعتراضا أساسيا على قبول الحياة المليئة بالمتاعب . هذا الحى فى مقبرة لا يستطيع أن يتعايش مع الظلم والجور وفى وجوده يتمثل صراع الخير والشر والحياة والموت ، وأحيانا يتنبه إلى ضعف إرادته وجبنه ، ويلوم نفسه بسبب ذلك ، ويطرح مشروعات أخرى من أجل حياة جديدة ، ويأمل فى حياة طيبة بل سامية ، ثم يصف نفسه بصفة البطل اسفنديار فى شاهنامة الفردوسى ... روئين تن أى المعدنى الجسم ، ولكن فرصة الحياة الحرة والخلق الفنى والرضا عن مجال الطبيعة لا تتيسر له ، فيقتل كل ماهو طيب وحى فى نفسه ويتحول إلى ميت حى .

ومهما دافع كميسروف عن هدف القصة ، فإنه لا يمكن تجاهل روح التشاؤم المبثوثة خلال كل أعمال هدايت خاصة فى هذه الفترة ، فالحياة عنده شىء تافه ، وأكثر أبطال قصصه انهزاميون هاربون ،

وتتكرر صورة الهروب فى قصصه لاله ... والاقنعة والدوامة وظل المغول والمحلل وصراع ، الحياة عند هدايت مخزن الفشل ، وهى تدخر من فشلها للجميع ، وجميع أبطالها يصارعون ويفشلون وفى النهاية تصيبهم خيبة أمل واحدة ، فينهارون ويتشردون أو يودعون الحياة منتحرين فى الغالب ، وحينما تحدث الثورة فى قصصه تكون كأنها فقاعة لا تلبث أن تزول . وأوضح المظاهر لهذه النزعة التشاؤمية الحادة غرامه بذكر الموت ، وتلذذه به ، وبطل قصته حى فى مقبرة جاء إلى الدنيا وعنه استعداد فطرى للموت فيصرخ : « ليس هناك شخص يكتسب التصميم على الانتحار ، ان الانتحار عند بعض الاشخاص وجود ، فى أصلهم ، فى طبيعتهم ، انهم لا يستطيعون الهرب من بين يديه ، أنه القدر الذى يحكم ... » وفى قصته القلعة الملعونة يقول البطل « كلنا فرادى .. لا ينبغى أن نخادع ، الحياة سجن ، بل سجون مختلفة ، ولكن بعضنا يحاول أن ينقش نقوشا على جدران هذا السجن وبذا يوجد لنفسه نوعا من الألفة معه ، والبعض يحاول أن يهرب فيجرح يده بلا فائدة ، والبعض يجعلون منها مأتما ... ولكن لب الامر أنه يجب أن نخدع أنفسنا ... يجب أن نخدع أنفسنا ولكن ثمة وقت يمل فيه الانسان من خداع نفسه » ... وحتى الموت لا يحمل لذة فى ثناياه ، بل العدم الكامل ... هكذا يرى فى قصته الخليقة ، ففى الاعراف حيث تتجمع الأرواح وتتناقش ، تكتشف ألا ثواب هناك ولا عقاب ، وأن الروح هى الاخرى تموت .

لا ضير على هدايت فى أن يتشاءم ، وليس من حق أى ناقد أن يدافع عنه ، وكان التشاؤم تهمة يعاب عليها ، أنه موقف من الحياة مثل كل المواقف الاخرى التى يتخذها غيره . وقد استطاع هدايت أن يقيم

الفترة الثانية من حياته الادبية على اساس ساخر وهادىء غير مهتم بالتجريدات ، بل ناظر إلى عيوب المجتمع .

فى الفترة الثانية لقصة هدايت ميل إلى الواقعية ، فالمشاكل الاجتماعية الصارخة والصراعات المرتبطة بالناس والوطن كانت دعائم تيار القصة الواقعية فى ذلك العصر ، وساعد تغير الحالة السياسية فى ايران فى تلك الآونة على نمو هذا التيار عند هدايت الذى كان ينفعل جيدا من الجماهير ويستمد أعماله منهم .

أصدر هدايت مجموعة قصصه تحت عنوان « الكلب الشريد : سك ولكرد » سنة ١٩٤٣ ، وأثناء اشتداد أوار الحرب العالمية الثانية اصدر سنة ١٩٤٤ مجموعة « نظرة ساخرة : ولنكارى » وفيها قصص مليئة بالرموز مثيرة للتفكير ، عبر فيها عن ميادين الحياة اليومية مع نقد للطبقة البورجوازية وهجوم على النظم الجديدة التى أخذ وطنه ينفعل بها ، وفى قصته « ماء الحياة : آب زندكى » أظهر هدايت ميله إلى القوى التقدمية التى كانت فى صراع دموى مع القوى الفاشية والنازية وفى سنة ١٩٤٥ أصدر هدايت رواية « حاجى آقا » وهى من حيث الحجم اضخم أعماله ، وفى خلالها يهاجم هدايت الرجعية الايرانية ممثلة فى شخصية تاجر من الطراز القديم جاهل ومستغل . ومن أجل أن يظهر للعالم الحياة القاسية التى يعيشها العمال فى ايران كتب قصته « غدا : فردا » .

أما العمل الذى نشر بعد وفاة هدايت فاسمه « مدفع اللؤلؤ: توب مرواريد » وفيه يسخر هدايت سخرية واضحة من الاستعمار والرأسمالية وأذنابهما ، ومن المعروف أن هدايت أحرق قبل موته كتاباته التى لم تنشر ، ومن المعروف ايضا أن بعض هذه الكتابات

وبعض خطاباته موجودة عند اقاربه وبعض اصدقائه ، ومحققو الادب الفارسى المعاصر ليسوا يائسين تماما من العثور عليها ، وبعضها نشر بالفعل ، وهم يعلقون أهمية عظمى على نشر تراث هدايت كله من أجل التعريف الموضوعى الكامل بأعماله .

والملاحظ فى كل انتاج هذه الفترة ، أن هدايت كان قد اختار الجانب الذى يقف على جواره ، وهو ليس بحال من الاحوال جانب المنتفعين من السيطرة الاجنبية والاسرة الحاكمة ، وإنما جانب الشعب الكادح فى الحقل وفى المصنع ، ساعد على ذلك قوة حساساته الوطنية ، ويبدو أنه كان يريد أن يقلل من شعور مواطنيه بالذل عن طريق الدفاع عن تاريخ وطنه وأمجاده .

ومسرحيتاه « بروين بنت ساسان » و « مازيار » حافلتان بالمشاعر الوطنية ، وبالرغم من أن احداثهما من الماضى ؛ إلا أن مضمونها من الحاضر ، فالمحتوى الاصلى لهما هوصراع الايرانيين ضد الغزاة الاجانب والتضحيات التى قدمها شباب ايران فى سبيل ذلك ، وإلى جوار ذلك نجده يهاجم النعرة الوطنية الكاذبة وقصة « الوطنى : ميهن برست » هجوم على الوطنية الكاذبة والتظاهر المختلط بالرياء وحدة الانفعال والزيف والجهل والادعاء ... وكل ذلك كان رائجا فى ايران فى الثلاثينات . وفى خط واحد مع مشاعره الوطنية يسير حقده على الاستعمار وفى « حمار الدجال : خر دجال » يصف هدايت طبقة الاعيان تحت اسماء الحمير والذئاب والخراف ، فعندهم سيان أن يعملوا من أجل أى شخص بشرط ألا يفرطوا فى « مرعى يرعون فيه » ، وفيها اشارات واضحة إلى عملاء الانجليز والى القواد الذين يقفون معهم ، وكان يهاجم بلا هوادة المطامع الامريكية فى ايران ،

وفى قصته « غدا » تحدث الكاتب على لسان عامل من عمال المصانع عن السياسة الاستعمارية ، وعن سيادة أصحاب رؤوس الاموال ، ويقص كيف أن جنديا أجنبيا ثمل وخطف امرأة ايرانية ، ولم يتدخل أحد من السلطات العسكرية لانقاذ المرأة ، وحينما ينهض عامل لحماية المرأة جره الجنود الاجانب إلى مكان بعيد ولم يتركوه إلا نصف ميت ، والقوا به فى السجن ثلاثة شهور بحكمهم ايضا ، أفلا ترمز المرأة هنا إلى ايران ! ؟ .[1]

ومن أجل تصوير احساسات هدايت بالنسبة للاستعمار يمكن الاستفادة من عمله الأخير « مدفع اللؤلؤ » كتب : تحرك القبطان كولمبس من أجل فتح اراضى جديدة ، وفى هذه الرحلة الصعبة بذل جهودا مضنية فى الوصول إلى اليابسة ، ونفذت ذخائره وتموىناته ، ولما لم يبد أثر للساحل داخله اليأس ، وأبدى استعداده لصرف النظر عن تصميمه ، على أن يبقى حيا . وفجأة بدا له ساحل ، ورأى القبطان الوطنيين يرقصون ويغنون حول مدفع شمخ إلى الافلاك ، وعلى غير انتظار زمجر المدفع ... ثم توالت طلقاته ، وأسقط كل البحارة الذين فى السفينة وتلاعب الموج بهم جميعاً ، وخاف كولمبس حتى الموت ، وأفهم كل من معه أن هذه هى احدى الاعيب الحرب عند العرب ، ثم أوصلهم إلى الساحل رافعين الراية البيضاء حاملين الهدايا . وخاطبهم كولمبس قائلاً : كنت مصمما على أن احدث بينكم صدعا شديدا أما وقد وصلت إلى بلد شقيق ، فأنا مستعد لتسليم نفسى بلا شرط ، وأجاب زعيم قبيلة الهنود الحمر قائلاً : ياولدى العزيز لقد اختلط عليك الامر ، فأين بلاد العرب من هنا ؟ ان هذا البلد هو كستاريكا

(١) نشرها فنسان مونتيه مع قصته الاخرى الزقاق وترجمة فرنسية لهما .
(من مطبوعات الجمعية الفرنسية الايرانية فى طهران سنة ١٩٥٢) .

من بلاد « ينكى دنيا » ، ذلك معنى أن ينكى باللغة التركية جديد ، ولما كنا لا نستطيع أن نلفظ هذه الكلمة بسهولة فقد سميناها نيكى » وليس لدينا نية سوء من ناحيتكم على الاطلاق ، فنحن نقيم احتفالا سنويا حول هذا المدفع احتجاجا على الحروب والصراعات والاستعمار والاستثمار وكل أمور الجور هذه ، وإن كنتك قد خفتم من احتفالنا ، فليس هذا تقصيرا منا ، ونطلب المعذرة من صميم قلوبنا ، وبخاصة وإنكم قد جئتم دون سابق انذار وقمتم باكتشافنا ، فنحن مسرورون جدا ولذلك نقترح أن نقيم الاحتفالات سبعة أيام بلياليها ، فهذا يدل على وحدتنا القومية ووطنيتنا . ثم قدم مقدار من الاناناس وسائر الفواكه مع كمية من الذهب والفضة كهدية اليهم . وعند رؤية المعادن النفيسة ، لمعن عينا كولمبس ، وغير من لهجته ، وأخفى الراية البيضاء قائلاً : انتم قوم متوحشون ضالون خالون من كل مظاهر التمدن والحرية ، وخلاصة الكلام أنه ما دامت الدنيا دنيا ينبغى أن تؤدوا لنا الجزية والخراج ، وسوف نولى عليكم بعض القسس المدربين ، انتم الآن أمة مغلوبة ، وستصبحون عبيدا لنا ، قد اشتريناكم بأموالنا ، وأرسل كولمبس إلى وطنه خطابا ممتلئاً بالادعاء والكذب بشأن الحروب التى قامت بينه وبين الوطنيين ، وأضاف فى النهاية : « أنهم سلموا دون قيد أو شرط ، ثم أبدى رغبته قبل كل شىء فى قتل الوطنيين حتى يجبرهم على أن يكونوا أمامه محنيى الظهور ، وأضاف « وهكذا فقد فكرت فى اقامة سجون وكراسى كهربائية ، يقوم على حراستها جنود يحملون علامة U.S.A. » .(١)

اختار هدايت فى تلك المرحلة الاشتراكية طريقا ، وفى احدى قصص مجموعته نظرة ساخرة ، يتناول هدايت شخصا قد جعل من

(١) عن مقال كميسرف السالف الذكر ص ٢٥٤ - ص ٢٥٦ .

نفسه نموذجا لأعلى الاجناس ، وصمم على اقرار نظم جديدة فى الكون ، ويقع الصراع بين قبيلتين ، وينتهى الصراع بأن تمسك قبيلة اليد اليسرى بمقاليد الامور ، أما قبيلة اليد اليمنى فلا تجد بدا من الرضوخ للتمدن والحرية والعدالة ، وقد جسم هدايت فكرة الصراع الدولى ضد الفاشية فى قصته « ماء الحياة » .

وتشيع هذه الروح الاشتراكية فى كل قصصه ، ففى قصته الاخيرة « غدا » يهاجم هدايت جامعى الثروة على حساب الكادحين ، ويصف حياة العمال الايرانيين الذين يعيشون نصف جائعين وعراة فى ظروف طبيعية قاسية ، ولا يذوقون ابدا أى نوع من أنواع الفرح والمسرة ، فامر دائما ليس فى ايديهم حتى يضعون له نهاية ، يقول مهدى زاغى أحد أبطاله « فى السنة الماضية كنت أقوم بالخدمة فى مقهى كيتى ، كان المشترون السمان ينفقون النقود التى لم يتعبوا فى كسبها ، كل ماهو جيد موقوف عليهم ، السيارات ، الشواطىء ، النساء الجميلات ، المشروبات الفخمة ، الفرش الوثيرة ، والحجرات الدافئة ، أما نحن فإذا لم نعمل يوما واحدا ، فيجب أن نلقى رؤوسنا على الأرض دون عشاء » ، ولا يريد العمال أن يتعايشوا مع هذه الاوضاع غير المحتملة ، فيقومون بالاضرابات ومظاهرات الاحتجاج ، ولكنهم يتفرقون بالحراب ، ويخاف الاشخاص الذين لا نقاء فيهم ولا ايمان لديهم ، انهم لا يريدون أن يكونوا أهدافا لصيد الصيادين ، ويجيب العامل عباس « كل ما نتداوله كلمات ، وما دمنا غير متحدين فسوف نبقى هكذا ، فى نفس الحالة » ، فى هذه الاوضاع المعقدة ينبغى أن يقاتل عمال ايران فى سبيل حقوقهم ، يصف الكاتب هذا القتال دون مواربة ، ويجاهد فى ابراز الجوانب الضعيفة فيه .

ولاشتراكية هدايت جوانب أخرى انسانية ، فهو لم يهتم بالعمال فحسب ، بل أهتم بكل طوائف الشعب ، وتناول همومهم الانسانية ، أنه يحمل القارىء إلى أفراد الشعب ، إلى أكواخهم ذات المواقد الغازية والغلايات التى يسمع منها صوت أزيز الماء ، ويطوف به فى مجالس أعراسهم « المرأة التى فقدت زوجها » ، ومسارب اسرارهم حيث السحر الدجل والشعوذة « طلب الغفران » ، ويترنم مع صغارهم بالأغانى والاهازيج الشعبية « المحلب » ، ويطوف حوارى شيراز يطلعنا على صراح الفتوات وخصوماتهم ولجاجهم « داش آكل » ، أو ينأى بنا عن المدنية ، ويقف بنا فى خان ، نستمع معه إلى مسافرين يتحدثان عن بعض الآلام التى لا يجدان لها دفعا « المحلل » ، كل هذا كما يقول روجيه ليسكو « أشبه برحلة جميلة داخل ايران » ، وهو فى كل ذلك يجسد تفكير البيئة التى يتناولها فى قصصه ، بحيث لا يشك انسان فى أنه عايش كل هذه البيئات .(١)

وهاجم هدايت بكل قوته واستعداده الفنى التعصب الدينى ، والزهد والتقوى الصادرين عن رياء ، وفى قصته « طلب الغفران » يرفع النقاب عن الفساد الباطنى للانسان ، ويصور زوار البقاع المقدسة الذين ارتكبوا أفظع الجرائم ، يزورون هذه البقاع من أجل طلب الغفران ؟ فى أحد منازل السفر تقص « عزيز آقا » لرفاقها فى السفر كيف أنها قتلت خفية كل أولاد زوجها من زوجة أخرى ، ولم تلبث أن قالت الزوجة أيضا ، تختم حديثها قائلة « لا أدرى هل غفر الله لى ذنوبى أم لا » ، أما المذنب الآخر فهو مشهدى رمضان الذى يقص كيف افاد من سفره فى قافلة بأموال شخص اختفى وأموال

---

(١) الترجمة الفارسية لمقال روجيه ليسكو عن « هدايت » - (مجلة سخن - دوره سوم) .

شخص آخر قتله بيده يقول مشهدى رمضان : « حينما تقدمت بى السن ، فكرت هذا العام فى أن هذا المال حرام ، فجئت إلى كربلاء لاطهره ، وفى نفس اليوم نفحت أحد العلماء فحلل لى ألف تومان ، ولم تمضى ساعتان حتى صارت هذه الاموال أحل لى من لبن أمى »[1] ، وهكذا يدور المؤلف بين أشخاص القصة ، وكأنه يحمل كاميرا يصور بها داخلهم ، لا شيء مستبعد ، لا شيء خيالى ، لا شيء مصطنع . ويصور هدايت فى قصته « الرجل الذى قتل نفسه » النزعة الصوفية عند مدرس من الطبقة البورجوازية يطمع فى الوصول إلى عنان السماء ، ويتخذ من زميل له أفاق مرشدا ، وفى النهاية يكتشف زيف مرشده ، فيفقد ثقته بالطريق الذى سلكه وينهار ثم ينتحر . أما قصته الحافلة بالطابع المحلى « علوية هانم » فتعد سجلا لكل الخرافات الدينية الشائعة فى ايران .

ووضع المرأة فى ايران ميدان لقسم مهم من أعمال الكتاب الايرانيين المعاصرين ، ولم يستطع هدايت أن ينفض الطرف عنه ، وكل ما كتبه هدايت عن المرأة كان يهدف إلى اصلاح النظام الاجتماعى الذى يبيح للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة لا بالطريق الشرعى فحسب بل بعقد المتعة ايضا . فى قصة « المحلل » نلتقى برجلين لحيتاهما وأصابعهما مخضبة بالحناء يجلسان على مصطبة أمام نزل يحتسيان الشاى ، ويقص ميرزا يد الله كيف أن عقد متعة على امرأتين عند « الملا » وكيف طلقهما معا وتزوج هذه الصبية ذات الثمان سنوات ، وهو يقارن نفسه – وهو الصغير نسبيا – بالاشخاص ذوى السبعين

(١) طلب آمرزش من مجموعة « سه قطره خون » ص ٧١ – ص ٨٦ (طهران ١٩٥١) .

خريفا الذين يتزوجون فتيات أصغر ومع ذلك لا يعدونهم مخطئين[1] أن الآباء يسارعون بتزويج بناتهم ، أما بشأن الفتيات اللائى لا جمال لديهن وأسوأ من ذلك لا مال لهن ، فليس ممن السهل اجتذاب زوج ، كانت ابجى هانم تحب حسينا صبى النجار ، ولكن كيف يتم الزواج ووالداهما لا ينتبهان إليها ، وترمى نفسها بالتقصير فهى التى ولدت على هذه الصورة .[2] ويعد عدم الانجاب سبباً كافيا للطلاق أو الزواج بامرأة أخرى ، غالبا ما تعيش العاقر فى خوف من ذلك ، ولا يبقى أمامها إلا أن ترضى بعيش زواج المتعة ، تناول هدايت الحياة الذليلة للزوجة فى منزل زوجها فى روايته « حاجى آقا » ، كما تناول الحب من طرف واحد وآثاره المدمرة فى قصته « المرأة التى فقدت زوجها » .

وفى نفس الخط ينقد هدايت التربية الشرقية ويقارن بينها وبين التربية الأوربية وفى قصة « الأراجوز » يسخر من تربية بطلة الخجول كالفتيات ، الصامت ، الشاذ الذى يقع فى حب دمية . ويصرخ بطل قصته « ليالى ورامين » فى زوجته قائلا « أريد أن أقول أننا سيئو التربية ، الأوربى يقول لطفله : كل هذا الوجود وطنك فعمره ، يجب أن تتقدم على الآخرين فى الحياة ، يجب أن ترفع رأسك ، بعكسنا نحن إذ نقول لاطفالنا : هذه الدنيا معبر ، والآخرة هى كل شىء ، أننا منذ أن نسقط من قماطنا نبكى من أجل أخرتنا ، فهل تعد هذه حياة» . (٣)

---

(١) محلل من مجموعة سه قطره خون ص ١٤٩ - ص ١٦٤ .

(٢) آبجى خانم من مجموعة زنده بكور .

(٣) شبهاى ورامين من مجموعة سايه روشن .

(هـ) البناء الفنى لقصصه :

يجمع قصص هدايت خط عام هو خاصية النقد الشديد الممتزج فى أكثر الاحيان بالهجاء ، ومع التواء واقعيته النقدية ، فإن من الواضح أن قصصه كلها موجهة إلى عيوب المجتمع الايرانى ، ومن ثم فإننا نلتقى بأبطال يجسدون المفاسد الاجتماعية . وبعض قصصه يحمل مدلولات واضحة ، ولكن هذا لا يقربها أبدا من الخطابية والنبو الفنى . وبعض قصص هدايت بنيت على اساس الشخص الاول الذى يتحدث بلسانه . وهى من ناحية التركيب تشتمل على احساسات وعواطف منوعة ، وفى قصصه التشاؤمية تبدو ثورة نفسية شديدة (حى فى مقبرة والبومة العمياء وحجرة الظلام) ، هذه الثورة تجسد مخاوف الحياة ، وتصف الجوانب القبيحة والغريبة من الحياة البشرية .

أما الصنعة فى قصص هدايت فتعتمد على نسق واحد : ملخص لموقف من مواقف القصة فى بدايتها تدفع بالقارىء وسط الحدث ، ثم تتفرع الحوادث والأوصاف والتنويرات من هذه الحادثة ، وتصل القصة إلى نهايتها بتغيير مفاجىء وغير متوقع ، وتحل العقدة بطريقة شبه منطقية ، ومثال ذلك قصص « لاله » و « المرأة التى فقدت زوجها » و « المخلب » . وتتميز قصصه فى مجموعها بوحدة الهدف ، فالشخصيات كلها تخدم فكرة واحدة ، وكل شخصية متناسبة مع ماوضعت من أجله ، بالرغم من انفرادها بمميزاتها الخاصة ، فالكائن القصصى عند هدايت كائنان فى وقت واحد ، كائن منفرد بصفاته وملامحه الخاصة وجزئياته ، وكائن فعال له دور فى بناء القصة والاشتراك فى حوادثها . وحينما يصف هدايت أشخاص قصصه لا يترك شيئا من الجزئيات الظاهرة ، أو عاداتها أو خصائصها ،

وأبطاله لا يتميزون جميعا بالسلبية ، بل نجد بعض الابطال الايجابيين يلمعون كالقبس فى ظلام الحياة مثل عباس فى قصة « غدا » ومنادى الحق فى قصة « حاجى آقا » . ويلاحظ أن الاسماء عند هدايت ذات دلالات ، مثل « منادى الحق » ، و « الربيع الدائم » (الدولة التى لم تقهر فى قصة ماء الحياة) ودوام الوزارة فى قصة « حاجى آقا » .

ويضيف هدايت حواشى كثيرة إلى القصة تزيد من جمالها ، وتساعد فى تعميق الاحساس بها وابراز موضوعها . والطبيعة قاسم مشترك فى كل قصصه تقريبا ، ففى قصة « لاله »[١] نجد « خداداد » الذى يحب ربيبته حباً شهوانيا ، وتهرب منه ، يخرج ليبحث عنها ، يرى الطبيعة كلها خريفا بينما كان يطرب حتى لنعيق الغربان أثناء عودته إلى كوخه ، وفى قصة « حى فى مقبرة »[٢] لا نحس كآبة البطل فحسب ، بل نحس بكآبة الطبيعة من حوله ، فالطبيعة ممطرة ، والسماء سوداء كأنها الاطار لتلك الصورة المفزعة من الحزن ، وفى « المرأة التى فقدت زوجها »[٣] نحس بالطبيعة قلقة غير مستقرة ، متغيرة ومتبدلة ، كحالة « زرين كلاه » التعسة الراحلة من طهران إلى مازنداران طلبا لزوجها الذى هجرها . وفى الدوامة نحس بالثلج فى الشوارع والبرد اللاذع احساسنا بآلام البطل الذى شك فى خيانة زوجته له ، فطردها وسار هائما فى الشوارع . وهذا الكلف باعطاء الطبيعة دورا فى قصصه يصاحبه كلف باستعمال الرمز ، فحينما يدخل بطل قصة « ليالى ورامين » حجرة زوجته المتوفاة ، يعثر على زهور البنفسج المحبوبة لدى الزوجة ، وهى الاخرى

---

(١) من مجموعة سه قطران خون .

(٢) من مجموعة زنده بكور .

(٣) من مجموعة سايه روشن .

KMH

ميتة تتفتت تحت لمس اصابعه ، كما نجد أوراق الاشجار ساقطة والبركة قد غاض منها الماء ، والمرآة المكسورة فى القصة التى تحمل نفس العنوان ترمز إلى انفصام العلاقة بين بطليها .

ويساعد على اضفاء صورة من العفوية وانتفاء التكلف على قصصه أن معظم الحوار الذى يجريه هدايت على لسان أبطاله عامى . بل أنه لا يجد أى حرج فى استعمال بعض اللهجات فى قصصه ، فيدير الحوار احيانا بلهجة شيراز ومازندران ، وهو يدير الحوار ببراعة منقطعة النظير ، ولا يمكن للقارىء أن يشك فى أن هذه العبارات لم تجر على ألسنة اشخاص حقيقيين ، أو أنها من بنات الفكر وأطفال الخيال . وهو يقطع كل جملة وكأنها يزنها بميزان خاص ، ولا غرو فى ذلك فقد عرف عنه كلفة بالموسيقى العالمية ، وبخاصة موسيقى تشايكوفسكى وسيمفونيته السادسة (المؤثرة أو العاطفية) . وتلعب الموسيقى دورا واضحا فى تعميق الاثر عنده ، كما يبدو من قصتيه ليالى ورامين والمرآة المكسورة - ويتكرر فى قصصه كلف أبطاله بالألحان والأنغام . وهو كلف ايرانى ذو جذور قديمة . ولاشك أن دور الموسيقى قد جاوز الظهور فى القصة إلى الخفاء ليظهر فى تقطيع الجمل واختيار الكلمات .

وثمة خاصية أخرى ورثها هدايت عن النثر الفارسى التقليدى ، وهى ترصيع قصصه ببعض أبيات الشعر والأقوال المأثورة والامثال الشعبية ، وقصته « الرجل الذى قتل نفسه »[1] تدل على ثقافة واسعة فى الشعر الصوفى الفارسى وأكثرها شعر .

---

(١) من مجموعة سه قطره خون .

(و) انتحـــاره :

فى نهاية سنة ١٩٥٠ سافر هدايت إلى باريس ، بطريقة أشبه بالنفى الاختيارى ، آملا أن يجد هناك – مؤقتا – جوا يساعده على العمل ، ويبدو أنه التقى بمتاعب معينة فى باريس ، وفى خطاب مؤرخ فى العاشر من مارس سنة ١٩٥١ كتب إلى أخيه : « الآن بعد مصاعب عديدة مددت جواز اقامتى فى باريس شهرين ، ولكنى أظن أنى الآن بصدد الذهاب إلى سويسرا أو أى مكان آخر ... إن المشاكل عديدة فى مواجهة الايرانيين[١] » وفى التاسع من ابريل سنة ١٩٥١ . هدايت حياته فى شقته الواقعة فى شارع سان ميشيل منتحرا بالغاز ، وورى جسده التراب فى مقبرة الأب لاشيز .

لقد كانت الرغبة فى الانتحار كامنة فى وجود هدايت طوال حياته ، كتب خطابا إلى أخيه سنة ١٩٢٨ يقول فيه : « لقد قمت بعمل جنونى ولكنه مر بخير »[٢] ، كما كتب إلى صديقه الكاتب الكبير محمد على جمالزاده فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٨ « .... أما الخلاصة فهى أننى صدمت من كل شيء وتعبت ولا مناص من أن تتحطم أعصابى ، أننى اصل الليل بالنهار كأننى محكوم عليه بالاعدام أو أسوأ ، وقد نفضت يدى من حصيلة كل شيء ، لا أستطيع أن اشتاق ثانية لشيء ، ولا أن أعلق قلبى بشيء ، ولا أن أخدع نفسى ، ولا أجد الجرأة على الانتحار »[٣] .

---

(١) من مقال روزن فيلد المترجم إلى الفارسية فى الكتاب السالف الذكر لحسن خائميان ص ٢٧٦ .

(٢) فنيسان مونتيه : صادق هدايت الترجمة الفارسية لحسن قائميان فى كتابه نظريات ... ص ٥٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٤ – ص ٥٥ .

لقد بحث الكثيرون عن السبب فى انتحار هدايت ، بعضهم يرده إلى اسباب شخصية بحتة ، ومنهم من يقول أنه أصيب بيأس من الحياة بعد وفاة أحد أصدقائه ، وبعضهم يرد انتحاره إلى مصرع زوج أخته « رزم آرا » الذى كان رئيسا لوزراء ايران واغتيل على يد جماعة « فدائيان اسلام » . وثمة من يرى أنه قدم بانتحاره احتجاجا عمليا على النظام السياسى والاجتماعى الموجد فى ايران ، وكان قبلها قد عاد فى كتاباته إلى يأسه القديم ، فقدم فى قصته « الزقاق : بن بست » صورة لغلبة القدر المدمر ، وضياع الأمل الحلو .

لقد كان الجو العام الذى يعيش فيه هدايت يضنيه ، وكان يضنيه أيضا التفكير فى حياته حين تطول به ، وحين تدهمه الشيخوخة ، وكان دائما يرى الانسان لا ينبغى أن يعيش فوق خمسين عاما ، فمن هذه السن فصاعدا تكون الحياة سخيفة »[1]

كانت هناك قوتان تتصارعان دائما فى وجود هدايت ، قوتان قامت عليهما الديانة الايرانية القديمة ، ولعبتا دورا كبيرا فى حياة كل ايرانى ، قوة الخير أو الحياة والوجود التى يمثلها اله الخير أهورا مزدا ، وقوة الشر والعدم التى يمثلها اله الشر والظلمة أهريمن وحين يرى انسان مثل هدايت أن الحياة عبث وأنها « لا تستحق أن تعاش » يضعف جانب الوجود والنور فيه قليلا قليلا ، ولا يلبث اله الشر أن يضرب ضربته ، ويجر الوجود معه إلى العدم ، ومن يدرى ؟ ! ربما ساعد هدايت على إنماء تلك القوة فى نفسه حتى يلحق سريعا بالحياة الخالدة ، ولم لا ؟ ألا يرى فلاسفة الصوفية الفرس أن « الذى يحيا قلبه بالعشق لا يموت ابدا » ، نعم فوراء تلك الحياة التى رفضها هدايت ،

---

(١) تعليقات حسن قائميان على المقال السالف الذكر . ص ٦٤

نفس اللغة – أما إلى اللغة الروسية فقد ترجم كميسروف وروزن فيلد مجموعة ضخمة من أعمال هدايت تقع فى ثلاثمائة وستين صفحة .

أما ما كتب عن هدايت فبالاضافة إلى المقالات التى كتبها جان كامبورد وفنسان مونتيه ، وباستور فاليرى رادو ، وهنرى ماسيه وجان ريتشارد بلوك ، وجيلبر لازار ، وفيليب سوبو ، ورينيه لالو ، وروجيه ليسكو ، وريمبو دى سنى ، واندريه بروتون ، وجريوزلا ، بالفرنسية ، والمقالة الضخمة المفصلة التى كتبها كميسروف بالروسية ، هناك الفصل الذى كتبه أندريه روسو فى كتابه الضخم أداب القرن العشرين فى المجلد الخامس ، وهناك مقدمة الترجمة الفرنسية للبومة العمياء التى كتبها روجيه ليسكو ، كما كتب فنسان مونتيه كتابت بعنوان « صادق هدايت » ، وكتبت ت كشلاوا كتابا بالروسية تحت عنوان « النثر الفنى عند صادق هدايت » ، وخصه حسان كمشاد بعدة فصول من رسالته التى قدمها إلى جامعة كمبردج سنة ١٩٦٦ عن « النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر » وغير ذلك كثير .

ولما كان هذا الاديب العظيم لم يظفر بما يستحق من معرفة عند القراء العرب ، ولم يترجم من أعماله إلى العربية إلا ما قدمه الدكتور أمين عبد المجيد بدوى من ترجمة لقصتيه « ثلاث قطرات من الدم » و « داش آكل » ؛ فإنى اقدم إلى قراء العربية أديبا تأخرت معرفتهم به ، أقدمه من خلال اربع عشرة قصة قصيرة ، حاولت قدر الامكان أن أجمع فيها كل اتجاهاته الانسانية والفلسفية ، وإنى آمل أن أكون قد وفقت فى نقل أدب هذا الأديب ذى الشهرة العالمية ، حتى يتم التقاء التيارين العظيمين للأدب الشرقى والأدب الغربى فى بلدنا التى كانت وستظل دائما ملتقى الحضارات .

لا شك توجد حياة جميلة ، وكم كان هدايت يؤمن بالله لولا أن الطقوس الدينية كانت تعذبه ، يقول أحد ابطال قصته « ليالى ورامين » : « إن الخير والشر فى الانسان لا دخل لهما بعقيدة أو مذهب ، كل الفتن جاءت من رؤوس رجال الدين ، وكل الحروب الدينية ، الحروب الصليبية جاءت من تحت رؤوس القسس » ، إن الفناء فى الله ، ومغادرة تلك الدنيا فى سبيله قمة من قمم فلاسفة الصوفية الفرس .[1]

ومهما يكن فإن فكرة عدم الرضا عن أوضاع الوطن ترتبط دائما بانتحار هدايت . كانت ايران فى العام الذى تركها فيه هدايت قد ركنت إلى يأس مرير ، لقد انزوى المثقفون ، وعادت الكعوب الحديدية تدق أمام أبوابهم فى الليل ، ورأى هدايت أن كل ما سيكتبه سيصبح غير ذى شأن فى دولة تلك أحوالها ، ذلك أنه كان قد اختار والتزم ، وبدأ الهجوم على الرأسمالية والاستعمار فى « مدفع اللؤلؤ » ، ولما لم يجد فائدة ، أحرق أوراقه ومضى ، فقد كانت هناك فجوة واسعة تهدد بعدم وصول ما يكتبه إلى من يكتب من أجلهم .

(س) صادق هدايت والعالم :

يطول الحديث لو فصلنا ما يكتب وما يقال عن هدايت فى ايران . يقول الدكتور خانلرى « لقد صار اسلوبه فى الكتابة من اروج الاساليب ، ولم يستطع أحد من كتاب الرواية فى ايران أن يقيم الرواية كما أقامها » . «أما من حيث الاستحكام الفنى والعمق ، فلا يمكن أن يصل أحد إلى موطىء قدمه » كما يقول احسان طبرى . ويطول

---

(١) تعليقات حسن قائميان على المقال السالف الذكر . ص ٦٤ .

الحديث إذا تحدثنا عن الكتاب الذين تأثروا به ومن أهمهم صادق جوبك وجلال آل أحمد ، بل أن جمالزاده وقد بدأ قبله كان يضمن قصصه بعض عبارات هدايت كما فعل فى روايته « دار المجانين » .

لقد حول هدايت الادب الفارسى من أدب توقيعات وقصور وصالونات إلى أدب أمة ، ونقله من التصوف إلى الاشتراكية ، ومن الشخوص الاسطورية إلى شخوص تأكل الطعام وتمشى فى الاسواق ، وتتصارع من أجل اثبات وجودها ، ومن رعاية الاسلوب والتنميق اللفظى والبديع إلى الحديث السهل النابع من ضمير الشعب ، ولذلك لم يكد هذا الذى عاش طول عمره ينشر أعماله بشق الانفس ينتقل إلى العالم الآخر ، حتى توالى نشر أعماله وطبعها ، وأنهالت حفلات التأبين ومقالات المديح ، لقد خسروا أديبا ، ولكنهم خسروا أيضا مناضلا لن يرفع قلمه فى وجوههم مرة أخرى .

وقد بدأت شهرة هدايت العالمية فى الظهور منذ بدأ النقاد الفرنسيون الاهتمام به ، ومما لاشك فيه أنهم كانوا أوائل من ترجموا له ، ترجم روجيه ليسكو البومة العمياء ، وترجم جيلبر لازار « حاجى آقا » وترجم بروخيم « غدا » و « الابتسامة الاخيرة » كما ترجم فنسان مونتيه « الزقاق » وترجمت مدام رضوى عددا آخر من قصصه القصيرة إلى الفرنسية ، ونقلت البومة العمياء إلى الانجليزية وترجم جريفز قصتيه دواد الأحدب وبعض القصص الاخرى . أما إلى اللغة التشيكية فقد ترجم يان ريبكا « الرجل الذى قتل نفسه » و « آكلو الموتى » و « آبجى هانم » وترجم تلميذه موريس بوريكى « الكلب الشريد » ، وترجمت نفس القصة إلى اللغة الأرمنية . وترجمت البومة العمياء إلى الألمانية ، كما ترجمت « علوية هانم » إلى

ولا يفوتنى أن أتوجه بأخلص آيات الشكر إلى أستاذى الأجل الدكتور يحيى الخشاب الذى شجعنى على إخراج هذه المجموعة ، كما اشكر استاذى فى عهد الطلب الدكتور سيد مرتضى الشيرازى الاستاذ بجامعة طهران الذى كان أول من عرفنى بصادق هدايت ، وساعدنى فى حل طلاسمه وغوامضه ، جازاهما الله عنى خير الجزاء .

والله الموفق دائما إلى ما فيه الخير .

صادق هدايت و « البومة العمياء »

كتب صادق هدايت البومة العمياء « بوف كور » حين كانت ايران تحت حكم رضا شاه ، وفى أوائل الثلاثينات . وفى سنة ١٩٣٧ سافر المؤلف إلى الهند وأخذ معه مخطوطة الرواية ونشرها هناك كتيبا فى ستين صحيفة ختم عليه « ليس للبيع أو النشر فى ايران » وكان ذلك فى مدينة بومباى . ومن ثم كان بعض أصداقاء هدايت المقربين فقط هم الذين يعلمون شيئا عن الرواية . وفى سنة ١٩٤١ بعد اعتزال رضا شاه وبزوغ عهد سياسى جديد ظهرت البومة العمياء فى طهران لأول مرة . وكان تأثيرها سريعا وقويا ولم يكن الجدل الذى أثارته مقصورا على الدوائر الأدبية فحسب بل انتشر ايضا فى جمهور القراء .

وليست « البومة العمياء » بناء قائما على خراب . إذ تعد الرواية تجميعا لمعان عديدة تناولها صادق هدايت بصورة ضيقة فى قصص قصيرة ، وأولى قصص هدايت التى يبدو فيها يأسه الشديد قصة « حى فى مقبرة » فالبطل وهو الذى يروى القصة بضمير المتكلم عن طريق المذكرات يائس من حياته أشد الياس والزمان والمكان والحياة

بكل جوانبها تفقد معانيها عنده ولا تبقى عنده إلا فكرة واحدة مسيطرة هى فكرة الموت . إن كل ما فى القصة مختلط بالموت . الحب رداؤه الموت . والحياة عزلة . عزلة تجعل الانجذاب إلى الانفراد الاكبر ضربا من الحتمية حتى الأخيلة التى يهرب بها المؤلف أو الراوى فى الوقت نفسه أخيله مرعبة مرتبطة أكثر بالموت فى أقسى صوره . يقابل هذا الشعور فى القصة شعور آخر حتمى وطبيعى ، إن البطل بانجذابه إلى الموت يحس أنه أكثر علوا وسموا من كل البشر المتكالبين على الحياة المصرين عليها . فحينما يفشل فى محاولات الانتحار المتكررة التى يقدم عليها يحس أنه أصبح بطلا أسطوريا غير قابل للموت ، إذن لم تعد عناك وسيلة إلا الرحيل ، الهروب ، أن يذهب بعيدا ، أن يكون فاقدا ومفقودا ، ولكنه فى النهاية يحس أنه مرتبط بقدرة بسلاسل من فولاذ ، نوع من التفكير الجبرى يدفعه دفعا إلى أن يكسر قلمه . وهذا البطل العصرى الملول من كل المعانى التجريدية والمادية يصدر هدايت مذكراته بهذه الجملة المثيرة للسخرية « من مذكرات رجل مجنون » . كان صوت الرفض والاعتراض على العصر لا يزال فى نشأته فلم يكن ليتقبل إلا من مجنون .

وفى نفس الخط تقريبا تسير قصته القصيرة الاخرى « ثلاث قطرات من الدم[1] » مذكرات أخرى يكتبها مجنون من وراء اسوار المصحة . أكثر قربا من الواقع وأشد اعتراضا ودموية وأقوى رفضا فالبطل أو الراوى لا يرى فى كل ما يرى إلا قطرات الدم الثلاث ، ويعلو صوت الرفض على الحديقة والسماء الزرقاء والورود فهى خيالات تعجب الشعراء والاطفال وأولئك الذين يبقون طوال حياتهم

(١) من مجموعة « سه قطره خون » (ص ٩ – ص ٢٢) (طهران ١٩٥١) .

أطفالا ... ثم نكتشف أن بطل القصة يعيش فى مجتمع لا يتواءم معه : « منذ عام وأنا أحيا بين هؤلاء الناس العجيبين الغرباء .. ليس هناك تشابه على أى وجه بيننا ... فرق ما بين السماء والأرض بينى وبينهم ولكن صراخهم وصمتهم وشتائمهم وبكاءهم ، سوف تملأ حياتى دوما بالكوابيس »(١) والبطل هنا ثائر مدمر ، ولكن ثورته لا تجاوز داخله ، يريد أن يدمر كل العالم الذى يعيش فيه ويقيم على أنقاضه عالما سعيدا وفق هواه . حلم يحلم به فقط المجانين والطغاة : « لو أننى فى مكان (يقصد الطبيب) لسممت العشاء ذات ليلة وأطعمتهم اياه ، وفى الصباح أقف فى الحديقة وأنا أضع يدى على خاصرتى وأشاهد الموتى الذين يحملونهم ... » (٢)، و يتناول المجانين الذين ينزلون معه فى المصحة بالنقد ويسخر منهم وكأنه ليس منهم ، ولكن ثمة رؤيا واحدة جميلة وأثيرة إلى نفسه تقطع كل هذه الرؤى الدموية ، صداقته مع أحد زملاء الدراسة قبل أن يصيبه المرض .... ثم القط ومواؤه الذى يتردد طوال القصة ، أنه يرمز لكل ما هو خير وجميل ... للحياة الطبيعية المنطلقة والقطرات الثلاث من الدم ليست إلا قطرات من دم قط أراد أن يزاول حقه فى الحب فأطلق عليه الرصاص .

هذا الصوت العالى للرفض والانجذاب إلى عالم الموت والعزلة سيطر فى الحقيقة على أدب هدايت فى تلك الفترة من حياته ، وكان نتيجة طبيعية للفترة التى ظهر فيها فنه الادبى ، فترة ما بين الحربين عاش سنينها الاولى فى فرنسا وبقيتها فى وطنه ايران . فترة يأس وتشاؤم عالميين . عالم خرج من الحرب جريحا ومع ذلك فقبل أن يضمد

---

(١) سه قطره خون ص ١١ .

(٢) سه قطره خون ص ١٢ .

جراحة يحس أن ثمة انطلاقه دموية جديدة فى الافق . لم تسفر الحرب إلا عن فاشيات ..

وفى ايران أسفرت سنين الكفاح الطويلة (١٨٩٦ – ١٩٢١) والتحمل والألم عن لا شيء ، وذهبت هدرا دماء الابطال الذين سقطوا مبقورى البطون ومقطوعى الرءوس وعلقوا على أعواد المشانق فى تبريز وطهران وكل مدينة ثارت من أجل الحكم الديمقراطى وضد الحكم الديكتاتورى القاجاري من ناحية والتدخل الروسى القيصرى والبريطانى من ناحية أخرى . لقد ولد المخاض الطويل النبيل هباء وانزوى الأبطال وأهيل عليهم رماد النسيان فى المناف والسجون . ولأذكر هنا باختصار الصورة التى ذكرها حسان كمشاد استاذ النقد بجامعة طهران عن عصر رضا شاه :

« إن القوميين الذين تقدموا لأول مرة لتأييد الرجل القوى املين فى منح ايران الطمأنينة التى تحتاج ، بدءوا يستيقظون من وهمهم كلما نما شعور الاستقلال الذاتى المتزايد عند قائدهم . ومن ناحية أخرى فإن شك رضا شاه المتزايد جعل من الصعب عليه أن يفرق بين الصالح والطالح من الطبقة الحاكمة فى الدولة من عسكريين ومدنيين . وبوجه عام أعوز الشاه المساعد الصالح وأثقل عليه بمسئولية هائلة ، ذلك أنه كان بأمره فقط كان الأمر ينفذ أولا ينفذ وقد أحاط نفسه بمجموعة من المنافقين ، الذين بينا كانوا يكيلون له المديح ... وبينما كانوا تحت حمايته كانوا يؤذونه بالتورط فى أعمال مشينة »[1] .

« ومن ثم فإن مشروعات رضا شاه بالرغم من أنها كانت تقدمية وخيرية إلا أنها فى النهاية لم تؤد إلى راحة الطبقة المثقفة فقد كانوا أول

---

(١) Kamshad (H.) Modern Persian Prose Literature, Cam bridge, 1966, p.55.

من يقاسى من قيود ديكتاتورية ، أما الكتاب خاصة فقد كان لديهم حق قليل فى التعبير الحر فاما انهم صاروا من دعاة النظام يقدمون كتابات موجهة ويتقاضون عليها المكافآت وأما انسحبوا وفسد مسعاهم وباتوا ممتعضين »[٢] .

هكذا كان الحال عندما عاد هدايت من فرنسا . وزاد الطين بلة القبض على اثنين وخمسين مفكرا ايرانيا وايداعهم السجن[٣] ، وكان على هدايت أن يصمت ليرى ما يسفر عنه الجو ، وأخذ يدارى يأسه بالانشغال فى الدراسات الأدبية والترجمات والنقد والفنون الشعبية ولكن وفى النهاية انفجر يأسه الفكرى وتشاؤمه المر فى شاهخته « البومة العمياء » .

أن البطل – وهو الراوى فى الوقت نفسه – يقص علينا آلامه فى رواية ذات شقين ... نظن أول الامر أن احدهما يختص بالحياة الخيالية ... حياة الحلم عنده وأن الآخر يختص بالحياة الواقعية غير أننا نفاجأ بأن كلا الجزءين لا يقل خيالا عن الآخر وأن التقسيم الذى عمد إليه كل من تناولوا الرواية لم يكن الا محاولة لجعل الرواية قريبة من الفهم . يقص علينا بطل الرواية قصة الجراح التى تشبه الجذام والتى تأكل الروح من الداخل وتبرى فيها .. وهو يلجأ فى عذابه إلى الأفيون والمخدرات . والجزء الاول (ص ٩ – ص ٤٩ من الأصل) يتعلق بتيار اللاوعى عنده ، أما الجزء الثانى فيحتوى على حقيقة مختلطة بوهم . وكل شخصية فى عالم الوهم تقابلها شخصية فى عالم الحقيقة ، وإن كانت هناك وحدة عضوية فى الشخصيات فكلها ذات ملامح

---

(٢) Ibid., p. 5I.

(٣) أنظر « أيام محبسى » لعلى دشتى (يمينى متطرف) و« بنجاه ودونفر» لبزرك علوى (يسارى متطرف) .

مشتركة . والبطل مخلوق - وهذه كلمة مجازية - نافر ووحشى ومبتعد عن البشر عن احساس بالسمو عليهم ، يطلق عليهم هذه الكلمة التى يراها مناسبة لهم « الاوباش » وارتباطه الوحيد فى جزءى الرواية وولاؤه بل وعبادته ينصب على مخلوقة واحدة . فى الجزء الاول يتحدث عنها كمخلوقة أثيرية ظهرت له ذات مرة حينما كان ينظر من كوة دهليز داره واستمر يبحث عنها دون جدوى ثم جاءت إلى داره ذات ليلة دون أن يدعوها حيث إنتهت الليلة بأن قتلها . أما الجزء الذى يختلط فيه الوهم بالحقيقة فيلبس زوجته نفس الصفات الجسمانية التى رآها فى مخلوقته الخيالية ، تلك الزوجة التى لا نعرف لها اسما سوى « البغى » هكذا يدعوها ، وذلك لأنها « امرأة كل الناس إلا هو » فهى لا تسمح بأن يقربها قط ، وفى ليلة الغرام الوحيدة التى يكاد يغتصبها فيها يقضى على حياتها فى نهايتها ... خطان من السعادة .. أو ان شئت خط واحد يتردد طوال الرواية يعذب القاص ولكنه عذاب يستسيغه وينتهى الخطان بنهاية واحدة على يد القاص العاشق .

هذا هو الخط العام للرواية . إن جاز لنا أن نستخرج منها خطأً عاما . ففى رأى فيليب سوبو[1] « إن هذه الرواية لا تقبل النقاش ولا يمكن أن تلخص لأنها فى حد ذاتها تلخيص لقدر الانسان » ومع ذلك فيمكن أن نشير إلى بعض الافكار الواردة فى الرواية وعلاقاتها بالفكرين الشرقى والغربى .

ان البطل يعترف بينه وبين نفسه بأن هذه الافكار التى تعذبه قد تكون أفكارا فارغة ولكنها تعذبه أقوى من أية حقيقة وهو يبدأ بالشك

---

(١) لم استطع الحصول على النسخ الاصلية للمقالات . فاعتمدت على الترجمة التى أخرجها حسن قائميان فى كتاب واحد تحت عنوان : « نظريات نويسند كان برزك خارجى درباره صادق هدايت » .

فى كل من حوله من الناس ، ويصرح بشكوكه النفسية ، ويعبر عن ادراكه النفسى المعقد فى اسلوب مقتضب سريع كطلقات الرصاص ... هذا البطل يحيا حياتين : حياة حقيقية وهى حياة عذاب وبؤس وعزلة وفقر ، ولكى يجد المهرب أصبح مدمنا على الافيون ، وتحت تأثير الافيون تبدأ حياته الاخرى : حياة الحلم ، ومن المستحيل - كما ذكرت - أن نرسم خطا فاصلا بين الحياتين فالمناظر الكئيبة لحياته الحقيقية تلتحم بحياة الحلم وتصبح مرئياته ملوثة بالوهم ، لقد اعتزل « الاوباش » لكى يفهم نفسه ، ولكنه مهما يغوص يسأل ، وكلمة « لا أدرى » التى تتكرر كثيرا تبين لنا أنه ليس هناك شيء حقيقى يؤمن به قط . إذن لماذا يكتب ؟ إنه يكتب فقط لكى يشرح حياته لخياله . لكى يعرف نفسه . ومن هنا تصبح الكتابة ضرورة ، نوعا من التصرف العفوى فى حالة الانفعال . مثلما يسرع النحات لينحت والرسام ليرسم والموسيقى ليعزف . إنه قلق فقط فى حالة ما لو مات فى الغد دون أن يحصل على المعرفة بنفسه .

ومسكنه فى حياة الحلم هو مسكنه فى حياته الحقيقية . حجرة تختلف فى الملامح الخاصة وإن كانت تتوحد فى كلتا الحالتين فى أنها تشبه القبر وأثاثها فى كوابيس البطل يتخذ أشكالا سيريالية خاصة . وهذه الحجرة معبقة بالروائح الموجودة فيها منذ الأزل ، إنها نموذج مصغر للعالم ، والبومة العمياء وهو الاسم الذى أطلقه على نفسه يحترف مهنة يراها حقيرة غير ذات شأن هى الرسم غلى غلاف المقالم . ولكن موضوع رسمه واحد : شجرة سرو يجلس القرفصاء تحتها رجل عجوز ملفوف بعباءة وحول رأسه عمامة تشبه عمامة العباد الهنود . وأمامه فتاة شابة تنحنى لتقدم له زهرة نيلوفر وبينهما جدول .

لم يكن لدى البومة العمياء احساس كامل بالزمان والمكان أو حتى بهويته « إلى أن مكان تنتسب هذه القطعة من السماء فوق رأسى ؟ أو هذه الاشبار القليلة من الأرض تحت قدمى ... إلى نيسابور أو بنارس أو بلخ ؟ – لا أدرى ... أنا لست متأكدا من شيء » .

والعوالم التى يجتازها البشر فى آلاف السنين يستطيع هو اجتيازها فى دقائق ، فالزمن ليس شيئا بالنسبة له ويمكن أن يكون الحادث الذى حدث بالأمس أقدم وأقل تأثيرا من حادث حدث منذ الف سنة ، نظرة كلية للتاريخ : « وارتسمت الذكريات القديمة أمام عينى ، فالماضى والمستقبل والساعة واليوم والشهر والسنة كلها بالنسبة لى واحدة ... بالنسبة لرجل مدفون يكون الزمن بلا معنى » إنه ليس متأكدا حتى من وجوده .. « نظرت فى المرآة ولكنى لم أتعرف على نفسى .. لا .. أن هذه الانا ماتت ، تحللت » إنه كما يرى كمشاد يستعير جملة من كيتس « يحمل وجودا باقيا حتى ما بعد الوفاة ... إنه جثة حية مدفونة فى لحظة لا تحسب من الزمن »(١) ونقلب صفحات الكتاب ، نقرأ حكايات ذات مغزى عن ماضى أبويه وعن أمه الهندية التى حملها أبوه التاجر الايرانى من معبد هندى ... يرتد البطل هنا إلى عصر الهجرات الاولى فى أعماق التاريخ . ثم نعلم أشياء عن طفولة بطل البومة العمياء ونشأته ، كل شيء دون أن ندرك فكرة ولو مبهمة عن الشيء الذى حول البومة العمياء إلى ما هو عليه ونصل – طولا – إلى منتصف الكتاب ونعلم لدهشتنا أن بطل البومة العمياء متزوج ، وهو يحب زوجته ولكنه لم يضاجعها قط والزيجة أساسا محرمة لأنها أخته فى الرضاع :

---

(١) Kamshad. Modern Persian Prose Literature, p I68.

« فى ليلة الزفاف حينما صرنا وحيدين ، مهما رجوت والتمست لم تلن لى ولم تخلع ملابسها وكانت تقول « يوجد مانع شرعى » ، لم تترك لى سبيلا إليها ، فأطفأت المصباح ، وذهبت ونمت فى الطرف الآخر من الحجرة .. وفى الليلة التالية ذهبت ونمت فى نفس المكان على الأرض واستمر الامر على هذا النسق فى الليالى التالية » .

ثم اكتشف أن لزوجته عشاقا كثارا .. بل ظهرت عليها أعراض الحمل وقد بلغ به الحال إلى قبول عشاقها خوف فقدانها .... أنه يمدحهم ويحملهم إليها « وكنت أريد أن أتعلم السلوك والتصرف والاغواء من أحباء زوجتى .. ولكننى كنت ديوثا تعسا » . ومما لاشك فيه أن شيئا ما كان ناقصا فى بطل البومة العمياء، وأنه قد فهم هذا النقص ، إنه انسان غير قادر على ممارسة اللذات الجسدية ، وليس ذلك إلا لأنه مفرط الحساسية ... ومن ثم حدثت حالة العزلة الكاملة بينه وبين الناس العاديين : « لماذا ينبغى على أن أفكر فى الاوباش المعتوهين الاصحاء الذين يأكلون جيدا وينامون جيدا ويضاجعون جيدا ... ولم يشعروا أبدا بقليل من آلامى ؟ » و « كنت أمر بلا هدف بين الاوباش ذوى النظرات الطامعة الذين يسعون وراء الشهوة والمال ، ليست بى حاجة للنظر إليهم ، ذلك أن واحدا يمثل الباقين ، الواحد والكل : فم مربوط بحزمة من الامعاء تنتهى إلى أعضائهم التناسيلة » .

وليس هذا هو كل شيء : هناك اسس أخرى تستحق التسجيل فى حياته . ومعظمها ناتج من عيبه العضوى . فبطل البومة العمياء ليس مخلوقاً اجتماعياً متجانسا ، إنه وحشى وخارجى احلامه ومثالياته مخالفة للحقائق المضحكة التى يجدها فى الكون ، وهو يود لو يغير قدره ،

وأحيانا يقوم برحيل نفسى إلى عوالم الطفولة ، وهو يجد نفسه لا يتذكرها فحسب بل يشارك فى كل تفصيلاتها . أن الأبدية بالنسبة له هى الطفولة ، لكنه لا يلبث أن يثور على طفولته ، ويود لو يرحل إلى مكان بعيد ... ولكنه لا يستطيع .. أنه يحس أنه غريب تماما عن نفسه : « لقد أصبحت جنسا غير معروف بين الأوباش ... أن الشىء المخيف هو شعورى بأننى لم أكن حيا تماما ولا ميتا تماما ... كنت بالتحديد جثة حية لا علاقة لها بالعالم الأحياء ولا يمكن أن تكسب غفلة الموت وسلامه » هذه المشاعر والعقد يحيط بها جميعا احساس عميق بالذنب . إنه يحس بأنه خلق مجرما ويهلع حينما يسمع صوت جماعة الشرطة السكارى فى الشارع أنه مثل « ايفان ديمترش » تشيكوف فى « العنبر رقم ٦ » ينتظر عقابا على ذنوب لم يرتكبها[١] .

وبطل البومة العمياء يسرع فى البحث أثر خيالاته ، بالرغم من علمه بأنها خيالات ، أنه يبحث عن الجمال والطهارة والافكار النبيلة ولكن حجر عثرة « حائط صلد ثقيل ، حاجز صلب بلا أى متنفس وثقيل كالرصاص » يعترض سبيله دائما ، انه يقضى ايامه متجولا باحثا عن واد ، عن قطعة من السماء الزرقاء ، عن بعض السلوك لكنه وفى كل مرة يجابه بالحقائق الصلدة التى لا يمكن النفاذ منها حوله :

كنت قد اعتدت غسق كل يوم أن اخرج للنزهة ، لا أدرى لماذا كنت أريد ، ولماذا صممت على أن أكتشف شجرة السرو وأيكة النيلوفر ... اعتدت على هذه النزهة مثلما كنت معتادا على تناول الأفيون ، كأنما كانت تدفعنى قوة ما على هذا العمل ... لكن

---

(١) قصص روايات قصيرة لتشيكوف ، ترجمة محمد القصاص (دار الشرق)

واحسرتاه ليس هناك شيء إلا التراب والرمل الحار وعظام أضلاع خيول وكلب يتشمم فى قمامة » .

والحقيقة التى كانت تبعث على القلق بالنسبة لبطل البومة العمياء أنه كان يعى شقاواته ويقلق من أجلها إلى درجة كبيرة : « اننى أرقد فى كفن أسود طيلة حياتى » ويكتشف أنه لا يستطيع أن يقوم بشيء حيال هذا العذاب فيجد حياته الحقيقية فى المناظر التى يثيرها الافيون فى عالمه الخيالى فهو رجل ينطبق عليه وصف اندريه موروا لبيرون « حرمه عالم الحقيقة من السعادة فأخذ يجرب خلق عالم شاعرى وخيالى »[١] .

ولكن عالم البومة العمياء الخيالى كئيب وجنائزى ، تظهر له ملاك أحلامه بادىء ذى بدء خلال كوة فى حجرته تشبه سرابا فى ضباب أفيونى وأثناء رؤيتها يسقط فى غيبوبة ، وحين يفيق لا يجد الكوة ، ويندفع إلى الخارج ، ولكن لاشيء هناك ، وحين يعود إلى منزله ذات ليلة يجد المخلوقة الاثيرية فى انتظاره ، تفتح الباب ، وتدخل بخفة كالسائر فى النوم ، ثم ترقد فى الفراش ، ولكن بطل البومة العمياء يرى كأن ثمة حائط بلورى أقيم بينهما ، ثم يعطيها كأس خمر مسومة ... فتموت ، ويجلس طوال الليل محاولا رسمها . وحينما ينجح فى ذلك شعر براحة قصوى ، ثم يمزق جثتها يضعها فى حقيبة ويمضى لدفنها .

وفى محاولة لتحليل البومة العمياء يرى الكاتب الايرانى المعاصر جلال آل أحمد أنه من الخطأ أن نسمى « البومة العمياء » رواية أو قصة قصيرة ، أنها نوع من المحاكاة ، من الرحلة إلى الباطن ، ويتساءل : ما الذى يقرأه القارىء فى البومة العمياء ؟ ما هى الافكار التى تحتوى عليها ؟ أن البومة العمياء خليط من الشك الآرى القديم

(١) Introduction to Letters of Byron, p.v.

والنيرفانا الهندية والغنوصية الفارسية وذلك فى عزلة شرقية كعزلة اليوجا ، والهروب الذى يحاوله شرقى داخل نفسه بكل خلفيته . إن البومة العمياء مهرب من خيبة الامل ومن الاشمئزاز ومن هموم الكاتب وأحزانه . أنها محاولة لفهم خلود الجمال . انتقام رجل فإن قصير العمر فى مواجهة الحياة وفى مواجهة ظروفها . انتقام مخلوق فإن من الفناء والهبائية هى صيحة انتقام تنبع فقط من الداخل وتسبب ضوضاء فى حرم العقل وتجلد مؤخرة الذكريات كالسوط . أن البومة العمياء خيال من الكراهية وهى شعور الضعيف بالنسبة للأقوياء ، وفيها كل المتناقضات التى يفضى إليها الاحباط[1] ويحاول جلال آل أحمد أن يعقد آصرة قوية بين هدايت وبين المأثور الفارسى ، أنه يتتبع الاستبطان والرحلة إلى الداخل عند شاعر فارسى آخر : عند صائب التبريزى ، ولكن « صائب » يعبر فى بيان غامض ومعقد ، بينما يلجأ هدايت إلى المباشرة ، ولى هنا تعليق بسيط لقد فات معظم قراء هدايت تلك الروح لصوفية التى تتجلى فى الرواية ، هذا الفن المحض فى « المعانى » ، وهذه النظرة التوحدية للكون وتكرار شخوصه سواء فى النوم أو اليقظة ملمح من ملامح الصوفية ، وهذا العشق الفياض الموجه إلى أشياء بعينها من ميادين التصوف الفارسى التى صال وجال فيها كثيرا ، إن دنيا الوجود قابلة للشك ، والدنيا الوحيدة الموجودة هى الدنيا التى خلقها المؤلف ، دنيا هرب إليها من النفاق واختار موقفا فريدا ، انضم على دشتى ومحمد حجازى إلى السلطة ، واغتيل محمد مسعود فلم يجد هدايت بدا من اللجوء إلى الوسيلة الفارسية القديمة : الرمز .

---

(١) انظر « عقايد وأفكار درباره صادق هدايت بس ازمرك » ص ٧ وما بعدها (طهران سنة ١٣٤٦ هوشى) .

KMH

ويمكن – والكلام هنا لكمشاد[1] – تحديد أثر بوذا بسهولة فى الرواية ، ويبدو أن بوذا كان ملجأ هدايت الأخير فى تلك الفترة ، وظلت البوذية والهندوكية شغله الشاغل خلال الفترة الأخيرة من حياته . وفى « البومة العمياء » نلمح البوذية مشربة بنظرة هدايت التشاؤمية . إن كل الرواية تدور حول التأمل الداخلى عند بوذا والاستقصاء أو « الامر بالنظر إلى الداخل » وفى رأى لجلال آل أحمد ، أن ملامح بوذية أخرى تتجلى فى البومة العمياء : الايمان بعالم الذر والمثال ، بوحدة الوجود التى تتجلى لا فى الشخصيات فحسب بل فى الدور والاشجار (٢) ولكن لماذا لاتكون كل هذه الخلفيات قد انحدرت إلى هدايت من الأدب الصوفى الايرانى ؟ ... ولكن ، هناك بعض سطور الرواية توحى بايمان البطل بالحلول والتناسخ ، وفى بداية الرواية بمجرد أن تقع عين بطل البومة العمياء على الفتاة الاثيرية يقول :

« بدا لى وكأننى كنت أعرف اسمها قبل ذلك وكانت تبدو فى لمعان عينيها ولونها ورائحتها وحركاتها وكأنها معهودة لدى . وكأنما كانت روحى وروحها فى الحياة الاولى وفى عالم المثال متجاورتين من أصل واحد ومن مادة واحدة ، وكان ينبغى أن نتصل ونتوحد » .

وفلسفة البوذية فى الموت ، وفى عوالم المقاساة تبدو فى كل الكتاب ، أن بوذا يؤمن بأن « الميلاد مقاساة والتحلل مقاساة ، والمرض مقاساة والانفصال عن المبهج مقاساة ، والارتباط بغير المبهج مقاساة ، الا يحصل المرء على ما يريد مقاساة ، إن البوذية اذن إلى حد ما فلسفة مقاساة ومعاناة ، وإذا كانت الحياة مليئة بالمعاناة ، وإذا كانت

(١) Kamshad, Modern Persian Prose Literature, p. 172.

(٢) عقائد وأفكار درباره صادق هدايت . ص ٩١ .

المعاناة هى المدرسة التى تتعلم فيها أن ننهى المعاناة ... اليس من الغباء إذن أن نحاول الهروب من هذه المدرسة ؟ »(١) ، وعلى هذا الضوء تبرهن البومة العمياء أنها دراسة مجتهدة .

وفى مشكلة الموت القاطعة حيث كان هدايت مستغرقا طوال حياته تبدو البومة العمياء متناقضة إلى حد ما . فهو هنا يعبر تعبيرا فرديا – وهو هنا مرتبط بالجانب الملحد من الوجودية (الوجودية السارترية) – عن عدم ايمانه بالدين وبوجود اله قادر ، ولا يعد هذا تأثرا ناتجا عن قراءته للوجودية ، فقد ظهرت الرواية قبل ظهور كتابات سارتر إنه يقول – على لسان البومة العمياء – « لم يحدث فى أى وقت أن احدث المسجد وصوت الاذان والوضوء والمضمضة والركوع والقيام أمام قادر متعال وصاحب اختيار مطلق ينبغى أن نتوجه إليه باللغة العربية ، لم يحدث ذات مرة أن كان لكل هذا أثر فى » ... وبعد سطور قليلة نواجه فكرة متناقضة تماما ، فكرة تكاد تكون نابعة من التصوف أكثر من انبثاقها من أى مذهب آخر .. « كنت أميل إلى التحدث مع صديق أو الف أكثر من ميلى إلى الحديث مع الله القادر المتعال ! لأن الله كان أعظم مما تحتمل رأسى » ، ثم فى موضع آخر يربط فكرة الالوهية بفكرة الديكتاتورية السياسية « ... وفى هذا الموقف لم أكن أريد أن أعرف هل الله موجود فى الحقيقة أم أنه فقط مظهر لأصحاب السلطة على الأرض جعلوه لتثبيت مقام الألوهية من ناحية واستغلال رعاياهم من ناحية أخرى ... صورة انعكست من الأرض إلى السماء ... » .

---

(١) Kamshad, p. 174.

ولكن كل هذه الافكار تتلاشى أمام الخوف من الموت : « كنت أحس أنه فى مواجهة الموت كم يكون الدين والايمان والعقيدة أشياء طفولية وتافهة تقريبا كنوع من العزاء للناس الأحياء السعداء . وفى مواجهة حقيقة الموت المخيفة ، والحالات المذيبة للروح التى خبرتها ، صار كل ما لقنوه لى بالنسبة للثواب والعقاب والروح ويوم القيامة خداعا لا طعم له ، وأصبحت الأدعية التى لقنوها لى لا تجدى فتيلا فى مواجهة الخوف من الموت » تفكير وجودى ، أجل ولكنه يرتد بعدها إلى فكرة البوذية عن الموت : « لقد فكرت كثيراً فى الموت ، وفى تحلل عناصر جسدى إلى درجة أن هذا التفكير لم يعد يخيفنى كثيراً ، بل على العكس تماما ، أنا أتوق باخلاص إلى الموت والعدم » إن البوذية تعتبر الموت « بوابة إلى طراز مختلف من الحياة » ، هذا بينما تبدو فكرة البعث والحياة الاخرى غير محتملة أحيانا فى البومة العمياء : « إن عزائى الوحيد هو الامل فى العدم بعد الموت ... إن التفكير فى حياة أخرى يؤلمنى ويزعجنى » ، ولكن هناك فقرات أخرى فى الرواية يمدح فيها الموت ويبدو عليه الاستيعاب البوذى للموت والنيرفانا ، لنأخذ مثلا هذه الفقرة العاطفية عن الموت :

« إنه الموت فقط الذى لا يكذب أبدا ، إن حضور الموت يحطم كل الأوهام ، اننا جميعا أطفال الموت ، والموت هو خلاصنا من خداع الحياة ، إنه الموت الذى يقف على حافة الحياة ينادينا ويومى الينا » .

ورأفة بوذا على الحيوانات ، وإحتجاج البوذية على ذبحها معكوس بحيويته فى البومة العمياء ، والقصاب الذى يقع دكانه عبر الشارع الذى كان يسكن فيه البطل يرسم كمثال للقسوة والشر (كان هدايت نفسه نباتيا) . والخط العام للرواية وخاصة الذروة يبدو كأنه

مشتق من البوذية . حيث تمثل لكاته (الزوجة) الدناءة والخسة ، أما الفتاة الاثيرية ، فهى مثال الرقة والفضائل السامية ، ويقتل بطل « البومة العمياء » الزوجة فى نهاية الرواية ، وبالرغم من حبه وإعجابه بنقيضها فإنها هى الاخرى ينبغى أن تقتل . إن الموت فى البوذية هى « موت الجسد وضده المرئى » .

وإلى جوار البوذية والمذاهب الشرقية تبدو فى الرواية تأثيرات لكتاب غرتيين خاصة بو وديستيوفسكى وكافكا . تأثير بو بالروح القوطية التى تجلت فى الفنون الشعبية الغربية ، رقصات الموت والحوادث الخارقة للطبيعة وخاصة فى القوطية التشاؤمية التى حمل لواءها هوفمان ، وانتقلت إلى العالم عن طريقهما ، واستمرت هذه الكآبة الالمانية أداة مناسبة لكتابة القصة الخيالية ، وعن طريق بو انتقلت نقلة كبيرة ، لقد إنتقلت من الغريب النادر إلى الغريب العامض[١] . ثم ألا تشبه هذه الفقرة التى صدر بها (بو) كتابه تيمورلنك بعض فقرات البومة العمياء » « الم يحدث لك فى ربيع حياتك أن ثبت بصرك على شىء سار ثم أحسست أن الأرض تميد تحت قدميك ، ثم إختفت هذه الرؤيا[٢] » وقد كان بو نفسه كالبومة العمياء وجد فى زجاجة الشراب رفيقا « لا قصدا للمتعة ، ولكن لكى يهرب من عذاب ذكرياته ، ومن وحدته التى لا تحتمل ، من خوفه من نهاية غريبة توشك أن تحيق به »[٣] وعلى هذه الصلة نص مجملا هنرى ماسيه دون أن يبين لنا نصوص متقاربة[٤] .

---

(١) فنسنت بورانيللى : ادجار الان بو القصص والشاعر ترجمة عبد الحميد حمدى ص ١٧ - ١٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦ .
(٤) ترجمة المقالة حسن قائميان فى الكتاب السابق ذكره « نظريات » ص ١٤٤ .

فإذا تركنا تأثير بو إلى تأثر كافكا ، وجدنا كافكا أقوى تأثيرا ، وذلك لأن هدايت ترجم الكثير عن كافكا إلى اللغة الفارسية . وكتب دراسة عنه هي « رسالة كافكا : بيام كافكا » عدت قمة تشاؤمه فى أوج نضجه الفلسفى ، إن كافكا فى رأي هدايت « تشبه عقائده عقائد فرقة الكاتاريه (مانويه فرنسا) الذين كانوا يعتقدون أن الحياة على الأرض ليست إلا نوعا من اللعنة الالهية يخلصهم الموت فحسب من عبثها »[١] ، إن عالم كافكا « علم خانق ، عالم مجرد من الانسانية ، عالم اغتراب ، لكنه أيضا عالم ذو وعى خاص باغترابه ، وذو أمل غير قابل للتدمير » ... « وهكذا تقابل فى أعمال كافكا وتندمج وتتصادم لحظة التمرد ولحظة الايمان ، لحظة القبول ولحظة القلق ، لحظة السخرية ولحظة التساؤل ... إن عالم كافكا الذى يحيط به وعالمه الداخلى عالم واحد »[٢] وفى قصة « الصياد جريجوس » لنفس المؤلف نرى صيادا يسقط فى هاوية ، وهو لا يستطيع أن يموت . لقى بقى حيا ميتا أو ميتا حيا . إنه يقبل الموت بسرور كما يقبل الحياة أيضا بسرور . إنه نفس الميت الحى أو الحى الميت فى البومة العمياء[٣] ، وفى قصة « المسخ » لكافكا شخصية أخرى تذكر بشخصية البومة العمياء ، شخصية الذى انقلب صرصارا ، وكيف حبس نفسه ، وكيف ضاق الناس به وتعجلوا موته ، إنها نفس شخصية البومة العمياء الذى فقد مقومات شخصيته كانسان فضاق أقرب الناس إليه به[٤] .

---

(١) صادق هدايت « بيام كافكا » ص ٤٥ طهران سنة ١٣٤٢ هـ ش .

(٢) روجيه جارودى : واقعية بلا ضفاف . مجلة الهلال عدد مايو سنة ٦٦ ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) ترجمها صادق هدايت إلى الفارسية .

(٤) ترجمها صادق هدايت إلى الفارسية .

وعلاوة على ذلك فإن للبومة العمياء الكثير المشترك مع بعض شخصيات الأدب الأوربى المحتقرة للحياة . هناك بطل هنرى باربس (١٨٧٣ - ١٩٣٥) فى « الجحيم » الذى كان يغلق على نفسه دون العالم فى حجرته بالفندق ويعيش فى الخفاء متجسسا من خلال فجوة فى الحائط أو الاستور عند شيللى « الذى يصيبه الهزال ثم يموت لأنه لم يستطع ايجاد مقابل أراضى للفتاة التى عانقته ذات مرة فى الحلم » وهناك ايضا راسكو لينكوف عند ديستيوفسكى الذى يعزل نفسه فى حجرته مكتئبا ومفزوعا من فكرة القبض عليه ، وشخصيات أخرى لديستيوفسكى ، الشخصية الغريبة المرسومة فى « مذكرات من العالم السفلى » ، فكلا الرجلين واقع تحت وطأة آمال غير محققة ، كلاهما منغمس فى المعاناة ، كلاهما يعاف المخلوقات البشرية ويشمئز من المجتمع ويلجأ إلى العزلة وقد صور أحدهما كخنفساء والآخر كبومة عمياء[١] . إن هدايت يذكر فى روايته هذه الجملة على لسان البطل : وكنت أطوف بالمكان كما يطوف المجرم حول جريمته ، جملة تكاد تكون مستوحاة من « الجريمة والعقاب » .

وقد قارن باستير فاليرى رادو بعض الفقرات الواردة فى الرواية بما يراه مثيلا لها فى الآداب الأوربية ... فقد أتى بهذه الفقرة :

« أنا من كثرة الاشياء المتناقضة التى رأيتها ، والكلمات المتباينة التى سمعتها ومن كثرة ما رأت عينى أصبحت تحار فى ظواهر الاشياء المختلفة - هذه القشرة الرقيقة الخشنة التى تختفى خلفها الروح ، لم أعد أومن بشىء ، بثقل الاشياء أو ثبوتها ، وأشك الآن فى الحقائق الواضحة الجلية » .

---

(١) Kamshad, p. 174

وفسرها بأن انعكاس لـ « د.هـ.لورانس » فى « عشيق الليدى تشاترلى » : « لا أومن بخمس ما يدعى من علم بالشمس ، وأيضا لا أومن بأن القمر دنيا ميتة انفصلت عن دنيانا ... اننى أومن منذ عشرين سنة بكل ما يمكن قبوله من الوجهة النظرية ، والآن لا أقبل أى أمر ممكن قبوله من الوجهة النظرية »[1] وكان رادو أيضا أول من فطن إلى أوجه التشابه بين هدايت وسارتر ، ذلك التشابه الذى لا يعد وليدا لتأثير هدايت بأى حال من الاحوال فعمل هدايت سابق ، يرى رادو أن بعض فقرات هدايت يخيل للقارىء بأنها بقلم سارتر مثل « الظلام .. هذه المادة الغليظة السيالة .. التى تلوث كل مكان وكل شيء[2] » .

إن هناك أيضا بعد التشابه بين البومة العمياء والجحيم لسارتر ، احساسه بأن الجحيم هو الآخرون ، وبالراحة القصوى تنتابه حين أغلقت الفتاة الاثيرية عينها إلى الابد .

وقد فطن كمشاد إلى تشابه أقرب بين البومة العمياء وبين عمل آخر ، بين أحلام البومة العمياء تحت تأثير الأفيون ، والحالات التى ورد ذكرها فى « اعترافات مدمن أفيون انجليزي » لدى كوينسى ، إنه يتحدث عن احساساته بأنه عاش سبعين أو مائة سنة فى ليلة واحدة :

« كان يبدو لى فى كل ليلة أننى أنزل ، ليس مجازا بل حقيقة ، أنزل فى مهاوى عميقة لا شموس فيها ، عمقا وراء عمق بحيث كان من المؤيس أن استطيع الصعود ثانية » .

ويقارن ذلك بما ورد فى البومة العمياء :

---

(١) نظريات نويسندكان خارجى ص ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ – ١٣٥ .

« وقليلا قليلا انتابتنى حالة من الخمول والجمود ، وثمة نوع من الألم والعذاب أو أمواج لطيفة كانت تنساب من جسدى إلى الخارج ، ثم أحسست أن حياتى تعود القهقرى .. وكنت أرى بالتدريج حوادث زمان طفولتى الماضية وذكرياتها الممحاة ، لم أكن أراها فحسب بل كنت أشترك فى تفاصيلها وأحس بها ، كنت أصغر وأصير أكثر طفولية لحظة بلحظة ، ثم بهتت أفكارى وأظلمت فجأة وبدا لى أن كل وجودى قد صار معلقا بخطاف رفيع ، وأننى كنت أتأرجح على حافة قاع جب عميق مظلم ، ثم انفصلت عن الخطاب وأخذت انزلق وابتعد ، ولم أكن أصادف مانعا – كانت هاوية لا قرار لها فى ليل أبدى »[1] .

إن بعض الصور الواردة فى الرواية تشبه الرسوم السيريالية : « وفجأة وجدت نفسى فى ممرات مدينة غير معروفة ذات منازل غريبة وعجيبة على أشكال نماذج هندسية ، مناشير ومخروطات ومكعبات ، وذات نوافذ منخفضة ومظلمة ، وكانت الأبواب مغطاة بأزهار النيلوفر . كنت أتجول بحرية وأتنفس بسلام . ولكن سكان المدينة جميعا كانوا قد ماتوا ميتة غريبة كلهم تجمدوا حيث كانوا ، ونقطتان من الدم سقطت من فم كل منهم لتصل إلى ملابسه ، وكانت رأس كل واحد ألمسه تقتلع وتسقط إلى أسفل » إن هذا الكابوس فى رأي يشبه رسوم سلفادور دالى[2] وفى رأي يشبه الافلام التعبيرية الالمانية لمورناو[3] ، ولكن القارىء للرواية سوف يجد أوصافا كثيرة أحق بهذه الفكرة .

---

(١) Kamshad, p. 174.

(٢) عقائد وأفكار درباه صادق هدايت ، مقال جلال آل أحمد ص ٨٢ .

(٣) ورد هذا الرأى بالتفصيل فيما بعد .

آراء النقاد الغربيين فى البومة العمياء :

أثناء الحرب العالمية الثانية ترجم روجر ليسكو البومة العمياء إلى الفرنسية ولكنه لم يوفق فى نشرها الا سنة ١٩٥٣[٤] ترجمة قيل أن هدايت نفسه قرأها وأقرها . وأحداثت صيغة الكتاب ومادته العجيبة رد فعل عظيم فى الدوائر الأدبية الفرنسية وأخطر نقد فرنسى من ناحية الفهم والمعلومات هو نقد باستير فاليرى رادو عضو الاكاديمية الفرنسية والذى نشره فى المجلة الشهرية Homme et Monde (مارس سنة ١٩٥٤) وبعد مقارنة هدايت بجيراردى نرفال (١٨٠٨ - ١٨٥٥ م) يرد عالم البومة العمياء إلى تصوير سارتر للجحيم فى جلسة سرية (١٩٤٣) (!!)

وتحت عنوان « هدايت وشامخته » كتب الناقد الفرنسى الشهير اندريه روسو مقالا فى الفيجارو الادبية الاسبوعية (١٥ يوليه سنة ١٩٤٣) ، بعد أن قدم حياة هدايت يعلق على البومة العمياء قائلاً : « بالرغم من أن الرواية متأثرة بالكتابات الغربية ... إلا أنها قصة كاملة الشرقية ، فالكاتب ايرانى عالم بكل ما فى ايران من رسوم وعادات واحتفالات ، وهو يروى القصة بنبرة هادئة (!!) يتميز بها الكتاب الشرقيون ، وبعض تعبيراته تتكرر بصورة طبيعية وهذا التكرار يزيد من قيمتها الشاعرية . إن الرواية خيالات مدمن أفيون يتلاعب بالمكان والزمان ، وهى أيضا نغمة عشق للموت ، ولا يستطيع المرء أن يفهم القسم الاول : أهو عشق للموت أم عشق للخلود ، إن الكاتب ينسج الزمان بطريقة فنية عجيبة ، ما ليس له وقت فى الحاضر وما لم يكن له وقت فى الماضى ، وما ليس له وقت فى المستقبل ذلك لأن حدود

---

(٤) La Chouette Aveugle.

الزمان والمكان قد سقطت . وهناك وحدة خفية بينها وبين مسير الحياة وظهور الموت ، ويرى المرىء أحيانا شعاعا يجلى له هذه الروابط المثيرة للاضطراب . ويخيل اليك أن هذه الرواية من أشعة الكشف التى تخلخل الايام المضطربة بين الحياة والموت . والقسم الثانى لمحة أخرى من حياة الراوى يقوم على القسم الاول ، إنه تحفة من اللعن المنصب على أوضاع الحياة ، حياة الانسان البشعة ، الا تعبر البومة العمياء عن مأساة المصير الانسانى الذى يعانق جثة غارقة فى الدم تأكلها الديدان ؟ » ثم يختم مقاله بهذا الحكم الذى لا تحفظ فيه بالنسبة لهدايت : « فى رأيى أن الاثر الموحى للبومة العمياء كاف لوضع هدايت وللوهلة الاولى بين أعظم الكتاب المجيدين فى العالم فى عصرنا الحاضر ، وأظن أن هذه الرواية قد تركت طابعا خاصا فى التاريخ الادبى للقرن الذى نعيش فيه ، ومنحت عصرنا امتيازا خاصا مثل « المحاكمة » و « القضية » لكافكا »[1] وكتب اندريه بريتون فى Le Medium (يوليه سنة ١٩٥٣ معلقا على الرواية : « إذا كان هناك عمل شامخ فهذا هو » ثم يدير مقارنة بين البومة العمياء وأعمال مثل أوريليا لجيراردى نرفال وجراديفا لجونسون والالغاز لكنوت هامسون[2] .

وهناك مقال كتبه فيليب سوبو ونشر فى Journal de Genéve فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٣ وهو ذو طبيعة صحفية ، وتقييمه للبومة العمياء يبدو مبالغا بعض الشيء فهو يرى أن هذه الرواية هى شامخة الآداب الخيالية فى القرن العشرين ، ويرى أنها لا تقبل التلخيص لانها تلخيص

---

(١) نظريات . ص ٢٠٦ - ص ٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

لقدر البشرية ، وحين يقارن تشاؤم هدايت بتشاؤم بودلير يرى أن تشاؤم بودلير يبقى متصنعا[1] .

وظهر تعليق أكثر تحفظا كتبه رينيه لالو Les nouvelles littératures فى (٢٠ أغسطس سنة ١٩٥٣) وهو يبدأ هكذا « هل يعد هذا الكتاب عملا شامخاً ؟ » ثم يجيب : « إننى أميل أكثر إلى اعتباره كتابا خارجا عن المألوف مثيرا للحيرة » ويقارن بين هدايت وبين دى نرفال قائلاً : « فى هذه القصة الممتلئة بأضعاف الاحلام والأوهام المسحورة فإن هدايت يشبه دى نرفال مؤلف أوريليا كلاهما اعتمد على داخله اعتمادا تاما فى كتابة مؤلفه »[2] .

وقد حاول ريمون دى سنى أن يعطى تقييما عاما للرواية ولكنه لم يخرج بشيء . إنه فى بداية مقاله يأسف من أن الرواية لم تنل نصيبا من الجوائز الادبية ولم تثر الضجة التى تستحقها لقد أثارت الرواية فى نفسه أفكارا مريرة . وهو يرى أن البومة العمياء رواية أصيلة ، أما السبب الذى جاء به ، فقد قال أنه يخيل لقارئها أنها كتبت بقلم غمس فى أفيون (!!) ويمضى فى تعليقه قائلاً :

« وعند قراءة هذه الرواية تستطيع أن تتحرك تحت غطاء الرأس الحجرى الذى يغطى وجه العالم المعاصر ، ولكنك لن تعلم ثانية فى أى مكان أنت ، وسوف تبقى جاهلا بأصل كل المشكلات الجارية ومنشأها ، ومع ذلك فالكتاب قطعة من الفن ، يحتوى على كثير من المشكلات المجردة وليست له علاقة بالكتاب الذين يمرون مر الكرام على المشكلات اليومية . وليست هذه الرواية رواية سيريالية تشتم من

(١) نظريات ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(٢) نظريات نويسيندكان بزرك خارجى ص ١٨٢ - ص ١٨٣ .

ورائها رائحة العلاقة بما وراء الطبيعة ، وهى أيضا ليست رواية عجيبة أو غريبة . إذن ماذا تكون هذه الرواية ؟ لا أدرى . وحينما ندخل فى عالم الرواية يخيل الينا أننا فى عالم حقيقى . ولو لم تكن كلمة الواقعية شيئا فارغا لقلت أنه كتاب واقعى . ولكنها واقعية كلية مركبة على أساس نظرية اينشتين ، واقعية لا تعرف المكان والزمان »(١) .

وإلى نفس الفكرة الاخيرة ذهب جيلبر لازار فى مقاله الذى نشره فى : Les Letters Françaçises .

« هذا البحث « بمعناه المادى » المثالى الذى يتجلى فى لحظة من اللحظات ، وينتهى بأبشع وأقسى وأشد ألوان الواقعية هو أهم موضوعات هدايت ، ومما لاشك فيه أن هدايت كان يتلذذ من المرارة واليأس ، وكان من هذا الصنف من الناس الذين ينتشون من الحزن . ولكن اليأس الذى يشاهد فى البومة العمياء يأس مجرد ، وذو وجود متميز ، يمتد فيشمل قدر البشر والعالم ويخرج عن حدود الزمان والمكان (ومن الصعب جدا أن نشرح حادثة أو حادثتين من الرواية ، ونرى فى أى مكان أو زمان حدثت) ولكن جذورها واقعية تماما »(٢) .

وفى العدد الاول من المجلة الجديدة Bizarre مقال مختصر تحت عنوان : « الوحى : صادق هدايت والسينما » ، وهذه المقالة تناقش الاسس التعبيرية والرمزية فى البومة العمياء ، وتحاول أن تؤكد كيف أن بعض وسائل التعبير الأوربية خاصة الافلام الالمانية مثل أمثال « عيادة الدكتور كاليجارى » قد أثرت فى الرواية : « يمكن ربط

---

(١) نظريات نويسندگان بزرك خارجى : ص ١٩٩ – ص ٢٠٠ .

(٢) نظريات : ص ١٦٠ – ١٦١ .

البومة العمياء فى المجال البصرى بالأفلام التعبيرية الألمانية التى رآها هدايت أثناء وجوده فى فرنسا ، فالأجساد المغطاة بالدم والديدان تحتشد عليها كارهاصات للتحلل والأكفان والرحلة فى النعوش المحطمة القديمة يجرها حصانان صغيران ولا يزيد ما فيها عن حقيبة من العظام ، والحوذى العجوز ورأسه المختفى وراء شاله الصغير وهو منهار فى مقعدة وسوطه الطويل فى يده ، والعربة التى تعبر التلال والوديان بسرية ونعومة وصمت . كل ذلك يمكن أن يكون خارجا من رؤى مورناو فى نوسفراتو .. إن الخلفية التى إعتمدت عليها هذه القصة هى نفس كاليجارى والأعمال التعبيرية الأخرى ، وقد زاول هدايت نوعا من تكرار الرؤية وبالذات فى تعبيره عن عينى البطلة السوداوين تبعثان عن طريق حياة مستبقاة حتى على الزهريات التى رسمت عليها منذ قرون »[1] .

وفى ألمانيا – مع الاحتفاظ بالتقسيم – ظهرت ترجمتان للبومة العمياء كل واحدة منهما فى جانب من جانبى الحدود : الاولى قام بها حشمت مؤيد واتو هـ . هيجل واولريخ رايدر شميدت عن الفارسية وظهرت سنة ١٩٦٠ فى هامبورج ، والثانية فى ألمانيا الشرقية على يد جريد هينجر عن النص الفرنسى وفيها خاتمة عن هدايت كتبها صديقه بزرك علوى سنة ١٩٦١ ، ويعرض كارل بجنر الترجمة الأخيرة تحت عنوان « أغنية كئيبة عن ايران » فى Buecherkammentare (عدد ٣ سنة ١٩٦١) .

« هذه الرؤية المخيفة للعالم فى البومة العمياء يمكن أن تكون مفهومة إذا أدرك الانسان أنها عمل كاتب واقع تحت تأثير الافيون أكثر منها

(١) Kamshad, Modern Persian Prose Literature, p. 179.

عمل فنان ، ذلك أن الهذيان وقدره واشتباكه واستنتاجاته المريعة وراء ما يدركه الخيال . إنها بالتأكيد تجارب الكاتب الاستبطانية ظهرت واستقرت عن طريق شبح البومة العمياء . إن المحللين النفسانيين وأولئك الذين يريدون البحث فى حدود العلم سوف يرون هذه الرواية مهمة »[١]

أما نقاد الفكر اليسارى فقد قابلوا الرواية بشىء من الاحتجاج ربما لفرديتها المغرقة : يرى كميسروف عضو الأكاديمية السوفيتية :

« إن هناك آراء مختلفة حول رواية البومة العمياء ، فهناك نقاد يعتبرونها نموذجا لتأثير الادب الأسود فى مؤلفها ، وآخرون يعتبرونها انعكاسا للثلاثينات فى ايران . ومع ذلك فمن الممكن أن نلتقى فيها بأفكار ناشئة عن سريان الظلم فى المجتمع حيث يقول الراوى : فى هذه الدنيا الوضيعة المليئة بالفقر والمسكنة ظننت لأول مرة أن ثمة شعاعا من الشمس تألف فى حياتى ، لكن واسفاه لم يكن شعاع شمس . ولكنه كان وميضا عابرا فحسب . نجمة ساقطة تجلت لى فى صورة امرأة أو ملاك . وفى ضوئها رأيت للحظة بل لبرهة كل محن حياتى . وتتبعت عظمتها ومجدها ثم إختفى هذا الومض مرة ثانية فى دوامة الظلام حيث أن تختفى – لا ، لم أستطيع أن احتفظ بهذا الشعاع العابر لنفسى . وبطل الرواية لم ييأس قط من لقاء المحبوب ، ولكن هناك موانع عديدة فى طريقه ، الفساد والكذب والخداع وكلها من ملامح الثلاثينات فى ايران »[١]

---

(١) Kamshad, p. 180

(١) نظريات نويسندكان خارجى درباره صادق هدايت : ص ٢٤٧ – ص ٢٤٨

وعلى عكس هذه الفكرة المعتدلة عن الرواية يرى المستشرق الروسي روزن فيلد أن « رواية البومة العمياء مكتوبة تحت تأثير انحطاط آداب أوروبا الغربية وتحت تأثير أدب الخوف والموت »(١) .

وقد ظهرت ترجمة د . ب . كوستللو الانجليزية للرواية سنة ١٩٥٨ ، وهي ترجمة حرفية ، وحتى التعبيرات والمصطلحات الفارسية تترجم حرفيا . وهي ذات دعاية مضللة تجعل من هدايت « تلميذا لسارتر » وليس المؤلف مسئولا عن ذلك . وكان نجاح الرواية في إنجلترا أقل منه في فرنسا والمانيا . وكمثال فإن تعليق ميشيل كرايتون المختصر في الصنداى تايمز ١٦ فبراير سنة ١٩٥٨) كان :

« هذه الرواية حشد بدائي هائم .. نوع من الغليان اللفظي كابوس غربي في أعجوبة صغيرة من السلاسة إلى جوار الحكاية الشرقية . إن بعض الشراب قبل قراءتها قد يفيد، لكن اياك أن تحاول »(٢) .

أما اوزول بلاكستون ناقد Time and Tide فيلاحظ أن الرواية : « مزيج من أحلام الأفيون والقدرية حيث تتكرر الجمل كأنها التفاق حية ومع كل تكرار تخبرنا الكثير عن قصة الماضي والحاضر والمستقبل ، ونقرأ الهذيان والمخاوف التي تشبه رشفة من زجاجة خمر مسمومة ... إن هدايت لا يمكن أن يتذوقه كل شخص ولكن الرواية تصبح مرغوبة عند أولئك الذين يودون تغيير غذائهم الأدبي وكتمرين منشط للقوة الشعرية »(٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

(٢) Kamshad, p. 180

(٣) Kamshad, p. 180

وعن أسلوب الترجمة الانجليزية كتب ايلين فرازر فى The Twentieth Century قائلة : « إن الأسلوب المبهرج المضطرب للترجمة الانجليزية يكشف عن حالة داخلية مؤلمة ، ولكن الرواية من الأعمال التى نرى من الصعب نسبتها إلى آدب تجربة انسانية عادية »(١) .

إن الحديث عن الثورة النقدية التى أحدثتها البومة العمياء يطول ، ولا يمكن أن يتشابه انطباعان عن الرواية ... ولا أجد ما أختم به هذه المقدمة للترجمة العربية – التى أقدمها اليوم للقارىء العربى والتى قمت بها عن النص الاصلى الفارسى – أفضل من ختام الناقد الامريكى وليم كى آرثر لمقاله عن البومة العمياء بعد ظهورها فى أمريكا والذى نشره فى Saturday Review .

« وأظن أنه لا قارىء هناك سوف يتحمل البومة العمياء ، وسوف لا يصيبه الروع عند قراءتها للنهاية ، بالرغم من أن حكمه الادبى قد يكون أكثر تحفظا من حكمى . ولكن الالزام بالقراءة شىء غير القراءة الادبية . أنه ليساعدنا بحق ذلك الاقرار المتضمن فى بيت شعر لمواطن هدايت من القرن السابع عشر : الشاعر صائب الاصفهانى :

كل هذه الثرثرة عن الكفر والدين تقود فى النهاية إلى مكان واحد .
إن التفسيرات تختلف ولكن الحلم واحد(٢) .

د . ابراهيم الدسوقى شتا
مدرس اللغات الشرقية
كلية الآداب – جامعة القاهرة

---

(١) Kamshad, p. 180

(٢) Kamshad, Modern Persian Prose Literature, p. 181.

البومــــة العميـــــاء

فى الحياة جراح كالجذام ... تأكل الروح ببطء .. وتبريها فى انزواء ، هذه الآلام لا يمكن اظهارها لانسان ، إذ أن البشر عموما ألفوا اعتبار هذه الآلام التى لا تصدق نوعا من الاتفاقات والأحداث النادرة العجيبة ، ولو أن انسانا تحدث بها أو كتب عنها ، فإن الناس يحاولون تلقيها ببسمة شاكة ساخرة تمشيا مع العقائد الجارية ومعتقداتهم الشخصية ، وذلك لأن البشر – حتى الآن – لم يكتشفوا لها علاجا أو دواء ، ودواؤها الوحيد هو نسيانها عن طريق الشراب أو النوم المصطنع بواسطة الأفيون والمخدرات . ولكن مما يؤسف له أن تأثير هذا النوع من الأدوية مؤقت وبدلا من أن يسكن الآلام يزيد من وطأتها بعد فترة .

هل يستطيع إنسان – فى يوم ما – أن يقف على اسرار هذه الاتفاقات الميتافيزيقية ، هذا الانعكاس لظل الروح الذى يتجلى فى حالة الاغماء والبرزخ بين النوم واليقظة ؟

سأتناول واحدة فقط من هذه الأحداث التى جرت لى شخصيا . وهزتنى إلى درجة لن أنساها ابدا ، وآثارها المشئومة ستسمم حياتى ، مادمت حيا ، من الأزل إلى الابد ، إلى الحد الذى يخرج من فهم البشر وادراكهم ، قلت « تسمم » ولكنى كنت أريد أن أقول ، اننى اكتويت بلوعته وسأظل مكتويا بها دائما .

أحاول الآن أن أكتب ما أذكره ، اكتب ما تبقى فى خاطرى من تسلسل الأحداث ، ربما أستطيع أن أحكم عليها حكما نهائيا ، لا بل من أجل أن أطمئن فقط ، أو على أساس أن أتمكن من تصديقه ، لأنه بالنسبة لى لا يهمنى أن يصدق الآخرون أو لا يصدقون ، فقط ، أخاف أن أموت فى الغد قبل أن أكون قد عرفت نفسى ، ذلك اننى من خلال تجارب الحياة قد عثرت على حقيقة هى أن ورطة هائلة توجد بينى وبين الآخرين ، وفهمت أنه ينبغى على أن أخلد إلى الصمت إلى أقصى حد ممكن ، وإلى أقصى حد ممكن يجب أن أحتفظ بأفكارى لنفسى ، وإذا كنت الآن قد قررت أن أكتب فهذا راجع إلى أنه يجب على أن أعرف نفسى لظلى .. الظل المنحنى على الحائط وكأنه يتجرع كل ما أكتب باشتهاء بالغ – فمن أجله أريد أن أقوم بتجربة – ولنر .. ربما يستطيع أن يعرف كل منا الآخر أكثر ... لأننى منذ قطعت كل علائقى بالآخرين أريد أن أتعرف على نفسى بطريقة أفضل .

أفكار فارغة ! لتكن – ولكنها تعذبنى أكثر من أية حقيقة ، أهؤلاء الناس يشبهوننى ، الذين لهم فى الظاهر مثل ما لى من احتياجات ورغبات وأهواء ، أهؤلاء الناس لا يخدعوننى ؟ أليسوا حفنة من الظلال أتت إلى الوجود سخرية منى ومن أجل خداعى ؟ أليس كل

KMH

ما أحس به وأراه وأقومه وهما جميعه يختلف عن الحقيقة اختلافا كبيرا ؟

أنا أكتب فقط من أجل ظلى ، الذى سقط على الحائط فى مواجهة المصباح ، ينبغى أن أقدم نفسى إليه .

. . . .

. . . .

فى هذه الدنيا الوضيعة المليئة بالفقر والمسكنة ، ظننت لأول مرة أن ثمة شعاعا من الشمس قد تألق فى حياتى . لكن وا أسفاه لم يكن شعاع شمس ، ولكنه كان وميضا عابرا فحسب ، كان نجمة طائرة تجلت لى فى صورة امرأة أو ملاك ، وفى ضوئها رأيت للحظة بل لبرهة كل محن حياتى ووقفت على عظمتها وجلالها ، ثم اختفى هذا الومض مرة ثانية فى دوامة الظلام حيث يجب أن يختفى

– لا ، لم أستطع أن احتفظ بهذا الشعاع العابر لنفسى .

ثلاثة أشهر – لا ، شهران وأربعة ايام ، منذ أن فقدت اثرها ، ولكن ذكرى عينيها الساحرتين ، أو شرارة عينيها القاتلة ظلت فى حياتى دائما ، كيف استطيع أن انساها وهى مرتبطة بحياتى إلى ذلك الحد ؟

لا ، لن أذكر اسمها ابدا ، وذلك لأنها بهذا القوام الأثيرى الدقيق المحاط بالضباب ، وبهاتين العينين الواسعتين الدهشتين البراقتين التى كانت حياتى تحترق وتنصهر خلفهما ببطء وألم ، لم تعد تنتسب إلى هذه الدنيا الوضيعة الوحشية – لا ، ينبغى ألا ألوث اسمها بالأشياء الأرضية .

لقد أخرجت نفسى بعدها تماما من زمرة الناس ، من زمرة الحمقى والسعداء ، ولكى أنسى التجأت إلى الشراب والأفيون مرت حياتى وتمر طوال اليوم بين جدران حجرتى الأربعة .. حياتى برمتها قد انقضت بين جدران أربعة ...

كانت سلواى طول يومى هى الرسم على غلاف المقلمة ، كل وقتى كنت أنفقه فى الرسم على غلاف المقلمة وادمان الشراب والأفيون ، وكنت قد اخترت هذا العمل المضحك ، عمل الرسم على غلاف المقلمة لأصيب نفسى بالدوار ولأقتل الوقت .

ومن حسن الاتفاق أن منزلى يقع خارج المدينة ، فى مكان ساكن هادىء بعيد عن ضوضاء حياة الناس وجلبتها ، جوانبه خالية تماما وما حوله خراب ، ومن الناحية الأخرى من الخندق تبدو فحسب المنازل الطينية الحقيرة ثم تبدأ المدينة . لا أدرى أى مجنون غريب الأطوار قد أقام هذه الدار من عهد دقيانوس[1] ، وحين أغمض عينى فإن جوانبه وحناياه لا تتجسد امام عينى فحسب ، بل أحس بضغطها فوق كتفى . دار يمكن فقط أن تكون قد رسمت على المقالم القديمة .

ينبغى أن أكتب كل هذا حتى أدرك أنه لم يختلط على أمرى ، يجب أن أوضح كل هذا لظلى الذى سقط على الحائط ، أجل كان قد بقى لى قبلا لذة واحدة أو ملهاة واحدة ، كنت ارسم على المقالم بين جدران حجرتى الأربعة وأمضى الوقت بهذه التسلية المضحكة ولكن بعد أن رأيت هاتين العينين ... بعد أن رأيتهما ، سقط من نظرى تماما معنى كل هزة وكل حركة ومفهومها وقيمتها ، ولكن الشىء الغريب الذى

---

(١) دقيانوس : هو الملك الذى حدث فى عهده اختفاء أهل الكهف ويضرب به المثل فى الفارسية للشىء الموغل فى القدم .

لا يصدق هو : لماذا كان منظر كل رسومى من البداية على نسق واحد وشكل واحد ؟ كنت أرسم دائما شجرة سرو ، وتحتها يجلس القرفصاء رجل عجوز محدب الظهر يشبه مرتاضى الهنود وقد التف بعباءة ، وحول رأسه شال معقود وقد وضع سبابته اليسرى على شفتيه فى حالة تعجب وفى مواجهته تنحنى فتاة ذات ثوب أسود طويل وهى تقدم اليه زهرة نيلوفر هدية ، فقد كان يفصلهما جدول ماء . هل كنت قد رأيت هذا المنظر قبل ذلك أم ألهمته أثناء النوم ؟ لا أدرى ، اعرف فقط أن كل ما كنت ارسمه كان نفس هذا المنظر ونفس هذا الموضوع . كانت يدى ترسم هذا المنظر دون ارادة . وأعجب من هذا أنه كان يوجد من يشترى هذا الرسم ، بل كنت ارسل هذه المقالم إلى الهند عن طريق عمى وكان يبيعها ويرسل ثمنها إلى .

كان هذا المنظر يبدو لناظرى قريبا وبعيدا فى نفس الوقت .. هل كان كذلك ؟ لا أذكر تماما . والآن خطرت ببالى فكرة : قلت ينبغى أن أكتب ذكرياتى ، غير أن هذا الحادث حدث لى بعد ذلك بكثير ولا يرتبط بالموضوع ، فقد نفضت بعد هذا الحادث يدى من الرسم تماما، منذ شهرين ، لا ، منذ شهرين واربعة أيام تماماً ، كان اليوم الثالث عشر من النوروز ، كان الناس جميعا قد إندفعوا إلى خارج المدينة . وكنت قد أغلقت نافذة حجرتى لأخلو للرسم ، وبالقرب من الغروب كنت منهمكا فى الرسم ، ودفعة واحدة فتح الباب ودخل عمى – أنه هو نفسه قال إنه عمى – لم أكن قد رأيته قبل ذلك أبدا لأنه كان قد ذهب إلى سفر بعيد منذ بداية شبابه ، كأنه كان ربان سفينة ، وتصورت أنه ربما كانت له معى تجارة لأننى كنت قد سمعت أنه يقوم بالتجارة . على كل حال كان عمى رجلا عجوزا محدب. الظهر يلف شالا هنديا حول رأسه ، وكان على كتفيه عباءة صفراء كما كان يلف

رأسه ووجهه بشال رقبته ، وكان جيبه مفتوحا يرى من خلاله صدره الأشعر ، وكان يمكن عد شعر لحيته التي خرجت من تحت شال رقبته شعرة شعرة . كانت أجفانه حمراء كالناسور وشفتاه مشقوقتين ، وكان بيني وبينه شبه بعيد ومضحك ، كأنما كانت صورتى قد إنعكست على سطح مرآة ماسخة . كنت بينى وبين نفسى أتصور شكل والدى على هذا النسق دائما ، وبمجرد أن دخل ذهب وجلس القرفصاء فى ركن من الحجرة ، وفكرت فى أن أعد شيئا لضيافته ، وأشعلت المصباح وذهبت إلى خزانة حجرتى المظلمة ، وأخذت ابحث فى كل مكان ربما استطيع أن اجد شيئا يصلح لاطعامه مع علمى بأنه لا يوجد شيء بالمنزل ، إذ لم يبق لى أفيون أو مشروب ، وفجأة وقع بصرى على أعلى الرف ، وكأنما الهمت ، رأيت زجاجة خمر معتقة كنت قد ورثتها – وكأنما كانوا قد أعدوا هذا الشراب بمناسبة مولدى – كانت فوق الرف ، ولم يكن لى مثل هذا الفضول فى البحث قط ، كنت قد نسيت تماما أن شيئا كهذا موجود فى منزلى ، ومن أجل أن تصل يدى إلى الرف وضعت تحت قدمى كرسيا خشبيا بدون ظهر ، ولكن بمجرد أن تقدمت لأحمل الزجاجة وقع نظرى من خلال فتحة تهوية الرف إلى الخارج ، فرأيت فى الصحراء التى تقع خلف حجرتى رجلا عجوزا محدب الظهر جالسا تحت شجرة سرو وفتاة شابة ، لا ... بل ملاك سماوى كانت واقفة أمامه منحنية تقدم له بيدها اليمنى زهرة نيلوفر زرقاء ، فى حين كان الرجل العجوز يلوك ظفر سبابه يده اليسرى .

كانت الفتاة فى مواجهتى تماما ، ولكن كان يبدو أنها لم تكن ملتفتة إلى ما حولها قط ، كانت تحدق دون أن تنظر إلى شيء ما وقد جمدت ابتسامة دهشة لا ارادية على زواية شفتيها – كما لو كانت تفكر فى

انسان غائب – وكان من ذلك المكان أن رأيت عينيها المخوفتين الساحرتين ، عينيها اللتين تبدوان وكأنهما تعنفان انسانا تعنيفا مرا شديدا ، العينين المضطربتين الحائرتين المهددتين الواعدتين ، وقد امتزج شعاع حياتى بهاتين الكرتين البراقتين المليئتين بالمعنى وإنجذب إلى اعماقهما ، وقد شدت هذه المرآة الجذابة كل وجودى إليها إلى حد يعجز فكر البشر عن ادراكه – عينان حوراوان تركمانيتان لهما نور ميتافيزيقى مسكر ، وكأنما تخيفان وتجذبان فى نفس الوقت ، وكأنها كانت قد رأت بعينيها مناظر مخيفة ميتافيزيقية لم يكن كل شخص يستطيع أن يراها ، كانت ذات وجنتين بارزتين وجبهة مرتفعة وحاجبين مزججين متصلين وشفتين ممتلئتين نصف مفتوحتين ، شفتين كأنهما انفصلا لتوهما من قبلة حارة طويلة ولكنهما لم تشبعا بعد ، وكانت ذات شعر أسود مسترسل غير مرتب أحاط بوجهها القمرى وقد التصقت خصلة منه بصغها ، كانت كافة أعضائها واللامبالاة الاثيرية لحركاتها تنبىء عن ضعفها وبقائها المؤقت ، كان يمكن فقط أن تكون حركاتها الموزونة لفتاة راقصة فى معبد هندى .

كانت حالتها الحزينة وفرحها المشوب بالحزن تدل كلها على أنها لا تشبه الناس العاديين ، لم يكن جمالها عاديا على الاطلاق . لقد تجلى أمامى كمنظر فى رؤيا أفيونية وولدت فى نفسى حرارة الحب الذى يولده « يبروج الصفر »[1] ، فقدها اللطيف الممشوق الذى ينساب مع الخط الذى ينزل من كتفها مارا بذراعها وثديها وصدرها وكفلها

---

(١) يبروج الصفر : نبات يشبه الآدمى . ويعتقد البعض أن أى انسان يحمله يكون محبوبا من جميع الناس. كما يقول البعض : إنه نبات تقف أوراقه فى مواجهة ضوء الشمس وله ثمرة لذيذة يعتصر منها سائل لذيذ الطعم .

انظر برهان قاطع وفرهنك نفيسى مادة « ماده كياه »

وساقها كأن جسدها أخرج لتوه من أحضان زوجها مثل أنثى يبروج الصفر التى فصلت عن قرينها .

كانت قد ارتدت ثوب اسود مغضنا يلتصق بجسدها تماما ، ولكنى حين نظرت إليها ، كانت تبدو كما لو كانت تريد أن تقفز عبر الجدول الذى فصل بينها وبين الرجل العجوز ، ولكنها لم تستطع . كان الرجل العجوز حينذاك يقهقه ضاحكا ، ضحكة خشنة وكريهة تصيب جسد المرء بالقشعريرة ، ضحك ضحكة شديدة مخنثة الصوت وساخرة وبدون أن يتغير وجهه وكأنها صدى ضحكة أطلقت فى فضاء .

وقفزت من أعلى الكرسى خائفا وبيدى زجاجة الشراب ، لا أدرى لماذا كنت أرتعد ، كانت رعدة مليئة بالخوف والنشوة وكأننى فزعت من حلم جميل ومخيف ، وضعت زجاجة الشراب على الأرض ووضعت رأسى بين يدى – كم من الدقائق أو الساعات استغرق ذلك ؟ – لا أدرى – وما أن عدت إلى وعيى حتى حملت زجاجة الشراب ودخلت الحجرة ، وكان عمى قد ذهب وترك باب الحجرة مفتوحا كأنه فم ميت ، ولكن رنين ضحكة الرجل العجوز الخشنة كانت لا تزال ترن فى أذنى .

كان الجو آخذا فى الاظلام ، وكان المصباح يخرج دخانا ، ولكن أثر الرعدة اللذيذة المخيفة التى كنت أحسها فى داخلى كان لا يزال باقيا ، وتغيرت حياتى منذ تلك اللحظة ، وكان كافيا أن يترك ذلك الملاك السماوى ، أو تلك الفتاة الاثيرية تأثيرها فى نفسى إلى حيث يعجز فهم البشر عن ادراكه .

فى هذا الوقت غبت عن نفسى ، بدا لى وكأننى كنت أعرف اسمها قبل ذلك ، كانت شرارة عينها ولونها ورائحتها وحركاتها تبدو غير

غريبة عنى ، وكأنما كانت روحي وروحها فى الحياة الاولى وفى عالم المثال متجاورتين ومن أصل واحد ومن مادة واحدة ، وكان ينبغى أن يلحق كل منا بالآخر وأن نتوحد . كان لزاما لنا أن نظل متقاربين فى هذه الحياة الدنيا ، لم أكن أريد أن ألمسها مطلقا ، كان يكفى فحسب الأشعة اللامرئية المنبعثة والممتزجة من جسدينا . هذه الحالة المثيرة للخوف التى بدت لى لأول مرة معروفة ، ألا يشعر عاشقان دائما بنفس هذا الاحلساس وهو أن كليهما قد رأى الآخر قبل اللقاء ، وأن رابطة خفية كانت قد وجدت بينهما ؟ فى هذه الدنيا الوضيعة كنت أريد حبها أو لا أريد حبا قط . وهل كان من الممكن أن يؤثر انسان آخر فى ؟ ولكن ضحكة الرجل العجوز الخشنة المؤثرة ، هذه الضحكة المشئومة قطعت العلاقة بيننا .

استغرقت طوال الليل أفكر فى هذا الأمر ، أردت عدة مرات أن اذهب وأطل من كوة الحائط ، ولكنى كنت أخاف من صوت ضحكة الرجل العجوز . ولازمنى هذا التفكير ايضا فى اليوم التالى ... هل كنت أستطيع أن أصرف النظر عن رؤيتها تماما ؟ وأخيرا وغداة ذلك اليوم صممت وأنا فى أشد حالات الخوف والرعدة أن أعيد زجاجة الشراب إلى مكانها مرة ثانية . ولكنى بمجرد أن أزحت الستار من أمام الخزانةنظرات وكأن الحائط فى مواجهتى أسود مظلما ، مثل نفس الظلمة التى خيمت على حياتى . ولم يكن يرى قط منفذ أو كوة إلى الخارج . كانت الكوة ذات الأركان الأربعة التى فى الحائط مسدودة تماما ، ومن جنس الحائط نفسه وكأنها لم تكن موجودة منذ البداية ، سحبت الكرسى إلى الامام ، ولكنى مهما ضربت الحائط بقبضتى كالمجنون وتسمعت أو نظرت فى ضوء المصباح ، لم تكن

توجد أدنى علامة لكوة الحائط . ولم تجد ضرباتى نفعا فى الحائط السميك العريض ... كان قد صار قطعة من الرصاص .

هل كنت أستطيع أن أغض الطرف عن الأمر تماما؟ ولكن الأمر لم يكن بيدى . ومن ذلك الوقت فما بعد.. وكأننى روح معذبة مهما انتظرت ومهما ترقبت ومهما بحثت لم يجد ذلك فتيلا . وطأت كل الأماكن المحيطة بمنزلى ، لا ليوم واحد أو ليومين ولكن لشهرين وأربعة أيام مثل المجرمين الذين يحومون حول أماكن ارتكاب جرائمهم . وكنت كل يوم عند الغروب أطوف حول منزلى كالطائر الذبيح لدرجة اننى أصبحت أعرف كل الحجارة والحصى فى ذلك المكان ، ولكنى لم أكتشف أى أثر لشجرة السرو أو لجدول الماء أو للأشخاص الذين رأيتهم هناك . وكم ركعت ليالى أمام ضوء القمر ، استغثت ، وتضرعت ، للأشجار ، للحجارة ، للقمر الذى ربما كانت تنظر إليه ، استعنت بكل المخلوقات لكنى لم أر أى أثر لها . وأدركت تماما أن كل هذه الامور لا تجدى نفعا ، وذلك لأنه لا يمكن لها أن تكون ذات علاقة أو ارتباط بأشياء هذه الدنيا – فالماء الذى تغسل به جدائل شعرها يجب أن يكون من عين فريدة غير معروفة لأحد غيرها أو تكون من غار مسحور ، كما أن ثوبها لم يكن من خيوط الصوف والقطن العادية ، ولم تكن قد خاطته أيد عادية ، أيد بشرية . كانت وجودا مميزا . وفهمت أن زهور النيلوفر هذه ليست زهورا عادية . وصرت واثقا أنها لو غسلت وجهها بماء عادى لتغضن ، ولو أمسكت بأصابعها الطويلة الرقيقة زهورا عادية لذبلت أصابعها كأوراق الزهور .

أدركت كل هذا ، هذه الفتاة ، لا بل هذا الملاك كانت بالنسبة لى منبع اعجاب والهام لا يقالان . وجودها رقيق لا تناله يد . كانت هى

التى ولدت فى ذاتى حس العبادة ، وأنا واثق أنه لو وقعت عليه نظرة شخص غريب ، شخص عادى من البشر لدنستها وأذبلتها .

ومنذ أن فقدتها ، منذ أن أقيم حائط صخرى ، حاجز رطب بلا منفذ بثقل الرصاص بينى وبينها أحسست أن حياتى ضاعت وصارت عبثا إلى الابد .

ومهما كان دلال نظرتها واللذة العميقة التى لمحتها من عينيها من طرف واحد ولم تعطنى جوابا لأنها لم تكن قد رأتنى .. الا اننى أحتاج إلى هاتين العينين وتكفى نظرتها لحل جميع المشكلات الفلسفية والألغاز الالهية بالنسبة لى ، بنظرة واحدة منها لا تبقى هناك لدى أسرار أو رموز .

ومن ذلك الوقت فصاعدا زدت فى مقدار الشراب والأفيون الخاص بى . لكن واحسرتاه بدلا من أن تشل هذه الأدوية المؤيسة فكرى وتصيبه بالعجز ، بدلا من أن تجعلنى أنسى ، كان فكرها وقوامها ووجهها يتجسدون أمامى بشدة أكثر يوما بعد يوم ، ساعة بعد ساعة ... دقيقة بعد دقيقة .. كيف كنت أستطيع النسيان ؟ فى حين أنها كانت أمامى دائما ، حينما تكون عيناى مفتوحتين أو مغمضتين ، فى النوم واليقظة ! كانت دائما أمام عينى من خلال كوة خزانة حجرتى ، مثل الليل الذى يسيطر على فكر الناس ومنطقهم ، ومن خلال المنفذ ذى الأركان الأبعة الذى كان يفضى إلى الخارج .

حرمت على الراحة ، وكيف كانت الراحة ميسرة لى ؟ كنت قد اعتدت غسق كل يوم أن أخرج للنزهة ، لا أدرى لماذا كنت أريد ، ولماذا كنت أصر على أن أكتشف شجرة السرو وايكة النيلوفر ، اعتدت على هذه النزهة مثلما كنت قد اعتدت على تناول الأفيون ،

وكأنما تدفعنى قوة ما إلى هذا العمل ، وطوال الطريق كنت بجماع وجودى منصرفا إليها وإلى ذكرى أول مرة التقيت بها . وكنت أريد أن أجد المكان الذى رأيتها فيه فى اليوم الثالث عشر من النوروز ، ولو أننى أكتشفت ذلك المكان ، لو أننى استطيع أن أجلس فى ظل شجرة السرو تلك ... لولد ذلك بالتأكيد حس الراحة فى حياتى – لكن وأسفاه – لم يكن هناك شيء الا التراب والرمل الحار ، وعظام من ضلوع خيل ، وكلب كان يتشمم فى القمامة ... هل كنت قد التقيت بها حقيقة ؟ – أبدا .. ولكننى رأيتها بتلصص وفى الخفاء من ثقب كوة شؤم بخزانة حجرتى ، مثل الكلب الجائع الذى كان يتشمم ويبحث فى القمامة ، ولكن بمجرد أن يرى أحداً من بعيد قد أتى بالقمامة يذهب خائفا ويختفى ، ثم يعود ليبحث عن قطعاته المفضلة فى القمامة الجديدة . كنت أنا أيضا فى نفس الحالة ، ولكن هذه الكوة قد صارت مسدودة .. وكانت هى بالنسبة لى باقة من الورد الندى العبق .. ألقوا بها فى القمامة .

وفى اللية الأخيرة التى ذهبت فيها للنزهة كدأبى كل ليلة ، كان الجو كئيبا ممطرا وثمة ضباب كثيف يكتنف الأطراف ، وفى الجو الممطر الذى يقلل من بشاعة الألوان ووقاحة ملامح الأشياء ، كنت أحس بنوع من التحرر والراحة وكأنما كان المطر يغسل أفكارى المظلمة – وفى تلك الليلة كان مالا يجب أن يكون – كنت أتسكع بلا إرادة ، ولكن فى ساعات الوحدة هذه ، فى هذه الدقائق التى لا أذكر كم من الوقت استغرقت ، ظهرت صورتها المخيفة المجردة أشد بكثير من المعتاد وكأنها برزت من خلف السحاب والدخان ، وتجسدت أمام عينى صورتها الجامدة الساكنة كالرسوم على غلاف المقالم ...

وحينما عدت كان شطر كبير من الليل قد انقضى ، كما كان ضباب كثيف قد تراكم فى الجو بحيث اننى لم أكن أرى ما أمام قدمى ، ولكننى حينما وصلت إلى باب منزلى بحكم العادة وبحكم الاحساس الخاص الذى كان قد استيقظ فى ، رأيت شبحا مرتديا السواد ، شبح امرأة تجلس امام باب منزلى !

أشعلت عود ثقاب حتى أجد مكان المفتاح ، ولكن لا أدرى لماذا تحولت عينى بلا ارادة إلى الشبح الذى يرتدى السواد ، كانت هناك عينان منحرفتان ، عينان واسعتان سوداوان وسط وجه قمرى باهت ، عرفت نفسى العينين اللتين تحدقان فى وجهه الانسان دون أن تنظرا ، ولو لم أكن قد رأيتها من قبل على هذا النسق لكنت أيضا عرفتها - لا لم أكن قد خدعت - كان هذا الشبح الذى يرتدى السواد هى ، كنت كانسان يحلم وهو يعلم أنه نائم ، ويريد أن يستيقظ لكنه لا يستطيع ، وقفت حائرا مبهوتا وتيبست فى مكانى ، احترق عود الثقاب حتى نهايته وأحرق أصبعى ، وحينذاك عدت إلى وعيى دفعة واحدة ، وأدرت المفتاح فى القفل ، وفتح الباب ، وانتحيت جانبا فنهضت من على العتبة كمن يعرف طريقه تماما ، ومرت من المدخل المظلم ، وفتحت باب حجرتى ودخلت أنا أيضا فى اثرها ، وأضأت المصباح متعجلا ، ورأيتها قد ذهبت وتمددت على سريرى . كان وجهها فى الظل ، ولم أكن أدرى هل رأتنى أم لم ترنى ، هل كانت تستطيع أن تسمع صوتى أم لا ، لم تكن تبدو عليها حالة خوف أو رغبة فى مقاومة ، وكأنما كانت قد جاءت دون ارادة منها .

هل كانت مريضة ؟ أم ترى ضلت طريقها ؟ كانت قد أتت دون ارادة كانسان يسير أثناء النوم - وفى هذه اللحظة لا يمكن لمخلوق أن

يتصور الاحاسيس التى مررت بها ، أحسست بنوع من الألم ، ألم لذيذ من النوع الذى لا يقال ، لا لم أكن قد خدعت ، كانت هى نفس المرأة ، نفس الفتاة أتت إلى حجرتى دون دهشة ودون أن تنبس ببنت شفة ، كنت أتخيل دائما بينى وبين نفسى أن لقاءنا الأول سوف يكون على هذا النسق ، كان لهذه الحالة التى اتخذت هى بالنسبة لى فيها حكم حلم عميق بلا نهاية ، ذلك أنه يجب أن يستغرق الانسان فى نوم عميق حتى يرى مثل هذا الحلم ، وكان هذا الصمت بالنسبة لى كحياة خالدة ، لأن فى حالتى الأزل والابد لا يكون هناك حديث .

بالنسبة لى كانت امرأة وفى نفس الوقت كانت تحمل معها شيئا مما هو فوق مستوى الحياة البشرية ، وقد حمل وجهها لى نوعا من النسيان الذى يصيب بالدوار كل وجوه الناس الآخرين ، بحيث إن الرعدة قد سرت فى جسدى لرؤيتها وتخلخلت ركبتاى ، وفى هذه اللحظة رأيت كل القصة المؤلمة لحياتى وراء عينيها الواسعتين ، الواسعتين بلا نهاية ، عينان واسعتان نديتان لامعتان ككرتى ماس القيتا فى الدموع - فى عينيها - فى عينيها السوداوين اكتشفت الليل الأبدى والظلمة المتراكمة التى كنت أبحث عنها ، وغصت فى سوادها المخيف الأسطورى ، وكان الأمر كأن قوة ما تجذب من داخل وجودى ، كانت الأرض تميد تحت قدمى ، ولو أننى كنت قد سقطت لاحسست بنشوة لا توصف .

توقف قلبى وجاهدت فى أن أكتم انفاسى ، كنت أخاف أن أتنفس فتختفى هى كسحاب أو دخان ، كان صمتها كالمعجزة ، وكأنما أقيم حائط بللورى بيننا ، ومن هذه اللحظة ، من هذه الساعة أو الابدية كنت اختنق ، كانت عيناها المريضتان كأنهما تريان شيئا غير طبيعى

لا يستطيع كل شخص أن يراه ، كأنها كانت تريانالموت، أغمضت ببطء وأغلقت جفنيها .. وأنا كالغريق الذى طفا على سطح الماء بعد أن انتفخ وصعدت روحه ، أخذت أرتعد من شدة الحرارة ، وطفقت أجفف العرق من فوق جبهتى بطرف كمى .

كان وجهها على نفس الحال ساكنا ، ولكنه كان كأنما صار أكثر نحافة وشحوبا ، وكانت وهى ممددة على هذا النسق تمتص ظفر أصبع السبابة بيدها اليسرى ، كان وجهها كضوء القمر ومن خلف الملابس السوداء الرقيقة التى كانت تلتصق بجسدها ظهرت خطوط سيقانها وساعدها وجانبا الصدر وكل جسدها .

ومن أجل أن أرها جيدا انحنيت ، إذ كانت عيناها مغمضتين ، ولكنى مهما نظرت فى وجهها كانت تبدو كأنها بعيدة عنى تماما ، وفجأة أدركت اننى لا أعلم شيئا قط عن مكنونات صدرها وليست هناك أية علاقة بيننا .

وأردت أن أقول شيئا ، ولكنى خفت أن تنزعج أذناها من صوتى ، أذناها الحساستان اللتان يجب أن تكونا معتادتين على سماع موسيقى بعيدة سماوية هادئة . وفكرت أنها ربما تكون جائعة أو ظمأى ، فذهبت إلى خزانة حجرتى حتى أجد شيئا من أجلها - بالرغم من أننى أعلم أننى لن أجد شيئا فى المنزل - ولكن كما لو أننى ألهمت ، كان لدى فوق الرف زجاجة خمر معتقة كنت قد ورثتها عن أبى - تسلقت الكرسى الذى لا ظهر له وأنزلت زجاجة الخمر ، وبخفة وعلى رؤوس اصابع قدمى ذهبت إلى جوار السرير ، فرأيتها نائمة كأنها طفل مريض مهدم ، كانت مستغرقة فى النوم وقد التحمت رموشها الطويلة

كالمخمل ، فتحت الزجاجة ومن بين أسنانها وقد طبقت على بعضها وأرقت ببطء كأسا من الخمر من فمها .

ولأول مرة فى حياتى ولد فى احساس براحة فجائية فقد رأيت هاتين العينين قد أغلقتا وكانتا مثل سرطان يعذبنى وكابوس يضغط داخلى بمخالبه الحديدية وقد هدأ قليلا ، فجذبت كرسيا لنفسى وضعته إلى جوار السرير وأخذت أحملق فى وجهها ، يا له من وجه طفولى ، ويالها من حالة غريبة ، هل يمكن أن تكون هذه المرأة ، هذه الفتاة ، أو ملاك العذاب هذا (إذ لم أكن أعلم أى اسم أطلقه عليها) .. هل يمكن أن نعيش حياة مزدوجة ؟ بهذا القدر مستريحة وإلى هذا القدر لا مبالية ؟

الآن كنت أستطيع أن أحس بحرارة جسدها وأن أشم الرائحة الرطبة التى تتصاعد من ضفائرها الثقيلة السوداء . لا أدرى لماذا مددت يدى المرتعدة – لأن يدى لم تكن طوع ارادتى ومررتها على شعرها – الشعر الذى كان دائما ملتصقا بصدغيها ، ثم غرزت اصابعى فى شعرها – كان شعرها باردا رطبا – كان باردا ، باردا تماما ، وكأنما كانت قد مرت بضعة أيام وهى ميتة – لم أكن قد أخطأت ، كانت ميتة . ومددت يدى إلى داخل صدرها فوضعتها على ثديها وقلبها ، لم يكن هناك أدنى احساس بخفقان القلب وأتيت بمرآة وضعتها تجاه فتحتى الأنف .. لكن أقل حس بالحياة لم يكن موجودا فيها ...

وأردت أن ادفئها بحرارة جسدى ، أن أهبها حرارتى وآخذ منها برودة الموت ، ربما أستطيع بهذه الوسيلة أن أنفث روحى فى جسدها – خلعت ملابسى ، واعتليت السرير ونمت بجوارها وكنا ملتصقين كنباتى « يبروج الصفر » احدهما ذكر والآخر أنثى . كان جسدها فى

الأصل مثل انثى « يبروج الصفر » قد فصلت عن ذكرها . وكان لها أيضا نفس عشق « يبروج الصفر » المحرق ، كان فمها حريفا مر الطعم ، له طعام نهاية الخيار ، كان كل جسدها قد صار فى برودة الجليد . وكنت أحس أن الدم يتجمد فى شراييني وأن هذه البرودة تنفذ إلى أعماق قلبى . كل مساعى كانت عبثا ، ونزلت من السرير ، وارتديت ملابسى ، لا ، لم يكن هذا كذبا ، هى هنا فى حجرتى - جاءت إلى فراشى وسلمتنى جسدها ، سلمت جسدها وروحها كليهما إلى !

حينما كانت حية ، وحتى ذلك الزمان الذى كانت فيه عيناها فياضتين بالحياة ، كانت ذكرى عينيها هى التى تعذبنى فقط ، ولكنها الآن بلا حس ولا حركة ، جاءت باردة مغمضة العينين وسلمت نفسها لى ... بعينين مغمضتين ...

كانت هذه هى نفس الانسانة التى سممت كل حياتى ، ربما كانت حياتى فى الاصل مهيأة لأن تسمم ، ربما كنت لا أستطيع أن احيا حياة أخرى غير الحياة المسممة ! ! والآن هنا فى حجرتى أعطتنى جسدها وظلها ، أما روحها المدمرة الفانية التى لم يكن لها أدنى علاقة بالعالم الأرضى فقد خرجت ببطء من بين ردائها الاسود ذى الطيات ومن خلال الجسم الذى يعذبها وهامت على وجهها فى دنيا الظلال ، وربما حملت ظلى معها ايضا . أما جسدها فقط سقط هناك دون حس أو حركة ، وأعضاؤها الناعمة الملساء وعروقها وعظامها فقد كانت تنتظر التحلل ، وهيئت لأن تكون غذاء لذيذا للديدان والفئران تحت التراب - وأنا فى هذه الحجرة الفقيرة المليئة بالنكبة والمسكنة فى حجرة تشبه القبر بين ظلمة ليل الخلود الذى كان قد احتوانى ونفذ حتى داخل

الجدران ، كان يجب على أن أمضى ليلة طويلة مظلمة باردة ولا نهائية بجوار ميت ، بجوار جثتها ، وبدا لى أنه منذ أن كانت الدنيا دنيا ومنذ أن خلقت ، كان معى فى حجرتى المظلمة ميت ، ميت بارد بلا حس أو حركة .

فى هذه اللحظة كانت أفكارى قد تجمدت ، وانبعثت فى حياة فريدة عجيبة ولما كانت حياتى مرتبطة بكل الموجودات التى تحيط بى ، كانت لى علاقة عميقة بكل الظلال التى تتموج حولى ، كانت لى صلة عميقة غير قابلة للانفصال مع الدنيا وحركة المخلوقات والطبيعة ، واستقر تيار اضطراب بينى وبين كل عناصر الطبيعة عن طريق سلسلة من أوتار غير مرئية ، لم يكن أى نوع من التفكير أو الخيال يبدو لى غير طبيعى ، كنت قادرا على أن أفهم بسهولة رموز النقوش القديمة وأسرار الكتب الفلسفية المعقدة والحماقة الأزلية للظواهر والانواع لأننى فى هذه اللحظة كنت شريكا فى دوران الأرض والافلاك وفى نماء النبات وفى حركة الحيوانات ، وكان الماضى والمستقبل والبعيد والقريب قد صاروا شركاء بل توائم لحياتى الملئة بالأحاسيس .

وفى مثل هذا النوع من المواقف يلجأ كل شخص إلى عادة قوية فى حياته ، إلى شغف خاص به ، فيذهب السكير ليسكر ، والكاتب ليكتب ، ويقوم النحات بنحت الحجر ، كل منهم يفرغ شحنة قلبه وعقدته بواسطة الهروب إلى المحرك القوى فى حياته . وفى هذه المواقف يستطيع فنان حقيقى أن ينتج من نفسه عملا شامخا ، أما أنا - أنا الذى كنت تعسا بلا موهبة ، أنا الذى يرسم على غلاف المقالم ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل بهذه الرسوم الجافة اللامعة المسلوبة الروح ليكون عملا شامخاً ؟ ولكننى أحسست فى كل وجودى بموهبة جارفة وحماسة

مفرطة وكان ذلك نوعا من تيار الفكر والحماسة الخاصة ، كنت أريد أن أرسم على الورق هاتين العينين اللتين أغلقتا إلى الأبد وأن أحتفظ بها لنفسى ، وقد دفعنى هذا الاحساس إلى أن أضع تصميمى فى حيز التنفيذ ، أى أن ذلك لم يكن نابعا من ارادتى ، خاصة وفى الوقت نفسه الذى يكون الانسان حبيسا فيه مع جثة ، غير أن هذه الفكرة بذاتها بعثت فى نفسى سرورا خاصا .

وأخيراً أطفأت المصباح الذى كان ينفث الدخان ، وأحضرت شمعدانين وأشعلتهما فوق رأسها ، وفى مواجهة الضوء الراقص للشمع كان وضع وجهها أكثر ملاءمة وفى الظل المضىء للحجرة حلت بها حالة اسطورية أثيرية ، فأخذت الورق وما يلزم لعملى واقتربت من سريرها ، لأن هذا السرير كان قد صار ملكا لها - كنت أريد أن أقوم بفراغ بال برسم لهذا الشكل الذى حكم عليه بالتحلل والعدم ببطء شديد وقطعة بعد قطعة ، هذا الشكل الذى يبدو جامدا بلا حركة . وعلى صفحة الورق ضبطت خطوطه الاساسية ، واخترت لنفسى الخطوط التى كانت أكثر تأثيرا فى من ضمن خطوط هذا الوجه - والرسم مهما كان صغيرا وبسيطا الا أنه ينبغى أن يكون مؤثرا ذا روح ، ولكنى كنت قد اعتدت على الرسم المطبوع على غلاف المقالم ، ويجب على الآن أن أعمل فكرى ، وأجسد خيالى أمام نفسى ، أى ذلك الشىء المبهم الذى أثر فى من وجهها ، وأخذت ألقى نظرة على وجهها ثم أغمض عينى وأخط بعض الخطوط على سطح الورق ، لعلى بهذه الوسيلة - كما فكرت - أجد ترياقا لروحى المعذبة ... وأخيراً لجأت إلى الحياة الساكنة .. إلى الخطوط والأشكال ...

كان هذا الموضوع يتلاءم ملاءمة خاصة مع طريقتى الميتة فى الرسم ، رسم من وجه ميت ، كنت فى الأصل رساما للموتى ، ولكن

عينيها المغمضتين ، هل كان يلزمنى أن أراهما مرة أخرى ، ألم تكونا مجسدتين فى فكرى بالقدر الكافى ؟

لا أدرى ، وحتى اقتراب الصبح رسمت وجهها عدة مرات ، ولكن واحدا منها لم يكن موافقا لميلى قط ، وكنت أمزق كل ماأرسم ، لم أمل هذا العمل ، ولم أكن أحس أيضا بمرور الزمان .

وتحولت الظلمة إلى ضوء ، ومن خلف زجاج النافذة نفذ إلى حجرتى ضوء كدر ، كنت مشغولا بصورة بدت لى أفضل من الجميع ولكن : العينان ؟ هاتان العينان اللائمتان وكأنهما تلومانى على ذنوب لا تغتفر ، لم أستطع أن أنقل هاتين العينين على الورق – ودفعة واحدة محيت من خاطرى كل حياة وذكرى لهاتين العينين ، كان سعيى هباء ، فكلما كنت أنظر إلى وجهها ، لم أكن أستطيع أن أتذكر وضعها ، وفجأة رأيت فى الوقت ذاته أن وجنتيها قد احمرتا قليلا قليلا وبعثت فيهما الحياة وكان بهما لون كلون الكبدة ، مثل لون اللحم أمام دكان القصاب ،وعيناها، عيناها الدهشتان اللتان فتحتا عن آخرهما . العينان اللتان تجمع فيهما كل نور الحياة وكانتا تلمعان بضوء مريض ، عيناها المريضتان المليئتان باللوم ، أخذتا تفتحان ببطء وتحدقان فى وجهى – وكانت أول مرة تنتبه فيها إلى – نظرت إلى ثم انسدلت جفونها ثانية ، ربما لم يستغرق هذا الحدث أكثر من لحظة ، ولكنه كان كافيا لأن التقط حالة عينيها وأنقلها على الورق ، وبسن ريشة الرسم رسمت هذا الوضع ... وهذه المرة لم أمزق الرسم ثانية ...

ثم نهضت من مكانى واقتربت منها ببطء ، كانت فى خيالى تبدو حية ، بعثت فيها الحياة ، لقد نفث حبى فى بدنها الروح – ولكنى عن كثب احسست برائحة ميت ، برائحة ميت آخذ فى التحلل ، وعلى

جسدها كانت تتلوى ديدان كثيرة ، وثمة زنبوران ذهبيان كانا يطيران حولها فى ضوء الشموع . كانت ميتة تماما ولكن : لماذا وكيف فتحت عينيها ؟ لا أدرى . هل كنت قد رأيتها فى عالم الرؤية أم أنها كانت حقيقة ؟

لا أريد من أحد أن يسألنى هذا السؤال ، ولكن لب الأمر كان وجهها ، لا ، عينيها ، والآن ملكت هاتين العينين ، ملكت روح عينيها على الورق ، ولم يعد يهمنى جسدها ، هذا الجسد الذى حكم عليه بالعدم وأن يكون طعاما للديدان والهوام تحت التراب ! - والآن .. ومن الآن فصاعدا أصبحت طوع يدى ولم أعد أنا خاضعا لها . وأستطيع أن أرى عينيها أنى أردت ، وأخذت الرسم بحيطة شديدة ووضعته فى الصندوق الصفيحى الذى أحمل فيه نقودى ثم خبأته فى خزانة حجرتى .

أخذ الليل يمضى رويدا رويدا ، وكأنما كان أراق من السآمة ما فيه الكفاية ، كانت الأصوات البعيدة تصل إلى سمعى فى همس ، ربما كان هناك طائر أو عصفور عابر يحلم ، وربما كان همس الحشائش وهى تنبت ، وحينئذ كانت النجوم الباهتة تختفى خلف كتل السحاب ، وأحسست فوق وجهى بأنفاس الصبح الهادئة .. وفى الوقت نفسه ارتفع من بعيد صياح ديك .

ماذا استطيع أن أفعل بجثة ؟ بجثة كانت قد بدأت فى التحلل فكرت أولا فى أن أدفنها فى حجرتى ، ثم فكرت فى أن أخرجها وألقيها فى بئر ، فى بئر تنبت حوله أزهار النيلوفر الزرقاء .. ولكن من أجل الا يرى انسان هذه الأشياء كم كان يلزمها من تفكير ومن سعى ومن مهارة ! وإلى جوار ذلك لم أكن أريد أن تقع أنظار غريب عليها ، كان يجب أن

أقوم بكل هذه الأمور فى السر وبيدى أنا - جعلت فداها - وأية فائدة ستكون لحياتى بعدها ، أما بالنسبة لها فلم يكن ينبغى لانسان قط من الناس العاديين غيرى أن تقع انظاره على جثتها مطلقا ، كانت قد جاءت إلى حجرتى وسلمت جسدها البارد وظلها لى ، ومن أجل الا يراها شخص آخر ، ومن أجل الا تدنس بأنظار غريب ، انتهيت إلى فكرة آخر الامر : ماذا لو أننى مزقت جسدها ووضعته فى حقيبة ، نفس حقيبتى القديمة وحملتها معى إلى الخارج .. إذن لدفنتها بعيدا ، بعيدا جدا عن عيون الناس .

وهذه المرة لم أتردد كثيرا ، فأحضرت السكين ذات المقبض المصنوع من العظام والتى كنت أحفظها فى خزانة حجرتى ، وبدقة شديدة مزقت أولا الرداء الأسود الرقيق الذى كان يسجن جسدها كخيوط العنكبوت ، وكان الشيء الوحيد الذى يستر جسدها ، وبدت لناظرى أطول من المعتاد وكأن قامتها قد امتدت ، ثم فصلت رأسها ، وسقطت قطرات الدم المتجمدة باردة من حلقها ثم قطعت يديها وساقيها ووضعت جسدها وكل أعضائها بنظام فى الحقيبة وغطيتها بردائها .. بنفس الرداء الأسود ، وأغلقت الحقيبة ووضعت مفتاحها فى جيبى ، وبمجرد أن انتهيت تنفست الصعداء ، ورفعت الحقيبة اختبر وزنها ، كانت ثقيلة ، ولم يكن هذا الاحساس بالجهد قد ظهر لدى قط - لا ، لم أكن استطيع أن أحمل الحقيبة بمفردى .

امتلا الجو بالسحب مرة ثانية وبدأ المطر يسقط رذاذا . وخرجت من حجرتى لعلى استطيع أن أجد من يساعدنى فى حمل الحقيبة ، ولم يكن يرى فى تلك الديار ديار . وأنعمت النظر إلى مسافة قليلة ، ومن خلف الجو الملوث بالضباب رأيت رجلا عجوزا محدب الظهر ،

KMH

وكان قد جلس تحت شجرة سرو ، لم يكن وجهه الذى كان يلفه بشال عريض ظاهرا ، وذهبت نحوه ببطء ، ولم أكن قد قلت شيئا حتى أطلق الرجل العجوز ضحكة مبحوحة جافة وكريهة إقشعر لها بدنى وقال :

« - إذا كنت تريد حمالا فأنا مستعد ... وأمتلك أيضا عربة لنقل التوابيت ، وأحمل الموتى كل يوم وأودعهم التراب فى جبانة الشاه عبد العظيم ، وأصنع التوابيت أيضا ، وعندى تابوت بحجم كل شخص ، لا يخطئه قيد شعرة ... أنا مستعد من الآن .... »

وقهقه ضاحكا حتى إهتز كتفاه ، وأشرت بيدى ناحية منزلى ، لكنه لم يعطنى فرصة للكلام .. وقال :

« - لا يهم ... أنا أعرف منزلك ... هيا الآن » .

ونهض من مكانه ، وعدت إلى منزلى ، ودخلت حجرتى ، وحملت حقيبة الجثة بصعوبة حتى الباب ، ورأيت عربة لنقل الموتى قديمة ومحطمة بجوار الباب وقد شد إليها حصانان هزيلان كأنهما هيكلان عظميان . وكان الرجل العجوز الأحدب يجلس على المقعد الأمامى وبيده سوط طويل ، ولكنه لم يستدر لينظر إلى أصلا - وبمشقة وضعت الحقيبة فى داخل العربة إذ كان فى وسطها مكان خاص بالتوابيت ، وذهبت أنا إلى أعلى فتمددت فى المكان الخاص بالتوابيت ووضعت رأسى على حافته حتى أستطيع أن أرى ما حولى ، ثم دحرجت الحقيبة نحو صدرى ، وشددت بيدى عليها .

وقرقع الصوت فى الهواء . وسار الحصانان يلهثان . وفى خلال الجو الممطر كان يرى بخار زفيرهما كالأنابيب . كانت خطواتهما واسعة متناسقة أما قوائمها النحيلة فكانت تشبه يد سارق قطعت أصابعه فى

جريمة طبقا للشريعة ووضعت فى زيت مغلى ، تدق الأرض بشدة دون أن يصدر عنها صوت ، وكانت أصوات الأجراس المعلقة فى رقبتيهما تجلجل فى هذا الجو الرطب بلحن خاص ، واجتاحنى نوع من الراحة بلا دليل ومن النوع الذى لا يوصف من قمة رأسى إلى أخمص قدمى بحيث لم تكن حركة عربة نقل الموتى المغلقة تصيبنى بأى قلق أو إهتزاز ، ولكنى كنت أحس بثقل الحقيبة فوق قفصى الصدرى

كان الأمر وكأن جثتها وتابوتها دائما نفس هذا الثقل الذى يضغط على صدرى ، واحتوى الجادة ضباب كثيف ، وأخذت العربة تجتاز بسرعة خاصة الجبل والسهل والوادى . وظهرت حولى مناظر جديدة لا مثيل لها لم أكن قد رأيتها من قبل فى نوم أوفى يقظة ، كانت ترى على جانبى الجادة جبال منقطعة بعضها عن الآخر ، وأشجار عجيبة وغريبة مقلوبة وملعونة تبدو من الفجوات التى بينها منازل رمادية اللون على شكل المثلثات والمكعبات والمنشورات وذات نوافذ واطئة ومظلمة بلا زجاج وكانت هذه النوافذ تشبه الأعين الغاشية لشخص فى هذيان الحمى ، ولم أكن أدرى على شىء تحتوى الجدران إذ كانت تبعث على القر والبرودة حتى أعماق القلب ، وكان يبدو كما لو أن كائنا حيا ما لم يستطع أن يتخذ من هذه المنازل سكنا . ربما بنيت هذه المنازل من أجل ظلال مخلوقات أثيرية .

ربما كان الحوذى يحملنى خلال جادة خاصة ، وربما كان يسير عبر الصحراء ، ففى بعض الأماكن فقط كانت الجذوع المقطوعة والأشجار الملتوية المتثنية قد أحاطت بالطريق ، وكانت ترى من خلفها البيوت الواطئة والعالية بأشكال هندسية مخروطية وشبه مخروطية بنوافذ رقيقة ومائلة تطل من مصاريعها أزهار النيلوفر الزرقاء التى كانت

وقفز الرجل العجوز من مقعده بخفة عجيبة لم أكن أستطيع أن أتصورها ، وحملنا الحقيبة وذهبنا سويا إلى جذع شجرة كانت بجوار جدول جاف وقال :

« - هذا مكان مناسب » .

وبدون أن ينتظر جوابا منى ، إنشغل بالحفر بالفأس والجاروف اللذين كانا معه ووضعت الحقيبة على الأرض ، ووقفت فى مكانى جامدا من الدهشة ، أخذ الرجل العجوز يعمل بظهر منحن وخفة خبير ، وأثناء الحفر وجد شيئا شبيها بآنية خزفية ولفها فى منديل قذر ونهض قائلاً :

- هذه هى الحفرة ، بحجم الحقيبة تماما ، لا تخطئها قيد شعرة .

ووضعت يدى فى جيبى لأعطيه أجره ، ولم أكن أملك أكثر من قرانين ودرهم ، فأطلق الرجل العجوز ضحكته الجافة المثيرة للقشعريرة وقال :

« - لا يصح ، هذا لا داعى له ، أنا أعرف منزلك ، وفى مقابل أجرى وجدت آنية ، زهرية رازية ، من صنع مدينة الرى القديمة ! » .

ثم ضحك بقامته المقوسة الحدباء حتى إهتز كتفاه ، ووضع الزهرية الملفوفة فى منديل قذر تحت إبطه ، وذهب إلى عربة نقل الموتى المغلقة وبسرعة عجيبة إستقر على المقعد . وقوقع السوط فى الهواء ، وسار الحصانان لاهثين ، وكان صوت الأجراس المعلقة فى رقبتيهما يجلجل فى الجو الرطب بلحن خاص ، وقليلا قليلا إختفت العربة من أمام عينى وراء كتلة الضباب .

وبمجرد أن أصبحت وحيدا تنفست الصعداء ، وكأنما رفع من على صدرى حمل ثقيل ، واجتاحتنى راحة لذيذة من رأسى إلى قدمى ونظرت حولى : كانت ساحة صغيرة محصورة بين التلال والجبال الزرقاء ، وعلى جزء من الجبل كانت هناك آثار وأبنية قديمة ذات أحجار سميكة ، وبالقرب منها كان يرى مجرى نهر جاف . كان هذا المكان هادئا مهجورا لا حس فيه ولا حركة ، وكنت سعيدا من أعماق قلبى . وفكرت بيني وبين نفسى أن هاتين العينين الواسعتين حينما تستيقظان من النوم الأرضى سوف تجدان مكانا جديرا ببنيتهما وجمالهما . وحينذاك كما كان ينبغى ستكون بعيدة عن سائر الناس ، عن سائر الموتى الآخرين مثلما كانت فى حياتها بعيدة عن حياة الآخرين .

حملت الحقيبة بحذر ووضعتها داخل الحفرة ، كانت الحفرة بحجم الحقيبة تماما ولم تخطئها قيد شعرة . ولكنى أردت للمرة الأخيرة أن أنظر داخلها ، داخل الحقيبة . ولكنى حينما نحيت رداءها الأسود جانبا رأيت عينين واسعتين سوداوين وسط الدم المتجمد والديدان التى كانت تتلوى حول نفسها ، كانتا جاحظتين تنظران إلى فى جمود . وكانت حياتى قد غرقت فى أعماق هاتين العينين وأغلقت الحقيبة بسرعة وحثوت عليها التراب ثم وطئت التراب بقدمى ، وذهبت فقطفت بعض زهور النيلوفر التى لا رائحة لها وغرستها على قبرها ، ثم أتيت بمقدار من الحصى والرمال فنثرتها عليه حتى تضيع معالمه تماما بحيث لا يستطيع أى شخص أن يتعرف عليه ، وقد قمت بهذا الأمر على خير وجه لدرجة أننى نفسى لم أستطع أن أميز قبرها عن بقية الأرض .

وحينما إنتهى عملى ، ألقيت نظرة على نفسى ، فرأيت ملابسى قد تلوثت بالتراب ومزقت والتصق بها دم أسود متجمد ، وكان هناك زنبوران ذهبيان يطيران حولى والتصقت ديدان صغيرة بجسدى وأخذت تتلوى حول نفسها وأردت أن أنظف طرف ثوبى من بقعة الدم ، ولكنى كلما بللت كمى بلعابى وحككتها كانت بقعة الدم تزداد رسوخاً وغلظة بحيث تسرى إلى كل جسدى ، وأحسست فوق بشرتى ببرودة لزجة للدم .

وكان أن إقترب الغروب . وأخذ المطر ينزل رذاذا ، وبلا إرادة إقتفيت آثار عجلات عربة نقل الموتى ، وسرت فى طريقى ، وبمجرد أن أظلم الجو فقدت آثار عجلات عربة نقل الموتى ، وطفقت أسير ببطء وبلا هدف وبلا تفكير أو إرادة فى ظلمة كثيفة متراكمة . لم أكن أدرى إلى أين سيلقى بى طريقى . إذ أننى بعدها ، وبعد أن رأيت هاتين العينين الواسعتين بين الدم المتخثر كنت أسير فى ليل مظلم ، فى ليل داج أطبق على حياتى برمتها ، لأن هاتين العينين اللتين كانتا بمثابة مصباح فيه قد أطفئتا إلى الأبد ، ولهذا أصبح سيان عندى أن أصل إلى مكان ومأوى أو لا أصل أبدا ...

ساد صمت مطبق ، وبدا لى أن الجميع كانوا قد هجرونى ، وأننى إلتجأت إلى مخلوقات لا روح فيها ، وكان أن ولدت رابطة ما بينى وبين سير الطبيعة ، بينى وبين الظلمة العميقة التى حلت بروحى ، هذا الصمت نوع من اللغة التى لا نفهمها . ومن شدة النشوة دارت رأسى وانتابتنى حالة غثيان ولم تقو ساقاى على حملى وأحسست فى نفسى بكلال لا حد له ، فذهبت إلى داخل المدافن بجوار الطريق وجلست على شاهد قبر ووضعت يدى بين رأسى وتحيرت فى أمرى ، وفجأة أعادنى إلى وعى رنين الضحكة الجافة الكريهة فأدرت وجهى

ووجدت شبحا يلف وجهه ورأسه بشال رقبته قد جلس بجوارى وقد وضع تحت إبطه شيئا ما ملفوفا فى منديل وتوجه إلى قائلاً :

« لابد أنك كنت تريد أن تذهب إلى المدينة ، هل ضللت طريقك ؟ أليس كذلك ! ؟

لابد أنك تقول فى نفسك ماذا أفعل أنا فى هذا الوقت من الليل داخل المقابر ، ولكن لا تخف ، فكل شغلى هو الموتى . إن عملى حفار قبور ، وليس عملا سيئا ، أليس كذلك ! ؟ أنا أعلم كل طرق هذا المكان وحفره ، مثلا ذهبت اليوم لأحفر قبرا وعثرت على هذه الزهرية تحت التراب ، أتعلم ؟ أنها زهرية رازية ، صناعة مدينة الرى القديمة ! إنها لا تقدر بمال أصلا ، أنا أعطيك هذه الآنية خذها ، ذكرى منى » .

ووضعت يدى فى جيبى ، وأخرجت قرانين ودرهما واحدا ، وقال الرجل وهو يضحك ضحكته الجافة المثيرة للقشعريرة :

« أبداً ، إنها بلا مقابل ... أنا أعرفك ، وأعرف منزلك أيضاً ، وهنا بجوارى لدى عربة لنقل الموتى ، هيا لأوصلك إلى منزلك ، إن العربة على مسافة قدمين .... » .

وترك الآنية إلى جوارى ونهض ، وكان كتفاه يهتزان من قوة الضحكة ، وحملت الآنية وسرت فى أثر قامة الرجل العجوز الحدباء ، وعند منحنى الطريق كانت تقف عربة نقل موتى متصدعة ذات حصانين أسودين نحيلين ، وذهب الرجل العجوز فاعتلى المقعد بخفة خاصة ، وذهبت أنا إلى داخل العربة وتمددت فى المكان المخصص للتابوت ووضعت رأسى على حافته المرتفعة وذلك لكى أستطيع رؤية ما حولى . ووضعت الزهرية على صدرى وأسندتها بيدى .

وقرقع السوط فى الهواء ، وسار الحصانان فى الطريق لاهثين ، كانا يخطوان خطوات واسعة وهادئة ، وكانا يدقان الأرض بحوافرهما ببطء ودون صوت ، وكان صوت أجراس رقبتيهما يجلجل بلحن خاص فى الجو الرطب ، ومن خلف السحاب كانت النجوم مثل حدقتى عينين براقتين برزتا من بين الدم المتجمد الأسود وأخذتا تحملقان فى وجه الأرض ، واجتاحتنى راحة قصوى من رأسى حتى قدمى . ولكن الزهرية كانت تضغط على صدرى بثقل الجثة ، وكانت الأشجار المتشابكة ذات الأغصان الملتوية والمنثنية كأنها قد تكاثفت فى الظلمة خشية أن تتداعى وتسقط على الأرض . أما المنازل العجيبة الغريبة الشكل المفصلة هندسيا بنوافذها المهجورة السوداء فقد كانت ترسم خطوطا على جانبى الطريق . وكان ملاط جدران هذه البيوت كأنه الفراشة المضيئة (البراقة) يشع الحزن والمرض من نفسه ويصعدهما ، وأخذت الأشجار تمر مجموعة ردف بعضها بطريقة مخيفة وتفر خلف بعضها ، وبدا لى أن بعض باقات النيلوفر كانت تتشابك مع سيقانها وتسقطها ، واجتاحت كل روحى رائحة جثة ، رائحة لحم متحلل ، وكأنما كانت رائحة جثة قد نفذت إلى داخل جسمى وأننى كنت أنام طوال عمرى فى تابوت أسود وثمة شخص عجوز أحدب لم أر وجهه يطوف بى بين الضباب والظلال العابرة .

وقفت عربة نقل الموتى ، وحملت الآنية ونزلت من العربة ، كنت أمام منزلى ، ودخلت حجرتى بسرعة ، ووضعت الآنية على المنضدة وذهبت إلى صندوق الصفيحى نفس الصندوق الذى كنت أخزن فيه أشيائى ، وكنت أحفظه فى خزانة حجرتى وحملته إلى الباب لأعطيه أجرا إلى الرجل الحوذى العجوز ، ولكنى لم أجده وكان قد تبخر ، ولم يبد له أو للعربة أثر ، وعدت ثانية إلى حجرتى يائسا ، وأشعلت

السراج وأخرجت الآنية من طيات المنديل ونظفت ما عليها من غبار بطرف ردائى ، كانت آنية خزفية قديمة ذات لون بنفسجى حال لونها حتى صارت بلون الزنبور الذهبى وكان جانب منها على شكل إطار لوزى من النيلوفر الأزرق اللون وفى وسطه ...

وسط الاطار اللوزى كان وجهها ... كان قد رسم فيه وجه إمرأة ذات عينين واسعتين أكثر من المعتاد ، عينين تلقيان باللوم وكأنهما تلومان على ذنوب لا تغتفر لم أكن أنا نفسى أعرفها ، عينين مخوفتين أسطوريتين مضطربتين ودهشتين وفى الوقت نفسه كانتا مهددتين واعدتين . كانت هاتان العينان تخيفان وتجذبان وكان يتألق فى أعماقها شعاع ميتافيزيقى ومسكر ، كانت ذات وجنتين بارزتين وجبهة مرتفعة وحاجبين رفيعين متصلين وشفة ممتلئة نصف مفتوحة وشعر مسترسل إلتصقت خصلة منه بصدغيها .

ومن الصندوق الصفيحى إخرجت الصورة التى كنت قد رسمتها لوجهها ليلة الأمس وقارنت فلم تختلف قيد أنملة عن الصورة التى على الزهرية وكأنما كانت كل منهما إنعكاسا للأخرى كلتاهما فى الأصل واحد ، عمل شخص واحد ، عمل رسام شقى صانع أغلفة مقلمات ، ربما حلت روح رسام الزهرية فى حينما كنت أرسم ، كأن يدى كانت قد وقعت تحت سيطرته ، لم يكن فى الإمكان تمييز أحداهما عن الأخرى .. اللهم إلا أن رسمى كان الورقة فى حين أن الرسم الآخر على آنية خزفية قديمة وقد أعطاها رسامها روحا غامضة ، روحا غريبة غير عادية ، وكان يتألق داخل عينيها بريق روح شريرة - لا ، لم يكن هذا يصدق ، نفس العينين الواسعتين اللتين لا فكر فيهما . نفس الملامح الكئيبة الحرة ، فى الوقت نفسه لا يستطيع إنسان أن يدرك الأحاسيس

التى بعثتها فى نفسى ، كنت أريد أن أهرب من نفسى ، أيمكن أن يحدث مثل هذا الإتفاق ؟ .. وتجسدت أمام عينى مرة ثانية كل شقاوات حياتى - ألم تكن تكفى عينا إنسانة واحدة فى حياتى ؟ والآن إثنان بنفس الأعين ، نفس عينيها ... نفس العينين اللتين كانتا لها تنظران إلى ، لا .. هذا لا يحتمل بالتأكيد ... أما عيناها فقد أودعتا التراب هناك بالقرب من الجبل بجوار جذع شجرة السرو بجوار مجرى نهر جاف وتحت زهور النيلوفر الزرقاء بين الدم الكثيف وبين الديدان والوحوش والزواحف التى أقامت حولها إحتفالا وكانت جذور النباتات تمتد بسرعة نافذة فى حدقتيها تمتص لبابها ، العينان اللتان كانتا لها بعينهما تنظران إلى الآن بحياة قوية سيالة !

لم أكن أظن أننى شقى وملعون إلى هذه الدرجة .. ولكن ربما بسبب ميولى الإجرامية التى كانت خفية فى ، أحسست فى الوقت نفسه بسعادة بلا دليل ، بسعادة غريبة إذ فهمت أنه كان لى شريك قديم فى الألم - ألم يكن هذا الرسام القديم ، الرسام الذى رسم هذه الآنية منذ مئات وربما منذ آلاف السنين شريكا لى فى الألم ؟ ألم يجتز نفس عوالمى ؟ كنت حتى هذه اللحظة أعتبر نفسى أكثر المخلوقات شقاء ، ولكننى فهمت - أنه فى ذلك الزمان الذى كان يعيش فيه أناس على تلك الجبال ، وفى تلك البيوت والعمائر الخربة التى بنيت بالأحجار الثقيلة أولئك الذين تحللت عظامهم الآن ، وربما كانت تحيا الذرات المجزأة لمختلف أجسادهم فى زهور النيلوفر الزرقاء - كان يعيش بين هؤلاء الناس رسام سيء الحظ ، رسام ملعون ، ربما كان هناك إنسان سيء الحظ يرسم على غلاف المقالم مثلى تماما ، والآن فهمت ، كنت أستطيع أن أفهم فقط أنه كان أيضا يحترق خلال هاتين العينين

الواسعتين السوداوين وكان يذوب – مثلى تماما .. وكان هذا يبعث فى نفسى العزاء .

وأخيراً وضعت رسمى بجوار الرسم الذى على الآنية ، ثم ذهبت فجهزت موقدى الخاص وأحضرت النار المتأججة فوضعتها أمام الرسمين ، وأخذت بعض أنفاس الأفيون وفى عالم الخلسة أخذت أحملق فى الرسمين إذ أننى كنت أريد جمع أفكارى ، وكان دخان الأفيون الشفاف فحسب هو الذى يستطيع أن يجمع أفكارى ويبعث فى راحة فكرية .

ودخنت كل ما كان لدى من أفيون . وكان هذا الأفيون الغريب قد رفع كل المعميات والحجب التى كانت أمام عينى ، وأخذ يبعثر كل هذه الذكريات البعيدة المتراكمة وجاءت الحالة التى كنت أعد لها أكثر مما كنت أنتظرها ، وقليلا قليلا أصبحت أفكارى رقيقة وعظيمة وأسطورية ، وسقطت فى حالة نصفها نوم ونصفها إغماء .

ثم ، وكأنما قد رفع من فوق صدرى ضغط وثقل ، وكأنما لم يكن هناك وجود فى الأصل لقانون الجاذبية بالنسبة لى ، كنت أطير بحرية وراء أفكارى التى صارت عظيمة وطريفة ودقيقة ، واجتاحنى نوع من اللذة عميق لا يوصف من رأسى حتى قدمى ، كنت قد تحررت من ربقة الجسد ، وكان كل وجودى قد صار ميالا إلى عالم المعنى المجرد ، إلى العالم النباتى ، كانت هناك دنيا هادئة مليئة بالأشكال والألوان ، أسطورية ولذيذة ، ثم إنفرط حبل أفكارى ، وكانت تحل فى هذه الألوان والأشكال وغرقت فى أمواج كانت مليئة بالدغدغة الأثيرية . كنت أسمع دقات قلبى ، وكنت أحس بسريان الدم فى شراييني ، وكانت هذه الحالة بالنسبة لى مليئة بالمعنى واللذة . كنت

أريد وآمل من كل قلبى أن أسلم نفسى إلى نوم النسيان ، ولو صار هذا النسيان ممكنا ولو إستطاع أن يدوم ، ولو أن عينى المغمضتين فيما وراء النوم إنصرفتا رويدا رويدا إلى العدم التام ، ولا أعود أحس بوجودى بعد ، ولو كان ممكنا أن يمتزج كل وجودى فى بقعة حبر أو فى لحن موسيقى أو فى شعاع ملون ، ثم تنمحى كل هذه الأمواج والأشكال بكل توسعها وكبرها ، لكنت قد بلغت أملى .

وقليلا قليلا إنتابتنى حالة من الخمود والجمود ، وثمة نوع من الألم العذب أو أمواج لطيفة كانت تنساب من جسدى إلى الخارج ، ثم أحسست أن حياتى تعود القهقرى ، وكنت أرى بالتدريج الحوادث الماضية والذكريات الممحاة والمنسية من زمن طفولتى ، لم أكن أراها فحسب بل كنت أشترك فى تفاصيلها وأحس بها ، كنت أحس بأنى أصغر وأصغر وأتحول إلى أكثر طفولية لحظة بلحظة ، ثم بهتت أفكارى وأظلمت فجأة ، وبدا لى أن كل وجودى قد صار معلقا بخطاف رفيع وأننى كنت متأرجحا فى غيابة جب عميق مظلم ، ثم إنفصلت عن الخطاف وأخذت أنزلق وأبتعد ، ولم أكن أصادف مانعا ، كانت هاوية لا قرار لها فى ليل أبدى وبعد ذلك أخذت ترتسم أمام عينى هذه المناظر الباهتة والممحاة كل وراء الأخرى ، واجتزت لحظة نسيان صرفة ، وحينما عدت إلى وعيى رأيت نفسى دفعة واحدة فى حجرة صغيرة وفى حالة خاصة بدت لى غريبة وفى الوقت نفسه كانت طبيعية بالنسبة لى .

. . . .

فى العالم الجديد الذى كنت قد إستيقظت عليه ، كان وضعه وهيأته معروفين لى وقريبين منى تمامابحيث أنست إليه أكثر من أنسى إلى حياتى

وبيئتى السابقتين ، وكأنما كان إنعكاسا لحياتى الحقيقية ، كانت دنيا أخرى ولكنها كانت قريبة ومرتبطة بى بحيث بدا لناظرى أننى عدت إلى بيئتى الأصلية ... كنت قد ولدت فى دنيا قديمة ولكنها فى الوقت نفسه أكثر قربا منى وطبيعية .

كان الجو لا يزال متقلبا ، وسراج ذو فتيل يحترق على رف بحجرتى ، وثمة فراش القى فى ركن منها ، ولكنى كنت مستيقظا ، أحس أن جسدى ساخن وبقع من الدم ملتصقة بعباءتى وشال رقبتى . وكانت يداى داميتين ، وبالرغم من الحرارة ودوار الرأس إنبعثت فى نوع من الإضطراب والإنفعال الخاص أشد من التفكير فى إزالة الدماء أقوى من تفكيرى فى أن يأتى رجال الضبط ويقبضون على . وحينذاك مرت فترات كنت أنتظر فيها أن أسقط فى أيدى رجال الضبط ، ولكنى صممت على تجرع كأس خمر مسمومة من الشراب الذى كان على الرف وذلك قبل القبض على ، وقد صارت الكتابة نوعا من الواجب الإجبارى بالنسبة لى ، كنت أريد أن أقتل هذا الشيطان الذى ظل يعذب داخلى زمانا ، كنت أريد أن أنقل إلى الورق قلبى المشحون وأخيرا وبعد قليل من التردد أتيت بالسراج أمامى وهكذا بدأت :

كنت أظن دائما أن الصمت هو أفضل الأشياء ، كنت أظن أنه من الخير أن يكون الإنسان مثل طائر البطريق يبسط جناحيه وينشر ريشه على شاطىء البحر ويقبع وحيدا[1] – ولكن الآن لم يعد الأمر فى يدى ذلك لأنه قد حدث ما كان يجب ألا يحدث – من يدرى – ربما الآن وربما بعد ساعة أخرى تأتى جماعة من رجال الضبط المخمورين للقبض

---

(١) يضرب المثل فى المأثور الفارسى بطائر البطريق كمثال للحزن والحرمان . أنه يظل ظمآنا والبحر بجواره .

على ، لا أميل مطلقا إلى إنقاذ رمتى ، إلى جوار أنه لم يبق هناك مجال للإنكار حتى على فرض أن أزيل آثار الدماء ، ولكنى قبل أن أسقط فى أيديهم سوف أشرب كأسا من زجاجة الشراب ، تلك التى ورثتها ووضعتها على الرف .

والآن أريد أن أعصر فى يدى حياتى برمتها مثل عنقود العنب ، وأقطر عصارتها ، لا ، شرابها قطرة قطرة فى حلق ظلى الجاف مثل ماء السقيا . أريد فقط قبل أن أذهب أن أنقل إلى الورق الآلام التى تأكلنى فى ركن هذه الحجرة قليلا قليلا كالجرب أو الجذام ... إذ أننى بهذه الوسيلة أستطيع جيدا أن أرتب أفكارى وأنظمها ، هل هدفى هو أن أكتب وصيتى ؟ أبدا ، إذ لا مال عندى تستولى عليه السلطة ولا دين لدى ليأخذه الشيطان[1] ومن ثم ، فأى شيء على ما كان حياة فى نفسى تركته وأردت أن يمضى من يدى ، وبعد أن أذهب ، اللعنة ، يريد شخص ما أن يقرأ أوراقى ، ليكن غير قارىء لسبعين سنة سوداء[2] أنا أكتب فقط من أجل حاجتى إلى الكتابة التى صارت ضرورية لى ، أنا محتاج ، محتاج أكثر من ذى قبل أن أربط أفكارى بموجودى الخيالى ، بظلى ، هذا الظل المشؤوم الذى ينحنى على الحائط أمام السراج ذى الفتيل ويبدو أنه يقرأ بدقة كل ما أكتبه ويتجرعه - هذا الظل لا ريب يفهم أفضل منى ! أستطيع فقط مع ظلى أن أتحدث جيدا ، هو الذى يحملنى على الكلام ، هو فقط الذى يستطيع أن يعرفنى ، أنه يفهم حتما ...

أريد أن أقطر عصارة حياتى - لا - بل الشراب المر لحياتى قطرة قطرة فى حلق ظلى الجاف وأقول له : هذه هى حياتى !

---

(١) مثل عامى فارسى .

(٢) مثل عامى فارسى .

كل من رآنى بالأمس رأى شابا محطما مريضا ، ولكنه يرى اليوم عجوزا أحدب ، أبيض الشعر ، محمر العينين ، مشقوق الشفة ، وأخاف أن أنظر من النافذة إلى خارج حجرتى ، فأنظر إلى نفسى فى مرآة . إذ أننى فى كل مكان أرى ظلالى الممتدة .

ولكن من أجل أن استطيع أن أشرح حياتى لظلى المنحنى ينبغى أن أروى حكاية ، آه ، ما أكثر الحكايات التى ترجع إلى عهد الطفولة والحب والجماع والزواج والموت وليس فى أى منها قبس من حقيقة ، لقد سئمت حكاية القصص وتنميق العبارات . سأسعى فى عصر هذا العنقود ، ولكن هل سيوجد فيه أقل أثر من الحقيقة أم لا - لا أدرى هذا أيضا - أنا لا أدرى أين أنا ، هذه القطعة من السماء التى فوق رأسى أو هذه الأشبار القليلة من الأرض التى جلست عليها تخص نيسابور أو بلخ أو بنارس - وعلى أية صورة فأنا لا أطمئن إلى شىء .

فأنا من كثرة الأشياء المتناقضة التى رأيتها ، والكلمات المتباينة المتنوعة التى سمعتها ، ومن كثرة ما رأت عينى أصبحت تحار فى ظواهر الأشياء المختلفة - هذه القشرة الرقيقة الصلبة التى تختفى خلفها الروح - لم تعد تؤمن بشىء ، بثقل الأشياء وثبوتها ، وأشك الآن حتى فى الحقائق الواضحة الجلية ، ولا أدرى هل إذا نقرت بأصبعى على الهاون الحجرى الموجود فى فناء دارى فسألته : هل أنت ثابت وراسخ وأجاب بأنه ثابت ، لا أدرى - هل أصدق حديثه أم لا ؟ هل أنا مخلوق منفصم أو مخلوق بعينه ؟ لا أدرى - ولكنى الآن نظرت فى المرآة فلم أتعرف على نفسى ، لا ، هذه ال « أنا » السابقة ماتت وتحللت ، لكن لا سد هناك ولا برزخ بينى وبينها . يجب أن أروى قصتى ولكنى لا أدرى من أين يجب أن أبدا - الحياة بأكملها قصة

وحكاية . يجب أن أعصر عنقود العنب ، وأن أريق عصارته جرعة جرعة فى حلق هذا الظل العجوز .

من أين يجب أن أبدا ؟ إن كل الأفكار التى يجيش بها عقلى الآن هى بنت اللحظة ، ليس لها تاريخ وساعة ودقيقة – ويمكن أن يكون حادث الأمس بالنسبة لى أقدم وأقل تأثيرا من حادث حدث منذ ألف سنة .

ربما لأن كل صلاتى بدنيا الأحياء قد إنفصمت فإن ذكريات الماضى ترتسم أمام عينى ، – فالماضى والمستقبل والساعة واليوم والشهر والسنة كلها أصبحت عندى سواء – وليست المراحل المختلفة من طفولة وكهولة بالنسبة لى إلا حديث خرافة ، ولكنها تصدق فقط على الناس العاديين ، على « الأوباش » ، وهى التسمية التى أطلقها أنا عليهم ، تصدق على الأوباش الذين لحياتهم موسم معين وحد معين مثل فصول السنة والتى تحدد فى المناطق المعتدلة من الدنيا ، ولكن حياتى كلها كانت فصلا واحدا يجرى على نسق واحد وكأنها مضت فى منطقة باردة وفى ظلام أبدى ، بينما كان هناك فى وسط جسدى مشعلة تحترق وتذيبنى كالشمع .

بين الجدران الأربعة التى تشكل حجرتى ، وفى القلعة التى أقيمت حول حياتى وأفكارى ، تذوب حياتى كالشمع قليلا قليلا ، لا ، لقد أخطأت ، تذوب مثل عود من الحطب الندى ، الذى سقط فى التنور واشتوت عيدان الحطب فى النار وتفحمت ولكن لا هو إحترق ولا هو بقى طريا نديا بل إختنق من الدخان ونفثات الآخرين . وحجرتى مثل كل الحجرات مبنية من الطوب والآجر على أنقاض آلاف المنازل القديمة ، جدرانها مطلية باللون الأبيض ، ولها إطار صغير ، تشبه المقبرة تماما ، وأقل حالات حجرتى وجزئياتها كفيلة بأن تشغل فكرى لساعات طويلة . مثل العنكبوت فى

ركن الجدار . إذ أنهم كانوا نادرا مايرتبون حجرتى منذ أن لزمت الفراش ، أما وتد الإصطبل الذى دق فى الحائط فكان مهدى ومهد زوجتى يعلقان عليه وربما بعد ذلك تحمل أطفالا آخرين ، وبأسفل الوتد بقليل كان نتوء من الجبس يستعمل كفراش ، وبأسفله تفوح روائح أشياء وموجودات كانت موجودة منذ الأزل فى هذه الحجرة بحيث لم يستطع الهواء حتى الآن أن يبعثر هذه الروائح النتنة الراكدة الكثيفة : رائحة عرق جسد ، رائحة أمراض قديمة ، ورائحة أفواه ، ورائحة قدم ، ورائحة بول قوية ، ورائحة زيت فاسد ، وحصير بال ، وعجة محترقة ، وبصل محترق ورائحة أعشاب طبية مسلوقة ، رائحة لبن خثير ، وقذارة أطفال ، رائحة حجرة غلام وصل لتوه إلى مرحلة البلوغ ، الأبخرة التى كانت تفوح من الحارة ، وروائح ميت أو فى حالة النزع ، كلها لا تزال حية قد إحتفظت بما يميزها ، وهناك روائح أخرى ليس من المعلوم أصلها ونشأها ، ولكن أثرها ظل باقيا .

ولحجرتى خزانة مظلمة وكوتان صغيرتان تفضيان إلى الخارج ، إلى عالم الأوباش ، إحداهما تفتح على الفناء والأخرى تطل على الحارة ، ومنها كنت أرتبط مع مدينة الرى ، المدينة التى يسمونها عروس الدنيا وتحتوى على آلاف الحارات المتداخلة والمنازل الحقيرة والمدارس والأربطة، هذه المدينة التى تعد أعظم مدن الدنيا تتنفس وتعيش خلف حجرتى ، وهنا فى ركن حجرتى حينما أغمض عينى فإن الظلال الباهتة والمضطربة للمدينة ، وهى ما أثرت فى أكثر من غيرها ــ مع القصور والمساجد والحدائق كلها كانت تتجسد أمام عينى .

هاتان الكوتان كانتا تربطانى بالعالم الخارجى ، بعالم الأوباش ، وتوجد فى حجرتى مرآة كنت أرى وجهى فيها وفى حياتى المحدودة

كانت هذه المرآة أهم من عالم الأوباش الذى لا تربطنى أية علاقة معه .

ومن مجموع مناظر المدينة يوجد أمام كوة حجرتى دكان قصاب وضيع يبيع يوميا خروفين ، وكلما نظرت من الكوة إلى الخارج أرى القصاب ، وكل يوم فى الصباح يحضر حصانان أسودان – حصانان محمومان ، يطلقان دائما سعلات جافة عميقة ، وقوائمهما المتخشبة المنتهية وحوافر تبدو كأنها أيد قطعت طبقا لقانون وحشى ، ووضعت فى الزيت المغلى ، وعلى كل طرف من أطرافهما جثة خروف يأتيان بها أمام الدكان .

ويمرر الرجل القصاب أولا يده السمينة على لحيته الحنائية ، ويلقى نظرة متفحصة على جثث الخراف ، ثم يختار منها إثنين يقيس إليتيهما بيده ، ثم يقطعهما ويعلقهما فى خطاف الدكان . ويمضى الحصانان وهما يلهثان ، وحينذاك كان هذا القصاب يربت على الجسدين الداميين ذوى الرقاب المقطوعة والأعين الجاحظة والأجفان الدامية التى خرجت من بين الجماجم الزرقاء ، ويمسحهما ، ثم يأتى بسكين له يد من العظم ويمزقهما بدقة إلى قطع ، ثم يبيع قطع اللحم الخالصة إلى زبائنه بإبتسامة . وبأية لذة كان يقوم بهذه الأعمال ! كنت واثقا أنه يتمتع بنوع من اللذة والنشوة فيه أيضا . وذلك الكلب الأصفر قذر الرقبة الذى كان يحرس حينا ودائما ينظر إلى يد القصاب برقبة ملتوية وعينين بريئتين تنظران بحسرة ، ذلك الكلب يعلم كل ذلك أيضا ، ذلك الكلب يعلم أيضا أن القصاب يتلذذ من عمله ! وعلى بعد قليل ، تحت سقيفه ، كان يجلس رجل عجوز عجيب الشأن ، وهو يبسط أمامه مفرشا وقد وضع عليه قطعة من المن ونعلين وبعض الخرز الملون المتنوع وسكينا ومصيدة فئران ومفكا صدئا ، وماء معينا ومشطا

مثلوم الأسنان ومسحاة وإناء خزفيا .. وقد نظرت إليه ساعات وأياما وشهورا من خلف الكوة . وكان يجلس فى وضع واحد دائما : بشال رقبة قذر وعباءة شوشترية وجيب مفتوحة يطل منها شعر صدره الأبيض ، وبجفون متآكلة كان يأكل فيها مرض نتن لا حياء عنده . وقد ربط رقية حول ذراعه . وكان يجلس دائما على حالة واحدة . ولكنه كان فى ليالى الجمعة يقرأ القرآن حيث تظهر أسنانه الصفراء المتساقطة ، وربما كان يكسب عيشه من ذلك إذ لم أر أحدا إشترى منه شيئا . وكان يبدو لى أننى رأيت هذا الرجل دائما فى الكوابيس التى كانت تتراءى على . وأى شيء هناك خلف هذه الجمجمة البلوطية المحلوقة التى كان يلف حولها عمامته بطريقة خاصة ، وخلف جبهته المنخفضة أية أفكار نتنة وحمقاء كانت تنبت مثل الحشائش الوحشية ؟ ربما ما كان أمام الرجل على مفرشه السحرى وربما كانت أشياؤه المختلفة مرتبطة بحياته الخاصة ، صممت عدة مرات على أن أذهب وأتحدث معه وأشترى شيئا لكنى لم أجرؤ .

قالت لى مربيتى أن هذا الرجل كان صانع فخار فى شبابه ، وأنه إحتفظ من أوانيه بهذا الإناء فحسب ، ويتعيش الآن من بيع الخردوات .

هذان هما كل ما يربطنى بالعالم الخارجى . أما ما يتصل بعالمى الداخلى فكل ما تبقى لى مربيتى وإمرأة بغى ، ومربيتى هى مربيتها أيضا ، مربيتنا واحدة ، فلست أنا وزوجتى أقارب لاصقين فحسب ولكننا أيضا رضعنا من ثدى واحدة - وأمها هى أمى فى الأصل - لأننى لم أر والدى ، وقد ربتنى أمها تلك المرأة الطويلة ذات الشعر الأسمر تلك التى أحببتها - وهى أمها - مثل أمى ، ومن أجل هذا الحب تزوجت إبنتها .

وقد سمعت عن والدى ووالدتى حكايات كثيرة . ولكن إحدى هذه الحكايات التى نقلتها لى كافلتى تبدو كأنها حقيقية

– قالت لى كافلتى : أن أبى وعمى كانا توأمين ، وكان لهما نفس الشكل ونفس السحنة ونفس الأخلاق ، وكان صوتهما واحدا أيضا ، بحيث أن تتمييز أحدهما عن الآخر لم يكن بالشىء الهين ، وفضلا على ذلك كان بينهما أيضا إرتباط معنوى وإحساس من المشاركة فى الألم ، بحيث أن أحدهما إذ مرض كان الآخر يمرض توا – وعلى حد قول الناس – كانا مثل تفاحة قسمت نصفين ، وأخيراً فإن كليهما كان يعمل بالتجارة ، وفى سن العشرين سافرا إلى الهند ، وكانا يحملان ويبيعان منتجات « الرى » مثل : المنسوجات المختلفة كالمنسوجات المنقوشة بالورود ، والمنسوجات القطنية والأقبية والشيلان والإبر والأوانى الفخارية والطفل(١) وأغلفة المقالم . كان والدى فى مدينة بنارس وقد أرسل عمى إلى مدن الهند الأخرى من أجل الأعمال التجارية . وبعد فترة وقع أبى فى غرام فتاة عذراء إسمها « بيجوم داسى » كانت راقصة فى معبد « لينجم » وكانت تقوم بالرقص الدينى أمام الصنم الكبير فى معبد لينجم وبخدمة المعبد ، كانت فتاة حارة الدماء ، قمحية مائلة إلى السمرة ذات ثديين صغيرين كالليمون وعينين واسعتين منحرفتين وحاجبين رفيعين متصلين بينهما خال أحمر .

والآن أستطيع أن أتخيل البيجوم داسى – أى أمى – بينى وبين نفسى ، ذات السارى الحريرى الملون الموشى بالذهب والصدر

---

(١) فى الاصل « كل سرشار » وهو حجر كان يستعمل فى غسل الشعر .
وورد ذكره فى الشعر الفارسى وانسب ترجمة له هو الطفل وهو مادة شبيهة به تستخرج من الجبل وتستعمل ايضا فى غسل الشعر .

KMH

المفتوح ، وعصابة الرأس المنسوجة من الديباج والجدائل الثقيلة السوداء كليل أبدى مظلم وقد إنسدلت كالعقدة خلف رأسها والأساور فى رسغى قدميها ورسغى يديها وثمة خزام ذهبى فى أنفها وعينيها الواسعتين المنحرفتين وأسنانها اللامعة، أتخيلها ترقص بحركات رقيقة متزنة على أنغام الرق والطبلة والطنبور الصنج والبوق على لحن هادىء متسق يعزفه رجال عرايا متزرون ، أن هذا اللحن المملوء بالمعنى الذى ركزت وتجمعت فيه كل أسرار سحر أهل الهند وخرافاتهم وشهواتهم وآلامهم كان يتفتح كأوراق الزهرة طبقا للحركات الملائمة والإشارات المثيرة للشهوة - الحركات المقدسة التى كانت تقوم بها بيجوم داسى ، كانت ترعش ساعديها وكتفيها وتنحنى ثم تتجمع مرة ثانية ، هذه الحركات التى كانت - وبمفهوم خاص - تعبر عن نفسها دون حديث ، أى تأثير من الممكن أن تكون قد أحدثته فى أبى - خاصة رائحة عرقها الحريفة الفلفلية المخلوطة بعطر « الموجرا » وزيت الصندل - كانت تزيد الشهوة التى كان يثيرها هذا المنظر - عطر يحتوى على عصارة الأشجار النادرة البعيدة ويبعث الروح فى الإحساسات الخفية المختنقة - رائحة صندوق دواء ، رائحة دواء حجرة الولادة التى يجلبونها من الهند - زيوت مجهولة محلية مليئة بالمعانى والآداب والرسوم القديمة ، ولابد أنها كانت تفوح بروائح الأعشاب الطبية التى كانوا يعطونها لى دائما ، هى كلها التى كانت توقظ فى أبى كل ذكرياته البعيدة والميتة - وقد شغف والدى بالبيجوم داسى إلى درجة أنه مال إلى مذهب الفتاة الراقصة ، مذهب لينجم ولكن بعد فترة قصيرة حين حملت الفتاة أخرجوها من المعبد .

وكنت قد ولدت حديثا حين عاد عمى إلى بنارس ، من سفره ولكن وكأنما كانت قابليته للحب مثل قابلية الحب عند أبى . فقد عشق أمى ، لا بقلب واحد بل عشقها بمائة قلب . ثم صار يخدعها إذ

كان شبه الحسى والمعنوى بأبى يجعل هذا الأمر هينا بالنسبة له ، وبمجرد أن إكتشف الأمر قالت والدتى أنها ستتركهما معا إلا إذا خضعا لهذا الشرط : وهو أن يتعرض أبى وعمى لتجربة حية الكوبرا ، والذى يخرج حيا من التجربة تكون هو له .

كانت التجربة أن يلقى بأبى وعمى فى حجرة مظلمة كأنها قعر جب مع حية ، والذى تلدغه الحية سوف يصرخ بالتأكيد ، وحينذاك يفتح مروض الحيات باب الحجرة وينقذ الآخر وتكون بيجوم داسى له .

وقبل أن يلقوا بهما فى غيابة الجب ، طلب أبى شيئا من بيجوم داسى . أن ترقص أمامه مرة رقصة المعبد المقدسة واستجابت لرغبته ، على أنغام ناى مروض الحيات ... أخذت ترقص على أضواء المشاعل بحركات مليئة بالمعنى متزنة ورقراقة وأخذت تتلوى على نفسها كأنها الحية ، ثم ألقوا بأبى وعمى فى الحجرة الخاصة مع الحية ، وبدلا من الصرخة المثيرة للإضطراب إنبعث أنين مختلط بضحكة تثير القشعريرة ، ثم صرخة كأنها من مجنون ، وحين فتح الباب خرج عمى من الحجرة – ولكن وجهه كان عجوزاً مغضنا ، أما شعر رأسه فمن شدة الخوف والهلع من فحيح الحية الغضبى وحركتها ، تلك الحية ذات العين الكروية التى ترمى بالشرر ، والأسنان السامة ، ولابد أن جسدها ركب من رقبة طويلة تنتهى بنوء يشبه الملعقة ورأس صغيرة ، من شدة الخوف خرج عمى من الحجرة بشعر أبيض – وللعهد والميثاق – صارت بيجوم داسى لعمى – ولكن ما يثير الحزن أنه ليس معلوما من الذى عاش بعد التجربة ، هل كان عمى أم أبى ؟

ذلك أنه نتيجة لهذه التجربة أصابه إضطراب عصبى ، ونسى تماماً حياته السابقة ، ولم يكن يعرف الطفل ، ومن هنا ظنوا أنه عمى –

أليست هذه الأسطورة مرتبطة بحياتى ؟ أو لم يترك صدى هذه الضحكة المثيرة للقشعريرة ورهبة هذه التجربة آثارهما فى ؟ أو لا يرتبطان بى ؟

ومنذ ذلك الوقت لم أعد إلا غريبا وعالة ليس أكثر ، وأخيرا فإن عمى أو أبى عاد مع بيجوم داسى إلى الرى من أجل شئونه التجارية وحملنى معه فأودعنى أخته التى هى عمتى .

قالت مربيتى : إنه عند الوداع ، أعطت أمى عمتى زجاجة شراب أرجوانية ذوبت فيها ناب حية هندية ، وذلك من أجلى ، وأى شىء أفضل تستطيع بيجوم داسى أن تتركه من أجل طفلها للذكرى ؟ شراب أرجوانى ، أكسير الموت الذى يهب الراحة الدائمة ، ويبدو أنها عصرت حياتها كأنها عنقود عنب ووهبتنى شرابها – من نفس السم الذى قتل أبى – الآن أفهم أية هدية غالية وهبتها لى ! هل أمى لا تزال تعيش ؟ ربما الآن وأنا مشغول بالكتابة ، تكون هى موجودة فى ميدان مدينة بعيدة من مدن الهند ، تتلوى كالحية على أضواء المشاعل وترقص وكأنما لدغتها حية ، وقد تحلق حولها النساء والأطفال والرجال الفضوليون العرايا ، فى حين أن أبى أو عمى بشعره الأبيض قد إنحنى وجلس فى ركن من الميدان ينظر إليها وذكرى الجب المظلم تبدو أمامه ، وفحيح الحية الغضبى التى رفعت رأسها ، وعيناها تبرقان ، ورقبتها مثل الملعقة ، والخط الذى يشبه المنظار يبدو على مؤخرة رقبتها بلون التراب الأسود القاتم .

وعلى كل حال كنت لا أزال طفلا رضيعا حينما تركونى فى حضانة كافلتى وكافلة إبنة عمتى ، كانت ترضع أيضا نفس إمرأتى البغى هذه . وقد شببت تحت رعاية عمتى ، هذه المرأة الطويلة القامة ذات الشعر الأسمر على جبهتها ، وفى نفس المنزل مع إبنتها نفس هذه البغى .

– ومنذ أن وعيت إتخذت من عمتى أما لى وأحببتها أحببتها إلى درجة أننى تزوجت إبنتها ، نفس أختى من الرضاع ، لأنها كانت تشبهها ...

أى أننى كنت مضطرا إلى الزواج منها ، إذ أن هذه البنت سلمت لى نفسها مرة واحدة فقط . ولن أنسى أبدا . كان هذا على فراش أمها الميتة . كان قد مضى من الليل الكثير ، ولكى أودعها الوداع الأخير بمجرد أن نام كل أهل المنزل نهضت بملابسى الداخلية ، ودخلت حجرة المتوفاة ورأيت شمعتين كافوريتين تحترقان فوق رأسها ، وكانوا قد وضعوا مصحفا على بطنها حتى لا يحل فى جسدها الشيطان . وحين أزحت الغطاء عن رأسها رأيت عمتى بسحنتها الوقور المأخوذة ، وكأنما تحللت من وجهها كل العلاقات الأرضية فى حالة دفعتنى إلى الإحترام العميق .. ولكن وفى الوقت نفسه بدا لى الموت وكأنه حادث طبيعى وعادى ، وقد تجمدت إبتسامة ساخرة فى زاوية فمها ، وأردت أن أقبل يدها وأخرج من الحجرة ، ولكن حين أدرت رأسى رأيت ويا للعجب نفس هذه البغى التى هى الآن زوجتى قد دخلت وأمام الأم الميتة ، أمها ، ألصقت نفسها بى ، وبأية حرارة ، وأخذت تجذبنى نحوها وكم من القبلات الحارة قبلتنى ! ومن شدة الخجل كنت أريد أن أغوص فى الأرض ولكنى لم أضبط نفسى ، وكانت الجثة بأسنانها البارزة تنظر إلينا وكأنها تسخر منا – وبدا لى أن حالة إبتسامة الميتة المستريحة قد تغيرت ، وبلا إرادة أخذتها بين أحضانى وقبلتها ، لكن وفى اللحظة نفسها أزيحت ستارة الحجرة المجاورة ودخل زوج عمتى ، والد هذه البغى ، بظهر محدودب وشال رقبة معقود ، دخل الحجرة .

وأطلق ضحكة جافة وكريهة مثيرة للقشعريرة توقف الشعر على جسد الإنسان ، بحيث كان كتفاه يهتزان . ولكنه لم ينظر ناحيتنا ، ومن شدة الخجل كنت أريد أن أغوص فى الأرض ، ولو كنت أستطيع لصفعت وجه الميتة صفعة قوية - إذ كانت تنظر الينا بصورة ساخرة - يا للعار ! وأسرعت خارجا بهلع من الحجرة ، ومن أجل هذه البغى ، ربما كانوا قد دبروا هذا الامر حتى أتورط وأتزوجها .

وبالرغم من أننا كنا أخوين فى الرضاع ، إضطررت لكيلا يضيع شرفهم أن أتزوجها .

ولما كانت هذه الفتاة غير عذراء ، ولم أكن أعلم هذا الأمر أيضا - أعنى أننى لم أستطع أصلا أن أعلمه - بل بلغت به - إلا أنه ليلة الزفاف ، حينما صرنا وحيدين ، مهما رجوتها والتمست إليها لم تلن لى ، ولم تخلع ملابسها ، وكانت تقول « لدى مانع شرعى » ، لم تترك لى سبيلا إليها ، فأطفأت المصباح ، وذهبت ونمت فى الطرف الآخر من الحجرة ، وأخذت ترتعد كأوراق الصفصاف - وكأنهم القوا بها فى قعر جوب مع تنين - لن يصدق أحد - وليس هذا بالأمر المصدق ، إنها لم تسمح لى حتى بأن أقبل شفتيها . وفى الليلة التالية ذهبت ونمت فى نفس المكان على الأرض ، واستمر الأمر على هذا النحو فى الليالى التالية ، لم أكن أجرؤ - وهكذا مرت فترات كنت أنام فيها ذلك الطرف من الحجرة - من يصدق ؟ لشهرين ، لا ، لشهرين وأربعة أيام نمت بعيدا عنها على الأرض ولم أكن أجرؤ على الاقتراب منها .

كانت قد أعدت قبل ذلك المنديل المقصود وقد لطخته بدماء حمامة . لا أدرى ربما كان نفس المنديل إحتفظت به منذ أول ليلة حب عاشتها من أجل أن تسحر منى أكثر ، وحينذاك كان الجميع يهنئوننى

وهم يغمزون لبعضهم بأعينهم ، ولابد أنهم كانوا يقولون فى سرائرهم « لقد فتح صاحبنا القلعة ليلة الأمس » ! ولم أكن أبدى شيئا ، كانوا يضحكون على ، يضحكون من بلاهتى .

ثم فهمت بعد ذلك أن لها من العشاق أزواجا وأفرادا . ربما وكنت قد تعهدت لنفسى أن أكتب كل ذلك فى يوم من الأيام . لأن الشيخ كان قد تلا بعض الكلمات باللغة العربية جعلها بمقتضاها فى عصمتى ، ربما كانت تكرهنى من أجل ذلك ، ربما كانت تريد أن تطلق . وذات ليلة صممت أن أغتصبها ثم نفذت تصميمى ولكنها بعد مقاومة شديدة نهضت وذهبت . وقد أرضيت نفسى فحسب بأن أنام وأتقلب فى فراشها الذى نفذت فيه حرارة جسدها ، وكانت تنبعث منها رائحتها ، وكانت الليلة الوحيدة التى نمت فيها براحة هى تلك الليلة ، ومن تلك الليلة فما تلاها فصلت حجرتها عن حجرتى .

وفى الليل ، حينما كنت أعود إلى المنزل ، لا تكون هى قد عادت بعد ، لم أكن أعلم هل عادت أم لم تعد – لم أكن أريد أن أعلم أصلا – إذ أننى كان محكوما على بالوحدة ، محكوما على بالموت ، أردت بأية وسيلة كانت أن أكون علاقة مع عشاقها ، وهذا أيضا لن يصدقه أحد ، كنت أراقب أى شخص سمعت أنها معجبة به ، وأذهب فأدرب نفسى على ألف ملق وذلة ، وكنت أتعرف على هذا الشخص وأتملقه وأتصيده لها وأحضره وأى فسقة كانوا : بائع كرشة ، فقيه ، بائع كبدة ، رئيس عسس ، تاجر شرع ، فيلسوف ، تختلف أسماؤهم وألقابهم ولكنهم كانوا جميعا صبيان صاحب مسمط . وكانت تفضلهم على جميعا – وبأى ملق وذلة حقرت من نفسى وأذللتها ، لن يصدق أحد لأننى كنت أخاف أن أفقد زوجتى ! ولكنى كنت ديوثا تعسا

يسخر منى كل أحمق – كيف كنت أستطيع فى الأصل أن أتعلم سلوك الأوباش وأخلاقهم ؟ والآن أعلم أنها أحبتهم لأنهم كانوا حمقى متعفنين ولا حياء عندهم – أن حبها فى أساسه توأم مع النتن والموت . وهل كنت أميل فى الحقيقة إلى مضاجعتها ؟ هل الذى جذبنى إليها مظهرها ؟ أو كراهيتها لى ؟ أو حركاتها وتصرفاتها ؟ أو تعلقى وحبى لأمها منذ الصغر ؟ أو أن كل هذه العوامل قد تظافرت ؟ لا ، لست أدرى ، الشيء الوحيد الذى أدريه أن هذه المرأة ، هذه البغى ، هذه الساحرة ، لا أدرى أى سم كانت قد صبته فى روحى وفى وجودى بحيث لم أكن أريدها فحسب ، بل أن كل ذرات جسدى كانت تحتاج إلى ذرات جسدها وكانت تصرخ أنها تلزمها ، وكنت أرغب بشدة فى أن أكون معها فى جزيرة ضائعة لا يوجد عليها إنسان ، كنت أرغب فى أن يقضى زلزال أو طوفان أو صاعقة من السماء على كل هؤلاء الأوباش الذين يتنفسون ويسعون ويتلذذون فيما وراء حجرتى وأبقى أنا وهى فقط .

حينذاك ألم تكن لتفضل على أى حيوان آخر أو حية هندية أو تنين ؟ كنت أريد أن أقضى ليلة معها ثم نموت سوياً ونحن فى عناق – وكانت هذه النهاية تبدو لى كأحسن نتيجة ممكنة لحياتى ووجودى .

كان يبدو لى أن هذه البغى تتلذذ وتنتشى من تعذيبى ... وكأنه لم يكن يكفينى الألم الذى يأكل فى – وأخيرا سئمت العمل والحركة وصرت رهين المنزل كالميت المتحرك ، ولم يكن أحد يعلم السر الذى بيننا ، وكانت مربيتى العجوز مؤنسة موتى التدريجى تؤنبنى ، ومن أجل نفس هذه البغى كنت أسمع من خلف ظهرى من هم حولى يهمسون لبعضهم « هذه المرأة المسكينة كيف تتحمل هذا

المجذوب ؟ » وكان الحق معهم لأن الدرجة التى وصلت إليها من الذلة لم تكن لتصدق .

ويوما بعد يوم أخذ يبرينى النحول ، وحينما كنت أنظر إلى المرآة ، أرى وجنتى وقد توردتا وأصبحتا تشبهان اللحم المعلق أمام دكان القصاب - كان جسدى مفعما بالحرارة ، وكانت قد سيطرت على عينى حالة من الوسن والحزن .

ومن شعورى الجديد هذا كنت أتلذذ ، وكنت أرى فى عينى غبار الموت ، كنت أرى أنه يجب أن أمضى .

وأخيراً أخبروا الطبيب ، طبيب الأوباش ، طبيب الأسرة الذى ربانا على حد قوله - ودخل بعمامته الملفوفة على طريقته الخاصة وبلحيته الكثيفة ، كان يفخر أنه أعطى جدى دواء مقويا للباه ، وأنه قد صب فى حلقى كراوية بالسكر ، وأنه أطعم عمتى خيار الشنبر ، وعلى أى ، فبمجرد أن جاء واقترب من فراشى جس نبضى ... ورأى لسانى وأمر بأن أشرب لبن الأتان وماء شعير ، وأن أبخر مرتين فى اليوم بلبان الذكر والزرنيخ ، وأعطى لمربيتى قائمة أخرى عبارة عن بعض الحشائش والزيوت العجيبة والغريبة من قبيل : حشيشة الزوفا ، الزيتون ، الرب سوس ، الكافور ، كسبرة البئر وزيت العليق وزيت الغار وبذر الكتان وبذر الصنوبر وخرافات أخرى .

إزدادت حالتى سوءا ، ولكن مربيتى - التى كانت مربيتها - بوجه عجوز ، وشعر أسمر كانت تجلس فى ركن من الحجرة بالقرب من فراشى وهى تبلل جبهتى بالماء البارد ، وتحضر لى بعض الأعشاب الطبية ، وكانت تتحدث عن حالات طفولتى وأحداثها أنا وهذه البغى ، قالت لى على سبيل المثال أن زوجتى منذ المهد كانت معتادة

على إمتصاص أظافر يدها اليسرى دائما ، كانت تمتصها حتى تدميها وأحيانا كانت تقص لى قصة . وكان يبدو لى أن هذه القصص تعود بعمرى القهقرى وتبعث فى جو الطفولة ، لأنها كانت مرتبطة بذكريات تلك الفترة حينما كنت صغيرا جدا فى الحجرة التى كنت أنا وإمرأتى ننام فيها فى مهد واحد متجاورين - مهد واحد كبير يتسع لشخصين . كنت أتذكر جيدا أنها كانت تقص نفس القصص . والآن فإن بعض أجزاء هذه القصص التى كنت لا أصدقها قبلا قد صارت بالنسبة لى أمرا طبيعيا .

ذلك أن المرض قد بعث فى نفسى دنيا جديدة ، دنيا مجهولة باهتة ومليئة بالصور والألوان والرغبات التى لا يمكن تصورها أبدا فى حالة السلامة ، وكنت أحس من تفصيلات هذه القصص بنشوة وإضطراب لا يوصفان فى نفسى - كنت أحس أننى عدت طفلا ، وحتى الآن وأنا مشغول بالكتابة ، أشترك فى هذه الإحساسات ، كل هذه الأحاسيس ترتبط بالحاضر ولا تعود إلى الماضى .

ويبدو أن تصرفات الناس القدماء وأفكارهم وعاداتهم ورغباتهم التى إنتقلت عن طريق الحكايات إلى الأجيال التالية كانت إحدى واجبات الحياة ، منذ آلاف من السنين مضت يرددون هذه الكلمات ، وكانوا يزاولون الجماع بنفس الطريقة ، وكانت لهم كل إهتمامات الطفولة - أليست الحياة بأكملها قصة مضحكة ، أسطورة حمقاء لا تصدق ؟ ألست أكتب أنا نفسى أسطورتى وقصتى ؟ إن القصة فحسب هى سبيل الفرار من الرغبات اليائسة ، والآمال التى لم تحقق ، الآمال التى كان يتصورها كل كاتب أسطورة مطابقة لروحه المحددة وميراثه الخاص .

ليتنى كنت أستطيع – مثل الزمان الذى كنت فيه طفلا وجاهلا – أن أنام – نوما مريحا دون أن أتقلب – وهنا عندما أستيقظت كانت وجناتى قد صارت بنفس لون اللحم أمام دكان القصاب – وكان جسدى حارا كما كنت أسعل – كم كانت سعلات عميقة مخيفة سعلات لم يكن معلوما من أى بئر مفقودة داخل جسدى كانت تخرج ، مثل سعلات الحصانين الذين كانا يحضران الخراف المذبوحة فى الصباح الباكر للقصاب .

أتذكر جيدا أن الجو كان قد أظلم تماما .. ولعدة دقائق أصبت بالإغماء ، وقبل أن يختطفنى النوم كنت أتحدث إلى نفسى – وحينذاك ، كنت أحس بل كنت متأكدا أننى كنت طفلا وأننى كنت قد نمت فى مهدى . وأحسست أن أحدا بالقرب منى . وكان قد مر وقت طويل منذ أن نام كل من فى المنزل ، كان الفجر قد إقترب من البزوغ ، ويعلم المرضى أنه فى هذا الوقت يبدو وكأن الحياة تسحب خارجا من حدود الدنيا – وكان قلبى يدق بشدة ، ولكننى لم أكن خائفا ، كانت عيناى مفتوحتين ، ولكنى لم أكن أرى أحدا ، لأن الظلمة كانت كثيفة جدا ومتراكمة – ومرت بضع دقائق ، وطرأت لى فكرة سيئة ، وقلت فى نفسى : « لعله هو ! » وفى اللحظة نفسها أحسست أن يدا رقيقة وضعت على جبهتى المحترقة .

وارتعدت ، وسألت نفسى مرة أو مرتين : « ألم تكن يد عزرائيل ؟ » ورحت فى النوم . وحين إستيقظت فى الصباح قالت مربيتى : إبنتى (وتقصد إمرأتى أى تلك البغى) كانت قد جاءت إلى فراشى ، وأنها وضعت رأسى فوق ركبتها ، وأنها أخذت تهدهدنى كالطفل – ربما كان إحساس الأمومة قد إستيقظ فيها ، ليتنى كنت قد

مت وقتها – ربما مات ذلك الطفل الذى كانت حاملا به ، هل ولد طفلها ؟ لم أكن أدرى .

من هذه الحجرة التى طفقت تصير بالنسبة لى كل لحظة أضيق وأشد ظلمة من القبر ، كانت عينى دائما تترقب زوجتى ولكنها لم تكن تأتى أبدا . ألم يكن من جرائها أننى سقطت فى مثل هذا اليوم ؟ ليس مزاحا ، منذ ثلاث سنوات ، لا ، بل سنتين وأربعة أشهر ، ولكن ما هو اليوم ؟ وما هو الشهر ؟ بالنسبة لى لا معنى لهما ، بالنسبة لشخص فى مقبرة فإن الزمان يفقد معناه – هذه الحجرة كانت مقبرة حياتى وأفكارى ، كل مساعى الآخرين وأصواتهم ومظاهر حياتهم ، حياة « الأوباش » الذين خلقوا جميعا جسما وروحا على نسق واحد ، بالنسبة لى كانت قد أصبحت غريبة عجيبة لا معنى لها .. منذ الوقت الذى سقطت فيه مريضا كنت قد إستيقظت فى دنيا فى داخلى ، دنيا مليئة بالمجهولات ، وكأننى كنت مجبورا على التفتيش والتنقيب فى كل حفرها وجوانبها .

وفى الليل ، فى ذلك الموعد الذى يتموج فيه كل وجودى بين حدود العالمين وقبل الدقيقة التى أغرق فيها فى نوم عميق هنيء كنت أحلم – وبإطراقة واحدة لعينى كنت أجتاز حياة أخرى غير حياتى الشخصية – كنت أتنفس فى جو آخر .. بعيدا وكأننى كنت أريد أن أهرب من نفسى وأغير قدرى – وحينما كنت أغمض عينى كانت حياتى الحقيقية تظهر لى – كانت هذه الصور فى حد ذاتها ذات حياة خاصة – كانت تنمحى بحرية ثم تظهر مرة ثانية – وكأن إرادتى كانت تؤثر فيها . ولكن هذا أيضا لم يكن أمرا مسلما ، ولم تكن المناظر التى تتجسد أمام عينى حلما عاديا – إذ لم يكن النوم قد إختطفنى بعد .

وكنت خلال الصمت والهدوء أفصل هذه الصور عن بعضها وأقومها بالنظر إلى كل منها . وكان يبدو أننى لم أتعرف على نفسى إلى هذا القدر ، وأن تلك الدنيا التى كنت أتصورها حتى ذلك الوقت قد فقدت مفهومها وقوتها ، وسيطرت مكانها ظلمة ليل - لأنهم لم يكونوا قد علمونى أن أنظر إلى الليل ، وأن أحب الليل

ولا أدرى : هل كان ساعداى طوع إرادتى حينئذ أم لا ؟ وكنت أظن أننى إذا كنت قد وضعت يدى طوع إرادة ساعدى ، فإنها كانت بواسطة محرك مجهول غير معروف تقوم بالعمل من تلقاء نفسها دون أن أستطيع التدخل ، ولو لم أكن منتبها إلى جسدى ، ولو لم أكن - بلا إرادة - أراقبه لصدرت منه أفعال لم أكن أتوقعها مطلقا . وهذا الإحساس كان قد إستيقظ فى نفسى منذ زمن بعيد ، وهو أننى كنت أتحلل وأنا حى ، ولم يكن هناك توافق بين جسمى وقلبى ، وليس هذا فحسب ، بل بين روحى وقلبى - كنت أجتاز دائما نوعا من الفصام والتحلل الغريب ، وأحيانا كنت أفكر فى أشياء لا أستطيع أنا نفسى أن أصدقها . أحيانا يتولد فى نفسى حس بالشفقة فى حين أن عقلى يلقى باللوم على ، وكثيرا ما كنت أتحدث إلى شخص ، أو أقوم بعمل ما ، أو أدخل فى مناقشة حول موضوعات مختلفة فى حين أن كل حواسى فى مكان أمر آخر ، وكنت من أعماق قلبى ألوم نفسى - كنت كتلة من الإنفصام والتحلل . وكأننى كنت وسأكون دائما ... مزيجا عجيبا لا تناسب فيه .

وما لا يقبل الإحتمال أننى كنت أحس أننى بعيد عن كل الناس الذين كنت أراهم وأعيش بينهم ، ولكن ثمة تشابها ظاهريا ، تشابها باهتا وبعيدا ، ولكنه فى الوقت نفسه قريب . يربطنى بهم - كانت

نفس الإحتياجات المشتركة للحياة هى التى تقلل من دهشتى ، والتشابه الذى كان يسوؤنى أكثر هو أن الأوباش أيضا يعشقون مثلى هذه البغى زوجتى وأنها تميل إليهم أكثر - وكنت متأكدا أن ثمة نقصا فى وجود أحدنا .

لقد سميتها « لكاته » (البغى) ، لأنه لا إسم هناك ينطبق عليها تماما كهذا الإسم ، لا أريد أن أقول زوجتى لأن خاصية الزوجية لم توجد بيننا وحينئذ أكذب على نفسى . وقد سميتها « لكاته » منذ الأزل . إن لهذا الإسم جاذبية خاصة ، وإذا كنت قد تزوجتها فذلك لأنها هى التى هاجمت أولا .. وكان ذلك أيضا من مكرها وحيلتها . لا ... لم يكن لديها أى ميل إلى - وكيف يكون ممكنا أن تميل إلى أحد ؟ إمرأة لعوب تحتاج إلى رجل من أجل الجنس ، ورجل من أجل الحب ، ورجل لتعذبه - وأظن أيضا أنها لم تكتف بهذا التثليث ، ولكنها كانت قد إختارتنى - بالقطع من أجل التعذيب . ولا تستطيع أن تختار فى الحقيقة أفضل من هذا الإختيار ولكنى تزوجتها لأنها كانت تشبه أمها - لأنها كانت ذات شبه باهت وبعيد منى . ولم أحبها فحسب ولكن كل ذرات جسدى كانت تريدها ، وخاصة أسفل بطنى ، لأننى لا أريد أن أخفى إحساساتى الحقيقية تحت غطاء موهوم من العاطفة والميل والإلهيات ، وذلك لأننى لا أجد طعما لهذه التقعرات الأدبية فى فمى . كنت أظن أن نوعا من الإشعاع أو الهالة، مثل الهالة التى يرسمونها حول رؤوس الأنبياء تتموج فى وسط بدنى ، وأن الهالة التى فى وسط بدنها لابد أنها تطلب هالتى الذابلة المريضة وأنها تجذبها نحوها بكل قوتها .

وبمجرد أن تحسنت صحتى ، صممت أن أذهب . أن أذهب لأصبح مثل الكلب المجذوم الذى يعلم أنه يجب أن يموت ، مثل الطيور

التى تختفى عند موتها ، وفى الصباح الباكر نهضت ، وارتديت ملابسى ، وحملت الكعكتين اللتين كانتا فوق الرف ، وفررت من المنزل بطريقة لا ينتبه إليها أحد ، فررت من النكبة التى كانت قد أمسكت بتلابيبى . وبلا هدف معين مررت بين الشوارع بلا مبالاة ، من بين الأوباش الذين يملكون جميعا سحنة كثيفة ويسعون وراء المال والشهوة ، لم أكن أحتاج لرؤيتهم قط لأن واحدا منهم كان مثلا للباقين ، كلهم كانوا عبارة عن فم ، معلق به بضعة من الأمعاء التى تنتهى بآلاتهم التناسلية .

وأحسست فجأة أننى صرت أخف وأسرع ، وأخذت عضلات قدمى تسير بسرعة وبجلد خاص لم أكن أستطيع أن أتصوره . كنت أحس أننى قد تحررت من كل قيود الحياة . شددت كتفى ، وكانت حركة طبيعية لدى وفى طفولتى حينما كنت أتخلص من وطأة أية مصاعب أو مسؤوليات ، كنت أقوم بنفس الحركة .

كانت الشمس ترتفع وتلقى بالحمم ، وانتقلت إلى أحياء خالية وعلى رأس طريقى كانت ترى المنازل الرمادية اللون ذات الأشكال الهندسية العجيبة الغريبة المكعبة والمنشورية والمخروطية ذات النوافذ التى لا مصاريع لها ، المنازل الوضيعة ، كانت تبدو وكأنها مؤقتة لا صاحب لها ، كما كان يبدو أن كائنا حيا لا يستطيع أن يتخذ من هذه المنازل سكنا .

كانت الشمس كأنها سيف ذهبى ، تبرى من ظل الحائط عن جنب ، وترتفع . وكانت الحوارى تمتد بين الجدران القديمة الباهتة . كان المكان بأجمعه هادئا أصم وكما لو كانت كل عناصر القانون المقدس لطبيعة الجو الحار قد راعت قانون الصمت . وكان يبدو كأن هناك أسرارا مختفية فى كل مكان بحيث لم تكن رئتاى تجرؤان على التنفس .

وانتبهت مرة واحدة إلى أننى خرجت من البوابة ، وكانت حرارة الشمس تخرج عرق جسدى بألف فم ماص . وبدت حشائش الصحراء تحت الشمس المحروقة بلون الكركم . كانت الشمس كالعين المحمومة تنشر شعاعها المحرق من أعماق السماء على المنظر الصامت الميت . ولكن تربة هذا المكان وحشائشه كانت ذات رائحة خاصة ، كانت رائحتها قوية إلى درجة تذكرت من شمها دقائق طفولتى ، لم تجسد فى خاطرى كلمات ذلك العهد وتصرفاته فحسب ، ولكننى أحسست للحظة بكل هذا العهد فى نفسى ، وكأنما حدث بالأمس ، وأصابنى نوع ملائم من الدوار ، وكأننى ولدت مرة ثانية فى عالمى الضائع . وكان لهذا الإحساس خاصية مسكرة أثرت فى شرايينى حتى أعماق وجودى كالخمر المعتقة الحلوة - وكنت أعرف من الصحراء الأشواك والحجارة وباقات اللمام الصغيرة ، كنت أعرف روائح أسرة الأعشاب المعروفة لى - وتذكرت أيامى البعيدة ولكن كل هذه الذكريات إبتعدت عنى بطريقة أسطورية ، تلك الذكريات التى كانت لها حياة مستقلة مع بعضها فى حين أننى لم أكن أكثر من شاهد بعيد ومسكين ، وكنت أحس أن ثمة هوة عميقة كانت قد حفرت بينى وبينها . كنت أحس أننى اليوم وقد فقد قلبى هدوءه ، أن الباقات فقدت العطر السحرى لذلك الزمان ، لم يعد له وجود بعد ، ولو أننى إستحضرته وتحدثت معه لما سمعنى ولما فهم مقصدى - كانت له صورة إنسان لديه معرفة سابقة بى ، ولكنه لم يكن منى أو جزءا منى .

وبدت الدنيا لناظرى منزلا خاليا مثيرا للحزن ، وأخذ صدرى يجيش بإضطراب وكأننى أجبرت لتوى على أن أفتش بقدم حاف كل حجرات هذا المنزل ، كنت أمر بالحجرات المتداخلة ، ولكننى حين وصلت إلى الحجرة الأخيرة فى مقابل تلك البغى ، كانت الابواب

خلفى تغلق تلقائيا ، وأخذت تخفرنى الظلال المرتعشة على الجدران المتآكلة كأنها جوار وعبيد سود البشرة .

وحينما وصلت قريبا من نهر « سورن » ظهر لى جبل أجرد خال ، وقد ذكرنى هيكل الجبل الوعر الجاف بحاضنتى ، ولا أدرى أى إرتباط بينهما ، ومررت بجانب الجبل ووصلت إلى مساحة صغيرة صافية أحاط بها الجبل من أطرافها ، وكان وجه الأرض مغطى بزهور النيلوفر الزرقاء ، وفوق الجبل كانت تبدو قلعة عالية بنيت بالأحجار الثقيلة .

وحينذاك أحسست بالملل ، فذهبت إلى شاطىء نهر سورن وجلست على الرمال فى ظل شجرة سرو عجوز ، كان المكان خاليا هادئا ، وكان يبدو لى أن أحدا لم يطأ هذا المكان بقدمه بعد . وانتبهت فجأة فرأيت طفلة صغيرة خرجت من خلف أشجار السرو وذهبت إلى القلعة . كانت ترتدى ثوبا شفافا نسج من خيوط رقيقة جدا ، كأنه نسج من حرير . وكانت تمتص أظافر يدها اليسرى ، وتنساب وتتمايل بحركات حرة لا مبالية ، وكان يبدو لى أننى رأيتها قبل ذلك وأننى كنت أعرفها ، ولكنى من هذه المسافة البعيدة تحت شعاع الشمس لم أستطع أن أميز كيف إختفت هكذا دفعة واحدة .

وتجمدت فى مكانى ، دون أن أتمكن من القيام بأى حركة ، ولكن هذه المرة رأيتها بعينى اللتين فى رأسى وقد مرت من أمامى واختفت ، هل كانت موجودا حقيقا أم وهما ، هل كنت أحلم أم كنت فى يقظة ؟ ومهما جاهدت لأتذكر لم يجد فتيلا . وأحسست برعشة خاصة على عمودى الفقرى ، وبدا لى أنه فى هذه الساعة إستردت كل ظلال القلعة فوق الجبل حالتها ، وأن هذه الصبية هى إحدى ساكنات مدينة الرى القديمة .

وبدا المنظر الذى كان أمامى معهودا إلى دفعة واحدة ، وتذكرت أنى فى طفولتى فى أحد أيام الثالث عشر من النوروز كنت قد جئت إلى هذا المكان ، كانت معنا أم زوجتى وتلك البغى أيضا ، وكم جرينا فى إثر بعضنا ولعبنا تحت نفس هذه الأشجار فى ذلك اليوم . ثم إنضمت إلينا مجموعة من الأطفال الآخرين لا أتذكرهم جيدا . كنا نلعب الإستخفاء ، وفى إحدى المرات وأنا أبحث عن تلك البغى كنا بالقرب من نهر « سورن » وانزلقت قدمها وسقطت فى النهر ، وأخرجوها ثم حملوها خلف شجرة السرو لتغير ملابسها ، وذهبت فى أثرها ، كانوا قد أقاموا عليها ستارة بطراحة ، ولكنى رأيت كل جسدها من خلف الشجرة تلصصا . كانت تبتسم وهى تمتص سبابة يدها اليسرى ، ثم لفوا جسدها بشال أبيض ونشروا رداءها الحريرى المنسوج من خيوط رقيقة فى الشمس .

وأخيراً تمددت على الرمال بأسفل شجرة السرو العجوز ، وكان صوت الماء يصل إلى أذنى يشبه الكلمات المتقطعة اللامفهومة التى تهمس بها فى عالم النوم . وغرزت يدى دون إرادة فى الرمال الحارة الرطبة ، كنت أعصر بقبضتى الرمال الحارة الرطبة وكأنها لحم صلب لفتاة سقطت فى الماء وأخذوا يبدلون ثيابها .

لا أدرى كم مر من الوقت ، وحينما نهضت من مكانى سرت فى طريقى دون إرادة . كان المكان ساكنا وهادئا ، كنت أسير ولكنى لم أكن أرى ما حولى ، كانت قوة ما خارجة عن إختيارى تدفعنى إلى الذهاب ، كل حواسى كانت منتبهة إلى قدمى . لم أكن أسير ولكنى مثل تلك الفتاة ذات الرداء الاسمر كنت أنساب على قدمى وأتمايل . وحينما عدت إلى وعيى وجدت نفسى فى المدينة وأمام منزل حمى ، ولا أدرى لماذا كان عروجى على منزل حمى ، كان إبنه الأصغر – صهرى

– جالسا على مصطبة ، كان يشبه أخته كتفاحة قسمت نصفين كان ذا عينين منحرفتين تركمانيتين ، وخدين بارزين ولون قمحي وأنف شهوانى ووجه نحيف مسحوب . وكان يجلس وهو يضع سبابه يده اليسرى فى فمه ، وبلا إرادة تقدمت ، ووضعت يدى فى جيبى فأخرجت قطعتى الكعك اللتين كانتا معى وقلت : « أعطتنى شاجون هذه لك » ، إذ كان يقول لزوجتى « شاجون » أى كان يناديها بلقب أمه ، وبعينيه التركمانيتين ألقى نظرة عجب على الكعك وأخذه مترددا . وجلست على مصطبة المنزل ، وأخذته بين أحضانى وطفقت أضمه إلى ، كان جسده ساخنا ، وساقاه تشبهان ساق زوجتى ، وكانت له نفس حركاتها اللامبالية . أما شفتاه فكانتا تشبهان شفتى والده – ولكن ذلك الذى كان لدى والده يبعث فى النفور كان لديه على العكس يجذبنى إليه – كان يبدو كأن شفتيه النصف مفتوحتين قد إنفصلتا لتوهما عن قبلة طويلة – وقبلت فمه نصف المفتوح لأنه يشبه فم زوجتى ، وكان لشفتيه طعم آخر الخيار . كان مر الطعم حريفا . ولابد أن شفتى تلك البغى كان لها نفس الطعم .

وفى الوقت نفسه رأيت أباه ذلك الرجل العجوز الذى قد عقد شال رقبته – وقد خرج من باب المنزل ومر دون أن ينظر إلى ، وأخذ يضحك ضحكة متقطعة ، ضحكة مخيفة ، توقف الشعر على جسد المرء . وكان كتفاه يهتزان من قوة الضحك . ومن شدة الخجل وددت لو أغوص فى الأرض . كان الوقت يقترب من الغروب . ونهضت وكأننى كنت أريد أن أهرب من نفسى ، وبلا إرادة سلكت طريقى إلى المنزل . ولم أكن أرى شخصا أو إنسانا . وكان يبدو لى أننى أتحرك فى مدينة مجهولة وغير معروفة ، وحولى كانت هناك منازل غريبة وعجيبة على هيئة أشكال هندسية ، مفصلة ، بنوافذ مهجورة

سوداء ، وكان يبدو كما لو أن كائنا حيا لم يستطع قط أن يتخذ منها سكنا ، ولكن جدرانها البيضاء كانت تشع بضوء مريض ، والشيء الذى كان غريبا ولم أستطع تصديقه أننى كلما كنت أقف فى مقابل جدار ما ، كان ظلى يسقط أمام الضوء على الجدار عظيما وكثيفا ولكنه بدون رأس - لم يكن لظلى رأس - وكنت قد سمعت أنه إذا سقط ظل امرىء على الحائط بلا رأس لابد أن يموت قبل مرور عام .

ودخلت منزلى خائفا ، ولجأت إلى حجرتى ، وحينئذ رعفت ، وبعد أن سقط مقدار كبير من الدم من أنفى . سقطت فى فراشى مغشيا على وشغلت مربيتى بتمريضى . وقبل أن أنام نظرت فى المرآة إلى وجهى فوجدت أن سحنتى كانت قد صارت محطمة باهتة بلا روح . كانت باهتة إلى درجة أننى لم أعرف نفسى ، فذهبت إلى الفراش وسحبت الغطاء على رأسى ، وتقلبت وجعلت وجهى تجاه الحائط ، وجمعت قدمى إلى ، وأغلقت عينى وأخذت أسير فى إثر خيالاتى ، تلك السلاسل التى كانت تشكل قدرى المظلم المثير للحزن ، المهول ، والمليء بالشهوة ، إلى ذلك المكان الذى يختلط فيه الموت بالحياة وتظهر فيه الصور الشاذة إلى الوجود وتبعث الميول التى قتلت منذ زمن حية من جديد ، الميول الممحوة المختنقة وتأخذ فى الصراخ طالبة الإنتقام . وفى هذا الوقت كنت أصير منفصلا عن الطبيعة ومستعدا للذوبان والفناء فى تيار الأزل .

- وهمست لنفسى عدة مرات « أيها الموت ... أيها الموت أين أنت ؟ » وقد بعث هذا فى نوعا من الراحة ، وأغمضت عينى .

وبمجرد أن أغلقت عينى وجدت نفسى فى ميدان « المحمدية » ، وكانوا قد نصبوا مشنقة عالية وعلقوا فيها الرجل العجوز ذى البضائع

المختلفة الفاسدة الذى كان يجلس فى مواجهة حجرتى . وكانت مجموعة من رجال الضبط السكارى يشربون الخمر بأسفل المشنقة - وجاءت أم زوجتى وبوجه مورد ، بالوجه الذى أراه الآن فى زوجتى فى الأوقات المرة - وكانت شفتاها شاحبتين وعيناها دائرتين مثيرتين للخوف وأخذت يدى وعبرت بى بين الناس : وأشارت إلى الجلاد الذى كان يلبس ملابس حمراء وقالت له : أشنق هذا أيضاً ... وقمت هلعا من النوم ، كنت أغلى كالمرجل ، وكان جسدى مبتلا وثمة حرارة محرقة تشتعل فوق وجنتى ، ومن أجل أن أخلص نفسى من براثن هذا الكابوس نهضت وشربت بعض الماء ووضعت قليلا منه على رأسى وعلى وجهى وعدت للنوم ، ولكن النوم لم يطرق جفنى وفى الظل المضيء أخذت أحملق فى إناء الماء الموضوع على الرف ، وبدا لى أنه مادام الإناء على الرف فلن يطرق النوم جفني، وتولد فى حس من الخوف لا أساس له أن الإناء سيسقط ، ونهضت لأثبت الإناء مكانه ، ولكن بواسطة محرك مجهول لم أنتبه أنا إليه ، إصطدمت يدى عمدا بالإناء . فسقط وكسر ، وأخيرا حككت جفنى بيدى ولكنى تخيلت أن مربيتى قد إستيقظت وأخذت تنظر إلى ، وكورت قبضتى من تحت الغطاء ، ولكن لم يقع حادث غير عادى قط . وفى حالة الإغماء سمعت صوتا من الحارة ، وسمعت وقع أقدام مربيتى تجر نعلها على الأرض ، وذهبت فأخذت خبزا وجبنا .

ثم بلغ إذنى صوت بعيد لبائع يصيح « التوت الكبير يشفى المرارة » لا ، كانت الحياة الباعثة على الملل قد بدأت كالمعتاد ، وازداد الضوء ، وحينما فتحت عينى ، كانت قطعة من إنعكاس ضوء الشمس

KMH

من ماء الحوض قد نفذت من الكوة وأخذت ترتعش على سقف حجرتى .

وبدا لناظرى أن حلم ليلة الأمس قد صار بعيدا وباهتا وكأننى رأيته منذ عدة سنوات حينما كنت طفلا . وأحضرت مربيتى أفطارى ، وظهر وجهها لى مسحوبا ونحيفا وكأنه يبدو من خلال مرآة منحرفة ، وظهرت فى شكل لا يصدق مثير للضحك ، وكأنها كانت تئن تحت وطأة ثقل وجهها .

وبالرغم من أن مربيتى تعلم أن التدخين مضر لى إلا أنها كانت تدخن فى حجرتى ، إذ لا يمكن أن تكون نشيطة إلا إذا دخنت . ومن كثرة ما تحدثت معى مربيتى عن منزلها وعن إبنها وعن زوجته جعلتنى أنا أيضا أشاركها نشواتها الشهوانية ، يا له من حمق ، كم كنت فى بعض الأحيان أفكر دون قصد فى حياة سكان منزل مربيتى ، ولكن لا أدرى لماذا كانت حياة الآخرين ومسراتهم المتنوعة تصيبنى بالغثيان فى حين أننى كنت أعلم أن حياتى قد إنتهت ، وأنها تذوب بطريقة مؤلمة وببطء . أية علاقة تجعلنى أفكر فى حياة الحمقى والأوباش الذين كانوا فى صحة جيدة ، وكانوا يأكلون وينامون جيدا ويضاجعون جيدا ، ولم يكونوا قد أحسوا قط بذرة من آلامى ، ولم ترفرف أجنحة الموت كل دقيقة على رؤوسهم ووجوههم .

كانت مربيتى تتصرف معى كما لو كنت طفلا ، كانت تريد أن ترى كل روحى وكنت لا أزال أراعى أصول اللياقة أمام زوجتى . وحينما كانت تدخل حجرتى ، كنت أغطى المخاط الذى تمخطته فى آنية ، وأمشط شعر رأسى ولحيتى وأصلح من وضع غطاء رأسى ولكن أمام مربيتى لم أكن لأهتم قط ، لماذا تتدخل هذه المرأة التى لا يوجد أى

إرتباط بينى وبينها إلى هذا الحد ؟ أتذكر أنهم – فى نفس الحجرة الواقعة فوق خزان المياه كان يقيمون « الكرسى[1] » فى أيام الشتاء ، وكنت ومربيتى ونفس هذه البغى ننام حول هذا الكرسى . وحينما كانت عيناى تفتحان فى الظل المضىء وأنظر إلى الرسم الذى على الستارة ذات النقوش الموجودة على الباب كانت تبعث حية أمام ناظرى ، كم كانت ستارة عجيبة ومثيرة للخوف ! كان قد رسم عليها عجوز أحدب يشبه مرتاضى الهنود معمما ، يجلس تحت شجرة سرو ويمسك بيده آلة موسيقية تشبه العود ، وفتاة جميلة تشبه بيجوم داسى راقصة المعبد الهندى قد قيدت يداها بسلسلة ، وكأنها كانت مضطرة للرقص أمام الرجل العجوز ، وكنت أفكر بينى وبين نفسى أن هذا الرجل العجوز ربما القى به فى قعر جب مع حية كوبرا حتى خرج وهو بهذا الشكل ، وقد إبيض شعر رأسه ولحيته . ومن هذه الستائر الهندية المذهبة التى ربما أتى بها والدى أو عمى من الهند – من هذا الشكل الذى كنت أدقق فيه يوما بعد يوم كنت أخاف . وكنت أوقظ مربيتى من النوم فتلصقنى بها ، بنفسها السىء الرائحة وشعرها الأسود الخشن الذى كان يلتصق بوجهى ، وفى الصباح كنت أفتح عينى ، كانت تبدو بنفس الشكل أمام ناظرى ولكن غضون وجهها كانت تبدو أعمق وأكثر تصلبا .

وفى أغلب الأحيان ، أتذكر أيام طفولتى من أجل أن أنسى ومن أجل أن أذهب ، ومن أجل أن أحس بنفسى فى حال قبل أيام المرض – أحس أننى سالم – وحتى الآن كنت أحس أننى طفل ومن أجل موتى ، من أجل عدمى ، كنت هناك روح أخرى تشفق على ، تشفق

---

(١) الكرسى مصطبة تقام وسط الحجرة داخلها جوف توضع فيه مواد قابلة للاحتراق ، ويتحلق أهل البيت حوله وربما ينامون ، يغطى الكرسى ببعض الأغطية .

هـــذا الـطـفـل الـذى سيـمـوت ــ وفى المواقف المخيفة من حيـاتى كنت بمجرد أن أرى وجه مربيتى الهادىء بمجرد أن كنت أرى الوجه الشاحب والعينين العميقتين الساكنتين الحزينتين وأرنبة الأنف الرقيقة ، والجبهة العظامية العريضة كانت تستيقظ فى نفسى ذكريات ذلك الزمان ، وربما كانت تنبعث فيها أمواج غامضة تبعث على تهدئتى . كان هناك خال لحمى على صدغها تغطيه بالشعر ، وربما فقط إنتبهت إلى ذلك الخال فى ذلك اليوم الذى كنت أنظر فيه إلى وجهها .. لم أكن أدقق إلى هذا الحد ! .

هذا وبالرغم من أن مربيتى قد تغيرت ظاهريا إلا أن أفكارها ظلت على حالها ولكنها إزدادت تعلقا بحياتها ، وكانت تخاف من الموت مثل الذباب الذى كان يلجأ إلى الحجرة فى أول الخريف . ولكن حياتى كانت تتغير كل يوم ودقيقة ، وكان يبدو لى أن طول الزمن والتغيرات التى يمر بها البشر فى سنوات ، كانت بالنسبة لى فى سرعة السير والأحداث مضاعفة آلاف المرات وأكثر سرعة ، فى حين أن مسراتها ولذائذها كانت تسير فى خط عكسى وتسرع نحو الصفر وربما قد تجاوزت الصفر أيضا ، هناك أشخاص يبدأون الإحتضار فى سن العشرين فى حين أن كثيراً من الناس عند موتهم ينتهون هادئين جدا وببطء مثل السراج الذى ينفذ زيته فينطفىء . حين أحضرت مربيتى الغذاء لى ، ألقيت بسلطانية الحساء ، وصرخت ، صرخت بكل قوتى ، وجاء جميع أهل المنزل وتجمعوا أمام حجرتى . وجاءت تلك البغى أيضا ثم عادت سريعا . نظرت إلى بطنها . كانت قد إرتفعت : لا ، لم تكن قد وضعت بعد . وذهبوا فأخبروا الطبيب ... كنت منتشيا بينى وبين نفسى ... ذلك لأننى على الأقل أتعبت الحمقى .

وجاء الطبيب بلحيته الكثة ، وأمر بأن أتعاطى الأفيون ، يا له من دواء غال الثمن من أجل حياتى المؤلمة ! وحينما أتعاطى الأفيون ، كانت أفكارى تصير عظيمة طريفة أسطورية وملائكية ، كنت أسير فى عالم آخر وراء العالم المادى وأسبح فيه .

كانت أفكارى وخيالاتى تتحرر من قيد الأشياء الأرضية وثقلها ووزنها ، وتطير محلقة نحو فلك هادىء وصامت وكأنما وضعت فوق جناحى خفاش ذهبى ليلى وكنت أتنزه فى دنيا خالية مضيئة لا أصادف فيها مانعا . وكان هذا التأثير عميقا ومليئا باللذة لدرجة أنه أكثر لذة من الموت نفسه .

وحينما نهضت من أمام الموقد ، ذهبت بجوار الكوة التى تفضى إلى الفناء ، فرأيت مربيتى تجلس فى الشمس تنظف بعض الخضروات ، سمعتها تقول لزوجة إبنها « لقد أتعبنا جميعا ... ليت الله يميته ويريحه !! » وربما قال لهم الطبيب أننى لست على ما يرام .

– ولكنى لم أتعجب ، ما أشد هؤلاء الناس حمقا ، وعندما جاءت بعد ساعة وحين كانت تحضر لى الأعشاب الطبية ، كانت عيناها منتفختين محمرتين من شدة البكاء ، ولكنها أمامى إصطنعت إبتسامة ، كانوا جميعا يقومون بالألاعيب أمامى وأية ألاعيب ! ! ألاعيب فى منتهى السذاجة ، أيظنون أننى لم أكن أعرف حقيقة نفسى ؟ ولكن لماذا كانت تبدى لى هذه المرأة عطفها ؟ لماذا تعتبر نفسها شريكة لى فى آلامى ؟ ذات يوم وكانوا قد أعطوها نقودا ، فألصقت ثدييها المهترئين السوداوين فى شفتى كقربتين جلديتين – ليت الجذام كان قد أصاب ثدييها – والآن كلما أرى ثدييها أصاب بالغثيان إذ أننى كنت فى ذلك الوقت أمتص بإشتهاء تام عصارة الحياة منها ، وكانت تختلط حرارة

جسدينا ، كانت تدلك جسدى كله ، ربما كان من أجل هذا أنها كانت تعاملنى الآن بجرأة خاصة يمكن أن تكون لأرملة ، كانت تنظر إلى بنفس العين التى كانت تنظر إلى بها فى طفولتى ، ربما لأنها كانت تضعنى ذات يوم على حوض لأقضى حاجتى ، ومن يدرى ، ربما تساحقنى مثلما تفعل النسوة التى تتخذ إحداهما الأخرى كأخت بالتسمى[1] .

والآن بأى شغف ودقة كانت تتفحصنى أو على قولها « ترى منى الأخضر واليابس » لو أن إمرأتى تلك البغى كانت ترى أمورى ، لما تركت لمربيتى أبدا سبيلا إلى ، لأننى كنت أظن بينى وبين نفسى أن أفق التفكير والإحساس بالجمال عند زوجتى كان أكثر من مربيتى أو أن الشهوة فحسب هى التى كانت قد ولدت هذا الحس بالخجل والحياء عندى .

ومن هنا قليلا ما كنت أراعى أصول اللياقة أمام مربيتى ، وكانت هى الوحيدة التى ترى أمورى ، ولابد أن مربيتى كانت تعتقد أن قدرها هكذا ، أن نجمها هو هذا . وإلى جوار ذلك كانت تستفيد من مرضى ، وكانت تفضى إلى بكل متاعبها الأسرية ومسراتها ونزاعاتها وخصوماتها وطبعها الساذج المؤذى الدنىء فى الوقت نفسه وبأى حقد كانت تنقل إلى الهموم التى تنتابها من زوجة إبنها وكأنها كانت ضرتها وسرقت حب إبنها وشهوته منها ! وربما كانت زوجة إبنها جميلة ، وقد تلصصت من الكوة إلى فنائها ورأيتها : كانت ذات عينين عسليتين وشعر أشقر وأنف صغير دقيق .

(١) فى النص « خواهر خوانده » واتخاذ الأخت بالتسمى عادة شائعة فى ايران فى الطبقات الفقيرة ، وتتم بعد عدة طقوس نص عليها هدايت فى كتابه الذى جمع فيه العادات الشعبية واسمه « نيرنكستان » .

كانت مربيتى تقص لى أحيانا حكايات الأنبياء ، وكانت تظن أنها بهذه الطريقة تسلينى ، ولكنى كنت أشفق على تفكيرها المنحط وحماقتها . وأحيانا كانت تجمع لى الأخبار ، مثلا منذ عدة أيام قالت لى : إن إبنتى (وتقصد تلك البغى)حاكت فى ساعة سعد « قميص قيامة »[1] للطفل طفلها ، وكأنها تظن أنها بهذا تسعدنى ، وأحيانا كانت تذهب إلى الجيران لتحضر الأدوية لى ، أو تذهب إلى السحرة أو لناظرى الفأل ، أو الذين يقرأون الفنجان ، أو تفتح الكتاب ، وتحدث من يقومون بهذه الأعمال بشأنى ومن أجلى . وفى الأربعاء الأخير من السنة[2] ، أحضرت تفاؤلا إناء به بصل وأرز وزيت فاسد ، وقالت أنها كانت قد تسولت كل هذا بنية سلامتى ، ثم أطعمتنى كل هذا النتن والقاذورات دون أن أعلم . وبين الفينة والفينة كانت تبلينى بالأعشاب الطبية التى وصفها الطبيب لى ، نفس الأعشاب الملعونة التى وصفوها لى : حشيشة الزوفا ، الرب سوس ، الكافور ، وبذر الصنوبر ، والنشا وحشيشة الأسد ، وألف نوع من الخرافات الأخرى .

منذ عدة أيام كانت قد أحضرت لى كتاب أدعية ، وقد غطاه شبر من التراب ، ليس كتاب الأدعية فحسب بل كل كتب الأوباش وكتاباتهم لا تهمنى ، أية حاجة لى بترهاتهم وحيلهم ؟ ألست أنا نفسى

(١) فى النص « بيراهن قيامت » ، رداء يفصل بطراز معين ويلبسه الطفل بعد مولده وأول إستحمام مباشرة ويظل عليه سبعة أو عشرة أيام ويعتقد العامة أنه يحفظ الطفل من حر يوم القيامة .
(أنظر عقايد ورسوم عامة مردم خرسان ابراهيم شكورزاده ص ١٠٩)

(٢) هكذا فى النص ويبدو أنه يشير إلى اليوم المعروف باسم « جهار شنبه سورى » ، وهو من الأيام المباركة لدى الإيرانيين والعادة المذكورة ضمن عادات يقوم بها العوام الإيرانيون فى ذلك اليوم . المصدر السابق ص ٧١ (طهران سنه ١٣٤٦ هـ . ش) .

نتيجة لسلسلة من الأجيال الماضية ؟ ألم تبق تجاربهم الموروثة فى داخلى ؟ أليس الماضى فى داخلى أنا ؟ ولكنه لم يحدث فى أى وقت أن أحدث المسجد وصوت الأذان والوضوء والمضمضة والركوع والقيام أمام قادر متعال وصاحب إختيار مطلق ينبغى أن نخاطبه بالعربية ، لم يحدث ذات مرة أن كان لكل هذا أثر فى .

هذا بالرغم من أنى فى زمن مضى ، حينما كنت صحيحا ، ذهبت عدة مرات مضطرا إلى المسجد ، وكنت أسعى لأجعل قلبى متمشيا ومسايرا لسائر الناس ، ولكن عينى كانتا مركزتين على القيشانى الملون والرسوم والزخارف التى كانت على جدران المسجد وكانت تحملنى إلى أحلام لذيذة – وبلا إرادة كنت أجد لنفسى بهذا طريق هروب – وحين الدعاء كنت أغمض عينى وأرفع كفى أمام وجهى – وفى هذا الليل الذى أوجدته لنفسى ، كنت أدعو مثلهم بالكلمات التى يرددونها فى النوم دون مسؤولية فكرية ، ولكن تلفظ الكلمات لم يكن من أعماق قلبى لأننى كنت أميل إلى التحدث مع صديق أو ألف أكثر من ميلى إلى الحديث مع الله القادر المتعال إلا أن الله كان أعظم من مخاطبتى ومما تحتمل رأسى .

وحينما كنت نائما فى فراش دافىء لين ، كانت كل هذه المسائل لا تساوى بالنسبة لى حبة من شعير ، وفى هذا الموقف لم أكن أريد أن أعرف : هل الله موجود فى الحقيقة أم أنه فقط مظهر لأصحاب السلطة على الأرض جعلوه لتثبيت مقام الألوهية من ناحية واستغلال رعاياهم من ناحية أخرى – صورة إنعكست من الأرض إلى السماء – كنت أريد أن أعلم فقط هل سأصل النهار بالليل أم لا – كنت أحس أنه فى مواجهة الموت كم يكون الدين والإيمان والعقيدة أشياء طفولية

وتافهة وتقريبا نوع من العزاء للناس الأصحاء السعداء – وفى مواجهة حقيقة الموت المخيفة والحالات المذيبة للروح التى إجتزتها ، صار كل مالقنوه لى بالنسبة للثواب والعقاب والروح ويوم القيامة خداعا لا طعم له ، وأصبحت الأدعية التى لقنوها لى لا تجدى فتيلا فى مواجهة خوف الموت .

لا ، ولكن الخوف من الموت لم يترك أبدا تلابيبى – إن الأشخاص الذين لم يذوقوا الألم لا يفهمون هذه الكلمات ، كان حس الحياة فى قد إزداد لدرجة أن أقصر لحظات السعادة كانت تعوض الساعات الطويلة للإنهيار والإضطراب ... كنت أرى أن للألم والشقاء وجودا ، ولكنه خال من كل نوع من المعنى والمفهوم .

لقد أصبحت بين الأوباش عنصرا غير معلوم ومجهولا بحيث إنهم نسوا أننى كنت ضمن دنياهم قبل ذلك ، ولكن ما كان مخيفا أننى كنت لست حيا تماما أو ميتا تماما ، كنت فقط جثة متحركة لا علاقة لى بدنيا الأحياء ، ولا أنا كنت أستفيد من نسيان الموت وطمأنينته .

. . . .

. . . .

فى أول الليل حين نهضت من جوار موقد الأفيون ، نظرت من كوة حجرتى إلى الخارج ، كانت هناك شجرة سرو مغروسة أمام دكان القصاب الذى كان قد أغلق ، كانت الظلال المظلمة قد إمتزجت ببعضها . وكنت أحس أن كل شىء فارغ ومؤقت . وبدت السماء السوداء المدهونة بالقار كأنها خمار قديم أسود ثقبت بالنجوم اللامعة التى لا حصر لها – وحينئذ إرتفع صوت آذان ، آذان فى غير وقته ، وكأنما كانت إمرأة – وربما تلك البغى – مشغولة بالوضع ، ربما كان

المخاض قد جاءها ، وبين فواصل الآذان كان يرتفع نباح كلب . وفكرت بيني وبين نفسي « إذا كانت هناك حقيقة نجمة لكل إنسان فى السماء ، إذن فيجب أن تكون نجمتى مظلمة لا معنى لها – ربما لم تكن لى نجمة على الاطلاق ! »

وفى هذا الوقت إرتفع صوت جماعة سكيرة من رجال الضبط ، كانوا يمرون من الحارة ويتبادلون النكات البذيئة ، ثم تحلقوا وأخذوا يغنون بصوت خفيض :

هيا معا نشرب الخمر

شراب ملك الرى

إن لم نشرب الآن فمتى نشرب ؟

فانتحيت جانبا من الخوف ، كانت أصواتهم تتموج فى الجو بطريقة خاصة ، ورويدا رويدا إبتعدت أصواتهم واختفت ، لا ، لم يكن لهم بى شأن ، وكانوا لا يعلمون ... ومرة ثانية سادت السكينة والظلمة كل مكان – ولم أشعل أنا سراج حجرتى ، وفضلت أن أجلس فى الظلام .. الظلام هذه المادة الكثيفة السيالة التى تسرى فى كل مكان وكل شيء – وكنت قد ألفته – كان فى الظلام أن أفكارى الضائعة والمخاوف المنسية والأفكار المهولة التى لا تصدق والتى لم أكن أدرى فى أى زوايا عقلى تختفى ، كانت كلها تبعث من جديد ، وأخذت تسير وهى تشاكسنى ، وكانت أركان الحجرة ، وما وراء الستار ، وجوار الباب كلها مليئة بهذه الأفكار والأشباح المهددة التى لا شكل لها .

وهناك بجوار الستار كان شبح مخيف قد قبع ، لم يكن يتحرك ، لم يكن حزينا ولم يكن فرحا ، وكلما كنت أستدير كان ينظر فى حدقتى

– كنت معتادا على وجهه وكأننى كنت قد رأيت نفس الوجه فى طفولتى . فى اليوم الثالث عشر للنوروز كنت العب مع الأطفال لعبة الإستخفاء بجوار نهر « سورن » ، وكان قد ظهر لى بنفس الوجه الذى يبدو لى مع الوجوه العادية الأخرى للذين يملكون أجساما قصيرة ومضحكة .

وكان وجهه يشبه نفس وجه الرجل القصاب الذى يوجد أمام منزلى ، وكان يبدو كما لو أن هذا الشخص قد تدخل فى حياتى وأننى رأيته كثيرا ، ربما كان هذا الظل قرينى المولود معى ، وكان قد وقع فى دائرة حياتى المحدودة . وبمجرد أن نهضت لأشعل السراج إنمحى ذلك الشخص وتبخر . وذهبت إلى المرآة فدققت النظر فى وجهى ، وكانت الصورة التى إنعكست تبدو لى غريبة تماما غير مصدقة ومخيفة . كانت صورتى قد صارت أقوى منى وصرت أنا مثل الصورة التى على المرآة – وبدا لى أننى لم أكن أستطيع أن أبقى مع صورتى فى حجرة واحدة وكنت أخاف أن أهرب فتجرى فى أثرى ، مثل قطين وقفا وجها لوجه من أجل المشاجرة – ولكنى رفعت يدى فوضعتها أمام عينى حتى أولد فى قعر كفى ليلا أبديا – وكانت لأغلب حالات الخوف بالنسبة لى نشوة وسكرا خاصان ، بحيث كانت رأسى تصدع ، وكانت ركبتاى تتخلخلان ، وكانت تصيبنى رغبة فى القيء – وفجأة تنبهت أننى كنت واقفا على قدمى – كانت هذه المسألة بالنسبة لى غريبة تماما ، معجزة – كيف كنت أستطيع أن أقف على قدمى ؟ وبدا لى أننى لو حركت إحدى قدمى لفقدت توازنى ، وانتابتنى حالة من الدوار – كانت الأرض وما عليها بعيدة عنى إلى ما لا حد له ، وبطريقة خفية كنت أرغب فى أن تزلزل الأرض أو تنزل صاعقة من السماء من أجل أن آتى من جديد إلى دنيا مريحة ومضيئة .

وحينما أردت أن أمضى إلى فراشى قلت بينى وبين نفسى عدة مرات « الموت .. الموت » ، كانت شفتاى مغلقتين ولكنى خفت من صوتى - كانت جرأتى الماضية قد ذهبت . صرت مثل الذباب الذى كان يهجم على الحجرة فى أول الخريف ، الذباب المتيبس الميت الذى كان يخاف من صوت حفيف أجنحته ، ويبقى فترة من الوقت رابضا على قطعة من الحائط دون حركة حتى إذا أحس أنه حى ، صار يتخبط فى الجدران والأبواب بلا وعى فتقع جثته فى أركان الحجرة .

وحينما أغمضت عينى إرتسمت دنيا باهتة أمامى ، دنيا أوجدتها أنا كلها ، وكانت تتفق مع أفكارى ومشاهداتى ، وعلى أى فقد كانت أكثر واقعية وطبيعية من دنيا يقظتى ، وكأنما لم يكن هناك مانع أو عائق أمام فكرى وخيالى ، وكان الزمان والمكان يفقدان تأثيرهما - وهذا الإحساس المقتول بالشهوة الذى كان الحلم متولدا عنه كان بدوره متولدا عن إحتياجاتى النهائية ، تلك التى كانت تجسد مناظر وأحداثا غير مصدقة ولكنها طبيعية أمام ناظرى ، وبعد أن كنت أستيقظ كنت فى نفس الدقيقة لا أزال أشك فى وجودى - كنت غافلا عن زمانى ومكانى - وكأنما كانت الرؤى التى رأيتها قد أعددتها بنفسى جميعا ، وكنت أعلم تفسيرها مسبقا .

وكان قد مر شطر كبير من الليل حين إختطفنى النوم . وفجأة رأيت أننى فى شوارع مدينة مجهولة ذات منازل غريبة وعجيبة بأشكال هندسية منشورية ومخروطية ومكعبة وبنوافذ واطئة ومظلمة إلتفت حول جدرانها وأبوابها باقات النيلوفر . كنت أتجول فيها بحرية وأتنفس براحة ، ولكن سكان هذه المدينة كانوا جميعا قد ماتوا ميتة غريبة : كانوا جميعا قد تجمدوا فى أماكنهم ، وكانت نقطتان من الدم

قد سالت من فم كل واحد منهم ونزلت على ملابسه ، وكنت كلما لمست شخصا إنفصلت رأسه وسقطت .

وبلغت دكان قصاب ورأيت رجلا يشبه العجوز صاحب الأشياء العتيقة المختلفة الذى أمام منزلنا وقد لف رقبته بشال وأمسك بسكين فى يده وأخذ يحدق فى بعينين حمراوين كأنهما قطعت أجفانهما – أردت أن آخذ السكين من يده ، فانفصلت رأسه وسقطت على الأرض ، ومن شدة الخوف أطلقت ساق للريح ، أخذت أجرى فى الشوارع ، وكان كل شخص رأيته متجمدا فى مكانه . كنت أخشى أن أنظر خلفى ، وحينما وصلت إلى منزل حمى – رأيت صهرى – الأخ الأصغر لتلك البغى يجلس على مصطبة ، ووضعت يدى فى جيبى فأخرجت كعكتين وأردت أن أضعهما فى يده ، ولكنى بمجرد أن لمسته إنفصلت رأسه وسقطت على الأرض . فصرخت واستيقظت .

كان الجو ما بين الظلمة والنور . كنت أشعر بإنهيار فى قلبى ، وبدى لى أن السقف يضغط على رأسى بثقله ، وكانت الجدران قد تضخمت الى مالا نهاية . وكان صدرى يكاد ينفجر ، ورأيت عينى قد غشيتا ، وظللت فترة أحملق فى عروق السقف . كنت أعدها ثم أشرع فى عدها من جديد . وبمجرد أن حككت عينى ، سمع صوت الباب ، ودخلت مربيتى لتكنس حجرتى . كانت قد تركت إفطارى فى الحجرة العلوية من المنزل فذهبت إلى أعلى المنزل وجلست إلى النافذة ، ومن هذا العلو لم يكن العجوز الذى أمام حجرتى ظاهرا ، ولكنى كنت أرى القصاب من الناحية اليسرى ، ولكن حركاته التى تبدو لى من كوة حجرتى مخيفة ثقيلة ومتئدة ظهرت من هذا العلو مضحكة وتافهة ، وكأنما كان يبدو لى أنه لا ينبغى أن يكون هذا

الرجل قصابا بل كان يلهو . كان هناك أيضا الحصانان الأسودان الهزيلان اللذين علق على طرفى كل منهما خروفان مذبوحان . وكان يطلقان السعلات الجافة العميقة ، ومرر القصاب يده القذرة على شاربه ، وألقى بنظرة متفحصة على الخراف ، ثم حمل إثنين منهما بجهد وعلقهما فى خطاف دكانه وأخذ يربت بيده فخذ الخروف ، ولابد أنه فى الليل حينما كان يتحسس جسد إمرأته كان يتذكر الخراف وكان يفكر : لو قتل زوجته فأى مبلغ من النقود سوف يكسبه من جراء ذلك .

وحينما إنتهى الكنس ، عدت إلى حجرتى وصممت على شىء - شىء مريع - فذهبت إلى خزانة حجرتى ، فأخرجت من الصندوق السكينة ذات اليد المصنوعة من العظم التى كنت أملكها ، ونظفت نصلها بطرف جلبابى ووضعتها تحت وسادتى ، كنت قد صممت على هذا الشىء منذ عهد بعيد ، ولكنى لم أكن أدرى ماذا كان فى حركات الرجل القصاب حينما كان يقطع فخذ الخروف ويزنها ثم ينظر إليها بإعجاب ، إذ كنت أحس أننى أيضا كنت أريد أن أقلده . وصار لازما لى أن أتمتع بهذا الهوس ، ومن كوة حجرتى بين السحب ظهر على وجه السماء ثقب داكن الزرقة وعميق . وبدا لى أنه من أجل أن أصل إلى هناك ينبغى أن أرتقى سلما عاليا ، عاليا جدا ، وكانت حواشى السماء قد غمت بسحب صفراء غليظة ممزوجة بالموت ، بحيث كانت تضغط بثقلها على كل المدينة .

كان هناك جو مخيف ملىء بالنشوة ، لا أدرى لماذا كنت أنحنى دائما نحو الأرض ، دائما فى هذا الجو كنت أفكر فى الموت . ولكن الآن والموت بوجهه الدموى ويديه العظامية قد أخذ يخنقنى ، الآن فقط - صممت - ولكن ما كنت صممته أن أذهب أيضا بهذه البغى معى

حتى لا تقول من بعدى : « الله يرحمه ! إستراح ! » وفى هذا الوقت كانت جنازة تشيع من أمام نافذة حجرتى ، كان النعش مجللا بالسواد وقد أوقدت الشموع عليه ، ونبهنى صوت « لا اله إلا الله » - كان كل العاملين فى السوق والمارة يتجولون عن طريقهم ويسيرون سبع خطوات وراء النعش ، حتى الرجل القصاب ذهب هو أيضاً لكى يكسب الثواب وسار سبع خطوات وراء النعش - ثم عاد إلى دكانه - ولكن الرجل العجوز صاحب المفرش لم يحرك ساكنا من أمام بضاعته .. يا لها من حالة .. تلك التى إتخذها الناس ! ربما تذكروا فلسفة الموت والدار الآخرة - ورأيت مربيتى التى كانت قد أحضرت لى الدواء وقد قطبت وجهها وكانت تدير المسبحة الطويلة التى كانت فى يدها . وتهمس بالذكر ، ثم قامت تصلى وراء حجرتى وهى تصيح بصوت عال : « اللهم .. اللا ا ا ا هم ... »

وكأننى كنت موكلا بالغفران عن الأحياء ! - ولكن كل هذه المساخر لم تكن تؤثر فى . على العكس كنت مسرورا لأن الأوباش أيضا بالرغم من أنهم مؤقتون وكاذبون إلا أنهم على الأقل يجتازون عوالمى لعدة ثوان .. ألم تكن حجرتى تابوتا ... ألم يكن فراشى أبرد وأظلم من القبر ؟ فراش كان دائما ممتدا ويدعونى إلى النوم ! - عدة مرات طرأت لى هذه الفكرة : إننى فى قبر - وفى الليل تبدو حجرتى فى ناظرى صغيرة تضغط على . ألا يحسون بنفس هذا الإحساس فى القبر ؟ .. وهل إستطاع أحد أن يعلم أحاسيس ما بعد الموت ؟

إذا كان الدم يتوقف فى الجسد ، وبعد يوم بليلة تبدأ أعضاء البدن فى التحلل ، ولكن حتى بعد فترة من الموت يظل شعر الرأس وأظافر اليد مستمرين فى النمو - هل تذهب الأحاسيس والأفكار أيضا بعد

توقف القلب أم أنها تظل فترة تواصل الحياة خفية من الدم الباقى فى العروق الصغيرة ؟ إن حس الموت نفسه مخيف ، فكيف يكون الأمر للذين يحسون أنهم موتى ! ! هناك عجائز يموتون بإبتسامة، وكأنهم ينتقلون من نوم إلى نوم أو كأنهم سراج ينطفىء . أما بالنسبة لشاب قوى يموت فجأة وتقاتل كل قوى بدنه ضد الموت لفترة ، فأية أحاسيس سوف يحس بها ؟

مرات كثيرة كنت أفكر فى الموت وفى تجزئة عناصر جسدى بحيث أن هذا التفكير لم يعد يخيفنى ، وعلى العكس رغبت رغبة حقيقية فى أن أعدم وأفنى ، الشيء الوحيد الذى كنت أخشاه أن تختلط ذرات جسدى بذرات أجساد الأوباش - كان هذا الشيء غير محتمل بالنسبة لى - وأحيانا كنت أرغب من كل قلبى أن تكون لى بعد الموت يد فارعة ذات أصابع طويلة حساسة حتى أجمع كل ذرات جسدى بدقة ، وأحتفظ بها بكلتا يدى حتى لا تذهب ذرات جسدى التى هى لى فى أجساد الأوباش .

وأحيانا كنت أفكر أن كل ما كنت أراه كان يراه أيضا الأشخاص الذين هم على أعتاب الموت . كان الإضطراب والخوف والرعب والميل إلى الحياة كلها قد تأصلت فى نفسى ، وكنت نتيجة للتخلص من العقائد التى كانوا قد لقنوها لى أحس فى نفسى براحة خاصة ، إن ما كان يبعث فى العزاء هو الأمل فى العدم بعد الموت ، كانت فكرة الحياة بعد الموت تخيفنى وتصيبنى بالملل - أنا حتى الآن لم أكن قد أنست إلى هذه الدنيا التى كنت أحيا فيها فماذا تفيدنى الحياة الأخرى ؟ كنت أحس أن هذه الدنيا لم تكن من أجلى ، بل من أجل حفنة من الناس الذين لا حياء عندهم ، صفيقى الوجوه ، الأدنياء ، الملحاحين ،

المتحذلقين ، جياع العين والقلب . من أجل الأشخاص الذين خلقوا مناسبين للدنيا يتسولون من أقوياء الأرض والسماء ويتملقونهم مثل الكلب الجائع الذى كان يبصبص بذيله أمام دكان القصاب من أجل قطعة من « اللثة » . أن فكرة الحياة مرة أخرى كانت تخيفنى وتصيبنى بالملل – لا . لم تكن بى حاجة لرؤية كل هذه العوالم المقيتة ، وكل هذه السحنات المنكوبة . إلا أن يكون الله ليس مرئيا بالعين إلى هذا الحد الذى يجعله يكشف لبصرى عن عوالمه ؟ ولكنى لا أستطيع أن أعرف شيئا كذبا ، وإذا كان يجب أن أحيا حياة جديدة ، فإننى كنت أرغب فى أن أصير ميت الفكر والإحساس وأن أتنفس دون صعوبة ، وبدون أن أحس بالألم ، كنت أستطيع أن أبدأ حياة جديدة فى ظل أعمدة معبد « لينجم » وأتسكع بحيث لا تضر الشمس عينى ، ولا يضايق مسمعى حديث الناس وصوت الحياة .

. . . .

. . . .

كلما إزددت توغلا فى نفسى ، مثل الحيوانات التى كانت تختفى فى جحورها شتاء ... كنت أسمع أصوات الآخرين فى أذنى وأسمع صوت نفسى فى حلقى . أن الوحدة والإنزوائية التى كانت قد إختفت فى مؤخرة رأسى كانت تشبه ليالى أبدية أزلية ومتراكمة ، ليالى ذات ظلمة لزجة غليظة ومعدية تنتظر أن تسقط فوق مدينة خالية مليئة بأحلام الحقد والشهوة – ولكنى فى مواجهة صوت حلقى لم يكن أمامى إلا نوع من الموافقة التامة المجنونة – أن الضغط الذى يلصق شخصين ببعضهما وقت المضاجعة لدفع الوحدة ، ليس إلا نتيجة

لنفس الجانب المختلط بالجنون والموجود فى كل فرد ، والمختلط بالأسف الذى يميل ببطء نحو الموت .

إنه الموت فقط الذى لا يكذب ...

إنه حضور الموت الذى يقضى على جميع الأوهام ويفنيها . نحو أطفال الموت ، والموت هو الذى ينقذنا من جميع خداعات الحياة ، وفى أعماق الحياة هو الذى ينادينا ويومىء إلينا - وفى الأعمار التى مازلنا لا نفهم فيها لغة الناس إذا مكثنا أحيانا فى قلب اللعبة ، فذلك من أجل أن نسمع صوت الموت .. وطوال العمر .. هو الموت الذى يشير إلينا - ألم يحدث لأى شخص أن سقط فجأة فى التفكير وظل غارقا فى فكره بحيث غاب عن زمانه ومكانه وهو لا يدرى فى أى شيء يفكر ؟ وحينذاك يجب أن يجاهد لكى يتعرف على واقعه وعالمه المحسوس مرة ثانية ويعتاد عليه - هذا هو صوت الموت بعينه .

وفى الفراش الرطب الذى يفوح برائحة العرق حينما كان جفناى يثقلان وأريد أن أسلم نفسى إلى العدم وإلى الليل الابدى كانت تبعث من جديد كل ذكرياتى الضائعة ومخاوفى المنسية ! .. الخوف من أن تتحول حواشى الوسادة إلى نصل خنجر ، أن يصير زر سترتى ثقيلا إلى ما لا نهاية بحجم حجر الرحى ، الخوف من أن تسقط كسرة من خبز الرقاق وتكسر كالزجاج - القلق من أننى لو نمت لإنسكب زيت السراج على الأرض ولأشتعلت المدينة ، الشك فى أن أقدام الكلب أمام دكان القصاب لها وقع حوافر الحصان ، التخوف من أن يضحك الرجل العجوز صاحب الأشياء القديمة أمام مفرشه و يضحك إلى درجة لا يستطيع معها أن يكبح نفسه ، الخوف من أن تتحول الديدان الموجودة فى مواطىء غسل الأقدام فى حوض البيت إلى حيات هندية ،

الخوف من أن يتحول فراشي إلى قبر ويدور بواسطة « الشنبر » حول نفسه ويدفنني وتغلق أسنانه المرمرية على بعضها ، الهلع والفرق من أن يحتبس صوتى ومهما صرخت لا يصل أحد لنجدتى .

كنت أرغب فى أن أتذكر أيام طفولتى ، ولكنها حينما كانت تأتى وأحس بها ، كنت أرى أنها مثل هذه الأيام قاسية ومؤلمة .

والسعلات التى كانت تتجاوب مع صوت سعلات الحصانين الأسودين أمام دكان القصاب اضطرارا إلى دفع البلغم ، والخوف من ظهور الدم فيها - الدم هذا السائل المتدفق المالح الطعم الذى يخرج من الجسد الذى هو عصارة الحياة ولا محيص من تقيئه والتهديد الدائم للموت الذى يدوس كل الأفكار بدون أمل فى العودة ويمر بدون خوف وهلع .

إن الحياة بعدم إكتراث وبلا مبالاة تضفى على ظاهر كل إنسان قناعا وربما كان مع كل شخص عدة أقنعة - والبعض فقط يستعملون دائما واحدا من هذه الأقنعة يصير بالطبيعة باليا مليئا بالخدور والتجاعيد - وهذا البعض إقتصادى - ومجموعة أخرى من الناس يحتفظون بأقنعتهم من أجل أولادهم وأحفادهم ، وبعضهم يغير قناعه دائما ، ولكن بمجرد أن يتقدموا فى السن يفهمون أن هذه هى آخر أقنعتهم ، وأنها سوف تستهلك وتفسد بسرعة وفى ذلك الوقت يخرجون وجوههم الحقيقية من خلف هذا القناع الأخير .

لا أدرى أى تأثير مسمم كان لجدران حجرتى ، كانت تسمم أفكارى ، وتأكدت أنه كان فى هذه الحجرة قبلى مجرم أو مجنون خطر ، ليست جدران حجرتى فحسب ولكن المنظر فى الخارج ، ذلك الرجل القصاب ، والرجل العجوز صاحب المفرش ، ومربيتى ، وتلك البغى

وكل الأشخاص الذين رأيتهم ، وأيضا سلطانية الحساء التى كنت أشرب منها حساء الأرز ، والملابس التى كنت أرتديها ، كلها تظافرت من أجل أن تولد هذه الأفكار فى داخلى .

منذ عدة ليال ، بمجرد أن خلعت ملابسى فى حجرة التدليك بالحمام تغيرت أفكارى . وكأنما غسل الحمامى الذى كان يصب الماء على رأسى أفكارى السوداء . وفى الحمام رأيت ظلى على الحائط الرطب الملوث بالعرق ورأيت نفسى نحيفا ومهدما مثلما كنت طفلا قبل عشر سنوات . وتذكرت جيدا أن كل جسدى كان يسقط هكذا على حائط الحمام الملوث بالعرق . وأمعنت النظر فى ظل جسدى على حائط الحمام ، الفخذ ، الساق ، القدم ، خاصرتى وكان لها حالة شهوة يائسة .

كانت ظلالى هذه كلها مثلما كانت عليه منذ عشر سنوات . حينما كنت طفلا ، أحسست أن حياتى برمتها مضت مثل ظل شريد كالظلال المرتعشة على حائط الحمام بلا معنى ولا هدف . ولكن الآخرين كانوا ثقال الوزن ، أقوياء البنية ، غلاظ الرقبة ولابد أن ظلالهم تسقط على حائط الحمام الملوث بالعرق أقتم لونا وأضخم وتترك أثرها لفترة فى حين أن ظلى ينمحى بسرعة شديدة ، وحينما إرتديت ملابسى فى حجرة الإرتداء تغيرت حركات سحنتى وأفكارى مرة ثانية ، وكأننى دخلت فى بيئة جديدة ودنيا جديدة ، وكأننى ولدت من جديد فى الدنيا التى كنت أكرهها . فقد كان معجزة أننى لم أذب فى حوض الحمام كذرة من الملح !

. . . .

كانت حياتى تبدو لى إلى هذا الحد غير طبيعية ، غير عقلانية ، ولا

تصدق ، وكأنها الرسم الذى على المقلمة التى كنت مشغولا بالكتابة بها ، وكأنما رسام مجنون موسوس قد رسم غلاف المقلمة هذا - وفى معظم الأحيان حينما أنظر إلى هذا الرسم يبدو لى معهودا . ربما من أجل نفس هذا الرسم ، وربما نفس هذا الرسم هو الذى يدفعنى إلى الكتابة - شجرة سرو فارعة ، يجلس تحتها القرفصاء رجل عجوز أحدب يشبه مرتاضى الهنود ، وقد لف نفسه بعباءة ، وعقد شالا حول رأسه ، ووضع أصبع السبابة ليده اليسرى فى فمه متعجبا . وفى مواجهته فتاة ذات رداء أسود طويل ترقص أمامه بحركات غير طبيعية ، ربما كانت بيجوم داسى ، وقد أمسكت بزهرة نيلوفر فى يدها . وكان يفصل بينهما جدول ماء .

وفى مجلس الأفيون بعثرت كل أفكارى السوداء بين الدخان الرقيق السماوى ، وفى هذا الوقت كان جسدى يفكر ، كان جسدى يحلم ، وينساب ، وكأنما تحرر من ثقل الجو وكثافته كان يطير فى عالم مجهول ملىء بالألوان والصور المجهولة وكنت أرحل فى عالم النبات ، وكأن الأفيون قد نفث فى جسدى الروح النباتية ، الروح النباتية البطيئة الحركة ، كنت قد صرت نباتا ، ولكن كلما كنت أنعس أمام الموقد والمفرش الجلدى وقد سحبت عباءتى على ، لا أدرى لماذا كنت أتذكر الرجل العجوز صاحب الأشياء القديمة ، كان يتكوم هكذا أمام مفرشه ويجلس بنفس طريقتى . كان هذا التفكير يولد فى الخوف ، فنهضت وخلعت العباءة ، وذهبت أمام المرآة ، كانت وجنتاى متوردتين بلون اللحم أمام دكان القصاب ، وكانت لحيتى مشعثة ولكنى كنت قد إكتشفت حالة روحانية جذابة ، أما عيناى الكليلتان فكانتا فى حالة ملولة ، متعبة وطفولية ، وكأنما ذابت فى كل الأشياء الأرضية والثقيلة والإنسانية وسررت من وجهى ، كنت أنتشى نشوة شهوانية من

KMH

نفسى ، وكنت أقول لنفسى أمام المرآة : « إن ألمك عميق إلى حد أنه يبدو فى عمق عينيك .. ولو أنك بكيت ، فأما أن يأتى الدمع من أعماق عينيك ، وإما لا يأتى أصلا ... »

ثم قلت مرة ثانية : « أنت أحمق ، لماذا لا تنهى شرك أكثر سرعة ؟ ماذا تنتظر ؟ أى شيء مازلت تتوقعه ؟ أليست هناك زجاجة شراب فى خزانة حجرتك ؟ .. إشرب جرعة واحدة واذهب .. لتمض ! أحمق ... أنت أحمق وأنا أتحدث إلى الهواء ! »

كانت الأفكار التى ترد إلى غير مرتبطة ببعضها . كنت أسمع صوت نفسى فى حلقى ، ولكنى لم أكن أفهم معنى الكلمات . وفى رأسى كانت هذه الأصوات تختلط مع الأصوات الأخرى ، وكما لو كنت محموماً ، كانت أصابعى تبدو أضخم من المعتاد وكان جفناى يثقلان ، أما شفتاى فكانتا تغلظان ، وحين إستدرت رأيت مربيتى وقد وقفت فى إطار الباب ، وقهقهت ضاحكا ، كان وجه مربيتى جامدا أما عيناها الغاشيتان فقد حملقت فى ، ولكنها كانت خالية من الدهشة ومن الغضب ومن البرود ، كان – على وجه العموم – تصرفا أحمق يبعث على الضحك ، ولكن ضحكتى كانت أعمق لذلك السبب – هذه الحماقة الكبيرة قد إرتبطت مع كل الأشياء الأخرى الموجودة فى الدنيا التى لم تفهم وفهمها صعب ، وما فقد فى أعماق ظلمة الليالى ، كان تصرفا ما فوق بشرى : كان الموت . حملت مربيتى الموقد وخرجت بخطوات منتظمة ، ومسحت العرق عن جبهتى ، وكانت بقع بيضاء على يدى فإستندت إلى الحائط ، وألصقت رأسى بالوسادة ، وكانت حالتى قد تحسنت ، ثم أخذت أهمس بينى وبين نفسى بهذه الأهزوجة التى لا أدرى أين سمعتها :

تعال لنذهب نشرب الخمر
لنشرب شراب ملك الرى
إن لم نشرب الآن فمتى نشرب

دائما بعد الظهر، كانت الأزمة تؤثر فى قلبى وتولد فى إضطرابا خاصا، إضطرابا ذا حالة مثيرة للحزن، كأنه العقدة التى تجمعت فوق قلبى ــ كأنه الجد الذى يسبق الطوفان، فى ذلك الوقت تبتعد عنى الدنيا الحقيقية، وأحيا فى دنيا متألقة تختلف عن الدنيا الأرضية بمسافة لا تقبل القياس، حينئذ كنت أخاف من نفسى، أخاف من كل شخص، وكأن هذه الحالة مرتبطة بمرض، وكان هذا سيئا، ولأن تفكيرى كان قد ضعف ــ وبجوار كوة حجرتى، كنت قد خفت عندما رأيت الرجل العجوز ذى الأشياء العتيقة والقصاب. ولا أدرى ما الذى كان فى تصرفاتها وسحنتها يثير الخوف. وقد قصت لى مربيتى شيئا مخيفا و لقد أقسمت بالإمام والرسول أنها رأت العجوز ذا الأشياء العتيقة البالية يأتى فى بعض الليالى الى غرفة زوجتى وأنها كانت قد سمعت من خلف الباب هذه البغى وهى تقول له: « فك شال رقبتك » ــ وهذا لا مكان للتفكير فيه ــ فأول أمس أو قبل أول أمس حينما صرخت وجاءت زوجتى رأيت من مصراع باب حجرتى رأيت بعينى رأسى أثر الأسنان المهترئة الصفراء التى أكلها الدود، أسنان الرجل العجوز التى كانت تخرج من بينها آيات عربية، رأيتها على شفتى زوجتى. لماذا ظهر هذا الرجل العجوز فى الأصل أمام منزلى منذ اليوم الذى تزوجت فيه؟ هل هو قواد.. قواد هذه البغى؟ أتذكر أننى ذهبت فى نفس اليوم إلى مفرش الرجل العجوز، وسألت عن ثمن الآنية، فأسفر من بين شال رقبته وشفته المشقوقة عن سنين متآكلين، وضحكة كريهة جافة من بين شفتيه المشقوقتين، ضحكة توقف الشعر على جسد الإنسان وقال: « أشترى مالم تره؟ هذه هى الآنية

خذها ولاداعى للثمن ، هيا خذها أو أريك غيرها » وقد قال بلهجة خاصة : « لاداعى للثمن ولتر غيرها » ووضعت يدى فى جيبى ووضعت على مفرشه درهمين وأربعة من القطع الصغيرة ، فضحك ثانية ، ضحكة كريهة تصيب جسد الإنسان بالقشعريرة ، ومن شدة الخجل أردت أن أغوص فى الأرض ، فخبأت وجهى بين يدى وعدت .

على مفرش هذا الرجل كانت تشم دائما الرائحة الصدئة للأشياء المستهلكة المردودة التى نبذتها الحياة . ربما كان يريد أن يقحم الناس بالأشياء المنبوذة فى الحياة ويظهرها لهم - ألم يكن هو نفسه عجوزا مستهلكا ؟ كل الأشياء التى كانت على مفرشه كانت ميتة قذرة لم تعد تصلح لعمل - ولكن أية حياة سخيفة ، وأى أشكال مليئة بالمعنى كانت لها هذه الأشياء الميتة كانت قد تركت تأثيرها فى إلى الحد الذى لم يكن البشر الأحياء يستطيعون تركه .

ولكن مربيتى كانت قد أخبرتنى بكل أمره ، كانت قد أخبرت الجميع .. مع شحاذ قذر ! !

قالت مربيتى أن فراش زوجتى إمتلأ بالقمل وأنها هى نفسها ذهبت إلى الحمام - كيف كان ظلها على حائط الحمام الملوث بالعرق ؟ لابد أنه كان ظلا شهوانيا مليئا بالأمل ! ولكن على كل حال لم تسؤنى رغبة زوجتى ، لأن الرجل العجوز ذا الأشياء العتيقة لم يكن رجلا عاديا ثقيل الظل لا طعم له مثل أولئك الرجال المنعظين الذين يجلبون نساء شبقات حمقاوات ، فهذه الآلام ، وقشرة التعاسة التى كانت قد إلتصقت كالكتف برأس العجوز ووجهه ، والنكبة التى كانت تمطر من أطرافه ، وربما كان هو نفسه لا يعرفها ، كانت تظهره كنصف إله ، وبهذه المائدة القذرة التى أمامه كمثال للخلق ومظهر له .

أجل . كنت قد رأيت مكان سنتين صفراوين متآكلين تخرج من بينهما آيات عربية على وجه زوجتى : نفس هذه المرأة التى لم تكن تبيح لى نفسها ، التى كانت تحتقرنى ، ومع ذلك أحببتها ، على الرغم من أنها لم تسمح لى حتى الآن أن أقبل شفتيها .

إصفرت الشمس ، وارتفع صوت النقارة الأسوان ، صوت عاجز متقطع يوقظ كل الخرافات الموروثة والخوف من الظلام - وصلت الأزمة ، الحالة التى كانت قد أثرت فى قلبى قبل ذلك وكنت فى إنتظارها ، وإجتاحتنى حرارة محرقة من رأسى إلى قدمى ، كنت أختنق ، فذهبت وارتميت فى الفراش ، وأغمضت عينى . ومن شدة الحرارة كانت الأشياء تبدو كما لو كانت قد عظمت ووضعت فى إطار . وبدلا من أن يهبط السقف كان قد علا ، أما ملابسى فكانت تضغط على جسدى . وقمت فجأة وجلست فى فراشى ، وأخذت أهمس لنفسى :

« فوق ذلك لا يمكن .. هذا لا يحتمل ... »

وسكت فجأة ، ثم أخذت أقول لنفسى بإبتسامة وصوت عال ولهجة ساخرة « فوق ذلك ... » ثم أضيف « أنا أحمق ! » ولم أكن منتبها إلى معنى الكلمات التى كنت أنطقها ، ولكنى كنت أشاهد بإستمتاع صدى صوتى وهو يرتعش فى الجو . ربما كنت أتحدث مع ظلى لأكسر وحدتى - وحينئذ رأيت شيئا لا يصدق - فتح الباب ودخلت تلك البغى - من المعلوم أنها كانت تفكر فى أحيانا - يوجد أيضا ما تشكر عليه - كانت تعلم أيضاً أننى حى أحتضر وأننى سأموت ببطء - ولها الشكر أيضا - ولكنى كنت أريد أن أعلم : هل كانت تعلم أننى كنت أموت من أجلها - لو كانت تعلم إذن لمت

مستريحا سعيدا - وآنذاك أكون أسعد أهل الأرض - وحين دخلت هي « هذه البغى » من باب الحجرة هربت أفكارى السيئة ، لا أدرى أية أشعة إنسابت من جسدها وحركاتها حتى أصابتنى بالهدوء - وهذه المرة كانت صحتها قد تحسنت ، كانت قد سمنت واستردت عافيتها ، وكانت ترتدى رداء نوم رماديا - وزججت حاجبيها ، ورسمت خالا ، وتزينت واستعملت الأحمر والأسفيداج والكحل ، والخلاصة أنها دخلت حجرتى تامة الزينة ، وكأنها كانت راضية تماما عن حياتها ، وبدون إرادة كانت قد وضعت سبابة يدها اليسرى فى فمها - هل هذه المرأة الجميلة هى نفس الصبية اللطيفة الأثيرية التى كانت ترتدى ثوبا أسود مغضنا وكنا نلعب معا لعبة الإستخفاء على شاطىء نهر سورن ، نفس الصبية التى كانت ذات حركة طفولية حرة مؤقتة وكانت كعبا قدميها المثيران للشهوة يبدوان من تحت طرف ردائها ؟ .

حتى ذلك الوقت حينما كنت أنظر إليها ، لم أكن منتبها جيدا ، وفى هذا الوقت وكأنما سقطت غشاوة عن عينى - ولا أدرى لماذا تذكرت الخراف المعلقة على باب دكان القصاب - لقد بدت لى كقطعة من اللحم بلا عظام ، كانت قد فقدت كلية جاذبيتها السابقة - صارت إمرأة ممتلئة سمينة تبدو عليها الرزانة مقبلة على الحياة ، امرأة كاملة ! إمرأتى ! - ورأيت بخوف وهلع أن إمرأتى كانت قد كبرت وصارت رشيدة ، بينما بقيت أنا طفلا - وللحقيقة كنت أخجل من وجهها وعينيها . إمرأة كانت تسلم جسدها لكل إنسان إلا لى . وأنا فقط الذى كنت أتعزى بذكراها الوهمية الطفولية ، وفى ذلك الوقت الذى كان وجهها قد صور بصورة بسيطة طفولية ، حالة شاحبة كانت لها ، ولم تكن آثار أسنان الرجل العجوز ذى الأشياء العتيقة ترى على وجهها لا ... لم تكن نفس الإنسانة .

وسألت ساخرة : « كيف حالك ؟ » فأجبتها : « ألست حرة ؟ ألا تفعلين كل ما يحلو لك ؟ ما دخلك إذن بصحتى ؟ »

أغلقت الباب وذهبت ، ولم تلتفت أصلا لتنظر إلى ، وربما كنت قد نسيت طريقة الكلام مع أناس الدنيا ، مع الناس الأحياء – هذه هى نفس المرأة التى كنت أظن أنها خالية من كل الإحساس ، تضايقت من تصرفى هذا ! وأردت عدة مرات أن أنهض وأركع بين يديها وقدميها وأبكى وأطلب الغفران – أجل أبكى ، لأننى كنت أظن أننى لو كنت أستطيع البكاء لاسترحت ، ومرت عدة دقائق ، عدة ساعات ، عدة قرون ، لا أدرى – كنت قد صرت كالمجانين ، وكنت أتلذذ من ألمى – لذة فوق البشرية ، أنا فقط الذى كنت أستطيع أن أشعر بها ، حتى الآلهة إن كانت موجودة لم تكن لتستطيع أن تتلذذ إلى هذا الحد ... وحينذاك فطنت إلى رفعتى ، أحسست بعلوى عن الأوباش والطبيعة والآلهة ، الآلهة الذين هم نتاج شهوة البشر – كنت قد صرت إلها ، صرت أعظم من الإله ، لأننى كنت أحس فى نفسى بتيار خالد غير متناه .

ولكنها عادت مرة ثانية – لم تكن قاسية القلب إلى الحد الذى تصورت ، ونهضت فقبلت طرف ردائها ، وسقطت على قدميها بين البكاء والسعال ، وأخذت أمسح وجهى بساقيها ، وناجيتها عدة مرات باسمها الأصلى . وكأنما كان لإسمها الأصلى صدى ورنين خاصان . ولكن فى قلبى ، داخل قلبى كنت أصيح : « البغى البغى » واحتضنت عضلات ساقيها التى كان طعمها مثل طعم نهاية الخيار ، كانت مرة وملائمة وحريفة ... وكم بكيت ، بكيت ، لا أدرى كم مر من الوقت . وبمجرد أن عدت إلى وعيى ، رأيت أنها مضت . ربما لم تمر

لحظة إلا أحسست بكل لذات البشر واهتماماتهم وآلامهم ، وبنفس هذه الحالة بقيت أمام السراج الذى يخرج الدخان ، مثل الوقت الذى كنت أجلس فيه إلى الأفيون ، مثلما كان الرجل العجوز يجلس إلى بضاعته - لم أكن أتحرك من مكانى ، وبنفس الطريقة كنت أنظر إلى صدأ السراج ، كان الدخان الأسود يهبط على يدى ووجهى كالبرد الأسود . وحين جاءت مربيتى بسلطانية الحساء والأرز بالفروج صرخت من قوة الخوف والفزع وتراجعت وسقطت من يدها صينية الطعام . وسررت لأننى أثرت فيها الخوف على الأقل ثم نهضت فجززت الفتيلة وذهبت فوقفت أمام المرآة ، وحككت وجهى بالصدأ ، أية سحنة مخيفة ! !

كنت أشد أسفل عينى بأصبعى ، وأتركه هكذا مشدودا ، وأقوس فمى ، وأنفخ أوداجى ، وأرفع أسفل لحيتى ، وألويها من الناحيتين . كنت أقوم بتمثيلية - كم كان لدى وجهى الإستعداد لتمثيل الوجوه المخيفة المضحكة ، وكأنما كنت بهذه الوسيلة أظهر كل الأشكال وكل الأطوار المضحكة والمخيفة التى لا تصدق ، والتى كانت مختفية فى طبيعتى ، كنت أعرف كل هذه السحنات التى كانت فى داخلى وملكى ، وأشعر بها ، وكانت فى الوقت نفسه مضحكة لى ، الأقنعة المخيفة المضحكة لمجرم ... تلك التى كانت تتحول بإشارة واحدة من أصبع : شكل رجل عجوز قارىء ، شكل قصاب ، شكل إمرأتى ، كل هذه الأشكال رأيتها كلها فى نفسى وكأنما كانت تنعكس فى . كل هذه السحنات كانت فى داخلى ، ولكن : لا واحدة منها كانت لى . ألم تكن طبيعتى وسحنتى قد هيئتا بفعل محرك مجهول ، بتأثير الخواطر والمضاجعات وحالات اليأس الموروثة ؟ وأنا - الذى كنت حارس هذا الثقل الموروث - ألم يهتم فكرى بوسيلة حس مجنون ومضحك -

وبلا إرادة – بالإحتفاظ بهذه الحالات فى سحنتى ؟ ربما فقط عند الموت تتحرر سحنتى من قيد هذه الوساوس وتأخذ الصورة الطبيعية التى كان يجب أن تكون لها .

ولكن فى هذه الحالة الأخيرة ، هل ستترك آثارها أشد وأعمق مثل كل الحالات الساخرة التى رسمتها فى وجهى ؟ وعلى كل حال فقد فهمت أية أعمال كان يمكن أن تخرج من يدى ، وفهمت مواهبى . ودفعة واحدة ضحكت ضحكة مكتومة ، وكم كانت ضحكة متقطعة كريهة ومخيفة بحيث وقف شعر جسدى ، ولما كانت لا أعرف صوتى فقد رنت فى أذنى مثل صوت خارجى ، ضحكة كانت غالبا تتلوى فى حلقى – كنت أسمعها فى قاع أذنى – وفى الوقت نفسه إنتابتنى نوبة من السعال ، وسقطت قطعة مخاط دموية ، قطعة من كبدى على المرآة ، ومددتها بطرف أصابعى على المرآة ، وحين إستدرت وجدت مربيتى ، بلون باهت قمرى وشعر مشعث وعينين غاشيتين خائفتين ، وثمة سلطانية من حساء الأرز ، من نفس الحساء الذى كانت تحضره إلى على يدها ، وكانت تنظر إلى نظرة جامدة ، ووضعت يدى أمام وجهى ، وذهبت فأخفيت نفسى وراء الستارة المؤدية إلى خزانة حجرتى .

وحين أردت أن أنام كانت حلقة نارية تضغط حول رأسى ونفذت إلى أنفى الرائحة الشديدة المثيرة للشهوة لزيت الصندل التى كنت قد ملأت بها السراج . كانت رائحة كرائحة عضلات ساق امرأتى ، وكان لها أيضا طعم نهاية الخيار ذات مرارة مقبولة فى فمى ، ومسحت جسدى بيدى ، وأخذت أقارن فى فكرى أعضاء جسدى بأعضاء جسد امرأتى : الفخذ ، الساق ، الساعد ، وكل الأعضاء ، وتجسدت أمامى مرة ثانية خطوط الفخذ وأعالى البدن ، جسدتها أمامى حرارة

جسد زوجتى ، وقد جعلها التجسيد قوية جدا ، لأنه كان يحمل حاجة . وأحسست أننى أريد أن يكون جسدها قريبا منى ، وكانت حركة واحدة أو تصميم واحد كافيين لدفع هذه الوساوس المثيرة للشهوة ، ولكن هذه الحلقة النارية حول رأسى كانت ضيقة ومحرقة إلى درجة أنها أغرقتنى تماما فى بحر غامض ممتزج بالأشباح المخيفة .

كان الجو لا يزال مظلما ، واستيقظت على أصوات مجموعة من رجال الضبط المخمورين الذين كانوا يمرون من الحارة ، كانوا يتبادلون الشتائم ويغنون معا :

تعال نذهب لنشرب الخمر

لنشرب لشراب ملك الرى

إن لم نشرب الآن فمتى نشرب

وتذكرت ، لا ، ألهمت فجأة أن هناك زجاجة شراب فى خزانة حجرتى ، شراب أذيب فيه ناب حية كوبرا ، وبجرعة واحدة منه تنعدم كل كوابيس الحياة وتفنى .. ولكن تلك البغى .. ؟ هذه الكلمة كانت تجعلنى أشد حرصا عليها ، كانت تظهرها لى أكثر حياة وامتلاء بالحرارة .

وماذا كنت أستطيع أن أتصور أفضل ، أن أعطيها كأسا من هذا الشراب ، وآخذ أنا الآخر كأسا منه ، وحينذاك نموت معا فى تشنج واحد ! ! ما هو الحب ؟ بالنسبة لكل الأوباش ، نوع من اللامبالاة ، من التشرد المؤقت ، و ينبغى فهم حب الأوباش من أغانيهم البذيئة الفاحشة واصطلاحاتهم الركيكة التى يرددونها فى عالمى السكر والصحو، مثل أن تغوص قوائم الحمار فى الوحل من أجلك ،

والمضاجعة ولكن حبى لها كان بالنسبة لى شيئا آخر – حقيقة أننى كنت أعرفها منذ القدم ، أعرف العينين المنحرفتين العجيبتين والفم الضيق والنصف مفتوح ، والصوت المبحوح الهادىء ، كلها كانت بالنسبة لى مليئة بالذكريات البعيدة والمؤلمة ، وأنا بين كل هذه كنت قد حرمت من شيء ، شيء كان مرتبطا بى ، وسلبت إياه ، وكنت أبحث عنه .

هل كنت قد حرمت إلى الأبد ؟ ومن أجل هذا كان قد تولد فى حس أكثر بعثا على الخوف . كنت أحس بلذة أخرى بسبب محاولتى تعويض حبى اليائس . كان قد صار لى نوع من الوسواس ، ولا أدرى لماذا أتذكر القصاب المواجه لكوة حجرتى وقد شمر من أكمامه وبسمل وأخذ يقطع اللحم ، كانت حانته دائما أمام عينى – وأخيرا صممت أنا الآخر تصميما مخيفا ... ونهضت من فراشى ، وشمرت من أكمامى ، وحملت السكين ذات اليد المصنوعة من العظام التى كنت قد وضعتها تحت وسادتى ، وانحنيت ووضعت عباءة صفراء على كتفى ، ثم لففت رأسى ووجهى بشال رقبة ، وأحسست فى الوقت نفسه أننى فى نفسية ممتزجة بين نفسية القصاب والرجل العجوز ذى الأشياء العتيقة .

ثم ذهبت إلى حجرة زوجتى على رؤوس أصابع قدمى – كانت حجرتها مظلمة ، وفتحت الباب ببطء ، وكما لو كانت تحلم – كانت تحدث نفسها بصوت عال :

« فك شالك ! » فذهبت إلى الفراش ، ووضعت رأسى فى مواجهة أنفاسها الحارة الجذابة . كم لديها من حرارة لذيذة مثيرة للحياة ! وبدا لى أننى لو تنفست هذه الحرارة لفترة لعدت إلى الحياة. أواه ، كم مر من الوقت وأنا أظن أن أنفاس الجميع يجب أن تكون مثل

أنفاسى لافحة محرقة ، ودققت النظر لأرى هل هناك فى حجرتها رجل آخر – أى هل كان هناك أحد من « عشاقها » أم لا ؟ ولكنها كانت وحيدة . وفهمت أن كل ما نسبوه إليها محض إفتراء وبهتان ، من أين إذن لا تكون حتى الآن فتاة عذراء ؟ وخجلت من كل خيالاتى الموهومة تجاهها . ولم يطل هذا الاحساس أكثر من دقيقة ، إذ جاء فى الوقت نفسه من خارج الباب صوت عطسة ، وسمعت ضحكة مخنوقة وساخرة تصيب جسد الانسان بالقشعريرة – وسحب هذا الصوت الحياة من كل عروق جسدى – ولو لم أسمع هذه العطسة والضحكة ، ولم لم يكن لدى صبر ، لمزقت جسدها إربا كما صممت ، ولأعطيتها للقصاب أمام المنزل ليبيعها للناس ولاحتفظت لنفسى بقطعة من الفخذ ، وأعطيتها كصدقة للرجل العجوز القارىء ، ثم لذهبت فى اليوم التالى وقلت له : « أتدرى لمن كان اللحم الذى أكلته بالأمس ؟ » .

لو لم يضحك ، لكنت أنهيت هذا العمل الليلة لا محالة ، إذ لم تكن عينى تقع على عين البغى ، إذ كنت أخجل من حالة عينيها ، كانت توبخنى – وأخيرا حملت من جوار فراشها قطعة من القماش كانت قد علقت بقدمى وأسرعت هلعا إلى الخارج ، ورميت السكين فوق السطح – لأن هذا السكين هو الذى كان يولد كل هذه الأفكار المجرمة فى – وأبعدت هذه السكين التى كانت تشبه سكين القصاب عن نفسى .

وحينما عدت إلى حجرتى رأيت على ضوء السراج أننى حملت قميصها معى ، قميص قذر كان على لحم جسدها ، قميص حريرى مصنوع من الهند ، ومنه كانت تفوح رائحة جسدها ، وعطر الموجرا ، وقد بقيت فى هذا القميص بقايا من حرارة جسدها من

وجودها. شممته وتركته بين ساقى ونمت – ولم أكن قد نمت قط بمثل هذه الراحة . وفى الصباح الباكر قمت على صوت شجار زوجتى ، وقد أشاعت فقد القميص ، وكانت تردد : « قميص جديد ونايلون » فى حين أن طرف كمه كان ممزقا ، ولكننى لم أكن مستعدا لرد القميص ولو سالت الدماء . ألم يكن من حقى قميصا قديما لزوجتى ؟

أما مربيتى التى كانت قد أحضرت لى لبن الأتان والعسل والخبز الساخن فقد وضعت أيضا سكينا ذات يد من العظم إلى جوار إفطارى فى الصينية وقال إنها رأتها فى بضاعة الرجل العجوز ذى الأشياء العتيقة واشترتها ، ثم رفعت حاجبيها وقال « يمكن تقدر تنتفع بها دائما » وحملت السكين ونظرت إليها ، كانت نفس سكينى . ثم قالت مربيتى بلهجة شاكية متألمة : « أجل إن إبنتى (أى تلك البغى) كانت تقول فى الصباح الباكر أنك سرقت قميصى الليلة البارحة ، وأنا التى لا أريد أن أكون مشغولة الذمة بكم ... ولكن بالأمس حاضت زوجتك ... كنت أعلن أنها طفلة ... كانت هى نفسها تقول أنها حملت داخل الحمام ، وليلا ذهبت لأدلك لها وسطها فرأيت أن ذراعها كان ممتلئا بالبقع الزرقاء ، وأشارت إليها وقالت لى : ذهبت إلى البدروم فى غير وقت فأصابنى مس من الجن ! » ثم قالت « ألم تعلم أبدا أن زوجتك كانت حاملا ؟ » فضحكت وقلت « لابد أن شكل الطفل هو شكل رجل عجوز قارىء ، لابد أنه خرج شبيها به » ، فخرجت مربيتى من باب الحجرة وقد تغير لونها ، وكأنها لم تكن تنتظر هذا الجواب ، فنهضت على الفور وحملت السكين ذات المقبض العظمى بيد مرتعشة ووضعتها فى صندوق بخزانة حجرتى وأغلقت بابه .

لا ، لم يكن ممكنا أن يولد الطفل شبيها بى ، حتما لابد أن يكون قد ولد شبيها بالرجل العجوز صاحب الأشياء العتيقة .

وبعد الظهر فتح باب حجرتى ، ودخل أخوها الأصغر ، أخ هذه البغى الأصغر ، وهو يمتص ظفره . كان كل من يراهما يفهم على الفور أنهما أخوان . كانا متشابهين إلى هذا الحد ! كان له نفس الفم الدقيق الضيق ، الشفاه الممتلئة الندية الشهوانية ، الجفنان المنحنيان الناعسان ، العينان المنحرفتان المتعجبتان ، الخدان البارزان ، الشعر الأحمر المشعث والوجه القمحى – كان يشبه هذه البغى ، وكان لديه جزء من روحها الشيطانية – من هذه الوجوه التركمانية التى لا احساس فيها ولا روح ، هيئت مناسبة لنزال الحياة ، وسحن ترى كل شيء جائزا لمواصلة الحياة . وكأنما كانت الطبيعة قد تنبأت مسبقا ، وكأنما كان أجدادها قد عاشوا طويلا تحت الشمس والمطر وتقاتلوا مع الطبيعة ، ولم يعطوها أشكالهم وشمائلهم مع تغييرها فحسب ، بل وهبوهما من إستقامتهم وشهوتهم وحرصهم وجوعهم . كنت أعرف فمه ، مثل طعم نهاية الخيار كان مرا ومقبولا .

وحين دخل الحجرة نظر إلى بعينيه المتعجبين التركمانيتين وقال : « قالت أختى إن الحكيم قال أنك ستموت ، وأننا سنتخلص من شرك ، كيف يموت الانسان ؟ »

فقلت : « قل لها أننى مت منذ وقت طويل » .

– « قالت أختى : لو لم يسقط طفلى ، لصار كل المنزل لنا » .

وبلا إرادة أطلقت ضحكة مكتومة ، ضحكة جافة كريهة تصيب جسد المرء بالقشعريرة بحيث لم أتعرف على صوتى فأسرع الطفل خارجا من الحجرة خائفا .

وفى هذا الوقت أخذت أفهم لماذا ينظف الرجل القصاب السكين ذات المقبض العظمى على فخاذ الخراف متلذذا – لذة قطع اللحم

الخالص ، وكان الدم الميت ، الدم المتخثر قد تجمع من طياتها كالطحالب ، ومن حشرجة الخراف كان يتساقط نزيف الدم قطرة قطرة على الأرض ، وكان الكلب الأصفر ، ورأس الثور المقطوعة الساقطة على رأض الدكان ينظران بعيونهما الجاحظة الكدرة ، وكذلك رؤوس الخراف بعيونها التى أصابها غبار الموت ، وكانت ترى ذلك ، كل ذلك ، وكانت تعرفه .

الآن أفهم أننى كنت قد صرت نصف إله ، كنت أعلى من الإحتياجات الصغيرة الوضيعة للناس ، كنت أحس بتيار الأبدية والخلود فى نفسى – ما هى الأبدية ؟ بالنسبة لى كانت عبارة عن أن ألعب الإستخفاء مع تلك البغى على شاطىء نهر « سورن » ، وأن أغمض عينى لحظة وأخبىء رأسى فى طرف ردائها .

وفجأة بدى لى أننى كنت أتحدث مع نفسى ، وحينذاك أردت أيضا – برغبة ملحة – أن أتحدث مع نفسى ، ولكن شفتى كانتا قد ثقلتا لدرجة أنهما لم تعودا مستعدتين للقيام بأية حركة ، ولكنى أحسست أننى كنت أتحدث إلى نفسى بدون أن تتحرك شفتاى أو أسمع صوتى .

فى هذه الحجرة التى تشبه القبر ، والتى تصبح أكثر ضيقا وأشد إظلاما كل لحظة ، كان الليل قد أحاطنى بظلاله المخيفة ، وأمام السراج الذى يخرج الدخان سقط ظلى منحنيا على الحائط بسترة وعباءة كنت قد لففت نفسى بهما وشال رقبة كنت قد ربطته معقودا .

كان ظلى وقد سقط على الحائط أكثر رسوخاً فى اللون وأدق من جسمى الحقيقى ، كان ظلى قد صار أكثر واقعية من جسدى ، وكأنما كان الرجل العجوز ذو الأشياء العتيقة والقصاب ومربيتى وزوجتى

البغى كلهم ظلالا لى ، ظلالا كنت محبوسا بينها ، وكنت فى هذا الوقت شبيها ببومة ولكن نعيبى كان قد وقف فى حلقى ، وكنت أبصقه على شكل بقع دم ، وربما كانت البومة مريضة بمرض : أنها مثلى ، كان ظلى على الحائط قد صار شبيها بالبومة تماما ، وكان يقرأ كتاباتى منحنيا ، بالتأكيد كان يفهم ، هو فقط الذى كان يستطيع أن يفهم ، وكنت أخاف حين أنظر إلى ظلى بطرف عينى .

كانت ليلة مظلمة ساكنة ، مثل الليل الذى كان قد ساد حياتى برمتها مع الأشباح المخيفة التى كانت تلوى فمها سخرية بى بين الباب والحائط وفيما وراء الستار ، وأحيانا كانت حجرتى تضيق وكأننى كنت قد نمت فى تابوت ، كان صدغاى يلتهبان ، أما أعضاء جسدى فلم تكن على إستعداد للقيام بأية حركة . وكان هناك ثقل يضغط على صدرى مثل ثقل الذبائح التى كانوا يحملونها على ظهر الحصانين الأسودين النحيلين ويحولونها إلى القصاب .

كان الموت يترنم بأغنيته ببطء ، وكأنه رجل عيى يضطر إلى تكرار كل كلمة يقولها ، وبمجرد أن يتم شطرا من الشعر يبدأ من جديد ، كان صوته ينفذ فى لحم بدنى مثل إرتعاش حفيف المنشار . كان يصرخ ثم يختنق فجأة .

ولم تكن عيناى قد أغمضتا بعد حين مرت جماعة من رجال الضبط المخمورين خلف حجرتى ، وأخذوا يتبادلون الشتائم البذيئة ثم طفقوا يغنون معا :

تعال نذهب لنشرب الخمر

لنشرب شراب ملك الرى

إن لم نشرب الآن فمتى نشرب .

وقلت فى نفسى : « على أى فأنا فى النهاية سأسقط فى يد الشرطة ! » .

وفجأة أحسست بقوة فوق بشرية – فى نفسى : لقد سعد طالعى ، ونهضت فوضعت عباءتى الصفراء فوق كتفى ، ولففت شال رقبتى مرتين أو ثلاثا فوق رأسى ، وانحنيت ، وذهبت فأخرجت السكين ذات المقبض العظمى الذى كنت قد وضعته فى الصندوق ، وعلى أطراف أصابع قدمى توجهت إلى حجرة البغى – وحين وصلت بالقرب من الباب وجدت حجرتها غارقة فى ظلام كثيف ، وأرهفت السمع ، فسمعتها تقول :

« هل جئت ؟ إنزع شال رقبتك » كان لصوتها رنة لذيذة ، مثل صوتها فى طفولتها – مثل الهمس الذى يقال فى النوم دون مسؤولية – كنت قد سمعت ذلك الصوت قبلا فى نوم عميق . هل كانت تحلم ؟ كان صوتها مخنوقا وغليظا ، كان مثل صوت طفلة كانت تعلب معى إلاستخفاء على شاطىء نهر سورن . وتوقفت قليلا وسمعتها تقول ثانية « هيا ، أدخل ، وفك شال رقبتك » !

ودخلت الحجرة ببطء فى الظلمة . وخلعت العباءة وشال رقبتى . وتعريت ولكن لا أدرى لماذا ذهبت إلى الفراش والسكين ذات المقبض العظمى فى يدى ، وكانت حرارة فراشها كأنما تنفث روحا جديدة فى جسدى ، ثم احتضنت جسدها الجميل الندى حلو الحرارة على ذكرى نفس الصبية الشاحبة الوجه النحيلة التى كان لها عينان منحرفتان بريئتان وكنا نلعب سويا الإستخفاء على شاطىء نهر سورن – لا ، لقد حملت عليها مثل حيوان مفترس جائع ولكنى فى أعماق قلبى كنت أحس أنى مكره عليها ، وكان يبدو لى أن احساس الحب والحقد

أصبحا توأمين . جسدها الشاحب الندى ، جسد زوجتى ، كان مثل حية الكوبرا التى تلتف حول صيدها ، إنفرج وحبسنى بين شقيه ، كان عطر صدرها مسكرا ، وكان للحم ذراعها الذى إلتف حول رقبتى حرارة لذيذة وفى هذه اللحظة تمنيت أن تتوقف حياتى ، لأننى أحسست فى تلك الدقيقة أن كل الحقد والبغض اللذين كنت أحملهما لها قد إنتهيا ، وكنت أسعى فى مجاهدة البكاء – وبدون أن أنتبه إلتف ساقاها حول ساقى مثل « يبروج الصفر » ، والتصقت يداها فيما وراء رقبتى – كنت أحس بالحرارة اللذيذة لهذا الجسد الندى النضر ، وكانت كل ذرات جسدى المشتعل ترتشف هذه الحرارة ، كنت أحس أنها كانت تجذبنى إلى داخلها كالطعام كان إحساس الخوف قد إختلط بإحساس اللذة كنت أتصبب عرقا وكان قد أغمى على .

ولما كان جسدى ، كل ذرات جسدى هى التى تسيطر على ، فقد أخذت تغنى نصرها وفتحها بصوت عال – أما أنا المدان المسكين فكنت قد أحنيت رأسى تسليما فى هذا البحر الذى لا نهاية له فى مواجهة أهواء الأمواج ونزواتها ، وكان شعرها الفواح برائحة عطر « الموجرا » ملتصقا بوجهى ، كانت صرخات الإضطراب والفرح تخرج من أعماق وجودنا – وأحسست فجأة أنها عضت شفتى بشدة بحيث شقتا من الوسط ، هل كانت تمتص أصبعها بهذه الطريقة ، أم أنها فطنت إلى أننى لست الرجل ذا الشفة المشقوقة ؟ وأردت أن أنقذ نفسى ، ولكن أقل حركة بالنسبة لى لم تكن ممكنة ، ومهما جاهدت كان عبثا . كان لحم جسدينا قد إلتحم .

وظننت أنها قد جنت ، وأثناء المحاولة ، حركت يدى دون إرادة وأحسست أن السكين الذى كان فى يدى قد إنغمس فى مكان ما بجسدها وانبثق السائل الحار على وجهى . وصرخت وأطلقتنى ،

واحتفظت بالسائل الحار على وجهى ، وصرخت وأطلقتنى ، واحتفظت بالسائل الحار الذى كان قد ملأ قبضتى وألقيت بالسكين بعيدا ، وحين فرغت يدى مررت بها على جسدها ، كانت قد بردت تماما - كانت ميتة . وأثناء ذلك سعلت ، ولكنها لم تكن سعلة ، كان صوت ضحكة جافة كريهة تصيب جسد المرء بالقشعريرة ، وألقيت عباءتى حول رقبتى خائفا ثم ذهبت إلى حجرتى ، وفتحت قبضتى أمام السراج ، فرأيت عينها فى يدى ، وكل جسدى قد غرق فى الدم .

وذهبت إلى المرآة ، ولكنى وضعت يدى أمام وجهى من شدة الخوف - رأيت أننى صرت شبيها ، لا بل صرت الرجل العجوز ذا الأشياء العتيقة نفسه . وقد صار شعر رأسى ولحيتى مثل شعر رأس ولحية شخص خرج حيا من حجرة كانت توجد بها حية كوبرا ، كان قد إبيض كله ، كانت شفتى مشقوقة مثل شفة الرجل العجوز ، وعيناى دون رموش ، وأطلت من صدرى قبضة من الشعر الأبيض . وكانت روح جديدة قد حلت فى . كنت أفكر بطريقة أخرى أصلا ، وأحس بطريقة أخرى ، ولم أكن أستطيع إنقاذ نفسى من براثنه - من براثن الشيطان الذى كان قد إستيقظ فىّ معلوما من أى الفجوات المفقودة من جسدى كانت تخرج وكما وضعت يدى أمام وجهى ، وجدت نفسى دون إرادة أضحك ضحكة شديدة ، ضحكة أشد من الأولى بعثت الرعدة فى كل وجودى . ضحكة عميقة لم تكن ضحكة فارغة كانت تتلوى فقط فى حلقى وتأتى من بين الخواء ... كنت قد صرت رجلا عجوزا ذا أشياء عتيقة .

ومن شدة الإضطراب كان يبدو لى كما لو أننى إستيقظت من نوم عميق وطويل ، وحككت عينى فوجدت نفسى فى حجرتى السابقة ،

كانت ظلمة مضيئة ، وقد حجب الضباب والسحاب زجاج النافذة — ومن بعيد كان يسمع صياح ديك وفى الموقد أمامى كانت قطع الجمر قد تحولت إلى رماد بارد ، وكان يتوقف على نفخة واحدة ، وأحسست أن أفكارى صارت مثل جمرات النار إلى هباء وغبار ، مهملة عابرة ولا قيمة لها متوقفة على نفخة واحدة .

أول شيء بحثت عنه هو الزهرية الرازية التى أخذتها فى الجبانة من الرجل الحوذى العجوز ، ولكن الزهرية لم تكن أمامى ، ونظرت فرأيت بجوار الباب شخصا ذا ظل محدب ، لا ، كان هذا الشخص رجلا عجوزا أحدب قد لف رأسه ووجهه بشال رقبة ، ووضع تحت أبطه شيئا يشبه الآنية ملفوفاً فى منديل قذر ، وأطلق ضحكة جافة كريهة تصيب بالقشعريرة جسد المرء .

وبمجرد أن هممت بالحركة من مكانى خرج من باب حجرتى ، وأردت أن أسرع خلفه وآخذ منه الزهرية ، وهذا المنديل المعقود ، ولكن الرجل العجوز إبتعد بخفة خاصة . وعدت ففتحت النافذة التى تفضى إلى الحارة ، فرأيت شبحا منحنيا لرجل عجوز تهتز كتفاه من شدة الضحك وقد حمل تحت إبطه منديلا معقودا وظل يسير متعثرا حتى إختفى تماما خلف الضباب . وعدت فنظرت إلى نفسى فرأيت ملابس ممزقة ، وكل جسدى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ملوثا بالدماء المتخثرة ، وثمة زنبوران ذهبيان يحومان حولى ، وديدان بيضاء صغيرة تتلوى حول بعضها فوق جسدى و ... وثقل جثة تضغط على صدرى ....

●

KMH

(١)

القلعـة الملعونـة

كان قصر « ماكان » عظيما وقويا ، له ثلاث قلاع وسبعة أسوار كلها مشيدة من الجرانيت والأسمنت ، وقد أقيم على سفح جبل بالقرب من « آشي ويشه » شامخا برأسه تجاه السماء الزرقاء . منذ مائتى سنة كان هذا المكان عامرا مليئا بالدور والقصور ، وفى ذلك الوقت كان « ماكان » يرقب عن كثب من إيوان هذا القصر أو من الناحية اليسرى منه فتاة كانت تستحم هناك فى النهر ، وكانت تلك الفتاة أخيرا سبب موت « ماكان » المبكر . وبعد ذلك تكاتفت جميع القوى الطبيعية والآدمية المخربة على تدمير هذا المكان ، فأخذت الأعشاب البرية التى تنبت حول الحائط الرطبة والصخور المحطمة تأكله من أطرافه قليلا قليلا وتتغلب على جدرانه حتى تهدمت الطاقات ، وسقطت الأعمدة ، وران سكون ثقيل على ذلك البناء وما حوله من مزارع ، فمنذ حكم السامانيون بقيت كل الأراضى بورا خربة ، وأمام القصر كان ثمة نهر يمر كالخيط الفضى مصغرا كالحية بين المراعى الزمردية ثم يختفى بالتدريج .

وكان أهل القرية يسمون هذا القصر الخرب « القلعة الملعونة » ، وكانوا يعرفون أيضا « بيد شجون » أو « الفأل السيء » ، ولم يكن أحد يعلم بداية الأسطورة التى تقص أنه قد حل محل كل هذه العظمة السابقة ، رجل نحيل عجوز ، ذو عينين براقتين ، قد إختار منزلا له فى السور الشمالى للقصر ، وكانوا يسمون هذا الرجل « خشتون » . كان لا يخرج من برج القصر إلا حين غروب الشمس ، فحينما كانت القرية فى أسفل القصر تغرق فى الظلام ، كان « خشتون » يلف نفسه فى مسوح أسود ، ويخرج من السور الشمالى للقصر ، ويسير الهوينا على المرتفع الذى كان يشرف على القصر أو يجمع الخشب الجاف .

أكان مجنونا أم عاقلا ؟ ! غنياً أم فقيرا ؟ ! لم يكن أحد يعلم ذلك ، ولكن أهل القرية كانوا يحذرون من رؤيته ، أما الشيء الذى زاد من خوفهم ، فوجود صبية كانت تأتى عصر كل يوم إلى النهير المواجه للقصر لتستحم .

وذات يوم وقت الأصيل ؛ كان الجو معتدلا ، والطبيعة تدعو إلى الراحة ، وكان ثمة سرب من الحمام يطير فى السماء ، وكان الصبية « روشنك » تأتى كعادتها إلى النهر المواجه للقصر لتستحم فيه ، وفجأة رأت رجلا يشبه الرهبان ، ذا لحية رمادية طويلة ، وأنف محدوب ، يلف نفسه فى مسوح أسود ، أخذ يقترب منها ، فتناولت الفتاة قميصها فى فزع ، وغطت به صدرها ، فاقترب الرجل بسرعة وقال باسما :

– عزيزتى الفتاة ماذا تفعلين هنا ؟

فقالت « روشنك » التى كانت مشغولة بإرتداء ملابسها :

– كنت أستحم

– عزيزتى ، لا تخافى بلا داع ، أنا مثل والدك .

– لقد ذهب والدى منذ وقت طويل ، كنت صغيرة جدا حينما ذهب ، وأنا لا أتذكره جيدا ولكنه كان ذا لحية سمراء ، كان يقبلنى ويجلسنى على ركبتيه .

– بكل أسف ، لقد كان لى أنا الآخر بنية .

– أأنت نفس الساحر الذى يعيش فى القلعة الملعونة ؟

– هذا هو الإسم الذى سمانى به الناس .

– إن الناس يتحدثون عنى وعن أمى بالسوء من خلف ظهورنا ، إذ أنهم يرون أنى أستحم وحدى ، يقولون إن الفتاة يجب ان لا ...

– أتتحدثين عن أهل هذه القرية ؟ ! إنهم أقل من الحيوانات ، وإن ما يعيشون عليه أولا المعدة ثم الشهوة ، ببضعة من الغضب وبضعة من الأوامر والنواهى ألقيت على آذانهم عشوائيا .

– ولكنى لا أستطيع أن أستغنى عن الماء ، إننى أموت من أجل الماء ، وحينما أعوم أحس أن جميع الطيور ، إن كل الطبيعة تتحدث إلى ، وإنى أرغب من كل قلبى أن أكون كل أيامى فى البحر ، تتحدث معى أصوات المياه ، وتدعونى ، وتجذبنى إليها ، ربما كان يجب أن أكون سمكة ! !

– إن الانسان هو العالم الأصغر ، نحن إختصار لكل الحيوانات ، كل إحساساتها فينا ، وبعضها يتغلب علينا ... يجب أن نقتلها .

– إننى لكى أقتل طبيعة الاسماك فى يجب أن أقتل نفسى ، إذ أننى حينما أبتعد عن البحر وعن الماء ، فكأن هناك قطعة منفصلة من وجودى تضرب الموج فى البحر الهائج ، ويحيطنى حزن بلا نهاية .

– ولكنك شابة ، طفلة ، إن العزلة للشيوخ الذين لا يصلحون لعمل أو حركة .

– أود من كل قلبى أن أكون سمكة ، أسبح ، وأسبح دائما .

– كان أبى له أيضا نفس هذا الوسواس ، وكانت نهايته غرقا .

– ياله من موت ظريف ، أن يموت الإنسان أيضا فى الماء .

– لا ، إنه لم يمت كلية ، لأن ما يسمونه بقاء الروح حقيقة ، أى أن الروح أو خاصيات منها تحل فى ذراريهم ، وكان لجدى طفل ، فلم يمت إذن كلية ، ولكن الروح الخاصة بكل شخص تموت مع جسده ، لأنها فى حاجة إلى غذاء ، ولا تستطيع أن تعيش بعد الجسد ، وهذه هى النافذة التى تنقل بها وخلالها عادات الوالدين ووساوسهم ومكروهاتهم إلى الاطفال .

– إذن فقد كان أبوك يصنع الذهب ؟ !

– كان يبحث عنه ، كل الناس العاديين يبحثون عنه ، ولكن أية فائدة وراء ذلك ؟ !

– إذن .. أنت تبحث عن الذهب .

–إفرضى إننى إكتشفت الذهب ، فأى نفع لى فيه ؟ ! قضيت ليالى سبع سنوات بلا نوم على الأرض الرطبة ، أبحث عن أعماق كتب الأوائل ، أفك الرموز ، تحطمت فى مخالب اليأس القاتلة ، عمرى شمس غاربة ، وليالى بيضاء ، ذلك الذى يسمونه الأكير الأعظم هو فيك أنت ، فى إبتسامتك الساحرة ، لا فى يد الساحر .

– لم يتحدث معى أحد قبل ذلك بمثل هذا الحديث ، كان الناس يسخرون منى ويقولون أننى بلهاء مجنونة .

– لأنهم لا يفهمون لغتك ، فأنت أقرب إلى الطبيعة ، تفهمين لسانها الصامت .

– حقا إننى طفلة ، ولكن كم هى مؤلمة حياتى ، أظن أننى لا أفهم حديثك أحيانا لأنه سلس ، إننى أرغب فى البقاء معك طويلا ، أنصت إلى حديثك ، ولكن أمى وحيدة وكل أهل القرية يتشاءمون منها ، وأنا الأخرى وحيدة ، كم أنا وحيدة ! !

– كلنا فرادى ، لا ينبغى أن نخدع أنفسنا ، إن الحياة سجن ، سجون مختلفة ، ولكن بعض الناس يرسمون على حوائطه ؛ ويشغلون بذلك أفكارهم ؛ وبعضهم يريد الفرار منه ، وبعضهم يجرحون أيديهم دون جدوى أيضا ، ولكن لب الأمر أننا يجب أن نخدع أنفسنا دائما ، ولكن ثمة وقت يمل الانسان من خداع نفسه أيضا ، أظن أن لسانى اليوم يعجز عن البيان ، إننى منذ سنوات لم أتحدث مع أحد إلا مع نفسى ؛ والآن أحس بحرارة جديدة فى داخلى .

وقالت روشنك بدهشة .

– ها هى أمى العزيزة ! ! لقد جاءت .

وحينئذ بدت امرأة مديدة القامة ، تلبس خمارا أبيض وتأخذ فى الإقتراب ، وتعلقت نظراتها بخشتون ، وحينما إقتربت جعلا ينظران فى عينى بعضهما لعدة دقائق ، وسقطت المرأة مغشيا عليها فوق الحشائش ؛ وأسرعت الفتاة – التى تعودت على هذه الأزمة – خائفة على أمها ، فوضعت رأسها على ركبتها ، وأخذت تدعوها وتربت على وجهها . واقترب خشتون منها ، ولمس بأصابعه جبهتها ، فعادت المرأة إلى وعيها ؛ ونهضت جالسة ، وابتعد « خشتون » تلاحقه نظرة إستحسان من الفتاة .

كانت هناك قصص مثيرة للعجب تروى على ألسنة أهل القرية عن هذا الرجل وتلك المرأة ، وكانوا يقولون أن هذا الرجل ليس إسمه « خشتون » ، وإنما هو ملا شمعون اليهودى ، ومنذ سبع سنوات جاء « ديلبر » مع أحد الدراويش ، وأختارا لهما مكانا فى خرائب القلعة الملعونة ، وبعد مدة إختفى رفيق ملا شمعون ، ولم يعلم أحد ما حدث له ، أما « خشتون » وحياته فكانا يزيدان تلك المشكلة تعقيدا ، كان البعض يقول أنه يشغل نفسه بالرياضة ، وأنه يأكل فى اليوم لوزة واحدة ، وأن له إختلاطا بالأرواح والجن ، والبعض كان يعتقد أنه أحضر الكبريت الأحمر من جبل « دماوند » ، وأخذ فى الإشتغال بالكيمياء ، ثم قتل رفيقه ، واستمر يقرأ كتاب الجفر والطلاسم الذى كان يخصه ، بينما تقول جماعة أخرى أنه إكتشف فى تلك القلعة كنزا ، وإن الفتاتين اللتين ضلتا طريقهما من القرية عرفتا أمره ، وكانوا يعتقدون أن أى شخص ينظر فى عينيه يصبح مسحورا ، بينما كانت جماعة أخرى تقول أنه يقضى يومه فى الصلاة والطاعة ، وحينما كانت جمجمة خشتون ورأسه تظهران عند الغروب من وراء التل ، كان القرويون يبسملون إستنكارا ، ولكن الشىء الذى يجمعون عليه أنه سواء فى الصيف أو الشتاء ، كانت مدخنة السور الشمالى للقصر تخرج دائما دخانا أزرق .

وقد مضت أربعة أشهر على مجىء « روشنك » وأمها « خورشيد » إلى القرية ، قد نزلتا فى دارهما التى كانت تقع بالقرب من القلعة الملعونة ، تلك الدار التى مضت عليها عدة سنوات وهى خالية مهجورة ، إذ أنه منذ أحد عشر عاما أضطر والد « خورشيد » على ترك هذه الدار لسمعتها السيئة ، إذ قيل أن الجن قد رجمتها بالحجارة ، وبالرغم من أن أحد الجيران هو الذى بث هذا الزعم

ليشتريها بثمن بخس ، فإن هذا الامر لم يتم ، وظل لهذه الدار إسمها السيىء ، وربما سماها بعضهم بالقلعة الملعونة لقربها من قصر ماكان . ومنذ ثمانى سنوات إختفى زوج خورشيد بطريقة غامضة ، إذ أتهم بأنه يهودى ، وقد وصلها خطاب منه فحواه : إننى تركتك ، ولكننى فى اليوم الذى سأعود فيه سأعرف الجميع بنفسى ، وعاشت خورشيد بعد ذلك أربع سنوات فى منزل أبيها ، ثم مرضت مرضا خطيرا فكان يغمى عليها ساعات طويلة ، وبعد هذا المرض كانت تستيقظ كل ليلة من النوم فتسير ، ثم تعود وتنام ثانية .

وحينما مات أبوها هذا العام أعطيت هذا المنزل المنعزل فى هذه القرية كنصيب لها من الميراث ، فجاءت وأخذت تزاول الحياة فى هذا المكان بما كان يصل إليها من معاش شهرى زهيد ، ولكن نظرا لشهرة الدار السيئة من ناحية ، وحالة خورشيد الغامضة من ناحية أخرى من أنها كانت تسير وهى نائمة ، ظن كل أهل القرية بها ظن السوء ، إذ إعتبروا الأم وإبنتها من أعوان « خشتون » .

. . . .

بعد لقاء خشتون بـأم « روشنك » ، وفى نفس الليلة حينما هدأت الكائنات ، وغرقت القرية التى فى أسفل القلعة فى الظلام ، نهضت خورشيد كعادتها كل ليلة أثناء النوم ، وسارت خلسة بأعين مغلقة إلى وسادة إبنتها ، وأخذت تنصت إلى أنفاسها بدقة ؛ ثم وضعت عباءتها البيضاء على رأسها ، وخرجت بخطوات منتظمة من منزلها ، ولكن خط سيرها تغير هذه الليلة ، وبعد قليل من التردد ، أخذت الطريق الرفيع الخطر الذى يفضى إلى القلعة الملعونة . وأمام الجانب الشمالى للسور فكرت قليلا ، ثم دفعت الباب الخشبى

ودخلت دهليزا مظلما ، واجتازته ، وفتحت الباب الآخر الذى على اليمين ، ونزلت الدرجات الخمس الرطبة حتى وصلت سردابا رطبا جوه خانق ؛ وفى وسطه كان سراج ذو فتيل يحترق ، وأمام الحجرة وقفت خورشيد ، ووضعت يدا على الأخرى ، وخفضت رأسها ، ولكن وجهها النحيل وعينيها الزرقاوين وأجفانها لم تقو على ضوء النور الذى كان خشتون يجلس أمامه صغيرا نحيفا بلحية طويلة ، وشفتين دقيقتين وجبهة مغضنة ، ومع وجود الحرارة ، كان يلف نفسه فى مسوحه الأسود ، وقد ثبت عينه على البوتقة التى كانت على النار ، وترك يده اليمنى ذات الأصابع الطويلة على ركبته ...

هذه الحالة الغامضة للرجل ، وهذه الحجرة التى تشبه الغار ، وهذا السيف الصدىء المعلق على الحائط ، والزجاج والقرع والبواتق ، ورائحة العقاقير الذى إنتشر فى أرجاء المكان ، كل هذا كان يناسب الفقر الذى هو فيه ، بينما سأل إنسان نفسه عبثا : ترى أى تفكير يسبح وراء جبهة هذا الرجل ذى الرقبة الرقيقة ، والجمجمة الكبيرة ، والعظام البارزة ؟ ! !

ومرت عدة دقائق من الصمت ، ودون أن يحول خشتون رأسه لينظر إلى الضيفة التى وصلت لتوها ، ثم نهض وذهب متأنيا إلى جوار المرأة قائلاً لها بلهجة آمرة :

– هيه ، أعلم ذلك ، جئت الليلة خالية اليد ... لم تحضريها ، ولكن ليلة الغد ، لن تحتفظى بروحك من قبضتى ... ليلة الغد ؛ تحملين إبنتك وهى نائمة ، ولكيلا تستيقظ لفيها فى بطانية ، وأحضريها هنا ، قلت أنه يجب ألا تستيقظ ، هل تسمعين هيه ؟

وطأطأت خورشيد رأسها ، وأخذت تتنفس بصعوبة ، وسالت قطرات العرق من فوديها ، ففكر خشتون قليلا ثم قال :

– هل تسمعين ماذا أقول جيدا ؟ ستحضرينها ليلة الغد ... هل فهمت الآن ؟

فقال المرأة بصوت متحشرج :

– أجل !

– إذهبى ، عودى من نفس الطريق الذى جئت منه ، ولكن لا تنسى غدا أن تحضرى إبنتك ، ستحضرينها وتودعينها هنا .. فى يدى

فكرت خورشيد قليلا ، ثم خرجت من نفس الباب الذى جاءت منه بخطوات منتظمة .

وفى هذه الساعة تألقت عينا خشتون بشعاع شرير ، وارتسمت على شفتيه الرقيقتين إبتسامة ساخرة ، وذهب إلى التنور وأخذ ينظر إلى السائل الأخضر المائل لأن يكون صدأ ، وعاد إلى وسط السرداب ، ثم حك يديه النحيلتين وصاح كالمجنون :

– ليلة الغد ، ثلاث قطرات من الدم ! ... سوف تنفث الروح لأكسيرى فى نطفة الذهب ، ثلاث قطرات من دم فتاة عذراء ، ليلة الغد .. لقد هد الإعياء أساتذتى ولم يصلوا إلى مقصودهم ، وقتل آخرهم على يدى ... وبقيت أسرار سحرة مصر وكلده وبابل وآشور لى أنا ! وسوف أجنى ثمرة كدهم ... منذ سنين سبع ، وأنا أعيش كالموتى ، أغمض عينى عن كل الطيبات ، تركت إمرأتى وطفلتى ، ودفنت نفسى تحت الأرض ، ولكن غدا ... لا بعد غد ، سوف أخرج من تحت الأرض ، وسوف تكون لى جميع الطيبات التى على

وجه الأرض ، سوف يركع تحت قدمى كل من كانوا يحتقروننى ، ويطلبون منى أن أسبهم ، ويقبلون طرف قبائى .

المال ! ! المال (يقهقه) سوف يكون الذهب أمامى أكثر وضاعة من التراب ، وسوف يظننى الجميع العقل الاكبر ، وسوف يكون إسمى على كل لسان ، المال .. اللذة .. النساء ، الأرض والسماء ، وما فيها من آلهة أيضا سوف تكون خاضعة لى ، ليلة الغد ، كل ذلك بثلاث قطرات من الدم من آخر دم لهذه الفتاة ، أجل ، لماذا لا تقتل على يدى ؟ ! ولماذا لا تصير قربانا للأكسير الأعظم ، قطعا أحسن من أن تصير قربانا لشهوة هؤلاء الناس العاديين الذين لم يفهموا دقائق روحها جيدا ، ولكن جسدها الذى لا روح فيه سوف يبقى فى حوزتى ... ملكى (يضحك مقهقها) الذهب .. فلز أى فلز نجيب ، ولون ... أى لون يفتح القلب ، وصوت أى صوت ساحر يملك ، وطلسم أى طلسم ، طلسم تدور الدنيا والآخرة وكل أساطير البشر حوله ، والأيدى على الصدور .. الذهب الذهب !

وانتشر صوته فى السرداب ، ووقف فجأة أمام التنور كالمختنق ، وثبت بصره على السائل الأخضر المائل لأن يكون صدأ ، واستولت عليه مرة ثانية تلك الحالة التعسة ، ثم رقد بجوار التنور .

وقد أنفق خشتون اليوم التالى كله فى إعداد سرير خشبى طويل وثبت قوائمه فى الأرض بجوار التنور ، ثم فرش عليه نسيجا أبيض ، وللنظرة الأولى كانت ترى تغييرات فى الغار ، كانت ثمار القرع والبواتق والزجاجات المختلفة منتشرة فى أنحائه ، وأمام السراج كان هناك ورق لكتاب مخطوط خطت فيه رسوم هندسية ، ونقشت عليه علامات بخطوط حمراء ، ووضع السيف الصدىء فى ركن من الحجرة

بحيث يكون فى متناول يده ، وكان السائل الأخضر المائل لأن يكون صدأ يتموج ببخار أبيض فى قعر البوتقة ، وكان هذا جاذبا لإنتباه خشتون ، وبين دقيقة وأخرى كان ينظر إلى الباب وهو نافذ الصبر .

وفى نفس ساعة الليلة الماضية فتح الباب ودخلت خورشيد ، وكانت تحمل شيئا أبيض ملفوفا ، وبمجرد أن رآها خشتون نهض واقترب منها وقال لها بلهجة آمرة :

– كنت أعلم أنك ستحضرينها ... أعطنيها ... أنت الآن حرة ، ولكن لا يجب أن تظهرى لأحد ، أنت لا تستطيعين الكلام لمدة يومين ... أعطنيها الآن .

وأخذ اللفافة البيضاء من يد المرأة ، وحملها ووضعها على السرير الخشبى أمام التنور ، وتدلت رأس خورشيد على صدرها .. وتصببت عرقا ، ثم خرجت من الباب بخطوات منتظمة .

وكأنما كانت دقائق خشتون ذات قيمة ، فنزع الغطاء الأبيض بسرعة ، وظهر من تحته وجه روشنك بشعر مشعث ورموش طويلة ، وكانت عيناها مغلقتين ، وأخذت تتنفس ببطء . وقرب خشتون رأسها منه ، وأنصت إلى أنفاسها المنتظمة فتصببت الطفلة عرقا ، وحمل خشتون السيف من إحدى زوايا ، ورسم بذؤابته خطا حول السرير ، ووقف ساكنا على رأس الفتاة ، وأخذ يقرأ العزائم من الكتاب الموجود بجوار نور السراج ، وبعد أن إنتهى ربط يدى روشنك وقدميها بإحكام فى المقعد ، وحمل السيف وغرس طرفه فى حلق روشنك بضربة واحدة فانبثق الدم من حلقها ، وغطى رأس خشتون ، فأخذ يجفف وجهه بطرف عباءته ، واستمر يدعو مرة ثانية بلغة رمزية غامضة ، وظهر على وجه التنور بوجهه الدامى ، وعينيه

المفتوحتين إلى ما لا نهاية ، ولحيته التى كانت تهتز تحت ذقنه على نسق غامض ، وفى أثناء ذلك إهتزت روشنك بشدة وتدلت رأسها من السرير ، فحمل خشتون زجاجة واسعة الفم على شكل القمع ضيقة القعر إلى جوار اللوح ، وكان تجويفها دقيقا كالأنبوبة ، ووضعها تحت حلقها ، وانتفضت الفتاة ثانية إنتفاضة أقوى والتوت رقبتها ، فأمسك خشتون برأسها الدامية وأدارها ، وفى ذلك الوقت ، أخذت نقاط الدم تنزل من حلقها بقلة ، وكان خشتون يأخذها بدقة زائدة فى عدة زجاجات ، وحمل زجاجة أخرى وضغط على حلق الفتاة ، وبعد ذلك أطال من شريط السراج ، وحمله قريبا منها ، وصب ثلاث قطرات من آخر دمها فى الزجاجة .

ولكنه وعلى ضوء السراج المتهافت ، رأى أثرا يشبه « ضربة قمر »[1] على جبهة روشنك ، وعرف فيها إبنته ... وبمجرد أن عرف ذلك ، ألقى بالسراج مرتاعا فوقع على الأرض وانطفأ ، ورفع الزجاجة التى فى يده وصاح :

– كيمياء ... كيمياء .. ثلاث قطرات من الدم ... دم إبنتى ... دم روشنك !

وضغط على الزجاجة حتى تحطمت فى يده ، ورمى بحطامها ناحية البوتقة ، فسقطت عن الحامل ، وأهرق السائل الصدىء على الأرض ، واشتعلت النيران .

وحتى الصباح ظل سكان القرية يتفرجون مهللين على الدخان والنار التى كانت تخرج ألسنتها من القلعة الملعونة .

---

(١) الاعتقاد السائد فى ايران أنه حينما يكون الجنين فى بطن أمه ويحدث خسوف فى القمر ، تظهر شامة فى أى جزء من أجزاء الجسم وتسمى « ضربة قمر » .

(٢)

الكلــب الشريــد

كان ميدان « ورامين » يتكون من عدة حوانيت صغيرة لخباز ، وقصاب ، وعطار إلى جانب مقهيين وحلاق ، وكل هذه المحلات كانت غاصة بكل ما يحتاجه الناس لسد جوعهم ومطالب الحياة .

كان الميدان وسكانه تحت وهج الشمس المحرقة يبدون كأنهم نصف ملفوحين أو نصف محترقين ، منشغلين بقضاء لوازمهم ، يتمنون أول نسمات الغروب أو ظلال الليل ، وكف الناس ، والحوانيت والاشجار ، والحيوانات كلها عن الحركة ، وقد أثقل الجو الحار الرؤوس ، وكان الغبار الناعم يتموج تجاه السماء الزرقاء ، يزيد سير السيارات الدائم فى كثافته ، وكانت هناك شجرة شنار عجوز فى أحد أطراف الميدان ، جذعها محفور متآكل ، ولكنها أخذت تبسط فروعها الملتوية المغضنة بكل إصرار ، وفى ظل أوراقها المغطاة بالتراب كان مسطح عريض يجلس عليه غلامان يبيعان الأرز باللبن ولب اليقطين ، ويناديان عليهما بصوت عال ، وكان الماء الراكد المختلط بالطين فى الترعة المواجهة للمقهى يكاد يشق لنفسه طريقا فيها بكل صعوبة .

أما البناء الوحيد الذى كان يلفت النظر ، فهو برج ورامين المعروف ، الذى كان يبدو على شكل إسطوانى ، ورأسه المتشقق المخروطى الشكل ، وظلت العصافير التى بنت أعشاشها فى شقوقه صامتة هى الأخرى من شدة الحر ، ولكن هناك نباح كلب يقطع السكون بين الفينة والأخرى .

كان كلبا إسكتلنديا له فم طويل أسود ، وقدم ذو نقط سوداء ، وكأنه عدا فى طين فتلطخ به . وكان ذا أذن شبه مخروطية ، وذيل لامع ، وشعر ملتو قذر . وفى وجهه الخشن ذو الشعر الكثيف كانت عيناه تبرقان بذكاء آدمى ، وفى الليل المدلهم الذى جلل حياته ، كانت عيناه تبوحان بمعان غامضة لا يمكن إدراكها ، غير أنها كانت شيئا يختفى وراء إنسان عينيه ، لم يكن هذا الشيء بصيصا من نور ، ولا لونا ، ولكنه كان شيئا آخر لا يصدق . كالذى يبدو فى عين الغزال الجريح ، ولم يكن بين عينيه وبين عين الإنسان تشابه فحسب ، بل كان بينهما مساواة تامة أيضا ، عينان واسعتان عسليتان مليئتان بالألم والإنتظار اللذين يمكن رؤيتهما فقط فى وجه كلب شريد . ويبدو أن أحدا لم يكن ليرى أو يفهم نظراته المؤلمة المليئة بالالتماس ، فأمام دكان الخباز كان صبيه يضربه ، وأمام دكان القصاب كان صبيه هو الآخر يرميه بالحجارة ، فإذا أراد أن يستظل فى ظل سيارة إستقبل ركلة سائق بحذائه الثقيل المليء بالمسامير . وحينما يتعب الجميع من إيذائه كان هناك الغلام بائع الأرز باللبن الذى يجد لذة خاصة فى تعذيبه ، وفى مقابل أية صيحة من صيحات الألم ، كان يقذفه بسيل من الحجارة فى بطنه ، وكلما إرتفع نباحه وعواؤه ، يضحك الغلام ويصيح به « خذ ياذا الصاحب المارق » ، وكأنما كان الآخرون أيضا مؤيدين له ، فكانوا يشجعونه بطريقة خبيثة موذية ، فكانوا يبتسمون إبتسامة بسيطة ،

وكأنهم يضربونه لإستجلاب رضاء الله فقط ، فذلك فى نظرهم طبيعى جدا ، فهو كلب نجس يسبه الدين ، وله سبعون روحا ، ويجب إيذاؤه إستجلابا للثواب .

وأخيرا ظل الغلام بائع الأرز باللبن خلفه ، حتى لم يجد الحيوان بدا من الإلتجاء إلى شارع يؤدى إلى البرج ، أى أنه تحامل على نفسه بتعب وخرج ببطن جائع . إلتجأ إلى مجرى مائى ، ووضع رأسه على يديه وأخرج لسانه ، وكان فى حالة بين النوم واليقظة ، وأخذ ينظر إلى المزارع الخضراء التى كانت تتموج أمامه ، كان جسده مرهقا ، وأخذت أعضاؤه تؤلمه ، وفى الجو الرطب للمجرى المائى إنتابته حالة من الراحة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وانبعثت فى نفسه ذكريات الروائح المختلفة ، من خضروات لها بعض الحياة ، وفردة حذاء قديم بال ، وأخذت روائح الأشياء الطازجة والجافة تجسد أمام ناظريه الذكريات البعيدة والقريبة ، وكلما دقق من الخضرة إستيقظ فى نفسه ميل غريزى ، وتبعثت ذكريات الحياة الماضية فى نفسه من جديد ، ولكن هذه المرة كان الإحساس قويا ، وكأنما كان هناك صوت يأتى من أعماق أذنه ويأمره بالحركة والقفز والنهوض ، بميل مفرط للعدو والقفز فى هذه الخضرة .

وكان هناك إحساس موروث لديه ، إذ أن كل أجداده نالوا تربية حرة فى إسكتلنده وسط الخضرة ، ولكن جسده كان منهكا بدرجة لم يسمح له فيها بأية حركة ، وغمره إحساس بالألم مختلطا بالضعف والعجز ، وأثيرت لديه بضعة من الأحاسيس الميتة الضائعة ، كانت لديه فى الغالب قيود ، وله حاجات متنوعة ، وكان يعتبر نفسه موظفا ، يجب أن يحضر عند صوت صاحبه ، ويجب أن يبعد الأشخاص الغرباء والكلاب الغريبة من منزل صاحبه ، وأن يلعب مع

طفل صاحبه ، وأن يعلم كيف يتعامل مع الأشخاص المعتادين المعروفين ، وكيف يسلك مع الغرباء ، وأن يأكل فى ميعاد الغذاء ، وأن يتوقع التدليل فى موقف معين .. ولكن الآن إنجلت كل هذه القيود عن رقبته .

صار كل إنتباهه مركزا على أن يحصل على القمامة بحرص وهلع على قطعة الطعام ، ويتلقى الضرب طول اليوم فيصرخ ، تلك هى وسيلة الدفاع الوحيدة لديه ، كان فيما سبق جريئا لا خوف عنده ، نظيفا ، ونشيطا ، أما الآن فهو سهل التخويف ، مغلوب على أمره ، فكل صوت يسمعه ، وكل شىء يتحرك بجواره ، يورث الرجفة فى نفسه ، كان يخاف حتى من صوته ، وتعود على القذارة ، وحينما كان جسمه يأكله ، لا يجد طاقة لحكه وإصطياد الحشرات أو لعق نفسه ، لقد أحس أنه صار جزءا من القمامة ، وأن شيئا مات فى نفسه ، الأمر الذى جعله يركن إلى السكون .

ومنذ أن وقع فى وادى هذا الجحيم ، مر عليه شتاء إن لم يأكل ملأ بطنه مرة واحدة فيهما ، ولم ينم نومة مريحة مرة واحدة ، وقد إختفت شهواته وإحساساته ، ولم يجد شخصا يربت على رأسه بيد حانية ، لم ينظر إلى أعماق عينه ، الناس هنا ولو أنهم يشبهون صاحبه فى الظاهر ، إلا أنه يبدو أن إحساسات صاحبه وسلوكه وأخلاقه تبعده عنهم بعد السماء عن الأرض ، كأنما كان الناس الذين عاش بينهم قبلا ، أقرب إلى دنياه ، كانوا يفهمونه آلامه وإحساساته جيدا ، وكانوا يحمونه .

وبين الروائح التى كانت تصل إلى رائحة تجعله يغيب عن نفسه أكثر من أى شىء آخر ، رائحة الأرز باللبن الذى كان أمام الغلام ، هذا السائل الابيض الذى كان يشبه لبن أمه إلى حد كبير ، والذى

KMH

يجسد فى خاطره ذكريات الطفولة ، فغمرته فجأة حالة لا شعورية من الشرود ، وتخيل أيام كان جروا ، يمتص هذا السائل الحار الدسم من ثدى أمه ، ولسانها الناعم القوى يلعق جسده وينظفه ، والرائحة القوية التى كان يشمها فى أحضان أمه وفى جوار أخيه ، وكانت الرائحة القوية لأمه ، وجوار أخيه تستقر فى أنفه ، فسخن جسده ، وشعر براحة ، وحين ينتشى من اللبن ، كان تيار دافىء يسرى فى عروقه ، فيفصل رأسه عن ثدى أمه وقد ثقلت ثم ينام بعد ذلك نومة عميقة يحس خلالها برعشة لذيذة تسرى فى أنحاء جسده ، وأية لذة يمكن أن تفوق هذا ، فقد كان يضغط بيده على ثدى أمه بلا إرادة وبلا مشقة وبلا سعى ، وكان اللبن يتدفق على جسدى أخيه الخشن ، ونباح أمه ، كل هذا كان يفعم قلبه بالسرور والزهو . وتذكر كوخه الخشبى السابق والألعاب التى كان يلعبها مع أخيه فى تلك الحديقة الخضراء .

كان يعض أذن أخيه الرقيقة الشبيهة بالإبريق ، فيقعان على الأرض ، وينهضان فيعدوان ، وبعد ذلك إكتشفا رفيقا جديدا هو إبن صاحبهما الذى كان يجرى خلفه وينبح فى الحديقة الخالية ، ويمسك ملابسه بين أسنانه ، وكم كان صاحبه يدلله ، وكم من قطع السكر كان يأكلها ويتناولها من يده ، إنه لم ينسها مطلقا ، غير أنه كان يحب إبن صاحبه أكثر لأنه كان رفيق لعبه ، ولم يكن يضربه قط ، ثم فقد أمه وأخاه دفعة واحدة ، ولم يبق سوى صاحبه وإبنه وإمرأته مع خادم عجوز ، كان يميز رائحة كل منهم جيدا ، ويعرف أصوات أقدامهم من بعيد ، وعند الغذاء والعشاء كانوا يجتمعون حول المائدة ، وترتفع أصوات الملاعق والسكاكين ، وأحيانا كانت زوجة صاحبه ترمى له ببعض اللقيمات الحبيبة إليه ، بالرغم من زوجها ، ثم يأتى بعد ذلك

الخادم العجوز وينادى « بات ! بات ! » فيصب طعامه فى طبق خاص بجوار كوخه الخشبى .

وكانت شهوة « بات » سبب شقائه ، إذ أن صاحبه لم يكن يسمح له بالخروج من المنزل والسير خلف إناث الكلاب . ومن ضربات القضاء أن صاحبه ركب العربة ذات يوم من أيام الخريف مع شخصين كان بات يعرفهما جيدا ، وكانا يأتيان إلى المنزل كثيرا ، نادوا « بات » وأجلسوه فى العربة إلى جوارهم ، وكان « بات » قد سافر بالعربة مرات كثيرة مع صاحبه ، وحينئذ كان فى فورة الشهوة ، وكان عنده هيام خاص ، وهياج عارم ، وبعد عدة ساعات ، وقد أخذوا مسيرتهم نزلوا فى نفس هذا الميدان ، ومر صاحبه والشخصان الآخران من نفس هذا الشارع الذى كان بجوار البرج ، وبالصدفة كانت هناك رائحة كلبة ، وهذا الأثر للرائحة الخاصة بالجنس الذى يبحث عنه بات ، جعله يجن جنونه مرة واحدة ، وأخذ يشم بين الفينة والأخرى ، حتى دخل حديقة عن طريق المجرى الذى كان يوصل المياه إليها .

وعند الغروب سمع صوت صاحبه يناديه مرتين : « بات ! بات » ، هل كان حقا صوته أم أنه صدى لصوته وقد رسخ فى أذنه ؟ وهو وإن كان لصوت صاحبه أثر غريب عليه ، إذ يذكره بجميع التعهدات والوظائف التى كان يعتبر نفسه مدينا له بها ، فقد كان ثمة قوة تجبره أن يكون مع كلبة ، أحس أن سمعه قد ثقل ، وصار بطىء السمع ثقيله بالنسبة للأصوات الخارجية ، كانت إحساسات شديدة قد إستيقظت فيه ، وكانت رائحة الكلبة قوية شديدة إلى الحد الذى أصاب رأسه بالدوار . كل عضلاته ، كل حواسه ، كانت قد خرجت

عن طاعته ، حتى أفلت زمامه من يده ، ولكن لم تمض فترة طويلة حتى جاءوا فى أثره بالعصى وأيدى الفؤوس ، وأخرجوه من المجرى المائى .

كان « بات » شاردا حائرا متعبا ، ولكنه شعر بالراحة والخفة ، وعندما أفاق أخذ يبحث عن صاحبه ، وكانت هناك رائحة رقيقة قد بقيت منه فى بعض الشوارع ، ففتشها جميعا ، وترك من نفسه علامة فى أماكن منفصلة ، حتى خرج إلى خرابة بعيدة عن العمران ، ثم عاد ثانية إذ أدرك أن صاحبه عاد إلى الميدان ، ولكنه فقد رائحته هناك وسط هذه الروائح التى أطبقت على الجو ، هل ذهب صاحبه حقا وتركه ؟ ! وأحس « بات » باضطراب ووحشه ، كيف يكون بلا صاحب ؟ ! وكيف يزاول الحياة بدون ربه ؟ ! لقد كان صاحبه بالنسبة له كإله ! ! ولكنه كان مطمئناً أن صاحبه سوف يأتى للبحث عنه ، فطفق يجرى فى عدة شوارع ولكن تعبه ، لم يجد نفعا .

وأخيرا عاد فى الليل الى الميدان منهوكا عاجزا ، ولم يكن هناك أثر من صاحبه ، فأخذ يقوم بدورات أخرى فى العمران ، وأخيرا ذهب الى مجرى المياه الذى كانت أنثى الكلب تأوى اليه ، ولكنه كان قد سد بالحجارة ، وأخذ بات يحفر الأرض بحماس وحرارة ليدخل الحديقة ، ولكن هذا كان مستحيلا ، و بعد أن يئس غلبه النعاس فى نفس المكان . وفى منتصف الليل استيقظ بات من النوم على صوت أنينه ، فنهض فزعا ، وأخذ يتسكع فى عدة شوارع ، وأخيرا أحس بجوع شديد ، وحينما عاد الى الميدان ، وصلت إلى أنفه رائحة المأكولات المختلفة ، واختلطت رائحة اللحم البائت برائحة الخبز والزبادى الطازجين ، ولكنه كان يحس فى نفس الوقت أنه مخطىء ، وأنه دخل فى أرض الآخرين ، ويجب عليه أن يتسول من هؤلاء الناس

الذين يشبهون صاحبه، وإذا لم يكتشف منافسا آخر يطرده، عليه أن يضع يده على هذا المكان قليلا قليلا، وربما إحتفظ به أحد المخلوقات التى تملك الطعام.

وذهب فى حذر وخوف ورهبة، واقترب من حانوت الخباز، الذى كان قد فتحه لتوه، وكانت رائحة الخميرة الناضجة متفشية فى الجو، فناداه شخص كان لديه خبز تحت إبطه قائلاً: تعال .. تعال، وكان صوته غريبا، فى أذنه، ثم رمى بقطعة من الخبز أمامه، وبعد أن تردد « بات » قليلا، أخذ الخبز وهز ذيله له، فوضع هذا الشخص ما بده من خبز على مصطبة الدكان، وربت بيده بخوف وحذر على رأس بات، ثم سلبه قلادته بيديه الإثنتين. وكم أحس بالراحة، وكأنما رفعت عن رقبة « بات » كل المسؤليات والقيود والواجبات، ولكنه بمجرد أن هز ذيله للمرة الثانية، وذهب إلى صاحب الحانوت، رفسه رفسة محكمة فى بطنه فابتعد وهو يعوى، وذهب صاحب الحانوت حثيثا إلى شاطىء النهر وطهر يده، وكان بات لا يزال يعرف قلادته المعلقة على باب الحانوت حتى الآن.

ومن ذلك اليوم فصاعدا لم ينل بات من هؤلاء الناس سوى الرفس والقذف بالحجارة والضرب بالعصى، وكأنما أصبح الجميع له أعداء ألداء، وكأنما كانوا يتلذذون بتعذيبه.

وأحس بات أنه دخل دنيا جديدة، لا يعتبرها ملكا له، ولا يفهم أحد فيها إحساساته وعوالمه. وقد أمضى الأيام الأولى بصعوبة. ولكنه تعود عليها قليلا قليلا، فقد أدرك أن بمنحنى أحد الأزقة على اليمين

مكان تفرغ فيه القمامة والفضلات وكان يجد هناك بعض القطع اللذيذة التى يستطيع تمييزها كالعظام والجلد الدسم ورؤوس السمك وأطعمة أخرى كثيرة لم يكن يعرفها . ثم يقضى بقية اليوم أمام حانوتى القصاب والخباز . وكانت عيناه مثبتتين على يد القصاب دائما . ولكنه كان يأكل الركلات أكثر من القطع اللذيذة . وكان قد كيف نفسه مع حياته الجديدة . ولم يبق من حياته الماضية إلا بضعة من الذكريات المبهمة الممحوة وبعض الروائح ، وكلما مر بوقت أكثر شقاء وجد فى فردوسه هذا نوعا من العزاء ، وطريقا من طرق الفرار ، إذ كانت تتجسد أمامه ذكريات ذلك الزمان بلا إرادة .

ولكن الشيء الذى كان يعذب « بات » من أى شيء آخر .. إحتياجه إلى التدليل ، فقد كان مثل الطفل الذى يسبه الجميع ويتجاهله الكل ، ولكن أحاسيسه الرقيقة لم تمت بعد . وقد إحتاج للتدليل أكثر من ذى قبل ، وبخاصة فى تلك الحياة الجديدة المليئة بالألم والظلم . كانت عيناه تستجديان التدليل . وكان على إستعداد أن يهب روحه فى سبيل أن يبدى شخص له الحنان . أو يربت بيده على رأسه . وكان يحتاج أيضا إلى إظهار حبه وعطفه لشخص ما . أن يبرز له عبادته وفداءه . ولكنه فطن إلى أنه ليس هناك شخص يحتاج منه إلى إبراز عطفه وحبه ، وإلى شخص يحميه ويرعاه ، وكلما نظر بعينه لا يجد فى أعين الناس سوى الحقد والشر . وكلما أتى بحركة ما ليثير إنتباه هؤلاء الناس ، كان كأنما يثير غيظهم ويزيدهم عليه حقدا وغضبا .

وبينما كان بات نائما فى مجرى الماء ، جزع عدة مرات ثم إستيقظ . وكأنما كانت هناك كوابيس تمر أمام عينيه ، وأحس حينئذ بجوع شديد وشم رائحة الشواء . وكان الجوع الكافر يفتك بكل أحشائه . حتى

أنه نسى عجزه وآلامه الأخرى . فقام بصعوبة ، وذهب حذرا إلى الميدان .

وفى ذلك الوقت دخلت سيارة بصياحها وجلبتها وغبارها إلى ميدان ورامين ، ونزل منها رجل ، ثم تقدم ناحية بات ، وربت بيده على رأس الحيوان . ولم يكن هذا الرجل صاحبه فإن بات لم يكن ليخدع . إذ أنه كان يعرف رائحة صاحبه تماما ، ولكن كيف ظهر شخص يحنو عليه . هز بات ذيله ونظر إلى الرجل بتردد .. ألم يكن مخدوعا ولكن لم تكن القلادة فى عنقه هذه المرة ليربتوا على رأسه من أجلها . وعاد هذا الرجل فربت على رأسه ثانية . فسار بات خلفه . وتعجب أكثر حينما دخل الرجل غرفة كان يعرفها جيدا . إذ كانت تخرج منها رائحة الطعام . وجلس الرجل على الطوار بجوار الحائط . وأحضروا للرجل الخبز الساخن والزبادى والبيض وغيرها من الأطعمة اللذيذة . وكان الرجل يغمس قطعة الخبز بالزبادى ويرميها له . وكان بات فى بادىء الأمر يأكل اللقيمات متعجلا . ثم أخذ يأكلها ببطء . وكانت عيناه المسرورة المليئة بالزهو مثبتة على الرجل ، تعبر عن الشكر والإمتنان ، وأخذ يهز ذيله .. أكان فى يقظة أم فى منام ؟ إن بات كان يأكل ملء بطنه دون أن تقطع هذه الوجبة بالركلات ! وهل إكتشف صاحبا جديدا ؟ ! ورغم حرارة الجو ، نهض ذلك الرجل وذهب ناحية شارع البرج . ومكث هناك قليلا ، وأخذ يتجول من زقاق ملتو إلى زقاق آخر ، و « بات » يسير وراءه . حتى خرج من العمران ، وذهب إلى الخرابة ذات الحوائط الكثيرة والتى تركه صاحبه عندها . فلعل هؤلاء البشر كانوا يبحثون هم الآخرون عن إناث لهم ! ! ومكث « بات » ينتظر فى ظل الحائط ثم عاد ثانية إلى الميدان عن طريق آخر .

وربت هذا الرجل على رأسه مرة ثانية . وبعد أن دار فى الميدان دورة قصيرة ذهب إلى احدى السيارات التى يعرفها « بات » وركب ، ولم يجرأ بات على الصعود فيجلس بجوار العربة وهو ينظر إليه . وفجأة سارت السيارة وسط الغبار والتراب . وبلا توان أسرع بات خلفها . لا .. أنه لا يريد التفريط فى هذا الرجل فى هذه المرة . وأخذ يلهث . ورغم الألم الذى أخذ يحس به بدنه أخذ يوسع فى خطاه ويعدو خلف السيارة بكامل قواه . وابتعدت السيارة عن العمران ، وأخذت تسير وسط الصحراء. وبلغ السيارة مرتين أو ثلاثة . ولكنه تأخر ثانية ، وكان قد جمع قواه وأخذ ينهض ويقفز فى يأس . ولكن السيارة كانت تجرى بسرعة أشد ، وكان قد أخطأ ، ففضلا عن أنه لم يلحق بالسيارة ، أحس بعجز وهزيمة ، وأخذ قلبه يدق بشدة ، وأحس دفعة واحدة أن جميع أعضائه قد خرجت عن إرادته ، ولم يعد قادرا على أية حركة . وذهبت جهوده أدراج الرياح . ولم يعد يعرف لماذا كان يجرى فى الأصل ، وإلى أين يذهب ، فليس هناك طريق خلفه ، وليس هناك طريق أمامه ، فتوقف وأخذ يلهث . وقد تدلى لسانه من فمه، وأظلمت الدنيا أمام ناظريه، وسحب نفسه من جوار الطريق فى غيبوبة ورأسه مدلاة . وذهب إلى ترعة بجوار المزارع ، ثم ترك بطنه على الطين المتجمد الرطب ، وأحس بميله الغريزى الذى لم يخدعه قط أنه لن يستطيع أن يبارح ذلك المكان . ودارت رأسه ، وأظلمت أفكاره وإحساساته وبهتت ، وأحس بألم شديد فى بطنه ، وأخذ بريق الموت يتألق فى عينيه ، ووسط التشنجات والتقلصات والإلتواءات فقدت يداه وقدماه الحس قليلا قليلا ، وتصبب العرق البارد من كل جسمه . وكان ثمة نوع من الراحة الملائمة اللذيذة .

وعند الغروب ، كان ثلاثة من الغربان الجائعة تطير بأعلى رأس « بات » إذ كانوا قد شموا رائحته من بعيد . ونزل أحدهما بحذر وحط بالقرب منه . وأخذ ينظر بدقة ، وحينما إطمأن إلى أن بات لم يمت تماما . طار ثانية . وكانت هذه الغربان الثلاثة قد أتت لتخرج عينى بات العسليتين .

(٣)

المخلـــب

حينما دخل سيد أحمد المنزل ، وألقى بنظرة شك فى الفناء ، ثم دق الباب البنى اللون للحجرة التى بجوار خزان المياه بعصاه الخشبية ، ونادى بصوت منخفض :

- ربابة ... ربابة

وفتح الباب ، وأطلت منه فى خوف فتاة شاحبة اللون

- أخى ... أنت ... إصعد

وأخذت بيد أخيها ، ثم دخلا حجرة مظلمة سرت فيها الرطوبة حتى منتصف حائطها فوضع سيد أحمد عصاه بجانب من الحجرة . ثم جلس على لبادة قديمة فى ركن منها وجلست ربابة هى الأخرى أمامه . ولكنها كانت على خلاف عادتها مكتئبة مقطبة الجبين . وبعد أن حدق سيد أحمد فترة فى عينيها الدامعة بدهشة سألها :

- أين الأم الحنون ؟

فقالت ربابة بصوت خافت :

– فليخطفها الموت ! هى نائمة فى حجرتها

– نائمة ؟ !

بل ... اليوم كنت أكنس المطبخ ، وعلقت عباءتى بطبق من الصينى . ذلك المنقوش بوردة حمراء . فوقع وانكسر . لو تعلم ماذا فعلت الأم الحنون بى . لقد أمسكت بشعرى وأخذت تقلعه حفنة حفنة وتضربنى وتدق رأسى من الحائط . ثم سبت أمى قائلة :

لا وجدت لها مكانا بين الموتى ، وكان أبى موجودا ، واقفا يضحك فقال سيد أحمد غاضبا :

– يضحك ؟ ! !

– أخذ يضحك ويضحك ... ألا تعلم ، لقد خرج عن طوره . كما كان قبل ذلك بشهر ، وبعد ذلك أرغى فمه وتقوس . ونهض من فوره فأمسك بخمار الأم الحنون وأخذ يضغط على حلقها حتى كادت عيناها أن تخرج من حدقتيها . ولو لم تكن « ماه سلطان » هنا لقتلها خنقا . والآن فهمت كيف أقتل أمنا ؟ ! !

– من قال لك أنه قتل أمنا بهذه الطريقة ؟

– كانت ماه سلطان وهى سائرة أمام نعشها تقول أنه أمسك بضفائرها ، ولفها حول رقبتها . ألا تدرى ... حينما فك يده عنها كان موخر حلقوم أمنا الحبيبة .....

وما أن نظر إليها سيد أحمد حتى رفع يديه الجافتين كأوراق الشنار ، وأخذ يبسط أصابعه ثم يثنيها وكأنه يريد أن يخنق وأخذت تنظر إليه فى دهشة . وسأل سيد أحمد ثانية :

– ألم يذهب أبى اليوم إلى مسجد شاه ؟

– لا . لم يكن على ما يرام . منذ تلك اللحظة بعد الظهر وهو يهذى . عن نفس الأشياء التى يتحدث بها الناس إلى داخل المسجد ، الإغتسال ، الطهارة ، يوم القيامة ...

– مبطلات الصوم ، الحيض ، النفاس ...

– نعم ، كان يسأل نفسه ويجيب عليها . وقد ظننت أنه جن ، كان يقول أشياء أخجل منها .

ثم اقتربت ربابة من أحمد وربتت على رأسه قائلة :

– إذن متى نهرب ؟ ألم تقل أن عباس يقول أنه بإحدى عشر تومانا وست أقرنة نستطيع شراء بقرة ؟ ! الآن نشتر واحدة صغيرة .. وأنا أيضا أغسل الملابس . وسأكسب نفقاتى ، أنظر من الخير أن نهرب بكل سرعة .. أنى أخاف .

– إنتظرى حتى يتحسن الجو ... منذ بضعة أيام وقدمى تؤلمنى .

– حينما يتحسن الجو سنذهب ، أليس كذلك يا أخى ، على الأقل فإن أى مكان مهما بلغ خير من هنا .

ثم سكت كلاهما .

أما أحمد فشاب فى الثامنة عشرة ، طويل القامة ، ذو حاجبين غليظين متصلين وعينين براقتين ووجه عصبى . وقد طر شاربه حديثا . وكانت ربابة فتاة قمحية اللون فى الخامسة عشرة ذات حاجبين متصلين ، وشفتين بارزتين حمراوتين ، وكانت ذات يد رقيقة وذقن رفيعة ، وكانت أقرب إلى أمها ، بينما كان سيد أحمد أشد شبها بأبيه ، وظهرت فيه أعراض مرضه الخطير أخيرا .

أما سيد جعفر والدهما فكان يضرب حلقة فى مسجد شاه ، ويجمع العاطلين حوله ، ثم يشرح لهم المسائل الفقهية بطريقة السؤال والجواب ، وعلى نسق مكشوف لا ذوق فيه . وكان فنانا فى عمله ، فلكى يبيع الأحجبة ، كان يأتى بعقرب سوداء قطع قمتها ودربها وطفق يمثل عليها ، وهو وإن كانت أرباحه فى الأيام الأخيرة لا تدر عليه إلا النذر اليسير ، إلا أنها كانت تفى بحاجات بيته ، ومنذ خمس سنوات حين كان الجميع نائمين أتى المنزل مخمورا ، وفى الصباح وجدت « صغرا » زوجته مخنوقة فى حجرته ، ولكن أحدا لم يشك فى أن سيد جعفر هو الذى خنقها . وظن الجميع أنها ماتت بعد مرض ، ولم يكن هناك سوى « ماه سلطان » أخت « صغرا » الدعية[1] التى أتهمت جعفر .

وبعد ذلك بشهرين تزوج سيد جعفر برقية سلطان . وكانت رقية سلطان بلاء على روح الطفلين اليتيمين أحمد وربابه ، ولم تأل جهدا فى تعذيبهما وإيذائهما على أية صورة . ولكن الشيء العجيب أنه بدلا من أن يتوسط سيد جعفر لطفليه إذا به على العكس يشترك مع رقية سلطان فى إيذائهما . ولما كان سيد جعفر من هؤلاء الرجال الذين ينجبون مثل هؤلاء الاطفال وهم فى شرخ الشباب لكى يزيدوا من القائلين « لا اله إلا الله » ، وممن يؤمنون بـ « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ، أما وقد أعطاه الله الاطفال ، فلم يلتفت إلى هذا الأمر ، ولكنه حينما رآهما الآن تعجب كيف أن هذين الطفلين له ، وكان كل تفكيره أنهما معا عالة عليه ، فأزاحهما عن تفكيره ، وانفرد بقلب خال بالمنزل مع رقية سلطان ، ومنذ ذلك الوقت وجد سيد

(١) فى النص (خواهر خوانده) وهى الاخت التى ليست من صلب أو رضاعة ــ وتقيمها النسوة فى ايران بعد مراسم معينة .

أحمد وربابه نفسيهما غريبين فى منزل أبيهما ، وأصبح تحمل الحياة عندهما عبئا لا يطاق . ولذلك السبب وجدا فى نفسيهما إئتلافا عن ذى قبل ، ولكى تفصلهما رقية سلطان عن حياتهما ، خصصت لهما الحجرة الرطبة المظلمة التى على خزان المياه ، فأصاب المرض ساق أحمد ، ومع أنهم قد كتبوا له الأحجية مرات عديدة ، إلا أنه لم يتقدم فى طريق الشفاء ، وكان أحمد يذهب نهارا وهو متوكىء على عصاه إلى دكان إسكاف ، بينما كانت ربابة تقوم بكل أعمال المنزل آملة أن تنفرد ليلا بأخيها الذى كان يعدها عزاءه الوحيد . وحينما كان أحمد يعود عند الغروب ، كانت ربابة تنهى ما لديها من عمل على وجه السرعة ، وكانت إذا بكت بكى هو الآخر ، وكانت هى تعامله بالمثل ، وحينما يحين الليل كانا يتناولان عشاءهما فى حجرتهما المظلمة ، ويبسطان الغطاء عليهما ، ثم يقضيان وقتا فى تبادل الشكوى ، فكانت ربابة تتحدث عن الأعمال المنزلية ، وأحمد يتحدث عن عمله فى السوق . أما معظم حديثهما فكان عن موضوع فرارهما ، إذ أنهما صمما على الفرار من منزل أبيها .

وكان ظهيرهما على هذا التفكير هو عباس النكاوى صديق أحمد الذى كان يشتغل معه فى السوق نهارا . وكان ينقل إليه أخبار الحياة الرخيصة مسهلة فى « النكه » . وقد أمسكت هذه الفكرة بتلابيب أحمد حتى تجسدت أمامه صور المنازل الريفية والنساء ذوات السراويل الحمراء والجبال الخضراء ، والعيون الحلوة ، وحياة الرصيف وحياة الشتاء هناك . وقد أصبح مفتونا بأرنكه ، حتى إنه حدث عباس عن خطة فراره إلى « النكه » حيث يعدون لأنفسم حياة حرة هناك .

وكان أحمد يكرر كل ليلة خطة فرارهم لربابة ، وكانت دائما واحدة ، أما ربابة فكانت على وفاق معه ، تثنى على أخيها وتمجد

فكرته والنوم يداعب عينيها ، وقد إرتسمت خيالات مثيرة للدهشة فى مخيلتها الساذجة ، إذ أن السفر الوحيد الذى قامت به كان إلى « سيد ملك خاتون » وكلما جاء ذكر النكه ، تذكرت ربابة ذلك اليوم الذى كانوا فيه فى الحقل ، وقد تركوا قدر الحساء على النار ، كانت أمها حية حينئذ ، وبينما كانت تجرى خلف تاجى إبنة جيرانهم ، سقطت هى على الأرض ، وجرحت جبهتها . كانت تظن أن « النكه » تشبه « سيد ملك خاتون » ، ووعدت أخاها أنها لن تبخل بعمل يديها قط ، وأنها سوف تكون دائما فى عونه فيما يخصها من نفقات . وإعدادا لنفقات الرحلة فإن أحمد إقتصد من أجره اليومى حتى الآن عشر تومان وستة ريالات. ولو إستطاع أن يحصل على ستة تومانات وأربعة أقرنة لاستطاع أن يشترى بقرة وشاتين . ولذهبا حينئذ إلى ديار عباس ، ليقضوا أيامهم فى الزرع والحصاد ، وتحلب ربابة هى الأخرى اللبن ، وتعد الجبن ، وتجفف التوت ، ويعود فى الشتاء أحمد فيعمل فى حانوت الإسكاف أيضا . ويستطيعان – على حد قول عباس – أن يحصل خلال عامين على أرض ودار من عمل أيديهما .

ومر الشتاء والخريف والربيع ، وأحمد يزيد فى إدخاره كلما فكر فى الفرار . وكانت ربابه تخفى كل ما يصل إليها من أشياء صغيرة متنوعة فى صندوقها القديم حتى تحمله معها عند الفرار ، ولم يكن لهما من حديث فى فراشهما كل ليلة إلا حديث « النكه » وخطة الفرار إليها ..

ولكن شيئا آخر قد حدث ، فذات يوم أرسل « مشدى » غلام العلاف الذى يقيم على ناصية الشارع أمه تطلب يد ربابة ، وكان قد رآها من قبل ، فى حين أن سيد جعفر ورقية سلطان كانا يعلمان ذلك

وكانا راضيين عنه ، ولكن هذا الحدث كان له أسوأ الأثر لدى أحمد ، إذ لو لم تكن أخته موجودة لفر منذ عامين ، وقد علمت ربابة أيضا بذلك ولكى تدلل لأحمد على أنها لا تحب مشدى غلام الذى تقدم لخطبتها ، أخذت تبرز حبها له كثيرا بصورة مملة أضجرته ، والشيء الآخر الذى كان يهدد أحمد أن قدمه قد زادت آلامها ولذا كان حزينا ، دائم الصمت .

وفى يوم من أيام الزيارة ذهب سيد جعفر ورقية سلطان إلى مقابر الشاه عبد العظيم ، وقررا أن يبقيا الليل هناك . وكانت ربابة مسرورة جدا لغيبة زوجة أبيها . فزينت نفسها قليلا ، ووضعت على وجهها قليلا من بودرة تبريز المعطرة التى كانت تقدم كهدايا إلى زوجة أبيها . ولكن سيد أحمد عاد إلى المنزل فى تلك الليلة متأخرا على غير عادته . وانعكست زينتها فى فكره بصورة أخرى ، ذلك أن هذا التفكير المؤلم قد عاوده ؛ أن ربابه تعتبر نفسها حرة الآن وزوجة لمشدى غلام ، وأنها وجدت فى ذلك حجة تخدعه بها فانصرفت عن خطة الفرار ، وأنها مادامت قد وجدت لها زوجا فستبقى ، وما إن رأت ربابة أخاها حتى أسرعت إليه قائلة :

– كنت قلقة عليك ، وكان قلبى مشغولا ... لماذا تأخرت الليلة ؟

– كنت مع عباس .

– أخى .. أنهم لن يأتوا الليلة .

– أعلم ذلك .

– ماذا أكلت ؟ إن فمك له رائحة متغيرة ؛ لماذا تبدو عينك هكذا ؟ هل أنت مريض ؟

– لا .. شربت .. أرغمنى عباس على الشراب .

– شربت دواء ؟ !

– وماذا أفعل مع هذه القدم المريضة ؟

– ألم تجلس فى حلقة أبى ؟ ألم تسمع ماذا كان يقول عن الشراب ؟

– هذه وظيفته ، أنت نفسك قلت أنه فى الليلة التى خنق فيها أمنا – بشهادة ماه سلطان – كان مخموراً . وتعلمين أنه يتحدث هذا الحديث من أجل العيش ، أنهم لو إشتروا من المحل المجاور لنا حذاءً جيدا من جلد الجاموس لأفضت فى ذكر عيوبه حتى يشتروا بضاعة محلنا ، أما الكسب والصدق فهما شيئا ، مختلفان .

– ربما أعطاه الطبيب إذنا .

– ولم لا يعطينى الطبيب .. وأنا شاب وأحوالى أسوأ منه ، هو فى الستين ، وقد إستمتع بكل شيء ، وفعل ما طاب له أن يفعله ، وارتكب كل أنواع الحيل ... أتفهمين ، أنه بعد كل ذلك لم يكفه حتى أورثنى الألم الذى فى قدمه ، لو كان الشراب مفيدا لألم القدم فلم لا أشرب ؟ كذب ... كل هذه الأحاديث كذب .

– ألن نذهب إلى النكه ؟

– لم لا أشرب ؟ هذا حالى ... أنا لا أستطيع أن أتحرك ، وإن أية حركة تزيدنى آلاما .. بعد أيام ستذهبين إلى منزل غلام ، وسأبقى هنا ، وستبلغ روحى الحلقوم داخل هذا المنزل ، وحينما أعود عصر كل يوم ، أكون كأنما يدفعوننى على المسير بالعصا ... أريد أن أذهب .. أذهب وأتوه فى الصحراء .. لم لا أشرب ؟

ثم ساد الصمت بينهما دفعة واحدة . وبعدها بدقائق تناولا عشاءهما ثم ذهبا إلى فراشهما على الحوض .

وكانت ربابة منتشية ، فشقت السكون ، وأخذت تقزقز اللب وتغنى .

أريد الذهاب إلى النكه .

ولكن حمارى أعرج القدم .

وجعلت تقهقه ، ولكن أحمد كان غارقا فى التفكير ومتضايقا ، وظن أن ربابة تسخر منه . وقالت ربابة ثانية :

– نحن الليلة وحدنا . وحينما نذهب إلى النكه ، سنكون هكذا دائما معا ، ليست هناك زوجة أب ... أليس كذلك ياأحمد ؟ واكتفى أحمد بأن يجيبها بإبتسامة مغتصبة ، وظنت ربابة أن هذا من تعب قدمه ، فقالت ثانية :

– هل تعلم ، أننى حينما نفر سوف أعتنى بك فى النكه وسوف تعافى قدمك ، ألم تقل ماه سلطان أن هذا من الرطوبة ؟ يجب أن تأكل أطعمة حارة . والآن لا يجب أن تكون قدمك متعبة فى اللحظة الحاسمة . ألا نستطيع أن نذهب .

– لا ... ليس بقدمى عيب ، ولكنك ستتزوجين .

– أقسم بجدى أنى لن أتزوج .. لن أصير زوجة لمشدى غلام أبدا ، سآتى معك . وارتفع ضوء القمر ، وبدت النجوم الصغيرة تتألق فى السماء ، وكانت ربابة تتحدث فى إنطلاق وهى تضحك . وقد أحمرت وجنتاها كالورود . ولم يكن أحمد قد عرف ربابة من قبل على هذه الصورة المثيرة ، فجعل ينظر إليها فى عجب . وسألها بلهجة ساخر :

– ماذا عن مشدى غلام ؟

– فليخلع عنه غاسل الموتى ثيابه ، وليواره القبر .

– لا .. أنت نفسك تريدينه .

– لا .. أقسم غير حانثة أنى لا أحب شخصا سواك .

– أنت تكذبين .

– والله لا أكذب .. حينما تأخذ الطريق فى أى وقت سآتى معك .

– الأسبوع القادم .. لا .. سنذهب بعد غد .

– بهذه القدم ؟ ! !

– ها .. إذن ألا ترين أننى فهمت ؟ ! وكنت قد فهمت أيضا من الأول أنك تهزئين بى . صرت بين يديك أضحوكة .

– هل تظن أننى أكذب .. تعال الآن لنذهب .

– ها ، ولكنك تريدين زوجا هناك أيضا . الرجال فى النكه أقوياء ، شباب ذوو جمال ... أنت تريدين ...

– حقا ... لم أر عباس قط .

فى ذلك الوقت ، كانت وجنتا أحمد موردتين ، وصار يتنفس بصعوبة ، كانت أصابعه ترتعش ، وريقه قد جف ، وواصلت ربابه حديثها ، وهى غير منتبهة إليه .

– أقسم لك بجدى ... إننى لو صرت زوجة لمشدى غلام ، ألا ينبغى أن أقول : نعم،لن أقولها ، ثم أنه عجوز قبيح ، وماه سلطان تقول أن له امرأتين . أنا لا أريده وسآتى معك الآن .. هل النكه بعيدة ؟

– إنها وراء الجبل ، ثم أننا سنذهب على الحمر.

– هذه الجبال الزرقاء التى ستظهر من وراء سطوحنا ، أعرفها ، إن عليها ثلجا ، أنا أعرف كيف أصنع الزبادى المثلج ، ولكن كيف حال

KMH

النساء هناك يا ترى ؟ أجل إنهن من القبائل ، أنا أتذكر أم « ناد على » كانت تأتى أحيانا إلى منزلنا ، ألا تتذكرها ؟ ! حينما كانت أمنا تعيش هى الأخرى ، كانت قروية ، وكانت تتحدث عن بطن الجبل . أخى : قل لى ماالعمل إذا اشترينا البقرة .. إنى لاأعرف كيف أحلبها .

ونظر إليها أحمد دهشا .. بينما إستمرت ربابة تقول :

– لقد لففت حذائى الجديد مع السوار ذى الفصوص الثلاثة الذى تركته لى أمى ، وأنت تصنع الأحذية أيضا فى الشتاء ، أليس كذلك ؟

فهز أحمد رأسه بنعم .

– هل تتزوج أيضا إمرأة قروية ؟

ونظر اليها أحمد بطريقة خاصة ، وأحسست ربابة بتغير حاله ، ولكنها أرادت أن تعانده حتى يتحدث ، فتقلبت ، وأخذت تغنى :

أنا .. أنا البلبل الحيران .
أطير فى السهل والجبل
قتلتنى أمى العاطلة
وأكلنى أبى الجبان
فغسلت عظامى سبع مرات بماء الورد
ودفنتنى تحت شجرة ورد
وصرت أنا البلبل وحيدا
بر بر بر بر بر بر

كانت هذه هى الأغنية التى يغنيانها سويا منذ ثلاث سنوات فى الحجرة التى بجوار خزان المياه ، ولكنها الليلة كانت شيئا آخر فى نظر

أحمد ، فقد جعلته أكثر عصبية ، كأنها كانت تريد أن تفهمه ... إننى سأتزوج ، وسأذهب ، وستكون أنت طريح الأرض ، ونفسد خطة فرارنا .

– الجو جميل الليلة ... أعطنى يدك .

وأخذت يد أحمد ووضعتها على رقبتها . وتحركت الحياة فى أصابع أحمد الميتة وكأنها حية أتت بجوار النار . وأخذت ترتعش ، وحينئذ إسود ما أمام ناظريه ، وأخذ يتنفس بسرعة ، وسخن فؤاده ، فرفع يده اليمنى بلا ارادة ، وأمسك رقبة ربابة بإحكام وقالت ربابة :

– إنى خائفة ... لا تنظر إلى هكذا .

وحكت جفنيها معا ، وأخذت تقول بصوت هامس :

– أوه ... العينان ... صرت على شاكلة أبى ! !

ولكن بقية الحديث ماتت فى فمها ، إذ أن يد أحمد تحركت بسرعة ، وبخفة خاصة وأمسكت بضفائر ربابة المستعارة ، ولفتها حول رقبتها ، ثم ضغط عليها بقوة ، فصاحت ربابة ، ولكن أحمد كان قد أمسك بحلقها وأخذ يضرب رأسها فى حافة الحوض ، وخرجت رغوة دامية من فمها ، ثم سقطت على ركبتيها بلا حس .

ونهض أحمد ، وسار عدة خطوات بغير عصا . ثم سقط ثانية على الأرض ، فإرتطم بالحوض ، وذهبت كل قواه بددا .

وفى الصباح إكتشفت جثتاهما فى الفناء المجاور للحوض .

(٤)

ظـــل المغــول

« يازرادشت الطاهر ، إن انتهاء الف سنة على مجيئك سيكون علامة وبداية اسوأ الحقب ، بأن يعم ايران من الشرق ، مائة نوع ، الف نوع ، عشرة آلاف نوع من الشياطين ، مشعثى الشعور ، مخلوقين من الغضب . سوف يحرقون كل شيء ويبيدونه ، الوطن ، الاملاك ، الرجولة والمروءة ، الكتاب الكبار ، الدين ، الصدق ، الراحة ، كل مالا له الخير سوف يداس بالأقدام ثم يحكمون إذ ذاك بالظلم والتفرقة »

يشت بهمن ٢ – ٢٤

« ستستمر قوة الروم والترك مادام هناك مجد الايرانيين »

مينو خرد ٢١ – ٢٥

كان شاهرخ يسير بخطوات ثقيلة وقد تصبب عرقا . وأخذ يمر بصعوبة من بين الأغصان المتشابكة للأشجار العتيقة . كان شعره مشعثا قذر التهدل على كتفه ، أما عيناه المضطربتان الواسعتان فكانتا تومضان ببريق المرض . وخدشت أغصان الشجر جبهته العريضة البيضاء ، كان قد وضع يده اليسرى على ساعده الايمن حتى لا يصطدم بمانع ، وكان ساعده الايمن قد جرح ، وجرت منه الدماء ، وتمزق قميصه . وعندما رأى عين ماء صغيرة فى هذا المكان ، زال تقطيب جبينه ، فاقترب فى حذر ، وجلس بجوار جذع ضخم لشجرة بلوط برية ، وكان بالجذع حفر ترى من خلال فروع الشجرة المتفرقة ، ونظر حوله وبدا له أنه أول من يرد إلى هذا المكان ، فقد كانت النباتات البرية كثيفة لم تشذب . لدرجة أنها كانت تغطى الطريق فلا يمكن لانسان أو حيوان أن يسلكه أو يفكر فى المجىء اليه . هل هو وسط الغابة أو بالقرب من العمران ؟ ! وهل كان الوقت صباحا أو عند الغروب ؟ لم يكن يعرف ذلك ، ولكنه كان يعلم أن الليل لم يأت بعد . وأنه لم يصل إلى العمران .

وبدا لشاهرخ أن الغابة مخيفة وممتعة ، وقد أثار انتباهه النباتات الفطرية الخضراء والطحالب التى علت جذوع الاشجار ، أما الأوراق الجافة فقد تساقطت وشيئا فشيئا تحولت إلى أتربة وإختلطت بالأرض السوداء ، فنبتت من ذلك الحشائش البرية بينها وعلى أسافلها . وإنتشرت رائحة السراديب المظلمة فى الجو ، وتحللت الأوراق الداكنة . وخبأت بينها الحشرات السوداء والسمراء ، وكان البعوض الكبير ذو الأرجل الطويلة ، والوسط الرفيع ، والأجنحة الشفافة يطير إلى أعلى ، ويدور فى ضوء الشمس ، وإمتلأت الحفرة التى بأسفل العين بالطين الاسود والأوراق المتكدسة ، وبين الحين والآخر كان الحباب اللامع يطفو على وجه الماء ثم ينفجر ، ولكن ماء العين نفسه ، ذلك الماء الرفيع الذى كان يمور تحت الصخر فكان يخرج مضيئا لامعا .

وانحنى شاهرخ فوضع يده اليسرى فى ماء العين ، وداعب ببشرته الماء المارد فأنعشه ، وسرى إحساسه به فى كل جسده مسرى الكهرباء ، وكأن كل آلامه طردت بعيدا عن جسمه . منذ خمسة أيام وشاهرخ يتسكع فى غابة « هزاربى » حائرا ، هائما على وجهه عاجزا شريدا مصابا بجرح فى ساعده . أكان يبحث عن طريق للهرب أم أنه كان يريد أن يصل إلى العمران ؟ لا ... مطلقاً .. أى عمران ؟ ! فقد أتى المغول ، ولم يبقوا عمرانا ، أنه أيضا سوف ينتهى فى الغابة مثل آلاف الاشخاص الآخرين ، إن الحياة بالنسبة له قد إنتهت ، لقد ظل حيا ليأخذ بثأره ، والآن وقد بلغ أمله ؛ من يدرى ربما كان بعض قطاع الطرق خارج الغابة يترصدونه ! ! ولكن أية أهمية لأن يموت أو تأكله الحيات والنمال أو أن يشم نمر جيفته ويمر بلا إعتناء ؟ أو أن يمزق النحل قلبه إلى قطع صغيرة ، أنه لن يحس بعدئذ ، ولن يحب أحدا مرة

ثانية ، وهل قلبه أحسن من قلب « كلشاد » ؟ وهل دمه أغلى من دمها ؟ وأية أهمية لو مزقه ببر ؟ إن هذا أحسن بكثير من أن يقع فى أيدى المغول ، أحسن كثيرا من أن يرى ثانية تلك الوجوه التى تمزق أديم بشرتها ، هذه الحيوانات السفاكة ، ويسمع عواءها وزئيرها الذى لا يفهم . ذلك خير من أن يرى أعداءه الألداء وقتلة خطيبته . لقد كان يجن جنونه من هذا التفكير الذى يمر من أمام عينيه ولا يستطيع أن يبعده عن نفسه ، لم يزل يرن فى سمعه صياح خطيبته الذى يفتت الكبد . حينما وصل ودخل فى إطار الباب رأى كلشاد عارية كما ولدتها أمها ، وقد أمسكها ذلك المغول فى أحضانه ، كانت تقاوم بيديها وقدميها وتحد ساعديها وتصيح « شاهرخ .. أين أنت .. أغثنى » ، ذلك الرجل ذو الأعين البراقة الجاحظة ، والوجه المعوج ، والخدود البارزة والأنف الأفطس التى كما لو سويت بمطرقة ، والضفائر المفتولة كأنها ذيل ثور قد تدلت من مؤخرة رأسه ، أية ضحكة مخيفة أطلقها ذلك الرجل ، ولكنه حينما جرد سيفه وحمل كالمجنون لم يكن يدرى أين كان يختبىء ذلك الرجل الآخر ، أكان رفيقه أو أخاه ، فقد كانا ذوى شكل واحد ، أخذ بيده وما تحرك حتى قيداها وراء ظهره بحبل ، وسدوا فمه بكرة من القماش ، وأثناء ضحكته المتعالية ، ألقى الرجل ذو العينين القبيحتين بكلشاد ، وبطح جسدها المعذب على البلاط ، وأخرج سيفه وغمسه فى عينها !

أوه ... أية صرخة مهيبة أطلقتها ! ! لقد إرتجت الحجرة ، إنه رأى بعينيه كيف قطعوا أذنها وأنفها ، وخرج الدم كالنافورة ثم أعملوا السيف فى بطنها .

وبدا له أن الدنيا قد أظلمت أمام عينيه ، وأخذ يحك جفنيه ، ولكنه كان يسمع ضحكة المغول الوقحة ، وصوت إندفاع الدم ،

والإناث المخنوقة ، وإنتفاضات يدى كلشاد وقدميها فى الدماء ، وحينما فتح عينيه ثانية ، رأى الرجل المغولى الذى لا حياء عنده . ذا الشارب المدلى والأعين المشوهة يضحك ، وكان واضحا أنه يتلذذ وأنه ثمل من منظر الدماء ، وكان شاهرخ يحاول أن يتحرك وأن يقاوم ، ولكنه كان كمن وقع تحت كابوس ثقيل ، فقد كان الجو مظلماً ، وكان دخان أسود كثيف يدخل من شباك الحجرة ، وكانت ألسنة النيران تتصاعد كأنها الحديد المذاب وترى من المنزل المجاور بطريقة مخيفة ، أما الرجل المغولى ورفيقه فقد جرا ما جمعوه من البيت بأيد دامية ووجوه دامية كانت تلمع فى ضوء النيران الدموى حتى أوصلوها إلى النافذة . وحمل عليه أحدهما بسيفه ، وليته قتله ، ليته مات مع خطيبته ، ولكن لا .. أنه لم يكن قد نال ثأره بعد ، لم يكن خنجره قد تلوث بدماء المغول القذر ففى أثناء ذلك ، إرتفع صوت ضجيج ، وكسر باب الحجرة ، أسرع المغولى الذى حمل عليه إلى النافذة ، وألقى مع رفيقه الاسلاب إلى أسفل ، وقد رأى ظلهما القبيح المهيب بالقرب من النار ، ظلهما الثقيل الذى كان يشبه شيطان التنور ، ثم قفزا من النافذة إلى أسفل وإختفيا وسط الدخان والنيران .

ودخل أربعة رجال مسلحون بالسيوف من الباب المكسور ، وعرف من بينهم « أنوشه » إبن خالته وبشوتن صديقه الأخير ، وأسرعا ففكا قيده .

وكان أول ما فعله أن خلع ملابسه ووضعها على الجثة العارية المقطعة ، جثة كلشاد ، وكانت غارقة فى الدماء ، الدماء الساخنة اللزجة التى كانت تخرج من شرايينها ، أما لحم جسدها المقصب المتقطع فكان يرتعد وينفصل جزءا جزءا ، ويقفز .. لكنه لم يكن يستطيع أن يعاود النظر إليها .

ومن نافذة الحجرة كان ثمة دخان كثيف يرتفع فى الجو . وغطى التراب والدخان هواء الحجرة ، وإنطلقت ألسنة النيران ، وسمع صوت إنهيار السقف ، وتلاه أصوات الصراخ والعويل ، وألقى بشوتن بوجه تأثر معروق نظره إلى كلشاد ، ورماه بنظرة لائمة ، وهو يقول من بين أسنانه .

- كنت هنا ... وإستطعت !

كانت كلشاد أخت بشوتن ، لكنه أحنى رأسه بعد ذلك وكأنه فهم ألمه وعذابه ، فسكت وأخذ يجفف العرق من على جبهته . وفى نفس المكان وأمام الضجيج والصياح والنار والدم ، أقسم شاهرخ أمام جسد كلشاد والممزق ودمها الحار لينتقمن لها وليأخذن بثأرها من أعداء وطنه ، من هؤلاء الأبالسة سلائل الوحوش والأبالسة الذين لا مقصد لهم إلا التعذيب والسلب والقتل والحرف . ومنذ نفس اليوم جرد نفسه للإنتقام وكان لهذه الرغبة للإنتقام تأثيرا سحريا عليه إذ ولدت فى نفسه حس الحياة ، أراد أن يعيش من ذلك الوقت ، أراد أن يقتل المغول .

وجمع شاهرخ حوله ستة من الفرسان ، ونصب نفسه قائدا عليهم . وفى ذلك اليوم كانوا قد ربطوا خيولهم داخل الغابة فى الأشجار وجلسوا على رأس كمين . وعلموا أن قائدهم يخرج كل يوم مع عشرة فرسان من خيمته اللبدية السوداء ليتفقد المدينة ، وكانوا جميعا على شاكلة واحدة وعلى نسق واحد قد لفوا حول أجسادهم جلود الكلاب أو الدببة ، وربطوها بسيور جلدية قذرة الرائحة ، ولكن علامة قائدهم كانت منديلا أحمر يعلو كتفه .

وحينما سمعوا صوت حوافر الخيل من بعيد أخذوا يراقبون من تحت

الأشجار والسيوف فى أيديهم . ودق قلب شاهرخ من قوة الخوف والفرح ، ووضع إصبعه فى فمه ثم صفر ، فإعتلى الفرسان الستة خيولهم ، ثم هجموا والسيوف مشرعة فى أيديهم ، فوقع فارسان مغوليان على الأرض وأحاط بهم الفرسان الثمانية الآخرون ، وكانت صفائح السيوف تلمع فى الشمس ، وإرتفع الغبار والتراب فى الجو تعالت الصيحات وتوالت الزفرات . ورأى شاهرخ المنديل الأحمر على كتف أحدهم فحمل عليه ، وفى اللحظة الأولى وقع السيفان من يديهما ، وأحس بسرعة أن مغوليا آخر ضرب ساعده الأيمن من الخلف ، وفى ذلك الوقت أخرج خنجره بيده اليمنى من غلافه ، وطعن المغولى فى بطنه ، فزام كإبن آوى ، وأطلق صرخة وحشية ، ووقع والمنديل الاحمر عن وجهه من فوق الحصان .

كل هذه الوقائع كان يراها وكأنها حدثت منذ ساعة ، وأحس بها ، ولكن بعد أن سقط المغولى على الأرض ، قفز وشرد جواده حاملا إياه ، وأسرع خلفه شخصان وهما يصيحان ولم يدر ماذا حدث بعد ذلك .

وحينما فتح عينيه رأى أنه قد سقط فى الغابة على أغصان الأشجار الملتفة حول وسطه . وكان الدم يسيل من يده على الأرض أسود كثيفا إجتمعت حوله النمال ، ولا يزال يقطر من ساعده ، وكان جسده خاليا من الإحساس وبرأسه دوار ، فمزق طرف جلبابه وأمسك بطرفه الآخر بأسنانه بصعوبة ، وربط بيده اليسرى جرح اليد الأخرى ثم عقده ، وكان يؤلمه حتى كاد يغمى عليه مرة أخرى ، وكانت جبهته ملتهبة . وتذكر فى ذلك الوقت صراعه مع المغول فابتسم إبتسامة الظفر إذ إستطاع أن يأخذ بثأره ، ترى هل أسلم

أصدقاؤه الستة أرواحهم ، هل قتلوا المغول ؟ أم قتلتهم هذه الحيوانات المخيفة المهولة ، ما الذى جرى لبشوتن وأنوشه ؟

ولكن أية أهمية لذلك بعد أن مزقوا كلشاد إربا أمامه وإحترق جسدها المعذب .

ولكن مع وجود كل هذا فقد ثأر لنفسه وإسترد شرفه بقدر ما إستطاع ، وقتل من هؤلاء الغرباء الأجانب الذين جاءوا للسرقة والمذابح من قتل ، وكان مرفوع الرأس أمام ضميره .

ومرت خمسة أيام حتى اليوم وهو بين المستنقعات والأشجار العتيقة مجروح الساعد يجرجر نفسه من هنا إلى هناك كالمجنون وسط الغابة . وفى الليل حينما يهجم الظلام دفعة واحدة على الغابة ، كان يلجأ خائفا مرتاعا إلى داخل جذع شجرة أو إلى بعض الأغصان ولكن النوم لم يكن ليلم به ، وكان فى هول وخوف من صياح الحيوانات ، ومن صوت الفهد وحفيف الأشجار . وأخذ جرح يده يلتهب ويوخزه ، وحتى لو لم يكن كذلك فقد كان يحك مكان لسع الذباب الكبير ويلهبه ، وأحيانا فى بعض الأيام كان يجلس كما هو جالس الآن فيخطفه النوم . واليوم حينما وصل هذا المكان سقط على قدميه من شدة العجز .

كانت الغابة عميقة موحشة ، تحيط بها الحوائط المكسورة بالنبات الأخضر والأعشاب من كل مكان ، وتظللها الأوراق العريضة والرفيعة المختلفة الألوان ، فمنها الأخضر الفاتح ، والأخضر القاتم والأرجوانى ، وبعضها كان يحمل أزهارا جميلة بينما كانت الأغصان الرفيعة تنوء بما تحمله من بذور الأزهار البرية . كان يصل إلى سمعه تغريد الطيور ، وأصوات الحيوانات ، وأناتها التى تفتت الأكباد ،

ولكنها حينما يشتد الحر ، كانت تصمت جميعها دفعة واحدة ، وكان ثمة جزء من السماء الزرقاء يبدو من خلال الأوراق صافيا مضيئا حتى كان سناه يؤلم الابصار ، وأحس شاهرخ بنفسه ضعيفة ، مسكينة ، صغيرة فى مواجهة الطبيعة ، هذه الطبيعة الفتانة الماكرة ، التى تحيط به من كل جانب ، والمليئة بالفخاخ وضروب العذاب . وحدثته نفسه بأن ينتهى حياته بالانتحار .

وسل خنجره من غمده ، وكان إسمه منقوشا على نصله بخط بهلوى . وتذكر أباه بوجهه الشاحب ، ولحيته السمراء ، وكان راقدا على فراشه وعلى رأسه شمعتان تحترقان على منضدة . وكان هو وأخوه يبكيان إلى جواره . وأخذ ينظر إليهما مندهشا ، ثم نهض بنصف جسده بعد مجهود غير عادى ... وقال : « لماذا تبكيان ؟ البكاء للنساء ، واأسفا ! إنى أموت على فراش ، فقد كانت أمنيتى الوحيدة أن أموت فى سبيل الدفاع عن وطنى ، ولكن عين الأمل فى المستقبل ممدودة اليكما ، لقد كان أجدادنا يكافحون من أجل حريتهم بدماء قلوبهم ، وأملى الوحيد هو أن لا تتركوا ما دامت الروح تنبض فيكم ، ومادمتم أحياء أرض إيران تقع فى يد غريب أعبدوا تراب إيران » وبعد ذلك توجه إليه وقال : فك هذا الخنجر من وسطى وإحتفظ به تذكارا . نعم ، نفس هذا الخنجر الذى كان فى منطقته منذ سنوات والذى أخذ به ثأره . وهز رأسه وأراد أن يمزق النسيجة التى على جرحه بسن الخنجر ، ولكنه حينما حركها ، أحس بعذاب أى عذاب للروح ! ! أى لهيب يمزق القلب ، ولأنه لم يستطع مقاومته تغاضى عن غسلها ، ثم غسل يده اليسرى فى الماء ، وغسل وجهه بغرفة ، وشرب غرفة أخرى .

ومد يده فأخرج من جيبه قبضة من ثمار الغابة ، وكان يعرفها من قبل ، لقد أتى له بها ذات يوم خادمهم العجوز اسفنديار الذى كان يحمله هو وأخاه الصغير للنزهة ، وكان يتحدث إليهم دائما عن رحلاته وأخبار الأوائل . لقد أحضر له تلك الفاكهة التى تشبه الخوخ الوحشى اللذيذة الطعم ذات الرائحة الخبيثة ، وكان إسمها البشملا ، وتلك الحمراء الحريفة الطعم كانوا يسمونها « اللوليك » ، ولكن أمه حينما رأت هذه الفاكهة فى أيديهما أخذتها وقامت « إنها ليست طعاما ، إنها توجع بطونكم » ، وضربت على يد أخيه الذى أخرجها مرتين من المجرى المائى وأخذ يقضمها . ولكنه عاش عليها منذ خمسة أيام ولم يصب بألم فى بطنه .

ومد يده فوضع جانب منها فى فمه ، وأخذ يمضغها وقد قطب حاجبيه ، وأخرجها ثانية وقد أحس بفقد شهيته . وأخذت رأسه تدور . وكانت جبهته ساخنة ، والتهب الجرح الذى فى ساعده ، فوضع خنجره فى غمده ، وترك قدميه فى ماء العين ، وأخذ يحك بيده اليسرى مكان لسع البعوض . ولو أنه نظر إلى وجهه فى صفحة الماء لارتاع من نفسه ، ومن وجهه الشاحب ، ولحيته القصيرة غير المشذبة ، والشعر المتدلى على وجهه ، وعينيه المضطربتين اللتين ذهب وميضهما ، وبدا لهما بريق مخيف ، كان شريدا ، ضائعا إلى درجة أنه لم يفكر فى وضعه ولا فى نفسه ، وأخذ ينظر دهشا حوله فرأى جيفة طائر مبعثرة تحت شجرة ، وكانت أجنحته الملونة المزخرفة منفصلة عن بعضها تتموج عليها القوارض والنمال وتمزق أجزاءها بقوارضها الصغيرة بإشتهاء تام .. وأمامه وخلفه كانت الغابة مغطاة بالحوائط المخيفة ، وكانت النباتات المستقلة الفطرية التى نبتت على أغصان

الأشجار تلصق شفاهها الماصة القوية بالسيقان الغضة ، وتمتص لبانة الأشجار ببطء وتلذذ .

وقد ساد صمت ثقيل لعدة دقائق . واشتدت حرارة الجو ، وأخذ ساعده يلتهب ، وتبلل جسده بالعرق وأخذت رأسه تؤلمه ، وكان متعبا إلى حد لا يطاق ، وألقى نظرة ثانية إلى ما حوله وهز رأسه ، وطفق يسب الشيطان بلهجة شديدة ... وأخذ يلعن الطبيعة كلها ، هذه الطبيعة الماكرة الخبيثة التى أوجدت كل هذا البلاء .. كل هذه الأمراض ، الطاعون .. الجذام .. المغول .

وفى ضوء الشمس ، على نقاء العين كانت الحشرات المختلفة .. البعوض الصغيرة والكبيرة يطير جنبا إلى جنب ، وكأنها كانت تقيم إحتفالا لوليمة حديثة الوصول إليهم . كان لأجنحتها أزيز مسموع . أما الأرض فكانت رطبة وكانت الأعشاب البرية والورود المؤقتة التى لا رائحة لها تغطيها .

ونهض شاهرخ وأخذ يجر نفسه حتى وصل إلى جذع شجرة وبحث حول أطرافها بحذر ، وفى جذعها المجوف كان شخص يستطيع أن يجلس بسهولة ، وكان تجويفها ممتلئا بأوراق الأشجار الجافة ، فحمل غصن شجرة جافا ، وأخذ يضرب الأوراق ببعضها ، وفصل عنها الشوك والحشائش ، واصطدمت رأس العصا ببعض التراب المتجمد الذى كونه السيل ، أو تجمع بالتدريج فى هذا المكان ، فأسرعت بضعة من السوس البنى البراق تخرج خوفا على حياتها ، وحينما نظف المكان جيدا جلس فيه ، وحول أطراف الشجرة نبتت أشجار الفطر الطفيلية كأنها مظلات ناعمة سمراء اللون .

لقد كان ملجأ حسنا إذ أن ساعده كان يؤلمه جدا ولا يستطيع أن

يجد مكانا خيرا منه ، ولكن الشيء الذى أثاره عجبه أن خوفه قد إنتهى كلية ، فأصبح لا يخاف من فهد أو نمر ، بل على العكس يشتهى قدومها حتى يستريح من ألمه ومن تعبه . كانت بنيته ضعيفة ولكن تفكيره كان قويا . ونظر إلى مظللته التى أعطته بفروعها الملتوية ملجأ بين أغصانها بلطف وحنان ، وربما لم تمر دقيقة حتى أحس أنه يعيش مع أم الطبيعة ، وأخذ يتنفس الهواء الرطب الذى يأتى من بين غصون الأشجار بلذة وراحة .

واستند شاهرخ بجسده الميت إلى جدار الشجرة ، وغمر العرق البارد جسده من رأسه إلى قدميه ، وأخذ ينظر بعين جامدة حوله ، وأحس قليلا قليلا أن دمه يتحجر ويتجمد فى شرايينه . واسترخت أجفانه إلى أسفل ، وأخذت كرات حمراء وبنفسجية تدور أمام عينيه وترقص وتختفى لحظة ثم تعود ثانية إلى الظهور وانعكاساتها ترتسم على أعصاب عينيه بطريقة مذهلة .

ورفع يده اليسرى ببطء ووضعها أمام عينيه ، وأظلمت أفكاره ونسى ألمه للحظة ، وتذكر ذلك اليوم الذى كان الجو مثقلا فيه بالسحب ، وكان يسير مع كلشاد وبجوار حقل أرز ، كانت كلشاد تنفخ فى ساق نبات أخضر ، وتضحك من الصوت المضحك الذى يأتى منه ، وتجسدت أمام عينيه عيناها البراقتان وحاجباها المقوسان ووجنتاها الحمراوان ، وقوامها الملفوف الرشيق ، الذى كان يظهر أحيانا من خلف ردائها الحريرى . وبعد ذلك أخذ يدها وعاد إلى جوار النهر ، وهنا تماما أرعدت السماء ، ونزل المطر غدقا ، وكان الضباب قد ربض على الجو وقطرات المطر تصافح وجه الماء فتنشره فى دائرة إلى ناحية البر ، وكانت كلشاد تخاف الرعد ، فالصقت نفسها به ، ولجأ إلى كوخ من القش ذى سقف واه ، وفى هذا المكان أخذ

كل منهما ينظر إلى عين الآخر ، ولم تكن هناك حاجة إلى الحديث ، إذ كان كل شيء واضحا فى أعينهما وصوتهما المرتعش ، فى ذلك الوقت تعانقا لأول مرة ، وأحس بشفتى كلشـاد النارية على وجهه ، وحينما إنتهى المطر أوصلها إلى منزلها ، وأسرعت أمها إليها بوجه مكشوف وشعر أسمر وابتسامة ذابلة ، إذ كانت قلقة لتأخير إبنتها .

لم تمح هذه الأفكار من خاطره بعد ، حينما رأى الرجل المغولى بضحكته المخيفة مجردا سلاحه والجسد المعذب مطروحا على الأرض ، جسد كلشاد الغارق فى دمها والمتقطع إربا إربا ، فارتجف ، ولكنه يرى الدخان داخل الحجرة والنار والغبار والتراب ، فى نفس الوقت الذى قفز فيه المغولى بظله الشيطانى من نافذة الحجرة ، وأختفى بطريقة عجيبة .

وسقطت يده اليسرى إلى أسفل واصطدمت بمقبض خنجره فأمسكه بلا إرادة لكن بإحكام ، وارتسمت إبتسامة مؤلمة على شفتيه ... بنفس هذا الخنجر الذى قتل به الشيطان الأجنبى ذا العين الجاحظة الوحشية ... بنفس هذا الخنجر الذى أعطاه له أبوه يوم وفاته . واهتز إهتزازة شديدة فجأة ، وأراد أن يخرج رأسه ، ولكنه ظل فى بطن الشجرة . وأغلق عينيه فى إبتسامة سعيدة .

وفى ربيع السنة التالية .

كان شخصان من مازنداران يحملان الفؤوس على أكتافهم ويمران من الغابة ، وكلما سدت شجرة عليهما الطريق ، كان الأشب منهما يضرب الأغصان ثم يمران ، ووصلا إلى النبع وكلاهما متعب مكدود . وتهيأ للجلوس ، ولكن وجه العجوز شحب ، وضرب زميله برفق ، وأراه جذع شجرة البلوط . وقال :

أنظر ... هذا ... هنا .

وفى جذع الشجرة ، كان هناك هيكل عظمى تام التكوين لرجل جالس ، وكانت رأسه التى منعتها أطراف الجذع من السقوط تتألق بضحكة مخيفة .

فاقتربا خائفين مرتجفين ، وكان هناك خنجر عاجى المقبض قد سقط بين قدميه فقال العجوز :

– ليرحمه الله .

وانحنى وسحب الخنجر برأس الفأس وحمله وكأنما كان يخاف أن يمسك الميت بمعصم يده . ثم جذب يد رفيقه وعادا من نفس الطريق الذى جاءا منه بخطوات واسعة .

وبينما كان يسيران بين الأغصان عادا ونظرا ثانية ولكن طاسة الرأس كانت تضحك من خلال جذع الشجرة بأسنان لامعة تعلوها الرمال .

فأخذ العجوز الشاب من يده وقال :

– فلنسر فى الطريق .. لنسر ... هذا ظل مغولى .

(٥)

حـى فـى مقبــرة

من مذكرات رجل مجنون

KMH

سقطت فى الفراش مشلولا بلا ارادة ، وكأنى كنت ألتقط أنفاسى ببطء ومن ثقب ابرة محقن ، والدموع تقطر من عينى ، وفمى ذو طعم مر ، وبرأسى دوار مؤلم ، وتعالى خفقان قلبى ... ورائحة العرق والحمى تنبعث من الفراش ... وأخذت أنظر إلى الساعة التى على المنضدة الصغيرة بجوار الفراش فإذا بها العاشرة من صباح يوم الأحد ... ثم نظرت إلى سقف الحجرة وقد تدلى منه مصباح كهربائى .. وأخذت أدور ببصرى فى الحجرة .. وكانت الأوراق الملصقة على الحائط ذات ورود حمراء وباقات أخرى حمراء باهتة ، وبينها كان هناك طائران اسودان يقفان على غصن وجها لوجه ، وكان أحدهما يفتح منقاره كأنه يقول للآخر كلاما . كانت هذه الصور تخرجنى عن طورى ، ولا أدرى لماذا أجدها أمامى مهما تقلبت إلى أية ناحية ، وكانت المنضدة التى فى وسط الحجرة مكتظة بزجاجات الأدوية والفتائل ، وروائح الكحول المحرقة .... ورائحة حجرة مريض تنتشر فى الهواء ، وحاولت أن أقوم وأفتح النافذة ، ولكن تيارا من

الكسل كان يسمرنى فى الفراش ، أريد أن أشعل لفافة تبغ ولكنى لا أجد فى نفسى ميلا لها ... لم تمضى عشر دقائق منذ حلقت لحيتى التى كانت قد طالت ، وأتيت فارتميت على الفراش ، وجدت نفسى مهدما نحيفا فى المرآة التى نظرت فيها ... كنت أتحرك بصعوبة فى الحجرة المبعثرة وأنا وحيد فيها .

دار برأسى نوع من الأفكار المثيرة للدهشة ، وكنت أراها ، ولكن من أجل أن أكتب أتفه احساس وأقل خيال من الماضى يجب أن أشرح حياتى برمتها ... وليس هذا من الممكن ، إن هذه الأفكار والاحساسات نتيجة لأدوار حياتى كلها ، نتيجة لنسق من حياة الأفكار الموروثة ... ما قد رأيته وسمعته وقرأته وأحسست به ، وقيمته ، كل هذه الأشياء خلقت وجودى الغامض السخيف المعقد .

اخذت اتحرك فى فراشى ، وأعود بذاكرتى وخواطرى ، وكانت الأفكار المبعثرة غير المعقولة تلح على ، وجعلت مؤخرة رأسى تؤلمنى وتوخزنى ، واشتدت حرارة فودى فتكورت على نفسى ، ووضعت الغطاء على عينى ، وكم تمنيت أن لو استطعت أن أفتح جمجمتى وأخرج هذه الكتل الدقيقة السوداء اللينة من ثناياها ، ألقى بها بعيدا بعيدا ... إلى الكلاب !

لا يستطيع أحد أن يفهم ولا يصدق . إنهم يقولون للمرء الذى يعجز عن كل شيء : اذهب وضع عنك رأسك .. ومت ! يقولون ذلك حينما لا يريد الانسان أن يموت ، أو حين يكون الموت هو الذى يعطف على الانسان ، ويريد أن يساعده الموت بالمجيء ..

الجميع يخشون الموت ، ولكنى أخشى من حياتى

كم يكون مخيفا حينما لا يريد الموت إنسانا ويدفعه عنه ... ولكن الشيء الوحيد الذى يسليني أنني منذ اسبوع قرأت في الجريدة أن شخصا في النمسا حاول الانتحار ثلاث عشرة مرة ... وجرب جميع وسائله ... شنق نفسه فقطع الحبل ... ألقى بنفسه في النهر فأخرجوه من الماء ... إلى آخره ، وأخيرا حينما وجد نفسه وحيدا في المنزل قطع كل عروقه وشرايينه بسكين المطبخ ، كانت هذه هي المرة الثالثة عشرة والتي مات فيها .

إن هذا يبعث السلوان في نفسى

ليس هناك شخص يكتسب التصميم على الانتحار ، إن الانتحار موجود عند البعض ، في أصلهم وفي طبيعتهم ، لا يستطيعون الهرب من براثنه ، إن القدر الذى يحكم ، وفي نفس الوقت أنا الذى أعددت مصيرى ، ولا أستطيع الآن الهروب منه . لا أستطيع الهروب من نفسى !

أجل ما الذى يمكن عمله ؟ إن المصير أقوى منى

أية أهواء أخذت تضرب في رأسي . أردت من كل قلبي أن أكون طفلا ، « وكلين باجى » مربيتي العجوز كانت تجلس على رأسي وأنا راقد في الفراش ، فتقص على قصة وهى تبتلع لعابها ، حتى تغلق عيناى ببطء ، ويأخذني النوم . أخذت أفكر ورأيت أنني أتذكر بعض أجزاء حياتي الطفولية جيدا وكأنها حدثت بالأمس ... أرى أنه ليس ثمة فاصل بيني وبين طفولتي إلى هذا القدر ... والآن أرى كل حياتي السوداء الوضيعة التي لا نفع فيها . هل كنت سعيدا في ذلك الوقت ؟ لا ... أى خطأ كبير يقع الناس فيه ، إنهم يتصورون أن الطفل سعيد . لا ... إني أتذكر أنني كنت حساسا أكثر في ذلك الوقت ؟

لا ... أى خطأ كبير يقع الناس فيه ، إنهم يتصورون أن الطفل سعيد . لا ... إنى أتذكر أننى كنت حساسا أكثر فى ذلك الوقت ، وكنت حينذاك مقلدا وماكرا أيضا ، وربما كنت ألهو وأضحك أيضا فى الظاهر . ولكن فى الباطن كنت لأقل عثرة لسان أو أتفه حادث عابر لا نفع فيه أشغل تفكيرى لساعات طويلة . كنت آكل نفسى بنفسى ، فليأخذ هذا الطبع الذى فى مغسل الموتى .. والحق بجانب هؤلاء الذين يقولون أن الجنة والنار داخل المرء ... وإن بعض الناس يأتون إلى هذه الدنيا سعداء والبعض الآخر أشقياء .

أخذت أنظر إلى نصف القلم ذى المداد الاحمر الذى كان فى يدى والذى كنت أكتب به مذكراتى وأنا فى الفراش . بنفس هذا المداد كتبت موضع لقائى لتلك الفتاة التى كنت قد تعرفت عليها أخيرا ... والتى ذهبت معها مرتين أو ثلاث إلى السينما .. فى آخر مرة كان فيلما إستعراضيا غنائيا ... وفى جزء من البرنامج كان مطرب شيكاجو الشهير يغنى Where is my Silvia ، ومن شدة إنتشائى أغمضت عينى وأرهفت السمع . وما زال صوته القوى الجذاب يرن فى أذنى ، وأخذت قاعة العرض تهتز ... وبدا لى أنه لا يجب أن يموت مطلقا . ولم أستطع أن أصدق أن هذا الصوت قد يصمت فى يوم من الأيام ... وكنت قد حزنت من غنائه الجميل فى الوقت الذى تلذذت به ، كانت نغماته وتموجاته تجعلنى أتخيل أنهم أتوا بقوس الكمان وأخذوا يداعبون به عروقى وشرايينى ، وأن جميع أوصالى إندمجت مع النغم ، فأخذت ترتعش وتذهب بى إلى رحلات خيالية . وفى الظلام مررت يدى على صدر الفتاة ، فأصبحت عيناها مخمورتين ، وأصبحت أنا أيضا فى حالة غريبة ، وفيما أذكر كانت حالة حزن وهناء ... لا يستطاع تفسيرها ، وطفقت أقبل شفتيها النضرتين وتوردت وجنتاها وأخذ كل

منا يلصق نفسه بالآخر .. ولم أفهم موضوع الفيلم ، وأخذت أداعب يديها وقد ألصقت نفسها هى الاخرى بى ... وهذه الحالة أصبحت بالنسبة لى كأنها حلم ...

ولقد مرت تسعة أيام منذ أفترقنا لآخر مرة حتى الآن ، وفى آخر لقاء قررت أن أذهب غداته إليها ، وأحضرها معى هنا ... إلى حجرتى ، وكان منزلها بالقرب من مقبرة منبارناس ، وفى الموعد ذهبت لأحضرها ، وفى جانب الشارع نزلت من عربة قطار يسير فى نفق ... وكانت الريح تهب باردة ، أما الجو فكانت مثقلا بالسحب ... ولا أدرى ماذا حدث ... إذ ندمت .. لأنها أتت فعلا قبيحا ، ولا لأنى لم أسر منها ... ولكن قوة ماأعادتنى ، لأنى لم أرد أن أراها ثانية . بل كنت أريد أن أجتث كل علاقة لى بالحياة . وذهبت بلا ارادة إلى المقابر ... وبجوار الباب كان الحارس جالسا وقد لف نفسه فى معطف كحلى ، وكان صمت عجيب يسيطر على المكان ، وأخذت أخطو ببطء وأنا أنظر دهشا إلى شواهد القبور والصلبان المعلقة فوقها وألوان الزهريات الصناعية المختلفة ، والخضرة التى كانت موضوعة بجوار القبور أو فوقها ، وأخذت أفكر بينى وبين نفسى ... كم هم سعداء ! أخذت أحسد الموتى الذين تحللت أجسادهم تحت التراب ... ولم يكن قد ظهر عندى إحساس بالحسد إلى هذه الدرجة قط ... وبدا لى أن الموت سعادة .. نعمة لا تعطى للمرء بسهولة ... ولا أدرى بالضبط كم مر من الوقت وأنا أنظر بجمود وقد ذهبت الصبية من خاطرى نهائيا ، ولم أحس بتيار الهواء البارد ، وكأنى كنت إلى الموتى أقرب منى إلى الأحياء وأكثر فهما للغتهم ، وعدت .. لا لأننى لا أريد أن أرى هذه الصبية مرة ثانية بل أريد أن أبتعد عن كل شىء وكل عمل ..

أريد أن أكون يائسا وأموت .. أية أفكار معقدة وردت إلى .. ربما أهذى .

كنت لأيام آخذ الفال من أوراق اللعب ، لا أدرى كيف أصبحت أعتقد فى الخرافات ، لبثت آخذ الفأل عن عقيدة إذ أنه لم يكن لدى عمل آخر ، ولم أستطع عمل شىء آخر .. كنت أريد أن أقامر بمستقبلى ، وإستخرت الفأل هل أتخلص من نفسى أم لا فجاء بالإيجاب . وقد حسبت ذات يوم فوجدت أنى قد جلست ثلاث ساعات ونصف آخذ الفأل من أوراق اللعب ، كنت أخلطها أولا ، ثم أرتب على المنضدة ورقة على الوجه وخمسا على الظهر ، وأتناول الخمس التى على الظهر فأضع منها واحدة على الوجه والباقى على الظهر ، وأستمر على هذا الترتيب حتى تأتى الورقة السادسة من نوع الأوراق التى على وجهها ، ثم أرتبها فى نسق معين بحيث يستقر الآس الأسود والاحمر فى فاصلة على بعضها وحتى يكون الترتيب ملك ، بنت ، ولد ، عشرة ، تسعة ... وهلم جرا ، وكلما قلت فئة أجعل الورقة التى تحتها على وجهها ، وإذا كانت هناك خمس نقاط أو أقل كان الفأل أحسن ، أما بقية الأوراق التى فى يدى فكنت أقسمها إلى فئات ثلاثة ثلاثة بعضها فوق بعض ، وإذا خرجت ورقة مناسبة كنت أضعها على المنضدة ، ولكن ينبغى أن لا تزيد عن الفئة السادسة ، كنت أضع الأوراق ذات الفئة الواحدة (الآس) على حدة ، وإذا كان الفأل حسنا تكون كل الأوراق المرتبة فوق بضعها من لون واحد ، وكنت قد تعلمت أخذ الفأل بهذه الطريقة منذ طفولتى وأخذت أقتل بها وقتى .

منذ سبعة أيام أو ثمانية كنت جالسا فى مقهى ، وكان فى مواجهتى رجلان يلعبان النرد ، وقال أحدهما لرفيقه الذى كان ذا وجه أحمر ورأس

صلعاء ولفيفة موضوعة تحت شاربه المعلق ، وقد أخذينصت إليه فى هيئة الحمقى : « لم يحدث مطلقا أنى ربحت من القمار ، فأنا أخسر تسع مرات فى كل عشرة مرات » ، وأنصت إليهما حائرا ، ماذا كنت أريد أن أقول لهما ؟ وعلى كل فقد سرت بعد ذلك فى الشوارع على غير هدى ، وقد فكرت مرات عديدة فى أن أغمض عينى ثم أتقدم وأضع رأسى تحت عجلات أحدى السيارات التى تمر أمامى ، ولكنه كان موتا صعبا ، ومن أين كنت أستريح بعده ؟ وربما بقيت حيا من ثانية .. هذا هو التفكير الذى كان يؤدى بى إلى الجنون .. وتجولت فى أربعة شوارع وأماكن مزدحمة .. وفى وسط هذا الجمع الذى كان يروح ويجىء ، وأصوات حوافر الخيل التى كانت تجر العربات ، وأبواق السيارات ، وفى تلك الضوضاء .. كنت وحيدا منفردا . وكنت بين ملايين الناس كأننى أجلس فى زورق محطم تاه فى محيط . كنت أجلس وأحس أنهم أخرجونى من المجتمع بعد فضيحة .. ورأيت أننى لم أخلق لهذه الحياة ، وأخذت آتى بالأدلة والبراهين بينى وبين نفسى ، وأنا أسير بخطى مملولة ورتيبة .. ووقفت أمام واجهة زجاجية عرضوا فيها لوحات مرسومة ، ونظرت إليها فترة مبهوتا ، وأسفت : لماذا لم أصبح رساما ، أنه العمل الوحيد الذى أحببته وكان يسرنى .. وفكرت فوجدت أنه فى الرسم فقط أستطيع أن أكتشف عزاء صغيرا لنفسى .. ومر ساعى بريد بجوارى وإستمر ينظر إلى عنوان خطاب من وراء منظاره ، وأية أفكار ساورتنى ! لا أدرى ربما تذكرت عامل البريد فى إيران ، أو عامل البريد فى منزلنا .

ليلة الأمس حاولت أن أغمض جفنى بكل وسيلة فلم أستطع وظهرت أمام عينى أفكار متقاطعة وأحداث مثيرة !! لم تكن أحلاما إذ أننى لم أكن قد نمت بعد ، ولا كانت كابوسا فأنا لم أكن نائما أو يقظا ، ولكننى كنت أراها . وكنت ضعيفا مهدم البنية مريضا ثقيلا ،

وألمنى رأسى . ومرت هذه الكوابيس المخيفة أمام عينى وتصبب العرق غزيرا من جسدى ، وكنت أرى كراسة معلقة فى الفضاء وقد فتحت والأوراق تنزل منها ورقة ورقة ، ومرت جماعة من الجند ولكن وجوههم لم تكن واضحة... وكان الليل مظلما ومفتتا للكبد ، ممتلئا بالأشباح المخيفة الغضبى ، وكلما أردت أن أغمض عينى وأسلم نفسى للموت كانت تظهر هذه الخيالات المثيرة للدهشة .. دائرة تدور حول نفسها ترمى بالنيران ، وميت طاف على وجه نهر ، وأعين تنظر إلى من كل جانب .. الآن أتذكر كل هذه الأشكال المجنونة الغضبى التى كانت تهجم على . كان هناك رجل عجوز بوجه ملوث بالدم قد ربط فى عمود ، أخذ ينظر إلى ويضحك ، وأخذت أسنانه تبرق . وكان هناك خفاش يضرب وجهى بأجنحته الباردة ، وأخذت أسير على حبل رفيع كانت تحته دوامة وكنت أنزلق . فهممت بالصراخ ، ولكن يدا وضعت على كتفى وأخذت يد ثلجية تضغط على حلقى وبدا لى أن قلبى كان قد توقف ، وكانت هناك الصرخات المشئومة التى كانت تأتى من أعماق ظلام الليل ، والوجوه التى أنمحى ظلها من أحد جانبيها كانت تبدو واحدة واحدة ثم تختفى .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل حيالها ؟ أنها كانت قريبة جدا وكانت بعيدة جدا فى نفس الوقت !! .. لا لم أكن أراها فى النوم لأن النوم لم يكن قد أختطفنى بعد .

لا أدرى ، لقد كنت أتشفى بأن الجميع يطيعوننى فصرت اليوم أتشفى بأن أطيع نفسى ، ولكن ثمة تفكيرا واحدا يجعلنى مجنونا .. أننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الابتسامة ، ولكن أحيانا تخنق الابتسامة على فمى ، وشىء آخر أن أحدا لا يعلم أصل مرضى ، وكلهم مخدوعون فى ، فأنا منذ أسبوع أدعى المرض ، أو أننى أصبت بمرض غريب ، وسواء أردت أم لم أرد قد تناولت لفافة وأشعلتها .. لماذا أدخن ؟ أنا نفسى

لا أدرى فأن أبهام يدى اليسرى وسبابتها هما اللتان تمسكان باللفيفة ونصفها الذى فى فمي والدخان الذى أبدده فى الهواء .. كل هذا أيضا نوع من المرض . والآن عندما أفكر فى ذلك يرتجف جسدى .. أننى أعذب نفسى بوسائل مختلفة منذ أسبوع وليس ذلك بهين كنت أريد أن أكون مريضا . ومنذ بضعة أيام كان الجو باردا ، فذهبت وفتحت صنبور الماء البارد على أولا ، ثم فتحت نافذة الحمام والآن عندما أتذكر ذلك تصيبنى رعدة ، لقد حدثت لى عدة أعراض .. زادت أنفاسى بطءا ، وأحسست بالألم فى ظهرى وصدرى ، وقلت لنفسى أخيرا تم الأمر : غدا سوف أصاب بألم عنيف فى الصدر ، ثم ألزم الفراش ، ويزداد الألم حدة ، وبعد ذلك أتخلص من نفسى . وحينما أستيقظت غداة ذلك اليوم لم يعترنى أدنى أحساس بأننى أصبت بالبرد فخلعت ملابسى ثانية ، وحينما أظلم الجو أغلقت الباب من الداخل وأطفأت المصباح الكهربى .. وفتحت نافذة الحجرة ثم جلست أمام لذعات البرد .. وكانت تهب ريح باردة ، وجعلت أرتعد حتى أننى سمعت صوت أصطكاك أسنانى بعضها ببعض ، أخذت أنظر إلى الخارج ، وكان الرائحون والغادون وظلالهم السوداء ، والعربات المارة تبدو لى صغيرة من الطابق السادس للعمارة .. وكنت قد أسلمت جسدى العارى للرياح وأخذت أتلوى .. وحينما تذكرت أننى صرت مجنونا أخذت أضحك من نفسى .. أضحك على الحياة .. وكنت أعلم أنه فى مسرح الحياة الكبير يلعب كل أمرىء دورا حتى يحين أجله ، وأنا أيضا بدأت بهذا الدور لأنى كنت أعلم أنه سيخرجنى أسرع من الميدان . ويبست شفتاى وآلم البرد جسدى ، ولم يجد ذلك نفعا ، فأدفأت نفسى ، ثم خلعت ملابسى فجأة ، وبعد أن نضح العرق من جسدى سقطت على فراش أرتجف طوال الليل حتى الصباح ، ولكنى لم أنم قط ، وأكتشفت إصابة بسيطة بالبرد .. غير أن المرض

ذهب كلية بمجرد أن أنتابتنى أغفاءة من النوم ، ورأيت أن هذا لم يجد نفعا .. وظللت ثلاثة أيام لا أتناول طعاما وألزم النافذة ليلا بلا ملابس لأصيب نفسى بالبرد والمرض . وذات ليلة عدوت فى شوارع باريس خالى البطن ، ولما تعبت جلست على سلم بارد مظلم فى شارع ضيق من شوارع باريس وكان قد مضى من الليل نصفه حينما مر على عامل ثمل يتعثر ، وعلى مصباح الغاز الباهت الغامض رأيت إمرأة ورجلا يتحدثان معا ثم سارا فنهضت وأخذت أسير . وهناك على أرصفة الشوارع كان المساكين الذين لا مأوى لهم يغطون فى النوم .

وأخيرا أصبحت طريح الفراش من شدة الضعف ، ولكنى لم أكن مريضا .. وجاء أصدقائى لعيادتى ، وكنت أتظاهر بالرجفة أمامهم ، وأتمارض حتى رقت قلوبهم من أجلى ، وكانوا يظنون أننى سأموت فى الغد .. وقلت أن بقلبى نوبة أنقباض .. وحينما يخرجون من حجرتى كنت أضحك من غفلتهم .. وكنت أقول لنفسى : ربما كان أصلح عمل لى فى هذه الدنيا .. أن أكون ممثلا مسرحيا .

وكم حبكت لعبة المرض هذه التى لعبتها أمام أصدقائى وأمام الطبيب أيضا ، وكلهم صدقوا أننى مريض حقا ، وكلما سألونى كنت أقول أن بقلبى نوبة أنقباض لأن الموت الفجائى ينسب فقط إلى السكتة القلبية .. فأن مرض ذات الرئة لا يمكن أن يميت دفعة واحدة .

وكان هذا أيضا أحدى المعجزات .. بحيث أننى حينما أفكر تنتابنى حالة غريبة ، سبعة أيام قضيتها فى تعذيب نفسى ، ولو طلبت الشاى مرة نظرا لإصرار أصدقائى وشربته فأن حالتى تتحسن .. وكان كل ما يخيفنى أن ينتهى المرض نهائيا . وكم كنت أشتهى الخبز الذى كانوا يأتون به بجانب الشاى ، ولكنى لم أكن أطعمه .. وكنت كل ليلة أقول أننى صرت طريح

الفراش مرة ثانية ، وفى الغد لن أستطيع القيام من مكانى .. كنت أذهب وأحضر الغلاف الذى كنت قد ملأته بمسحوق الأفيون أضعه فى درج المنضدة التى بجوار سريرى لأخرجه وآكله عندما يشتد المرض ولا أستطيع الحراك من مكانى ، ولكن المرض العنيد لم يأت ولم يكن يريد أن يأتى . وذات مرة أضطررت أمام أحد أصدقائى أن آكل قطعة صغيرة من الخبز مع الشاى وأحسست أن حالتى قد تحسنت كلية فخفت من نفسى.. خفت من روحى العنيدة وكان مخيفا.. وليس ماأكتبه مما يمكن تصديقه .. إلا أن حواسى سليمة .. وأنى لا أهذى .. بل أنا أتذكر جيدا .

ترى أية قوة هذه التى ظهرت فى .. أن شيئا من هذا لم يجد .. يجب أن أمرض بحق ، أجل هناك سم قاتل فى حقيبتى . تذكرت السم الذى يهلك سريعا الذى اشتريته ذلك اليوم المطير بعد ألف سعى وجهد وأحتيال ، أشتريته بأسم مزور وأعطيت أسما وعنوانا كاذبين ، أجل « سيانور البوتاسيوم » الذى كنت قد قرأت عنه فى كتاب طبى وأعلم الأعراض التى تنجم عن تعاطيه .. التشنج وضيق التنفس ثم طلوع الروح ، ويكفى إذا كانت المعدة خالية عشرون جراما منه لتقتل فورا أو خلال دقيقتين ، وكنت قد لففتها فى الأوراق الخاصة بالشيكولاتة وغلفتها بطبقة من الشمع ثم وضعتها فى زجاجة بلورية مقفلة حتى لا يفسد من تعرضه للهواء ، وحملته معى كالجواهر الغالية . ولكن من حسن حظى كان هناك شيء أثمن منه .. الأفيون المهرب إلى باريس ، الأفيون الذى أخذت أبحث عنه كثيرا وسقط فى يدى صدفة ، وكنت قد قرأت أن الموت بالأفيون أكثر راحة وأحسن من السم الذى حصلت عليه حينئذ ، كانت كل رغبتى أن أمرض بحق .. ثم أتناول الأفيون .

فضضت غلاف سيانور البوتاسيوم ، ونحت جرامين تقريبا من كتلة البيضاوية ، ثم وضعتها فى أنبوبة ورقية خالية وألصقت فوهتها بالصمغ وأكلتها . ومرت نصف ساعة ولم أحس بشيء ، وكان ظاهر الغلاف الذى وضع فيه ذلك السم مالحا ، وعمدت إليه مرة ثانية ونحت منه هذه المرة خمس جرامات ثم ذهبت إلى فراشي ونمت ، نمت على أمل ألا أقوم ثانية .. أن هذا التفكير يصيب كل عاقل بالجنون .. لم أكن أحس بشيء قط ، أن السم القاتل لم يؤثر فى ، الآن .. أنا حى .. والسم فى حقيبتى .. أتنفس ببطء فى الفراش ، ولكن هذا لم يكن من أثر الدواء .. لقد صرت « معدنى الجسم » المعدنى الجسم الذى يقصون عنه فى الأساطير .. هذا شيء غير مصدق .. ولكنه يجب أن أمضى فلا جدوى لبقائى ، أن حياتى مرفوضة وأنا مجبر على أن أحياها وهى لا فائدة منها ، يجب أن أتخلص من نفسى وأذهب سريعا ، هذه المرة ليست مزاحا ، مهما فكرت فليس ثمة شيء يربطنى بالحياة .. لا شيء .. ولا أحد .

وتذكرت ما قبل أول أمس .. حينما كنت أذرع الحجرة كالمجنون من ركن إلى ركن ، وكانت هذه الأشياء تمر أثر بعضها أمام عينى . وملابسى المعلقة على الحائط ، وأناء الغسيل .. المرآة والصوان والصور التى على الحائط والفراش والمنضدة التى فى وسط الحجرة ، والكتب المبعثرة عليها ، والحذاء الملقى تحت الصوان ، والحقائب الملقاة فى أركان الحجرة .. لم أكن أراها ولم أكن أدقق فيها .. ففى أى شيء كنت أفكر ؟ لا أدرى .. كنت أسير بدون هدف .. ثم عدت إلى وعيى دفعة واحدة .. كنت قد رأيت هذا السير الوحشى فى مكان ما ، وقد أخذ هذا المكان يجذب تفكيرى نحوه .. لا أدرى أين .. لقد تذكرت،فى حديقة حيوانات برلين ، رأيت لأول مرة الحيوانات المفترسة ، وما كان منها مستيقظا فى قفصه كان يسير هكذا . أجل : بهذه الطريقة ، وإذن فأنا فى هذا الموقف قد

صرت مثل هذه الحيوانات ، وربما صرت أفكر مثلها أيضا .. وأحسست فى نفسى أننى مثلها ، هذا السير بلا أرادة ، والدوران حول النفس ، وحين أقابل الحائط أحس بالسليقة أنها مانع ، فأعود أدراجى ، هذه الحيوانات كانت تفعل نفس الشىء .

لا أدرى ماذا أكتب ، أن دقات الساعة تجلجل هكذا بجوار أذنى وأريد أن أحملها وأقذف بها من النافذة .. هذا الصوت المهول الذى يدق طوال الزمن فى رأسى بمطرقة . مكثت أسبوعا أجهز نفسى للموت ، مزقت كل الخطابات والأوراق المكتوبة التى لدى ، وأبعدت ملابسى القذرة ، حتى لا يجد الذين سيفتشون بعد مماتى شيئا قذرا ، ولبست ملابسى الجديدة الداخلية التى كنت قد أشتريتها حتى يروننى أنيقا حين يحملوننى عن فراشى ، ويأتى الطبيب للكشف على .. وحملت زجاجة الكلونيا فأرقتها على الفراش حتى يصير زكى الرائحة .. ولكنى لم أطمئن أيضا هذه المرة ، فإن كل شىء مما أفعله لا يشابه أعمال الآخرين ، فقد كنت أخاف من عناد روحى هذه المرة أيضا ، وكأنما كان هذا أمتيازا ورفعة لا يعطيان لأحد ببساطة .. وكنت أعلم أنه لا شخص يموت بمثل هذه السهولة .

وأخرجت صور أقاربى ، وأخذت أنظر إليها ، وتجسد كل واحد منهم أمام عينى طبق ما شاهدته ، سواء كنت أحبهم أو لا أحبهم .. من أريد رؤيته منهم ومن لا أريد أن أراه .. لا .. أن ذكرياتهم كانت واضحة جدا أمام عينى ، ومزقت الصور ، فلم تكن تربطنى علاقة حب بهم ، وأخذت أحاكم نفسى ، وجدتنى لم أكن رجلا حنونا ، كنت قاسيا خشنا نافرا من الحياة .. ربما لم أكن هكذا فى الأصل ، ولكن حياتى وما عشت فيه من أيام جعلتنى هكذا .. لم أكن أخشى الموت أو أى شىء آخر ،

بل على العكس أكتشفت فى نفسى مرضا .. جنونا خاصا كان يجذبنى نحو الموت .. كما لو كان مغناطيسا .

هذا أيضا ليس جديدا ، تذكرت حكاية حدثت لى منذ خمس سنوات ، كنت فى طهران ، وذهبت ذات يوم فى الصباح الباكر إلى شارع شاه آباد لأشترى أفيونا من أحد العطارين ، ووضعت أمامه عملة قيمتها ثلاثة تومانان وقلت له .. أعطنى بقرانين أفيونا ، فأخذ يصلى على النبى بلحيته الحمراء المحناة والمنشفة التى كانت على رأسه ، وأخذ يختلس النظر إلى وكأنه كان ملما بالفراسة أو كأنه قرأ أفكارى وقال : ليس معى فكة ، فأخرجت قرانين وأعطيتهما له فقال : فى الحقيقة لا أبيع أفيونا ، ولما سألته عن السبب قال : أنت شاب وما تزال جاهلا ، ويمكن أن تنتابك نوبة عصبية .. فتأكل الأفيون .

ولم أظهر أصرارا أنا الآخر .

ليس هناك أحد أكتسب التصميم على الأنتحار .. أن الانتحار عند البعض موجود فى فطرتهم وفى أصلهم .. أجل أن مصير المرء مكتوب على جبينه ، وقد ولد الانتحار أيضا مع بعض الأشخاص .. لقد جعلت منى الحياة مثارا للسخرية ، كانت الدنيا وما فيها كلها فى عينى لعبة وعارا ، شيئا تافها لا معنى له .. وأردت أن أنام ولا أقوم ثانية ، ولا أرى أحلاما أيضا .. ولكن ما دام الموت عند كل الناس شيئا غريبا وعجيبا أريد أن أصيب نفسى بالمرض الشديد حتى أصير عاجزا جديرا بالموت وبعد أن تمتلىء أنظار الجميع وأسماعهم بذلك أتناول الأفيون فيقولون مرض ومات .

أخذت أدون مذكراتى فى فراشى ، وفى الثالثة بعد الظهر جاء ثلاثة أشخاص لعيادتى ، وذهبوا الآن وبقيت وحيدا . رأسى يدور وجسمى

مسترخ مستريح وفى معدتى فنجان من الشاى باللبن . وظل جسدى هكذا مشلولا ضعيفا فيه حرارة المرض . كنت قد سمعت لحنا جميلا من اسطوانة الجرامافون وتذكرته ، وأردت أن أعيده فلم أستطع . ليتنى استمعت إليه مرة ثانية .. الآن لا أسعد بحياتى ولا أشقى بها . أنا حى بلا أرادة بلا رغبة ، أن قوة فوق قوتى قد ألجمتنى ، وقد شد وثاقى فى سجن الحياة بسلاسل من فولاذ . ولو أننى مت لحملونى إلى مسجد باريس ولسقطت بين أيدى العرب الذين لا مرشد لهم ، وأنا نفور حتى من شكلهم ، وعلى أى فلا فرق عندى ، وحتى لو كانوا رمونى فى المبولة بعد الموت لكان ذلك سيان عندى ، ولكنت مستريحا . فقط كأن أهل منزلى يبكون ويلبسون الحداد ، ويخرجون صورتى ، ويأخذون فى التحدث عنى وغير ذلك من السخافات المتداولة التى تبدو كأنها فى نظرى تافهة وحماقة ، ولا بد أن بعضهم كان يتحدث عنى بالخير ، وبعضهم كان يذمنى ، ولكننى كنت أصير أخيرا شيئا منسيا إذ أننى فى الأصل متكبر غير ألوف .

مهما أفكر فإن مواصلة هذه الحياة لا فائدة منها . لقد صرت ميكروبا فى المجتمع ، موجودا يجلب الخسارة ، عالة على الآخرين ، وأحيانا يجن جنونى فأذهب بعيدا ، بعيدا جدا إلى مكان أنسى فيه نفسى ، وأكون نسيا منسيا ضائعا هباء ، أذهب إلى سيبيريا مثلا وأبدأ حياتى من جديد هناك فى المنازل الخشبية تحت أشجار الصنوبر والسماء الرمادية والثلج ، الثلج الغزير وسط الممرات ، أذهب وأستأنف الحياة هناك فى الهند تحت وهج الشمس المحرقة وبين الغابات المتشابكة ، بين الناس الغرباء العجيبين . أذهب إلى مكان لا يعرفنى فيه أحد ولا يعرف لغتى فيه أحد .. أريد أن أحس بكل شيء فى داخلى ، ولكنى أرى أننى لم أخلق لمثل ذلك .. لا .. ألست عاطلا كسولا جئت إلى الدنيا على

سبيل الخطأ ، كقطعة من الخشب نجسة الطرفين ، لا يستطاع الامساك بها من أى طرف ، وأغمضت عينى عن مشروعاتى ، وأنتحيت جانبا عن الحب .. عن الشوق .. عن كل شىء ، وأيضا فأنا فى دائرة الموتى .

أحيانا أرسم بينى وبين نفسى مشروعات عظيمة ، وأعتبر نفسى جديرا بكل شىء وبكل عمل ، وأقول لنفسى :

أجل ، أن الناس الذين نفضوا أيديهم من أرواحهم .. وأهملوا كل شىء هم الوحيدون الذين يستطيعون أتمام الأعمال العظيمة ، وبعد ذلك كنت أقول لنفسى : وماذا يفيد ذلك وأى نفع فيه ؟ الجنون كله جنون .. لا .. أضرب ، أقتل نفسك ، ليسقط جسدك ، أذهب ، أنك لم تهيأ للحياة ، قلل الفلسفة ، فليس لوجودك أيه قيمة ، ولا يتأتى منك أى عمل ، ولكنى لا أدرى لماذا يتدلل الموت ؟ لماذا لا يأتى ؟ ولم لم أستطع أن أتتبع غايتى لأ ستريح ؟ أخذت أعذب نفسى أسبوعا ، وكان هذا كديدى أن لم يؤثر فى السم ، هذا شىء غير مصدق لا أستطيع أن أؤمن به .. لم أتناول طعاما ، عرضت نفسى للبرد . شربت الخل ، وكل ليلة كنت أتخيل أننى أصبت بالسل ، وحين أستيقظ فى الصباح يكون حالى أحسن من اليوم السابق . لمن أستطيع أن أقول هذا ؟ لم تأتنى الحمى ، ولم أنم أيضا .. ولم أغف ، كل هذا واضح فى ذاكرتى لكنه غير قابل للتصديق .

حينما كتبت هذا شعرت براحة قليلة ، شعرت بالألفة مع نفسى وكأننى أنزلت حملا ثقيلا عن كتفى ، كم يكون حسنا لو أن كل الأشياء كان من الممكن كتابتها ، لو أننى أستطعت أن أفهم أفكارى للآخرين ، لو أستطعت أن أتحدث ، لا .. هناك أحاسيس لا يمكن أفهامها للآخرين ، أشياء لا تقال ، أنهم يسخرون من الانسان ، وإن كل

شخص يحكم على الآخر طبقا لأفكاره ، ثم أن لسان الآدمى ناقص وعاجز كالآدمى نفسه . أنا المعدنى الجسم . لم يؤثر السم فى ، أكلت الأفيون ولم يجد نفعا ، ورأيت أخيرا أن كل جهودى ذهبت أدراج الرياح . وكانت الليلة التى سبقت ليلة أمس حين صممت أن أنهى هذه الملهاة قبل أن يفوح النتن أكثر ، فسرت وأخرجت أنابيب الأفيون من درج المنضدة الصغيرة (وكانت ثلاثة فى حجم أنبوبة الأفيون العادية تقريبا) وكان الوقت فى السابعة حين طلبت شايا من أسفل فأحضروه وشربته ، ولم يأت إلى أحد حتى الساعة الثامنة ، فأغلقت الباب من الداخل .. وسرت فوقفت أمام الصورة المثبتة على الحائط وأخذت أنظر إليها ، ولا أدرى أية أفكار أثيرت لدى ، ولكنه كان فى عينى رجلا غريبا فأخذت أقول فى نفسى أية صلة لهذا الرجل بى ؟ ولكننى كنت أعرف هذا الوجه وكنت قد رأيته كثيرا .. وليس عندى أحساس بالهياج أو الخوف أو السرور من كل الأشياء التى فعلتها ، والتى كنت أريد أن أفعلها ، كلها بدت لى تافهة لا نفع فيها .. وبدت لى الحياة كلها تبعث على السخرية .. وألقيت بنظرة على الحجرة .. كانت كل الأشياء فى مكانها وذهبت إلى مرآة باب الصوان ونظرت إلى وجهى المشتعل .. وأغمضت عينى نصفيا .. وفتحت فمى قليلا ، ولويت رأسى كالميت ، وقلت فى نفسى : غدا صباحا سأكون على هذه الصورة .. أولا حين يطرقون الباب لن يرد أحد ، وحتى الظهر سيظنون أنى نائم ، ثم يكسرون مزلاج الباب ، ويدخلون الحجرة ، ويروننى على هذا الحال . وقد مرت هذه الأفكار أمام عينى كالبرق . وحملت كوبا من الماء ، وقلت فى نفسى وأنا أرتعد وقد شعرت ببرودة تامة : أنه قرص من الاسبرين .. وبلعت القرص الأول ، ثم بلعت القرصين الثانى والثالث دفعة واحدة ، وأحسست برعشة قليلة فى نفسى ، وأمسكت رائحة الأفيون بفمى ..

وأخذ قلبى يدق بسرعة ، فرميت اللفافة نصف المنتهية فى المنفضة ، وأخرجت حبوبا طيبة الرائحة ووضعتها فى فمى ، وأخذت أمتصها ، ونظرت مرة ثانية فى المرآة ، وأخرى إلى أطراف الحجرة ، وكانت كل الاشياء فى مكانها ، وقلت فى نفسى : أخيرا تم الأمر ، وغدا لن يستطيع حتى أفلاطون نفسه أن يوقظنى ، ورتبت أرديتى على الكرسى بجوار السرير ، وألقيت الغطاء المضمخ بالكلونيا فوق رأسى ، وأدرت مفتاح النور ، فأظلمت الحجرة ، وكان ثمة جزء من الضوء على الحائط وأسفل السرير قليلا ، نتيجة الضوء المظلم الضعيف الآتى من خلف زجاج النافذة لم يعد لى عمل آخر ، فقد كنت أنهيت الأعمال كلها سواء كانت جيدها أو رديئها إلى هذا الحد .. ونمت وتقلبت ، وكان كل تفكيرى موجها إلى أن لا يأتى أحد لزيارتى ، ويثقل على ، رغم أنى كنت قد قلت للجميع أن ليالى عديدة قد مـرت على لم أستطع النوم فيها ، قلت لهم ذلك ليدعوننى مرتاح البال .

فى هذا الموقف كان لدى حب أستطلاع عظيم ، وكأنما حدث لى حادث خارق أو أننى مقبل على رحلة هنيئة ، كنت أريد أن أحس الموت جيدا ، فجمعت حواسى ، ولكن أذنى كانت فى الخارج ، وبمجرد أن يقترب منى وقع أقدام كان قلبى يرتجف ، وأخذت أضغط على جفونى ، ومرت عشر دقائق أو أكثر وليس ثمة خبر ، وكنت قد شغلت رأسى بعدة أفكار مختلفة ، ولم أكن نادما من أجل هذا العمل، كما لم أكن أخاف، حتى أحسست أن المساحيق أخذت تعمل عملها .. ثقلت أولا ، وأحسست بالتعب ، وكان أكثر هذا التعب حول البطن ، وكان يشبه الثقل الناشىء عن عدم هضم .. ثم أنتقل هذا الألم إلى الصدر ثم إلى الرأس ، وحركت يدى وفتحت عينى فوجدت حواسى كما هى ، وظمئت ، وييس فمى ، ولم أعد أبتلع لعابى إلا بصعوبة .. وأخذت دقات قلبى تبطىء ، ومر

وقت قليل ثم أخذت أحس أن الحرارة تتسرب من كل جسدى بلذة خاصة ، ومن الأماكن البارزة فى البدن مثل أطراف الأصابع ، وأرنبة الأنف ، وغيرها .. وفطنت فى الوقت نفسه أننى أريد أن أقتل نفسى ، وتذكرت أن هذا الأمر محزن بالنسبة للبعض ، وتعجبت من نفسى ، ولكن كل ذلك بدأ لعينى طفوليا وتافها ومضحكا .. وأخذت أفكر فى أننى الآن مستريح وسأموت بلا تعب فأية أهمية لأن يحزن الآخرون أولا يحزنوا ، أن يبكوا أولا يبكوا ، وصرت أشد ميلا إلى أتمام هذه الأمر ، كنت أخشى أن أتحرك أو أفكر فيقلل ذلك من تأثير الأفيون ، كان كل خوفى أن أظل حيا بعد كل هذا الجهد .. وكنت أخاف أن يكون طلوع الروح صعبا، أو أن أصرخ حين النزع وطلب النجدة من أحد .. ولكننى أخذت أقول : مهما كان صعبا فأن الأفيون يخدرنى ، ولن أحس بشىء قط .. حسنا أننى أروح فى النوم ، كما أننى لا أستطيع الحركة ولا الحديث ، والباب مغلق من الداخل أيضا .

أجل ، أننى أتذكر جيدا ، أن هذه الأفكار قد راودتنى ، وكنت أستمع إلى دقات الساعة الرتيبة ، وكنت أسمع أيضا صوت أقدام النزلاء الذين كانوا يسيرون فى الفندق ، وكأنما أصبحت حاسة السمع عندى أقوى من ذى قبل . وأخذت أحس بأن جسدى يطير ، وقد يبس فمى ، وأصبت بصداع بسيط ، وقد سقطت فى حالة من الأغماء تقريبا ، كانت عيناى نصف مغلقتين ، وتراوحت أنفاسى بين السرعة والبطء ، وكانت تلك الحرارة اللذيذة تتسرب من كل مسام جسدى ، كان قد خيل إلى أنى ذاهب ، وأردت أن أزيد من شدة هذا الخيال ، فقد كنت شاعرا بنشوه لا يمكن التعبير عنها ، وكانت الفكرة التى أردت تنفيذها أننى كلما تحركت أحسست أن هذا يمنع الحرارة من الخروج ، وأننى كلما نمت فى استرخاء أكثر .. كان ذلك حسنا .

وأخرجت يدى اليمنى من تحت جسدى ، وتقلبت فنمت على ظهرى ، وكان ذلك أقل ملاءمة ، فتقلبت ونمت فى نفس الحالة الأولى ، وأسرع الأفيون فى التأثير ، كنت أعلم وكنت أريد أن أحس بالموت جيدا ، فأسرعت أحساساتى وعظمت ، وعجبت : لماذا لم أنم ؟ وكان قلبى يدق ببطء ، وكأنما كان الوجود يخرج من جسدى على نسق لذيذ متناسب ، ودق قلبى ببطء ، وتنفست ببطء ، وتخيلت أنه مرت ساعتان أو ثلاثة ، وفى أثناء ذلك دق شخص ما الباب وفهمت أنه جارى فلم أجبه ، ولم أرد أن أتحرك من مكانى وفتحت عينى ، ولكننى أغلقتها ثانية ، وسمعت صوتا فتح بابه ، فقد كان يغسل يديه ويصفر .. سمعت ذلك جميعا ، وجاهدت فى أن أفكر فى أشياء جميلة لذيذة ، وفكرت فى السنة الماضية ، ذلك اليوم الذى كنت راكبا فيه سفينة ، وكانت الموسيقى تعزف ، وأمواج البحر ، والفتاة الجميلة التى كانت فى مواجهتى ، وغرقت فى أفكارى ، وأسرعت خلفها ، وكأنما وجد لى جناح فأخذت أجول فى الجو ، صرت خفيفا سريعا بطريقة لا يمكن تبيانها . وكان ثمة أختلاف هناك ، أذ أن النور الذى كنت أراه طبيعيا .. بدا لى من تأثير الأفيون كأنما كان هذا الضوء نفسه يرى من خلف ثريا أو منشور بللورى ، وأنه يتجزأ إلى ألوان عدة ، وفى هذه الحالة تنتاب الانسان الخيالات البسيطة الساذجة ، وتكون مثيرة فى عينيه ومدهشة إلى حد بعيد ، ويصبح كل خيال سار لا فائدة فيه ولا هدف من ورائه صورة فتانة عظيمة ، ولو مر من بعيد أو على مرمى النظر من تفكير الانسان فأنه يتجلى عظيما إلى ما لا نهاية .. وكان الفضاء يفتح .. ومرور الزمن يصبح غير محسوس .

وفى أثناء ذلك صرت ثقيلا جدا .. وأخذت حواسى تتموج على جسدى ، ولكننى كنت أشعر بأننى لست نائما ، وآخر أحساس

KMH

أتذكره من لذة الأفيون ونشوته أن قدمى صارتا باردتين بلا حس ، وجسدى بلا حركة ، وأحسست أنى أذهب وأبتعد ، ولكن بمجرد أن أنتهى تأثير الأفيون حتى أحسست بحزن وأنقباض يغمراننى إلى ما لا نهاية ، وشعرت أن حواسى عادت إلى مكانها ، وإجتاحنى تيار من البرد صعب وشديد ، فأخذت أرتعد بشدة أكثر من نصف ساعة ، وكنت أسمع صوت أصطكاك أسنانى .. وبعد ذلك أرتفعت الحرارة .. حرارة محرقة ، وتصبب العرق من جسدى ، وانقبض قلبى وضاقت أنفاسى ، وأول تفكير عن لى أن ما غزلته قد نكث ، ولم يكن ما ينبغى أن يكون ، وتعجبت كثيرا من قوة روحى .. وفهمت أن قوة مظلمة وشقاء لا يوصف فى حرب معى .

ونهضت بصعوبة بنصف جسد من فراشى ، وأدرت مفتاح النور فأضيئت الغرفة ، ولا أدرى لماذا ذهبت يدى ناحية المرآة الصغيرة التى وضعت على المنضدة التى بجوار السرير ، ورأيت وجهى قد تورم ، ولونى شحب ، ولسانى قد أسود ، والدمع يسيل من عينى ، وأنقبض قلبى بشدة ، وقلت فى نفسى .. أنه على الأقل قد فسد قلبى .. فأطفأت المصباح وسقطت فى الفراش .

لا .. لم يفسد قلبى ، أنه اليوم أحسن ، أن الباذنجان الردىء لا تصيبه الآفات وجاء الطبيب إلى ، وأستمع إلى دقات قلبى ، وجس نبضى، ورأى لسانى ، ووضع الترمومتر فى فمى وقام بغير ذلك من الأعمال العادية التى يفعلها الأطباء بمجرد قدومهم ، والتى تتم بطريقة واحدة فى جميع أنحاء العالم ، وأعطانى ملح الفواكه وقينقونة ، أنه لم يفهم ألمى قط ، لا أحد يستطيع أن يفهم ألمى .. هذه الأدواء التى وضعت على المائدة سبعة أنواع أو ثمانية من أجلى .. مضحكة ، وأنا أضحك بينى وبين نفسى .. أى ملهى هنا !!

أن دقات الساعة كانت تتوالى بجوار أذنى .. وكان صوت أبواق السيارات وصفير العجلات البخارية يأتى من الخارج ، ونظرت إلى الأوراق الملصقة على الحائط فقد كانت أوراقا أرجوانية قائمة رفيعة ، وكانت هناك باقة من الورد الأبيض وعلى أغصانها يقف طائران أسودان وجها لوجه .. وكانت رأسى فارغة .. وأخذت معدتى تتآكل ، وتحلل جسدى .. وحينما نظرت إلى الصحف التى بقيت على الصوان فى حالة خاصة بدا لى مرة واحدة أنها غريبة عن عينى وعجبت .. لماذا أنا حى ؟ لماذا أقتل نفسى ؟ لماذا جعت ؟ لماذا آكل ؟ لماذا أسير ؟ لماذا أنا هنا ؟ هولاء الناس الذين أراهم من هم وماذا يريدون منى ؟

الآن أعرف نفسى جيدا ، نفسى كما هى ، بلا زيادة أو نقصان ، لا أستطيع عمل شيء ، وقد سقطت فى الفراش متعبا مهدما .. تدور أفكارى ساعة بساعة .. وتظل تدور فى نفس دوائر اليأس ، وقد بلغ صبرى مداه .. لقد جعلنى وجودى أتعجب ، كم يكون مريرا مهولا ذلك الوقت الذى يحس فيه الانسان بنفسه .. وحينما نظرت فى مرآة ضحكت على نفسى ، وبدأ وجهى لعينى مجهولا غريبا مضحكا إلى حد كبير .. لقد فكرت فى هذا مرات عديدة ، لقد صرت معدنى الجسم ، المعدنى الجسم الذى يكتبون عنه فى الخرافات هو أنا . أن هذا شيء معجز أنى أومن الآن بجميع الخرافات والمعميات والأفكار المثيرة تمر من أمام عينى .. يا له من معجز ، لقد أدركت الآن أن الله أو أى أسم يسمونه فى ظلمه الذى لا نهاية له قد خلق المخلوقات قسمين : سعداء وأشقياء ، يساعد الأولين ويزيد فى تعذيب ومضايقة الآخرين ، الآن أومن بأن ثمة قوة وضيعة مفترسة للتعاسة ، وبملاك آخر يساعد بعض الناس .

وأخيرا بقيت وحيدا .. ذهب الطبيب الآن حملت الورق والقلم . وأريد أن أكتب ، لا أدرى ماذا أكتب ، إما أنه لا رغبة عندى ، إما

أننى لا أستطيع الكتابة من كثرة الرغبات ، أن هذا فى حد ذاته شقاء .. ولا أستطيع أن أبكى فربما منحنى البكاء بعض العزاء .. لا أستطيع فقد أصبح شكلى شكل المجانين . نظرت فى المرآة فوجدت شعرى مشعثا وعينى مفتوحتين باهتتين . أخذت أفكر فى أن وجهى لا يمكن أن يكون على هذه الصورة ، وأن وجوه الكثيرين تختلف عن تفكيرهم وهذا كان يخرجنى عن طورى أكثر .. كلما أعلم أننى مستاء من نفسى ، حين آكل أستاء من نفسى ، وحين أسير أستاء من نفسى ، وحين أفكر أستاء من نفسى .. أية سخافة ، وأى شىء مخيف !! لا .. أن هذه قوة فوق مستوى البشرى ، شىء ساحق .. أنا الآن أومن بهذه الأنواع من الأشياء .. ليس هناك شىء آخر يؤثر فى .. شربت السم ولم يؤثر فى .. أكلت الأفيون وعدت حيا مرة ثانية .. وأعلم أنه حتى لو لدغتنى التنانين لماتت هى .. لا .. لن يصدق أحد .. هل كانت هذه السموم فاسدة ؟! ألم تكن بالقدر الكافى ؟! ألم تكن زيادة عن الحد العادى ؟! وهل أكتشفت مقدارها متغيرا فى كتب الطب ؟! وهل حولت يدى السم إلى عسل ؟! لا أدرى . أنتابتنى هذه الأفكار مائة مرة ، وليس فيها جديد .. وتذكرت أن العقرب حينما تحبس فى النار تلدغ نفسها .. أليس حوالى حلقة من نار ؟!

وأمام نافذة حجرتى على حافة غطاء السقف الأسود الذى تجمع ماء المطر فى تجويفه كان يقف عصفوران ، وكان أحدهما يضع منقاره فى الماء .. ثم يرفع رأسه وكان الآخر قد أنكمش إلى جواره ينظف نفسه من الحشرات .. فتحركت ، فشقشق كلاهما ثم طار . وكان الجو مثقلا بالسحب ، وأحيانا كانت الشمس الشاحبة تبدو من خلف السحاب ، وكانت العمائر المرتفعة المتجاورة مغطاة بالضباب .. وبقيت سوداء مثيرة للحزن تحت وطأة هذا الجو المطير الثقيل .. وكان صوت المدينة المختنق

البعيد مسموعا . هذه الأوراق المزيفة التى أخذت الفأل منها .. الأوراق الكاذبة التى خدعتنى هناك فى درج المنضدة ، والاشد اثارة لضحكى أنى لا أزال آخذ الفال منها .

ما العمل ، أن المصير أقوى منى .

أن من الخير لو يستطيع الانسان بكل هذه التجارب التى أخذها من حياته أن يأتى إلى هذه الدنيا ثانية ثم يبدأ حياته من جديد .. ولكن أية حياة ؟ هل هى فى يدى ؟ وأية فائدة منها ؟ أنها قوى مركبة عمياء مخيفة تركب على رؤوسنا .. هناك أشخاص تدير مصائرهم نجمة شؤم ، فهم يسحقون تحت ثقلها ، ويريدون أن يسحقوا .

ليست لى بعد الآن رغبة ولا حقد ، لقد فقدت كل ما هو أنسانى وتركته يضيع . والانسان فى حياته يجب أن يكون ملاكا أو أنسانا أو حيوانا ولم أصر أحدا منها قط . كانت حياتى ضائعة تماما . لقد جئت إلى الدنيا متكبرا أبله مسكينا ، والآن لم يعد من الممكن أن أعود وآخذ طريقا آخر .. لا أستطيع ثانية أن أعدو خلف هذه الظلال الفارغة . ولا أن أمسك بتلابيب الحياة وأصارعها ، وأنتم يا من تتخيلون أنكم تعيشون حقيقة ، أى دليل منطقى فى أيديكم؟ أنا لا أريد أن أمنح أو أمنح ، أن أذهب إلى اليمين أو إلى اليسار ، أريد أن أربط يدى بالمستقبل ثم أنسى الماضى .

لا .. لا أستطيع الفرار من قدرى . هذه الأفكار المجنونة . هذه الاحساسات . هذه الخيالات السارية الآتية إلى .. أليست حقيقية ؟ وعلى أى فهى تبدو أكثر طبيعية وأقل صنعة ، ويبدو لى أننى حر ما دمت أفكر فى أفكارى المنطقية ، ولكنى فى مقابل قدرى لا أستطيع أن أصمد أقل صمود .. أن قيادى فى يده فهو يجرنى هناك وهناك .

وصنيعة هذه الحياة التى لا يستطيعون الهرب من بين مخالبها ، لا يستطيعون الصراخ ، لا يستطيعون المقاومة ، الحياة الحمقاء .

والآن لا أنا حى ولا أنا بنائم ، لا شىء يسرنى كما أنه لا لشىء يسوؤنى ، لقد صرت من معارف الموت ، صرت أنيسا له ، هو صديقى الوحيد ، بل هو الشىء الوحيد الذى يسلينى .. وتذكرت مقبرة منبارناس .. أنا لا أحسد الموتى ثانية .. أنا أيضا أعد فى دنياهم ، أنا أيضا معهم ، أنا حى فى مقبرة .

لقد تعبت ، أية معميات كتبتها ، أخذت أقول لنفسى .. أذهب يا مجنون . إرم الورق والمداد بعيدا .. إرمها بعيدا . كفى هراء ، إخرس . فرق أوراقك لئلا تقع هذه السخافات فى يد أحد ، كيف يا ترى سيحكمون على ؟ ولكنى لا أحفل بأحد ، ولا أعلق أهمية على شىء ، وأضحك من الدنيا ومن فيها ، ومهما كانت محاكمتهم لى شديدة ، فهم لا يعلمون أننى حاكمت نفسى أكثر ، هؤلاء الذين يضحكون على لا يعلمون أننى أكثر ضحكا عليهم .. أنا لا أعبأ بنفسى ولا بالجميع ، ولا بكل من يقرأون هذه الأوراق .

كانت هذه المذكرات مع بضعة من الأوراق موجودة فى درج مكتبه .. ولكنه كان ممددا على الفراش وقد نسى أن يتنفس .

٦

المرأة التى فقدت زوجها

« أتقتفى أثر النساء ، أذن لا تنس السوط » .

هكذا قال زرادشت

ف . نيتشه

فى الصباح الباكر أشار شرطى قصير القامة ، أحمر الوجه ، إلى أمرأة تحمل طفلا قائلا لسائق كان يقف فى محطة « قلهك » .

ـ هذه المرأة كانت تريد الذهاب إلى مازندارن ، ولكنها جاءت هنا ، أوصلها إلى المدينة ولك الأجر والثواب .

وصعدت المرأة إلى العربة بلا تفكير وقد أمسكت بطرف خمارها الأسود بين أسنانها ، وحملت على ذراعيها طفلا لم يكمل سنتين . وفى اليد الأخر كان ثمة منديل أبيض معقود ، ثم جلست على مقعد من الجلد ، ووضعت طفلها الأشقر ذا السحنة المصابة بالملاريا على ركبتها ، ونظر ركاب العربة ، إليها بلا أعتناء ، وكانوا ثلاثة من الجنود وامرأتين ، أما السائق فلم يلتفت أصلا لينظر إليها ، وتقدم الشرطى إلى جانب نافذة السيارة ، وقال لها :

ـ لماذا أنت ذاهبة إلى مازندارن ؟

ـ لأبحث عن زوجى .

ـ وهل ضاع زوجك ؟

ـ ... تركنى منذ شهر بلا نفقة ، وذهب

ـ وكيف تعلمين أنه هناك ؟

ـ قال لى صديقه « كل غلام » .

ـ إذا كان زوجك شهما إلى هذا الحد فسيهرب من هناك أيضا !! .. والآن كم معك من النقود ؟

ـ تومانان وقرانان .

ـ وما اسمك ؟

ـ زرين كلاه .

ـ من أين ؟

ـ من أهل « ألو يز شهر يار» .

ـ بدلا من الذهاب للبحث عن زوجك . أذهبى إلى شهريار ، فالآن فصل العنب .. أذهبى وكلى العنب عند أهلك وقومك .. فسوف تذهبين بلا فائدة إلى مازنداران ستكونين هناك غريبة ، وخاصة بأعصابك القوية هذه .

ـ يجب أن أذهب .

قالت زرين كلاه هذه الجملة الأخيرة باطمئنان كامل ، وكأنما كان تصميمها قاطعا لا يقبل التغيير .. وأخذت تحملق بنظراتها الميتة أمامها دون أن ترى شيئا أو تتنبه لأحد ، كان يبدو أنها تتحدث بلا أرادة أو تفكير .. وأن حواسها فى مكان آخر .. ثم إلتفت الشرطى إلى السائق مرة ثانية وقال له :

ـ يا أسطى . أنزل هذه المرأة بجوار بوابة دولت .. ثم أشر لها على الطريق .

وقالت زرين كلاه ، وكأنما تجاسرت بحماية الشرطى .

ـ أنا غريبة .. أشر لى إلى الطريق .. ولك الأجر والثواب .

وسارت السيارة ، وجعلت زرين كلاه تحملق أمامها ثانية بنظراتها الميتة .. ودون أن تتحرك ككلب مركول . كانت ذات عينين واسعتين سوداوين ، وحاجبين متصلين رفيعين وأنف صغير وشفتين بارزتين ممتلئتين وخدين غائرين .. كانت قمحية اللون ذات وجه مشدود ، وظلت تهتز طوال الطريق فى السيارة دون أن تنتبه لأحد أو لشىء . وكان طفلها ساكنا مغموما مقطبا كالمغمى عليه .. ينعس وبيده تفاحة معطبة . وبالقرب من بوابة « دولت » أوقف السائق السيارة ، وأشار لها إلى الطريق الذاهب إلى بوابة « شميران » رأسا ، ونزلت زرين كلاه بغير توان تزحف على الطريق المشمس .. طفلها على كتفها ، وصرتها بيديها . وبجوار بوابة شميران ذهبت زرين كلاه إلى أحد مخازن العربات ، وبعد نصف ساعة من المساومة والتأخير ، رضى صاحب المخزن أن يوصلها بعربته النقل إلى « آسياسر » على ناصية طريق مدينة « سارى » وأخذ منها ست ريالات أجرا ، ثم أرشدت زرين كلاه إلى عربة كبيرة جلس حول سياجها أناس كثيرون شتى لنفس الغرض أيضا ، ووضعوا حاجياتهم فى وسطها ، فالتصوا ببعضهم ، وأوسعوا لها مكانا أستقرت فيه بمشقة .. ومونت السيارة ، ثم ضربت بوقا ، وأنتشرت فى الجو رائحة البنزين والزيت المحترق والدخان ، ثم سارت فى الطريق الترابى الحار .

وكان ما يبدو للنظر فى أول الأمر رتيبا على نسق واحد من جميع الأطراف ، ثم أخذت التلال والجبال والأشجار على جانبى الطريق تغير كل ما هو على مرمى النظر . ولكن زرين كلاه أخذت تنظر أمامها فى يأس . وكانت العربة تقف فى أماكن مختلفة فتفتش تصريحات المسافرين ،

وعند الظهر تعطلت أحدى عجلات السيارة فى « شلنبه » ونزل بعض المسافرين ، ولكن زرين كلاه لم تتحرك من مكانها لأنها خافت أن تتحرك فيضيع عليها المكان .. وفتحت منديلها المعقود ، وأخرجت منه خبزا وجبنا ، ثم أعطت طفلها قطعة خبز جافة وبعض الجبن ، وأكلت هى الأخرى لقيمات ، وكان طفلها كالعصفور المخدر لا صوت له ولا حس ، وكان دائم النوم ، يبدو ألا قدرة لديه على الكلام أو حتى على البكاء . وأخيرا سارت العربة فى الطريق ، ومرت ساعات وهى تمر فى جبال « جابن » و « فيروزكوه » ، ثم ظهرت مناظر الغابة الجميلة ، ولكن زرين كلاه ظلت تنظر إلى كل هذه التغيرات بنظراتها الميتة بلا مبالاة .. وتولد فيها سرور خفى غامض .

أخذ قلبها يدق بسرعة . وتنفست بأنطلاق إذ أنها أقتربت من هدفها ، وفى الغد سوف تستطيع أن تجد زوجها « كل ببو » .. ترى كيف يكون منزله ؟ وما شكل أقربائه ، وكيف سيعاملونها ؟ وبعد شهر من الفراق كيف سيكون لقاؤها مع « كل ببو » ؟ وماذا ستقول له ؟ ولكنها تعلم أنها أمام « كل ببو » لا تستطيع أن تنبس ببنت شفه ، فينعقد لسانها عن الكلام ، وتسلب منها كل قوة ، وكأنما كانت هناك فى « كل ببو » قوة خاصة تشل كل تفكيرها وارادتها وقواها وتجعلها تابعا محضا له . وكانت زرين كلاه تعلم أنه على العكس من تلك ، سوف يهددها كل ببو ثم يضربها بالسوط ، نفس السوط المشهور الذى كان يضرب به حميره ، ولكن زرين كلاه كانت ذاهبة من أجل هذا ، أنها تشتهى نفس هذا السوط . وربما كانت ذاهبة فى الأصل لتضرب به .. أما المناظر التى حولها . والجو الرطب ، والغابة . والمناظر الخلابة التى على مرمى النظر.. والرجال الذين يعملون على البعد، والرجل ذو القباء المصنوع من البافته الزرقاء الذى كان يقف إلى جوار الطريق يأكل

العنب ، والمنازل الريفية التى كانت تمر أمامها .. كل هذا كان يعيد إلى زرين كلاه ذكريات الطفولة .

مر عامان منذ أن صارت زرين كلاه زوجة لكل ببو . وكانت أول مرة رأت فيها « زرين كلاه »« كل ببو » فى يوم من أيام موسم قطف العنب . وكان عمل « زرين كلاه » و « مهربانو » ابنة جارتهم و « موجول » وأختيها « خورشيد » و « بمانى » أن يذهبن كل صباح مع جمع من الرجال والنساء والبنات حيث أشجار الكروم ليجمعوا ثمارها ، ثم يضعوا العناقيد المتلألئة فى سلال أو فى صناديق خشبية .. ثم يحملونها ويذهبون بها إلى شجرة « شنار » عجوز بجوار نهر « سياه آب » وكانوا يتبركون بها ، وهناك كانت أمها مع « كوهر بانو » و « أم عباس » و « خوشقدم باجى » و « كشور سلطان » و « أدى كلداد » و « خدايار » يقمن بتحويل أحمال العنب إلى شيخ قريتهم « برندك » المسمى « ماندكار على » .. فى ذلك اليوم كان هناك حمال جديد هو « كل ببو » المازندارانى الذى كان يحمل السلال ويغنى أغنية من مازنداران ويحفظها للفتيات ، وكان ذلك باعث مرحهن إذ كانوا يتغنون بها معه ، وكان كل ببو ينطق هذه الأغنية بلهجة صحيحة ، فتقهقه الفتيات ، وقد دام هذا الأمر حتى عصر ذلك اليوم .. ولكن الشىء الذى جذب الفتيات لكل ببو ، لم يكن أغنيته دائما ، بل كان هو نفسه وجرأته التى تسلطت على قلوبهن وخاصة قلب زرين كلاه . وبمجرد أن رأت زرين كلاه قوامه الملفوف ورقبته الغليظة ، وشفتيه الحمراوين ، وشعره الأشقر ، وساعده الأبيض الذى يطل منه الشعر ، وبخاصة حين رأت السرعة التى كان يبرزها فى نقل السلال الممتلئة الثقيلة حينما رأت ذلك لم تكن تملك نفسها .

وفضلا عن الميل الذى كان « كل ببو » يبديه لها ، فإن هذه النظرات المحرقة المتبادلة بينهما ، كانت كفيلة بأن تجعل « زرين» التى لم تكن سوى فتاة فى الرابعة عشرة مفتونة به، فأخذ قلب« زرين كلاه » يرق له . وكانت الألوان تتراءى على وجهها . إذ أنها قد أكتشفت وأحست شيئا جديدا لم يكن له سابقة حتى ذلك اليوم . فلم تكن قبل اليوم تعتبر صوت الرجل شيئا جديدا . كانت أمها تضربها دائما وتضيق عليها . أما أختاها الكبريان فكانتا تنظران إليها بنفس العين وتنافسانها ، وتخفيان عنها ما يكون بينهما من سر .

ومع أن « زرين كلاه » كانت كثيرا ما تفكر فى الرجل إلا أنها لم تكن لتجرأ على سؤال أحد ، إذ كانت تعلم أن هذا تفكير سيء قبيح يجب أن تتجنبه ..... ولكن فى بعض الأحيان ، كانت « مهربانو » ابنة الجيران و « كوشولو » و « بلورى » يتحدثن إليها بأسرار الرجال . وكن يثرن حب الاستطلاع فى زرين كلاه ويفتحن أذنيها وعينيها . وحتى « مهربانو » كانت تقول لها عن مواعيدها السرية مع شيرزاد بن ماندكار على . ولكن كل هذه الأفكار التى تخيلتها زرين كلاه عن الحب والرغبة بينها وبين نفسها أذابتها نظرة من نظرات كل ببو ... فلم تعد قدماها تقويان على حملها ، وأحست بشيء لا يمكن التعبير عنه . وكانت تعلم إلى حد كبير أن كل ذرة من ذرات جسدها تحب « كل ببو » وأنها صارت فى حاجة إليه منذ الساعة ، وأن حياتها بدون « كل ببو » غير ممكنة ، وتحملها أمر لا يطاق ، ومن حسن الحظ أن « زرين كلاه » كانت تلبس الملاءة الحمراء الجديدة ، وتلف رأسها بالغطاء الجميل الذى اشترته عمتها من مشهد ، ومن ورائه ظهرت ضفائرها المجدولة ذات الذوائب السبع ، فزادتها بهاء على بهاء ، وبرزت فيها لطافة القدر وحسن التثنى وجمال الصورة .

وربما كانت هذه المناسبة هى التى جعلت « كل ببو » يعود ويختلس النظر إليها ويبتسم لها وسط مئات الفتيات وهرجهن . وبكل المهارة والذكاء والاحساسات التى يمكن أن تكون لفتاة فى الرابعة عشرة ، لم يعد لزرين كلاه شك فى أن كل ببو يميل إليها وأن ثمة علاقة خاصة نشأت بينهما . ترى : ما الذى يجب عمله فى ذلك الموقف ؟ أخذت الدماء تسرع فى جسدها حتى أحست أن وجنتيها قد التهبتا بالحرارة ... وكأنما أوقدت فيهما شعلة ... وتضرجتا بالحمرة حتى إنتبهت إليها « شهربانو » بنت كشور سلطان ... هل تستطيع زرين كلاه أن تأمل فى أن تكون زوجة لكل ببو ؟ ! فى الوقت الذى لها أختان أكبر منها لم تتزوجا بعد ... وغير ذلك فهى لدى والدتها أشأمهن جميعا ، إذ توفى أبوها قبل أن تولد ، وكانت أمها تعيرها قائلة : « لقد أكلت رأس أبيك » ، وكانت تسميها « قدم النحس » ، وفى الحقيقة أن أم زرين كلاه حين ولدتها سقطت طريحة الفراش شهرين بالملاريا ... ومن ثم كانت تتشاءم منها .

وعند غروب ذلك اليوم ، وحينما انتهى العمل من جميع أعمالهم ، وأخذوا يخرجون من بين أغصان الكروم التى تشبه الحبال البنية الملتفة حول نفسها من أعلى ومن أسفل ، ذهبوا إلى نهر « سياه آب » ثم حولوا العنب كعادتهم كل يوم إلى شيخ قريتهم « ماندكار على » ، واتجهت زرين كلاه ومهربانو وأمهما ، وجوجل التى قابلتهن فى الطريق إلى قلعتهن الطينية ذات البرج والسور العالى ، وطفقت « زرين كلاه » تتحدث مع مهربانو عن حبها ، وقد شجعتها مهربانو ، وقالت لها أنها لن تبخل عليها بأية مساعدة تستطيعها .

وأية ليلة قاسية باتتها « زرين كلاه » ، كانت ليلة مقمرة ، ولكن النوم لم يطرق لها جفن ، فقامت لتشرب ، ثم ذهبت إلى فناء المنزل ..

لا .. ليس عندها ميل للنوم . وكان النسيم يهب باردا . وبالرغم من صدرها المفتوح لم تحس بالبرد ، وكان شخير أمها الذى يشبه صوت التنين مسموعا فى حجرة النوم ... إنها لو استيقظت دقيقة لنادتها ... ولكن أية أهمية لذلك ؟ لقد أحست فى كل وجودها بادرة الثورة والانفجار ... وذهبت متسللة إلى جوار الحوض ، ووقفت تحت شجرة الدردار ... فى تلك الساعة كأنما كانت شجرة الدردار والسماء والنجوم وشعاع القمر تتحدث إليها بلسان خاص .

كانت هناك حالة مثيرة للحزن ولذيذة لم تحسها من قبل وكانت تفهم جيدا لسان الاشجار والمياه والنسيم وحتى الحوائط العالية للمنزل والقلعة التى تحيط به وصوت اناء لبن الزبادى الذى يوضع بجوار الحوض ليبرد . وكانت النجوم كحبات الندى مبعثرة فى الهواء . كانت ضعيفة تلمع بضوء مرتعش من الخوف ، كل هذه الأشياء ، وكل شىء عادى بلا أهمية ، بدا لنظرها عجيبا غير طبيعى ومليئا بالأسرار وذا معنى عميق مجهول لم يصل إليه تفكيرها قط .

وبلا ارادة أمرت يدها على صدرها ، ثم صعدت بها إلى ساعدها ، وكان النسيم قد بعثر ضفائرها ، وأخيرا جلست بجوار الحوض ، تغالب البكاء ، ثم إنفجرت باكية ، وأخذت حبات الدمع تتدحرج على وجنتيها ... هذا الجسد الناعم والخصر النحيل قد هيأ لاحتضان « كل بو » وثدياها الصغيران ، وساعداها وكل جسدها خير له أن يذهب تحت الطين ، أن يتحلل تحت التراب ، أن تهاجمها التجاعيد وهى فى منزل أمها بين الشتائم والشقاء ، يتهدل ثدياها وينكمشان ، ويتغضن جسدها وتذبل بهجتها ، بلا فائدة ولا نتيجة ولا حب . كانت تريد أن تمرغ جسدها فى التراب . وأن تمزق قميصها قطعا حتى تستريح من شر هذا الغيظ وهذا الشقاء الذى كتم أنفاسها .

وأخذت تبكى متألمة ... وفى هذا الوقت تجسدت أمامها كل محن حياتها ، الشتائم التى سمعتها ... والركلات التى نالتها ... حتى منذ أن كانت طفلة أمها تضربها على رأسها ، ثم تعطيها كسرة من الخبز ، وتغلق باب المنزل دونها ، لتلعب مع الأطفال المصابين بالقراع وبالرمد .

لم تر من أمها قط وجها باشا وقلبا حانيا ، وقد بدت لها كل هذه المحن أعظم وأشد هولا مما كانت عشر مرات . فقط كانت مهربانو وأمها اللتان تواسيانها . وحينما كانت أمها تعذبها كانت تلجأ إلى منزلهم .

وجففت زرين كلاه دموعها بطرف كمها ، وأحست أنها استراحت قليلا . وبعد أن أخمدت فى نفسها الاضطراب والثورة ، أحست بالراحة .. غمرها نوع من الراحة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها .. فأغمضت عينيها ، واستنشقت الهواء الجميل ، ولكن صورة « كل ببو » لم تذهب من أمام عينها قط ، بسواعده القوية التى كانت تحمل الأحمال الثقيلة ذات الامنان العشرة ثم تضعها على ظهر الحمار كما لو كانت قشة .. وشعره الغزير الممشط الاشقر ... رقبته الغليظة الحمراء ، وحاجبيه الكثيفين المقرونين ، وذقنه الممتلىء بالشعر المتداخل .

الآن أحست أن ثمة دنيا أخرى لها وجود وراء دنياها المحدودة التى كانت تتصورها .

وأخيرا ضربت وجهها بقبضة من الماء ثم عادت ورقدت فى فراشها ، ولكن النوم لم يزرها ، وأخذت طوال الليل تتقلب فى الفراش . ثم نذرت بينها وبين نفسها إنها إذا نالت بغيتها وصارت

زوجة لكل ببو ... فسوف تشترى حمامة وتطلقها كما أطلقت هى من السجن فى منزل أبيها ، ولأضاءت شمعة ليلة الجمعة فى مقام السيدة سكينة إذ أن ستارة بنت عبد الله ميرآب نذرت نفس النذر وتزوجت .

وفى صباح اليوم التالى ، نهضت « زرين كلاه » مبكرة وجفونها حمراء لم تذق النوم .. وذهبت تقطف العنب ، وقفت فى أول الطريق المار بنهر سياه آب تحت شجرة الشنار المباركة ، وفى نفس المكان الذى كان « كل ببو » ، يحمل فيه العنب . وكانت هنا بعض آثار اليوم السابق من أوراق العنب المداسة ، وروث الحمير ، ولب اليقطين المبعثرة على الأرض . فمدت « زرين كلاه » يدها وأخرجت خرقة من جيب قميصها ، وعقدتها فى فرع من فروع شجرة الشنار ناذرة ما عزمت عليه ، ولكنها ما إن استدارت حتى وجدت مهربانو التى قالت لها :

– لماذا لم تنتظرينى اليوم ؟ ! وماذا تفعلين هنا ؟

– لا شىء ... ظننت أنك نائمة حتى الآن .. ولم أشأ أن أوقظك ، وقد خرجت مبكرة جدا .

فقطعت مهربانو حديثها وقالت :

– أنا أعلم أن ذلك من أجل « كل ببو » .

وأخذت « زرين كلاه » تشكو لمهربانو كل آلام قلبها ، وتحدثت إليها عن سهرها ، وعن النذر الذى نذرته ... وتشاورتا . وأخذت مهربانو تشجعها ، واستقر رأيهما على أن تحدث مهربانو أمها فى شأنها ، لأن أم مهربانو هى الشخص الوحيد الذى كان يحب « زرين كلاه » ، وفى الضحى لم تر « زرين كلاه » « كل ببو » على طول

انتظارها له . ولكن مهربانو أخبرتها أن « كل ببو » يعمل فى « بكه » .

وفى الظهيرة حينما عادا إلى المنزل للغذاء ... أغلقت زرين كلاه باب الحجرة عليها ، وصففت شعرها أمام المرآة التى لا اطار لها ، والتى كانت تحتفظ بها فى صندوقها . ودققت فى حالات وجهها وحركاتها لترى كيف تضحك حين تقابل « كل ببو » عصرا ، وأى الحركات يجب أن تبديها لتقع فى قلبه موقعا طيبا . وأخيرا فضلت ابتسامة قصيرة إذ أن الابتسامة الكبيرة تبدى أسنانها التى لم تكن جميلة ، وأدنت خصلة من شعرها من جبهتها ، ثم ابتسمت راضية .. إذ رأت نفسها جميلة جديرة بأن تحب ... وقد بدا كل شىء متناسبا ... رموشها الطويلة ، وابتسامتها الفتانة ، ووجهها الطفولى الساذج ، والخط الذى كان يبدو بجوار شفتيها ، والحمرة الشديدة التى كانت تظهر على وجنتيها القمحيتين ، وشفتاها الممتلئة الأشد حمرة التى تشبه العنب الأحمر الكبير (الشاهانى) ، وفمها الحار . وعيناها ، وبخاصة عيناها ، ومثل تلك النظرة الفتانة التى كانت أم مهربانو تقول لها دائما « أن عينيك جذابتان » ، كل هذا اعطاها امتيازا على الفتيات الآخريات .

وحينما عادت « زرين كلا » بعد الظهر مع مهربانو لقطف العنب ، كانت مسرورة من قلبها ، فقد صممت أن تظهر نفسها لكل ببو مهما حدث . وقد زاد سرور زرين كلاه عندما رأت كل ببو هناك، وقد أمضى العصر يغنى ويمزح أثناء العمل ، وأصبحت زرين كلاه التى كانت قبل ذلك ذابلة حزينة ، تحمل عناقيد العنب فرحة مسرورة ، وكانت تأخذ الفأل منها ، تأخذ احد العناقيد فتأكل حبة

وتعطى لمهربانو حبة ، وقد أسرت فى نفسها أنه لو وقعت الحبة الأخيرة من نصيبها فسوف تصير زوجة لكل ببو وتصل إلى بغيتها .

وحينما عادوا عند الغروب إلى شجرة الشنار تبادل كل ببو وزرين كلاه النظرات للمرة الثانية ، وابتسم لها كل ببو وأجابته زرين كلاه بابتسامة وبنفس الطريقة التى ارتضتها المرآة ، وهزت رأسها بدلال وخفة خاصة سقطت خصلة الشعر على جبهتها .

وظل هكذا حتى اليوم الرابع ، وكانت جرأة زرين كلاه وجسارتها تزيد يوما بعد يوم ، وقليلا قليلا نشأت بينها وبين كل ببو علاقة خاصة ، حتى كان اليوم الرابع حينما أتت مهربانو لزرين كلاه بالبشرى . إن أمها قد هيأت الأمر ، ومن شدة الفرح أخذت زرين كلاه تقبل مهربانو فى شفتيها ... ترى كيف هيأت الأمر ؟ ومع من تحدثت ؟ لم يكن من اللازم أن تفهم شيئا قط إذ أنها كانت تعلم جيدا أن بعض العجائز لهن تجارب فى الحياة ولهن فى التزويج والوساطة مهارة خاصة ، وهن يعرفن الوسائل التى ليس لفتاة فى سنها أن تعرفها . إنها الآن تستطيع أن تدرك أنها بلغت كل ما ترجوه . ولكن المشكلة كانت فى رضاء أمها ، إذ تخرج عن طورها حالما تسمع الخبر وتنفجر مشتعلة ، وتسب وتشتم سبابا فاضحا من الشتائم التى تدور على لسانها ، إذ أنها كانت تأخذ أجر زرين كلاه اليومى ثلاثة دراهم ... وأخيرا بعد إصرار وضغط أم مهربانو ، رضيت أمها ... وبعد مشاجرات اشترت لها طاقما من الملابس الحمراء ، ولكنها كانت كلما فصلوا قطعة منه تسب وتصيح قائلة « إن شاء الله يغسلك الحانوتى ، وتروحى فى داهية ، وينقلب عرسك مأتم ، ولا ينوبك إلا التعب ويتحرق كبدك ، وتبقى الحسرة فى قلبك ، وتموتى فى شبابك أنت

KMH

وهذا الزوج الحافى الذى وجدتيه » . ولكن آذن زرين كلاه كانت ممتلئة بهذه الشتائم فلم تعد تؤثر فيها . وجهزوا لها قدرا نحاسيا وغلاية معدينة صغيرة .

وفى عصر أحد الأيام دعت أم مهربانو أهل القرية . واجتمعت النساء القرويات اللائى يشبهن الدمى الحمصية ، والطراحات على رؤوسهن ، والمناديل حول رقابهن ، وجئن لحضور عرس زرين كلاه ، ولكن أختيها خورشيد وبمانى لم تكونا هناك . وحضر معلم القرية « سيد معصوم » فعقد زواج زرين كلاه على كل ببو ، وبعد ذلك صعد المنبر وقرأ قليلا من الروضة[1] للتبرك ، وأمرت أمها أن يقرأ روضة « عرس قاسم » وبكى الجميع ، وحين إنتهى مجلس الروضة ، وقف ماندكار على وابنه شيرازاد حول العريس ، وأمسك كل منهما بناحية منه .. ودخلوا المجلس ثم جلسوا على أريكة فرش عليها شال . ووقف شيرزاد فى تلك اللحظة ليجمع الهبات ، وذهب أولا إلى أبيه وابتسم قائلا « دعونى أغرم أبى أولا » ، وذهبت مهربانو - التى كانت تحمل طبقا من الصينى وجعلت تدور به - إلى مانكار على ، فأخرج تومانين ووضعهما فى طبق . وعلى الفور ضرب الطبال الذى كان يجلس فى ركن من المجلس على طبلة ثم قال : « أعطيت تومانين إن شاء الله يعمر بيتك » .. وعلى هذا النسق جمعوا لزرين كلاه ثلاثين تومانا وإنتهى الحفل بسرور .

وفى صبيحة اليوم التالى ودعت زرين كلاه أختيها وأمها ، ولكن أمها بدلا من تقبل منها ذلك بوجه بشوش ، خرجت خلفها حتى

---

(١) المقصود بالروضة سير آل البيت . وهى باب كبير من أبواب الأدب الشعبى الفارسى - وزواج القاسم فيما تقص هذه السير حدث فى كربلاء أثناء المذبحة الشهيرة .

الباب كالخنزير المجدور ، بوجه كقشرة بطيخ نقرتها الطيور ، وطفقت تسبها . ثم ذهبت زرين كلاه إلى منزل مهربانو حيث ودعتها وأمها وقبلت وجهها .. وأعطتها ما تشترى به شمعة تشعلها فى مقام السيدة سكينة وحمامة تطلقها ... وحملت زرين كلاه حاجياتها ، الغلاية والقدر النحاسى .. وذهبت إلى شجرة الشنار المباركة التى رأت تحتها كل ببو لأول مرة . فركبت حمارا وركل كل ببو حمارا رحلا معا إلى طهران . وظلا يوما بليلة فى الطريق . كانت زرين كلاه تريد أن تطير من الفرح . فأخذت تتحدث بصوت عال ، وارتفع ضوء القمر ، فطوق كل ببو رقبتها غير مرة بيديه الممتلئتين قوة ، وطفق يأخذ من شفتيها قبلات قوية ، وكان طعم فمه مالحا كالدموع ، وكان كل ببو يتفاءل باسم زرين كلاه خاصة إن اسم قريته فى مازندران زرين آباد ، وكان يعتبر هذه المصادفة من قبيل الحظ السعيد .

وحينما وصلا إلى طهران ، عاشا سعداء لمدة شهرين فى حجرة صغيرة استأجراها فى محله « سر جشمه » وكان كل ببو يذهب نهارا إلى العمل ، أما زرين كلاه فكانت تكنس وترتق الملابس وتنهى أعمال المنزل ، ويمضيان الليل معا فى دلال وحبور ، بحيث نسيت زرين كلاه طفولتها وأختيها وأمها بل ومهربانو كلية .

لكن لعن الله رفقاء السوء ألف مرة . ففى أول الشهر الثالث تغيرت أخلاق كل ببو ، فأصبح يدخن الأفيون كل ليلة فى مقهى رضا سيبليو مع « كل غلام » وصار لا يعطى زوجته أية نفقة . والشىء الغريب أنه بدلا من أن يجعله الأفيون بلا حس أو إرادة ، أصابه بمرض الوسوسة . فما يكاد يذهب إلى المنزل حتى يسحب السوط ويضربها به علقة ساخنة ، كان أول الأمر يثير مناقشة أو جدلا ، فيتسقط لها

الأخطاء البسيطة ، مثلا : لماذا أحرقت جانبا من طراحتك ؟ أو لم تركت الغلاية طويلا على النار ؟ أو أن الحساء كان أول أمس كثير الملح ... وحينئذ يبحث بعينيه البراقتين القلقتين ، ثم يأخذ السوط الجلدى الأسود ذو العقدتين من طرفه .. نفس السوط الذى كان يضرب به حماريه ، ثم يلفه فى الهواء حول رأسه ويداعب به فخذ زرين كلاه ووسطها . وكانت تلف طراحتها حول نفسها وتتأوه وتتوجع حتى يأتى الجيران على باب الحجرة ، يسبون ويشتمون ، وينصحون كل ببو ، فيرفسها رفسا ، ويرمى السوط فى احدى فجوات الحجرة ، ولكن توجع زرين كلاه وألمها وبكاؤها الرتيب كان يستمر ساعات ، وحينئذ كان كل ببو يذهب متلذذا ويجلس القرفصاء فى أحد أركان الحجرة ، وقد ارتكن إلى الصندوق ، ثم يشعل غليونه . وكان السروال الأزرق القصير ينزل عن ركبتيه ، ويتجمع فى فخذيه ، وكانت زرين كلاه تخرج من حال إلى حال حين ترى سيقانه القوية الملفوفة التى التف حولها « الجدر » شبرا ، وأفخاذه البيضاء التى كثيرا ما كانت تبدو ، يسأل « كل ببو » : ماذا لدينا الليلة يا امرأة ؟ فتنهض زرين كلاه بدلال وهى تتثنى ، فتأتى بالقدر ثم تصبه فى الطبق النحاسى ويغمسان الخبز فى الطبق ويأكلانه بالبصل الأخضر ، وأخيرا ينظفان أيديهم فى أطراف أرديتهما . وعندما كانت زرين كلاه تخفت السراج ليذهبا للنوم فى الفراش الأحمر ذى الورود الخضراء والالوان السوداء ، كان كل ببو يقبل عينى زرين كلاه الدمعة المالحة الطعم ، ثم يتصالحان ... وكان هذا يتكرر كل ليلة .

ومع أن زرين كلاه كانت تتلوى وتتألم تحت السوط ، إلا أنها كانت تتلذذ فى الحقيقة ، كانت تحس بنفسها صغيرة عاجزة أمام « كل ببو » ، وأنها كلما ضربت بالسوط أكثر كلما صارت علاقتها أكثر

توطدا ، كانت تريد أن تقبل ساعديه القويين الملفوفين ، وكانت تحب هذا الوجه الاحمر والرقبة الغليظة ، والايدى القوية ، والجسد المشعر والشفتين الممتلئتين الكبيرتين والاسنان الناصعة البياض ، ثم كانت تحب بخاصة رائحة جسده .. رائحة كل ببو التى كانت تشبه رائحة فناء الاسطبل ، وحركاته الخشنة القوية ، كانت تحب بخاصة ضرباته لها ، كانت تحب ذلك منه أشد الحب .

ترى هل كان من الممكن أن تجد زوجا خيرا منه ؟ ! !

وفى نهاية التسعة شهور وضعت زرين كلاه غلاما ، وعندما ولد الطفل كان فى ظهره أثران على هيئة خطين أحمرين ، وكانت زرين كلا تعتقد أن هذين الخطين من أثر ضرب « كل ببو » لها . وأنه انتقل إلى طفلها . ولكن ولدها كان عليلا دائما ومريضا ، وقد سمته زرين كلاه « مانده على » إذ ألهمها هذا الاسم « ماندكار على » شيخ « برندك » وقد سمته هذا الاسم لكى يعيش .

وبعد قليل كسد سوق كل ببو ، إذ نفق أحد حماريه ، ثم باع الآخر وصرف ثمنه على الأفيون ، والأحجبة ، وعلاج حمى أصابته . وأخذ بعد ذلك يذهب إلى العمل بلا إنتظام ، حتى إذا إنتهى العام أعطى لزرين كلاه خمسة تومانات وأخبرها أنه ذاهب فى عمل يستغرق عشرين يوما وسيعود . ولكن العشرين يوما صارت شهرا ، ومر من الشهر الآخر قليل أيضا ، وكانت زرين كلاه قد تعودت الاقتصاد ، وكانت تقتصد من أكلها وأكل ولدها ، وكانت تعمل وتستطيع أن تنتظر عاما آخر ، ولكن حينما تكون مطمئنة إلى أن كل ببو زوجها سوف يعود إليها . إذ أنها كانت تتصور أن كل إمرأة ترى كل ببو

لا تملك نفسها ، وإذن فمن الممكن أن تسلب الفاتنات زوجها بسهولة .

ولهذا السبب أخذت تبحث عنه ، وأخذت تسأل فى كل مكان وتستفسر من كل شخص عن زوجها كل ببو ، ولم يكن أحد يخبرها ، حتى ذهبت ليلة مقهى رضا سيبليو ، وحينما فتحت الباب تطاير دخان الأفيون ، وظهرت الوجوه الصفراء والأعين الجاحظة من محاجرها ، والسحنات التى لا تصدق ، والتى كانت تسبح بأفكارها المريضة فى عالم من الخلسة والغيبيات بحرية وفى إنسجام كامل . وكانت « زرين كلاه » تعرف « كل غلام » فنادته وسألته عن كل ببو فقال لها كل غلام .

– تتحدثين عن فلان ... ذهب ليجىء السنة القادمة مع سقوط الجليد .. ترك زوجته وابنه ، وذهبت إلى قريته زرين آباد . وأوصانى بألا أدل أحدا عليه .

– زرين آباد .

– أجل ، زرين آباد

إهتزت زرين كلاه من الخبر ، وأردكت أن كل ببو قد خدعها وتركها إلى قريته ، إذ أنه كثيرا ما قال لها أن أسرته تقيم فى زرين آباد فى نهاية طريق مدينة سارى ، وله هناك أخوة وقطعة من الأرض ومجرى ماء ومرعى . وكان كل ببو من فرط كسله ، يتحدث إليها دائما عن آماله ورغباته فى أن يذهب إلى هناك ولا يشتغل ، ولكن ليأكل فقط ، وعلى حد قوله « يأكل خياره ، ويسند أقدامه على الحائط وينام » .

وكانت زرين كلاه تعده أنها ستعمل من أجله هناك ، ولكن كل ببو يجيبها اجابات مختصرة .. وكان أن صممت زرين كلاه على

الذهاب إلى مازنداران فورا لكى تجد كل ببو ، ألا يكفى شهر ! وهل كانت تستطيع أن تمكث أكثر من ذلك وعيناها على الطريق ؟ لم يكن تحمل نأى كل ببو مقبولا لديها ، أنفاسه الحارة ، سخونة جسده ، شعر جسده الكث القذر ، ورائحته ... رائحة فناء الاسطبل ، وقد أخذت كل هذه الخواص تتجلى لزرين كلاه فى فراقه الطويل على نسق غامض فتان ، وعلى وجه اليقين أنها لم تكن لتستطيع العيش دون كل ببو .

فليكن ما يكون ... إنها تريده ، لم تكن تملك هذا الامر ، لقد مر عام وقد إعتادت عليه .. ومنذ شهر ... لا ... أكثر من شهر لم تسمع خبرا عن زوجها . كانت زرين كلاه تشتهى أن ترى كل ببو ثانية ، أن يضربها ثانية بنفس السوط الذى يضرب به الحمر ، أن يحتضنها مرتين ، أو مرة واحدة فحسب ، وأن يعضها ويضغط عليها كعادته . وأخذت تقبل الجروح الزرقاء التى نشأت من أثر السوط على ساعديها وتدلك بها وجهها . وتجلت لها ذكريات الماضى بطريقة فاتنة ساحرة . كانت تريد أن تقبل كل ببو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ... أن تشمه وتداعبه .. الأمر الذى لم تجرأ عليه فى أى وقت .. أنها الآن عرفت قدره وقيمته ... حينما كان كل ببو يأخذها بين ذراعيه الممدودين ثم يضغطها على صدره .. كانت تغمرها حالة لذيذة لا تستطيع بيانها ... حاجباه الغليظان ... رموشه الخشنة ... واللحية الحنائية الاكثر خشونة والنازلة كمقبض المكنسة .. واللغد تحت ذقنه المنفوخ ، وخداه الأحمران ، المنزلقان على بعضهما كمجرى الطاحون . حينما يأخذها،خبز المشمش وأسنانه البيضاء القوية وعيناه البراقتان الواسعتان ... وفوداه المتحركان .. هذا المنظر الذى إذا رآه

طفل فى الظلام لخاف ، وظن أنه غول بلا ذيل ولا قرن ... كل ذلك كان فى عين زرين كلاه أعظم الأشياء .

وكانت على العكس حين تتذكر بيتها فى الريف يرتجف جسدها ، ذلك السباب الذى كانت تسمعه ، الصفعات ، والشتائم .. لا يرغب قلبها قط فى العودة إلى هذه المحنة وتلك الذلة .. ألم يكن كل ببو ملاك نجاتها ؟ ولكن الشخص الوحيد الذى كانت تحبه هناك مهربانو ابنة جارتهم .. لقد كانت تود أن تراها ، ولكنها لا تريد الرجوع إلى منزلها قط . هذه الوجوه العجوز والأخلاق التى قبحت عن ذى قبل ، إن قلبها لا يريد أن يراها قط ، كانت تفضل الموت ألف مرة على العودة إلى « ألويز » .

وتذكرت ليلة زفافها حين كانت « كشور سلطان » تضرب الدف وتغنى :

منـــزل الأب الخبـــز والتيـــن
ومنـــزل الـــزوج الضـــرب والجنزيـــر
إن شاء الله يكون مبارك

لا ، إن زرين كلاه تفضل الضرب والقيد فى منزل زوجها ، على خبز أبيها وتينه . كانت مستعدة أن تستجدى فى الطرقات ولا تذهب إليه .. لا إنها لم تنس إلى الآن شتائم أمها ، لم تنس رغبتها فى أن يقرأوا روضة عرس قاسم ليلة زواجها ، وبكاءها بصوت عال ، لم تنس يديها اللتين كانت تضربها على الموقد ، وتقول وهى تلعنها ، وكأنها تتحدث إلى أرواح مجهولة وتطلب منها المساعدة « الهى ياخذك فرن ، الهى يتحرق كبدك .. ولا تنالى إلا الشقاء .. وينقلب عرسك مأتما ... بعد ذلك تسمع الأمر والنهى ، فهناك حينما تتحرك إلى اليسار ألف نوع من

السباب ، وحين تتحرك إلى اليمين ألف نوع من الاتهام ... ثم إن أمها تنهال على رأسها بطعناتها الجارحة قائلة : « الم أقل لك أن هذه اللقمة كبيرة على فمك ... إنك لن تحتفظى بزوج قط .. كان خيرا له أن يتزوج خورشيد كلاه ، أنه لا يناسبك ... إن كل ببو لا يصلح زوجا لك » وهكذا تنهال عليها بهذا السباب الجارح . وارتعدت زرين كلاه من هذا التفكير . لا ... إنها كانت تفضل ذلك على العودة إلى منزل أمها .

ولم تترك « زرين كلاه » هذه الفكرة تتطرق إليها وهى : أنها لن ترى كل ببو ثانية إن كل ببو هو الوحيد الذى يستطيع أن يضىء نظراتها الميتة ... أن ينفث روحا جديدة فى جسدها الذابل .. كانت تريد أن تعرف مكانه بأى ثمن ... وعلى فرض أنه تزوج امرأة أخرى ، أو أنه لا يريدها ، يكفى أن تكون قريبة منه ، ولو اضطرت إلى أن تستجدى فى الطريق الذى يمر منه . أفلا تراه مرة على الأقل فى اليوم ؟ ولو أنه ضربها ... أذلها ... دفعها عن نفسه لكان خيرا لها من العودة إلى منزلها . إنها لا تستطيع .. ليس الامر بالقوة .. هكذا خلقت . أما طفلها مانده على فهو وجود لم يكن ينتظره ، لكنها لا تحس بعلقة به ، كما كانت أمها لا تحس نحوها بعلقة ، ولكن الحاجة دعت إليه فى الوقت الحاضر ، فقد سمعت أن الطفل كالمسمار الذى يربط بين جانبى المقص . والآن بهذا السلاح الذى تملك كانت تأمل أنها ربما تستطيع أن تعيد الحب الضائع بينهما بواسطة هذا الطفل . كانت تطعمه جيدا وتحضر له الفاكهة حتى يتعلق بها . وكانت العلاقة الوحيدة التى تشعر بها تجاه طفلها أنه كان ذا شعر أشقر مثل كل ببو . ولكى لا يبكى الطفل أو يشاغب كانت تعطيه قرصا صغيرا من الأفيون ، ولذا كان الطفل دائم النعاس . وكان لدى زرين كلاه اطمئنان كامل بأنها

بالسؤال سوف تعرف مكان كل ببو . كان قلبها واحساسها يدلانها على أنها سوف تصل إلى غايتها. هذا الميل والفراسة الطبيعية اللذان لم يخدعاها قط .

وفى اليوم الذى صممت على الذهاب فيه ، نذرت شمعة للسبيل الذى كان بجوارهم حتى تجد « كل ببو » . ثم باعت الغلاية المعدنية والقدر النحاسى ، وكانا كل جهازها وقضت ما عليها من ديون ، وكانت تبلغ اثنى عشر قرانا لتجار الحى ، ووضعت ما لديها من أشياء صغيرة فى صندوق قديم أودعته صاحب المنزل كرهينة لديه على ما له دين ، ثم أصرت فى المنديل قميصين وطاقم ملابس لمانده على ، مع قدر من الخبز وقطعتين من خبز المشمش الذى كان « كل ببو » يحبه ويأكله بشهية . وبعد ثلاثة أيام من السعى قطعت تذكرة إلى مازنداران . وفى الصباح الباكر أقلعت ، ولأن أعصابها كانت مرهقة أخطأت فبدلا من أن تركب سيارة مازاندران ، ذهبت إلى شميران . وأعادها الشرطى فى سيارة أخرى ، ثم ركبت سيارة ثانية من بوابة شميران إلى مازندران .

ووقفت السيارة فى « شاهى » ، ويبدأ الجو يظلم بالتدريج وظهرت الأبنية المشيدة حديثا ، والناس يغدون ويروحون والخضرة ، والرجال يلبسون أقبية أو أحذية قطنية أو أردية واسعة وسراويل زرقاء ويشبهون « كل ببو » تماما . ونزل مسافران هناك وانفسح المكان قليلا .. وسارت السيارة ثانية ، وكان الجو رطبا ، والضباب منتشراً ، وأحست زرين كلاه براحة وسعادة غامضة تملأ نفسها كالشخص الذى يسير فى مدينة غريبا شريدا بلا مال ولا أمل ولا مستقبل . كان جسدها متعبا وشفتاها جافتين ، وأحست قليلا

بالجوع ، ولكن حركة السيارة ، والجو المظلم والناس الذين ينامون حولها ، وصوت أنفاس طفلها الرتيبة وأخيرا تعبها ، كل ذلك دفعها إلى النوم وحينما استيقظت كانت فى مدينة « سارى » ، فأخذت جعبتها ، وحملت طفلها ، ونزلت من السيارة .

وكانت المدينة غارقة فى الظلام والصمت ، وكأنما صنعت المنازل والأشجار والخضرة من دخان متجمد ، أو من صدأ ناعم . وكان أنين طائر يشق الصمت من آن لآخر ... أنينا بعيدا مختلطا بالشكوى . وعلى البعد كانت المصابيح تتألق . وفى شرفة بأعلى منزل كانت تقف فتاة بملاءة بيضاء . ولكن « زرين كلاه » لم تكن تنظر حولها قط . ولم تكن تسمع صوتاً آخر سوى صوت « كل ببو » ولم يكن أمام عينيها شىء آخر إلا وجهه . وكان هناك شخصان واقفان أمام حانوت بدال ، سألتهما عن طريق زرين آباد . وقال لها أحدهما إنها فى نهاية طريق « سارى » ، وحملت كوبا من الماء وشربته حتى آخره ، وابتعدت قليلا بلا وعى ولا تفكير إذ أنها لم تكن تقصد مكانا ولا شخصا ، ومع ذلك فقد ذهب اضطرابها نهائيا لأنها كانت بالقرب من « كل ببو » ، وبدا لها المكان مألوفا ومضيئا ، وأخيرا أخرجت قرانا من طرف ملاءتها واشترت خبزا طازجا وخضرة وعصيرا ، وجلست بالقرب من باب منزل تحت المصباح تتناول عشاءها ، وتطعم طفلها ، ثم نهضت وذهبت حيث نامت تحت طاق ، وحينما استيقظت فى الصباح الباكر ذهبت إلى ميدان المدينة ، وبعد أن أمضت ساعة فى المساومة استأجرت حمارا بأربع قران ونصف ليوصلها إلى زرين آباد .

وكان الجو مثقلا بالسحب مؤذيا سخيفا رأكدا يوحى بسكون غامض للرياح بطريقة تخنق القلب ، وكان رأس طفلها منتفخا نتيجة

للسع الحشرات ، فأخذت تذب عنه وتروح عن رأسه ، وهى تهتز على ظهر الحمار ، ومر بها من بين الخضرة وتحت الشمس والمطر ... ومن خلال المستنقعات . وعلى مرمى النظر المناظر الخلابة والجبال الخضراء والأودية الخصبة ، والسحب البيضاء والسمراء كبطن البط فى تغير دائم من لون إلى لون . وحينما وصلت إلى « آسياسر » أمطرت السماء ثانية ، وإشتد إنهمار المطر ، وابتلت الملاءة على رأسها فإلتجأت إلى ظل شجرة ، ولكن كانت هناك روائح قذره يغلب عليها الحموضة والنتن ، فسارا فى الطريق ثانية أو لصقت زرين كلاه « مانده على » بها .. وأخذت تحملق أمام قوائم الحمار وقلبها يدق بسرعة ، وكان تفكيرها محصورا فى أول مقابلة لها مع كل ببو .. حتى وصلت عند الظهر إلى زرين آباد ، وأرادت أن تخرج النقود من طرف ملاءتها ، فوجدت عقدتها محلولة وليس بها نقود ... هل سرقها أحد ؟ ! لا .. لا يستطيع أحد أن يسرق الدراهم من طرف ملاءتها دون أن تحس ، هل نسيت أو أن هذا من أعصابها المرهقة ؟ ! كل ذلك ممكن ، ولكن لا فائدة لكل هذا ، وبعد أخذ ورد أخذ الحمار ذو اللحية التركية منديلها المعقود من يدها وركب الحمار وسار . ولكن أية أهمية لذلك أيضا ؟ ! ألم تصل زرين كلاه إلى مقصودها ؟ ألم تكن بالقرب من « كل ببو » وفى قريته ؟ الآن لتذهب فلتتعرف على منزل كل ببو وتشرح له ما جرى فى سفرها وتسترد نشاطها . إن الاف التومانات فداء شعرة مندرسة من كل ببو ، ونظرت حولها ، كانت القرية ذات مظهر صغير محتقر وضيع تقع فى فراغ أحد الأودية . وحولها كانت هناك مزارع خصبة ، وكانت القرية ومن فيها كأنهم نيام ، وثمة كلب غنم ينبح من بعيد . وسمعت صوت رجل ينادى « ببو ... ببو ... تعال » فسقط قلبها لدى سماع الاسم ، ولكنها رأت الرجل المتجه إلى

ناحية الصوت لم يكن رجلها ، وفى أسفل الحائط نامت بطتان ، وكان ثمة طائر يبحث فى الأرض بدقة شديدة ، فينبش التراب ، ويبحث عن الحشائش عما يقتات به ، وعلى الأرض كان هناك صفيحة مكسورة وقطعة من النسيج خضراء ممزقة ، وبعض قشر الخيار وعلى بعد قليل ، كان هناك طائران منكمشان ، وقد وضع كل منهما رجله تحت جناحه ، أما الشقشقة التى كانت تأتى من حناجر العصافير الصغيرة فقد أعطت المكان حالة طبيعية من الطراوة والجدة ، وفى الميدان نظر إليها ثلاثة غلمان قرويون كانوا يتثاءبون ، وكان هناك عجوز قد نام على دكة أمام حانوت عطار ، وثمة سرب من البط البرى تحلق فى السماء على شكل سلسلة وفى حالة من الهرج ، واقتربت زرين كلاه من الرجل العجوز وقالت :

– أين منزل بابا فرخ ؟

فأشار بيده إلى منزل مرتفع نوعا عن بقية المنازل وقال :

هذا الذى فى آخر الطريق ... ذو الشرفة .

فحملت زرين كلاه طفلها وذهبت إلى المنزل بأملها الوحيد فى الدنيا وحينما بلغته دقت الباب ، فخرجت امرأة عجوز ذات وجه مجدور إلى جوار الباب .

– من تريدين ؟ !

– اريد أن أرى كل ببو .

– لماذا ؟ !

– أنا زوجة كل ببو ... جئت من طهران ... ومعى أيضا مانده على ابنه .

– حسنا .. حسنا .. لقد هجر كل ببو هذه المرأة وطفلها بالتسعة ، أنت تتعبين نفسك بلا طائل .

ثم اتجهت إلى الفناء ونادت :

– ببو ... ببو .. تعالى .

وظهر هيكل كل ببو غير المنسق بقميص مفتوح الجيب وأعين ثائرة منفوخة وقد أطلت قبضة من الشعر أسفل حلقه ... وتبعته امرأة ، صفراء نحيلة ذات أعين واسعة ، وكان أثر السوط ظاهرا فى ساعدها وجبهتها وهى ترتعد وتمسك بساعد كل ببو ، وكأنما كانت تخاف أن يأخذوا زوجها منها ، وما إن رأت زرين كلاه كل ببو حتى صاحت :

– ببو حبيبى .. ببو .. أنا جئت .

ولكن كل ببو نظر إليها نظرة غضب قائلا :

– اذهبى ... اذهبى .. أنا لا أعرفك .

وتدخلت المرأة العجوز قائلة :

– يا شحاذة .. ماذا تقولين ؟ امرأة بلا حياء لا تخجل . جئت بهذا الطفل من زنا وتدعين نفسك زوجة هنا ... أنت يا متسولة .

وقال كل ببو :

– لقد أخطأت ... والتبس عليك الأمر .

وبقيت زرين كلاه مشدوهة ، لأنها لم تتهيأ لهذا الانكار من كل ببو ، وقد تولد فيها احساس بالنفور من هذا التصرف انساها جميع محاسن كل ببو فقالت بلهجة ساخرة :

– فقط ... خذ طفلك ربيه ، فأنا لا أملك أية نفقات .

فقالت أم كل ببو :

- هذا الطفل ابن الحرام ؟ من أين أتيت به ؟

وفهمت زرين كلاه أن الامر قد أفلت من يدها ... فتسمرت نظراتها على كل ببو ولكن وجهه كان غاضباً بصورة لم تعرفها فيه من قبل ، وكأن حالته قد اصبحت مستقرة ، وصار من ذوى الأملاك ، وبلغ آماله كلها ، ولا يريد أن يحمل نفسه مسئولية الأسرة والاولاد ، وأدركت من نظراته الممتزجة بالتحقير أنه غير مستعد أصلا لرؤيتها ، وأن الاصرار الزائد لا فائدة منه . ونظرت بحسرة إلى أثر السوط على جسد المرأة الشابة التى كانت تلصق نفسها بكل ببو وأعرضت بوجهها عنه باستدارة واحدة وبحركة اشمئزاز ، بينما كانت « كاسى أغا » أم ببو ، والتى تشبه أمها ، تحرك يديها المعرورقتين وتسب وتشتم بتلك اللغة التى لم تكن تفهمها .. وبخطوات بطيئة عادت زرين كلاه ، وفى الطريق مر خاطر بفكرها .. فوقفت ووضعت طفلها الذى كان نائما أمام بعض المنازل ، وقالت مخاطبه له :

- امكث هنا يا حبيب أمك حتى أعود .

فمكث الطفل ساكنا كالدمية القطنية ، ولكن « زرين كلاه » لم تفكر قط فى أن تعود ، بل لم تقبل طفلها ، لأن هذا الطفل فى نظرها لا فائدة منه لها ، بل هو عبء وعالة عليها . والآن قد أبعدته عن رأسها كما طردها كل ببو ، وكما نفضت أمها يديها منها ، هكذا تعلمت حنان الأم من أمها . أنها لا تحتاج إلى طفل .. لقد صفرت يداها من النقود تماما ، وصارت لا تملك درهما واحدا .. كما أصبحت بلا طفل .. وبلا مؤونة ... وتنفست الصعداء ... لقد أصبحت حرة تملك نفسها ... وحينما وصلت إلى الميدان نظرت إلى ما حولها ، وكان الرجل العجوز لا يزال جالسا على دكة العطار وهو نائم ،

وكأنما قضى عمره على المصطبة وهرم عليها ايضا . وكان الغلمان القرويون الثلاثة يلعبون فى التراب أمام الحانوت . كانوا كلهم بغير فارق مشغولين بما لديهم وقتل الوقت فى اللعب ، وصفق بجناحيه ديك كبير لم تكن تراه . واخذ يصيح بصوت متحشرج . ولم يدر برأس أحد أن ينظر إليها ، وكأنما لم تترك أحداث حياتها أية أهمية . ترى ما الذى سيحدث لها ؟ أنها تريد أن تهرب بأقصى سرعة بلا باعث أو سبب ، حتى تهرب على الأقل من طفلها . لقد رفعت كل مسئولية عن رأسها . واشتدت حرارة الجو حتى تصاعد البخار ، وكانت لفحات الحرارة مثل اللفحات التى تخرج من فم محموم . ومرت زرين كلاه أمام البيوت والازقة بلا ارادة . بلا أمل فى المستقبل ، وما أن وصلت إل المزارع المخضرة حتى أمسكت بالطريق العام فسلكته ، وفى نفس الوقت رأت شابا قويا جميلا فى يده سوط ، وكان يركب حمارا ويسوق حمارا آخر أمامه ، وكانت الأجراس فى رقبتهما تجلجل فى الهواء ، وحينما اقترب منها قالت له زرين كلاه :

– أيها الشاب أرجوك أن تعاوننى .

فأوقف الشاب حماره وقال :

– ماذا تقولين ؟

– إننى غريبة وليس لى أحد فأركبنى معك .

وأشارت بيدها إلى الحمار فأوقف حماره ، وأركب زرين كلاه ، ثم قفز على الحمار الآخر .

ولم يلتفت قط لينظر إلى وجهها ، ثم الهب بالسوط رأس الحمار ، فجلجلت الأجراس وسارا ، وبينما كانا يسيران بجوار حقل الشعير مد الشاب يده ، وخلع ساق شعير ووضعا فى فمه ، وأخذ يصفر نغمة

خاصة بدت لأذن زرين كلاه معروفة ... كانت نفس النغمة التى كان كل ببو يغنيها أثناء قطف العنب فى نفس اليوم الذى قابلها فيه ، تحت أشجار الكروم .

وارتسمت أمام عين زرين كلاه كل حياتها ... شبابها .. سب أمها ... ثم تلك الليلة المقمرة التى جاءت مع كل ببو فيها إلى طهران ... ثم شتائم أم كل ببو . وبالرغم من أنها كانت ظمآى جائعة فإنها أحست بالسعادة من كل قلبها ... لم تكن تعلم لماذا هى راكبة ، وإلى أين هى ذاهبة، ومع كل ذلك تقول فى سرها : « ربما اعتاد هذا الشاب ايضا على الضرب بالسوط .. وربما كانت رائحة جسده كرائحة الحمار ... أو حظيرة الدواب » .

(٧)

الرجل الذى قتل نفسه

« متى ماتت نفسه الشريرة ؟ لقد
تجمدت حين لم تجد الوسيلة » .
مولوى

كان ميرزا حسينعلى يخرج كل صباح فى ساعة معينة من محلة بجوار « سرجشمه » بصدار أسود ذى أزرار مغلقة ، وسروال مكوى ، وحذاء أسود براق ، وكان يسير بخطوات منتظمة فيمر من أمام مسجد سبهسالار ، ثم يتحول إلى شارع صفى على شاه ويذهب إلى المدرسة .

وأثناء الطريق لم يكن ينظر فيما حوله ، وكأنه كان يتجه بتفكيره إلى شىء ما ، كان مظهره يدل على النجابة والوقار ، له عينان صغيرتان وشفتان بارزتان وشارب كث أحمر ، أما لحيته فكان يحلقها دائما ، وكان كثير التواضع قليل الحديث . ولكن الناظر إلى ميرزا حسينعلى النحيف الجسم ، حينما يخرج من البوابة أحيانا عند الغروب يراه قد عقد يديه وراء ظهره ، وأخذ يسير ببطء شديد مطأطىء الرأس ، مقوس الظهر ، وكأنه يبحث عن شىء ، وكان يقف أحيانا ويتحدث إلى نفسه همسا لفترة .

كان ناظر المدرسة وسائر المعلمين لا يستلطفونه ، كما أنهم لم يكونوا ليستاء وامنه ولكن الغموض كان يكتنفه ، فى حين كان التلاميذ على العكس راضين عنه لأنه لم يكن يرى غاضبا ابدا ، ولم يكن يضرب

احدا . كان هادئا محافظا يعامل التلاميذ بسلوك أخوى . ومن أجل ذلك كان معروفا أنه لا غبار عليه . ومع ذلك كان التلاميذ يخشونه ويجلسون فى درسه مؤدبين .

والشخص الوحيد من المعلمين الذى كان وثيق الصلة بميرزا حسنعلى ، وكانا يتناقشان معا أحيانا هو الشيخ أبو الفضل مدرس اللغة العربية ، فقد كان مغرما بالحديث دائما عن رياضاته وكراماته ، وأنه كان مجذوبا منذ سنوات عديدة . وقد ظل سنين عديدة لا يكلم أحدا ، ويعد نفسة فيلسوف الدهر خليفة ابن سيناء والمولوى وجالينوس ، ولكنه كان واحدا من الفقهاء الأدعياء المغرورين الذين يضايقون الناس بمعلوماتهم . وكلما تحدث استشهد بجملة عربية أو مثل غير مفهوم أو بيت شعر ، ثم يتصفح وجوه السامعين بابتسامة ظافرة لينظر أثر حديثه فى نفوسهم . ولكن الغريب حقا أن ميزرا حسينعلى مدرس اللغة الفارسية والتاريخ الذى كان يغلب عليه التجديد ولا يرغب فى الادعاء ولا يتظاهر لم يجد شخصا سوى الشيخ أبو الفضل ليختاره صديقا . حتى إنه أحيانا كان يأخذ الشيخ إلى منزله ، وأحيانا كان يذهب هو إلى منزل الشيخ .

وكان ميرزا حسينعلى وهو من أسرة عريقة جلا كثير الاطلاع ، متحليا من جميع الوجوه ، ذا صفات عالية ، وكما يقول الناس أنه تخرج من دار الفنون ، واشتغل مع أبيه فى أعماله بضع سنوات ، ولكنه حينما عاد من سفره الأخير ، اختار طهران دار اقامة كما اختار التدريس مهنة ، إذ أنها كانت تمنحه بعض الوقت ليقوم بأموره الخاصة . إذ أنه آلى على نفسه أن يقوم بعمل فذ . وأن يتصدى لامتحان صعب .

KMH

فمنذ طفولته ، ومنذ الوقت الذى جاء فيه إلى المعلم إلى المنزل ليعلمه هو وأخاه ، ابدى حسينعلى استعدادا خاصا وقابلية فذة فى استيعاب الآداب والشعر الصوفى وفلسفته .. حتى إنه كان يقرض الشعر على الطريقة الصوفية ، وقد ابدىمعلمهما الشيخ عبد الله الذى كان يعد نفسه فى زمرة الصوفية – انتباها خاصا لتلميذه ، فأخذ يلقنه افكار الصوفية وينقل إليه شروحا لحالات العارفين والمتصوفة ، ويقص عليه ما يروى خاصة عن علو مقام منصور الحلاج الذى بلغ مكانة من رياضة النفس جعلته يقول وهو على المشنقة : أنا الحق ، وقد أثرت هذه القصة فى نفس الشاب ميرزا حسينعلى تأثيرا شاعريا . وأخيرا قال له الشيخ عبد الله ذات يوم « بهذا الطبع الذى أراه فيك .. سوف تصل إلى مراتب عالية ... كلما بعث خطوات أهل الطريق » . كانت هذه الفكرة دائما فى ذاكرة ميرزا حسينعلى ، وقد نشأت ونمت وتأصلت جذورها فى عقله . وكان دائم الرغبة من أن يجد المكان المناسب ليقوم فيه برياضاته وعمله . وبعد ذلك دخل هو وأخوه دار الفنون ، وهناك كان ميرزا حسينعلى قويا فى القسم العربى والأدبى . أما أخوه الاصغر فلم يكن يوافقه على أفكاره وكان يسخر منه قائلاً : إن هذه الخيالات لا فائدة منها فإنها تضع العراقيل ، وتجعل الشباب يتسرب بغير وعى . ولكن ميرزا حسينعلى كان يضحك من حديثه فى أعماق قلبه . ويعتبر تفكيره سطحيا . وعلى العكس كان أكثر عنادا فى تصميمه ، ولاختلاف وجهتى نظرهما انفصلا بعد وفاة والدهما . وقوى من عزيمة ميرزا أنه فى رحلته الأخيرة إلى كرمان قابل درويشا أيد نبوءة معلمه ميرزا عبد الله بعد عدة احاديث معه ، ووعده أنه إذا اشتغل بالتصوف وروض نفسه ، فسوف يصل إلى مراتب عالية .

وكان أن اختار ميرزا حسينعلى أن يعتزل منذ خمس سنوات . وجعل لا يقابل أحدا من أقربائه ومعارفه ، وتجرد لمعيشة غريبة . وكان منزله نظيفا كبيضة الطائر . وكان لديه طاهية عجوز وخادم صغير . وما إن كان يدخل من الباب حتى يبادر إلى خلع ملابسه ويعلقها على مشجب خشبى ، ثم يلبس أردية خشنة رمادية اللون ، ويذهب إلى مكتبته التى خصص لها أكبر حجرات منزله ، وفى ركن منها بجوار النافذة ، كانت هناك حشية بيضاء عليها وسادتان ، وأمامها منضدة قصيرة فوقها عدد من الكتب وعدة أوراق ومحبرة وقلم . وكانت الكتب التى على المنضدة هى الكتب المستعملة ، أما بقية الكتب فقد كدسها فى طاقات الحجرة بعضها فوق بعض .

وكانت هذه الكتب فى التاريخ والفلسفة القديمة والتصوف . وكان كل حماسه وسروره منصبا على قراءة هذه الكتب ، إذ كان يجلس إلى المنضدة أمام المصباح الغازى حتى منتصف الليل ، ويظل يقلب أوراقها ، ويقرأ ما فيها ويفسر لنفسه ، ثم يخرج ما يشكل عليه أو يشك فى معناه ويدونه إلى أن يلتقى بالشيخ أبى الفضل ، فيتدارسها معه فيما بعد . ولم يكن ذلك لأن ميرزا حسينعلى كان عاجزا عن حلها ، إذ أنه طوى كثيرا من العوالم الروحية والفلسفية ، وكان أكثر فهما من الشيخ أبى الفضل لكثير من الافكار الرائعة والنقاط الدقيقة فى بعض الأشعار الصوفية ، وكان يحس بذلك فى قراءة نفسه . وقد تكونت لديه وفى تفكير دنيا أخرى فيما وراء التفكير المادى . وكان هذا باعثا على اعجابه بذاته ، إذ كان يعتبر نفسه بذلك عاليا عن بقية الناس ، وكان مطمئنا اطمئنانا كاملا إلى تميزه هذا .

وكان ميرزا حسينعلى يعلم أن ثمة سرا ولغزا يوجد فى الدنيا قد تتبعه الصوفية الكبار ، وقد برز له أيضا هذا الجانب ، إنه فى حاجة إلى

مرشد لكى يشرع فى هذا الامر ، أو إلى شخص يكون مرشدا ودليلا ، وكما قال له الشيخ عبد الله ، وقرأ فى الكتب أيضا « حينما يكون السالك فى بداية الحال مشتت الخاطر فعليه أن يضع نصب عينيه صورة شيخ ... حتى يصل إلى تهدئه خاطره » وكان أن توصل بعد بحث طويل إلى الشيخ أبى الفضل مع ما كان بين طبعهما من بعد ، فقد كان الشيخ أبو الفضل لا يعرف إلا اصدار الاوامر ، وكلما قابل مشكلة صعبة تصرف معه كما يتصرف مع التلاميذ قائلا : هذا سابق لأوانه وسنشرحها فيما بعد . والخلاصة أن كل ما أوصاه به الشيخ أبو الفضل هو قتل النفس ، وكان يعتبر هذا الامر مقدما على كل شيء .. أى أن يتغلب على النفس الامارة بالسوء بالرياضة . وقد قرأ عليه بقدر ما تذكر شرحا مطولا أعده كالخطبة مليئا بالأحاديث والأشعار التى وردت جميعها فى مجال قتل النفس . ومنها الحديث « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » ، والحديث الآخر (جهادك فى هواك) أو كما يقول أو حدى « إن من قتل نفسه كان غازيا » .

وأيضاً هذا الشعر :

« لو جرأت عليك النفس فخالفها
فهى سيف للجهل ضعه فى غلافه »

وهذا الشعر ايضا :

« أقتل نفسك فهذه هى الحرب
ومنتهى كمال الرجل فى ذلك » .

ومن جملة الأشياء التى قالها له الشيخ أبو الفضل فى موعظته « إن سالك مسلك العرفان يجب أن يعتبر المال والمنال ، والجاه والجلال ،

والحكمة والعظمة ، كلها أشياء ذليلة ، فأعظم قوة ولذة فى تطويع النفس واذلالها » أو كما يقول مكتبى :

« إذا أنت هزمت نفسك »

« وصلت إلى الحكم الخالد »

« واعلم يا رفيق الطريق أنك لو خدعت مرة بهوى النفس تكون قد وضعت قدما فى وادى الهلاك ... كما يقول سنائى .

« النفس خادمة فى حضرتك متى أنهكتها

فإذا أعطيتها الامارة فقد اضلت مثلك الفا

ويقول الشيخ سعدى ايضا :

« كل من حققت له رغباته صار مطيعا بك

إلا النفس ، إذا وجدت المراد بدأت الامارة »

« وقد سمى شيوخ الطريق النفس كلبا مفترسا يجب أن يربط بقيد الرياضة ، ويجب الحذر دائما من اطلاقه ، ولكن السالك لا يجب أن يفتر ويختلط بقطاع الطرق والجهال ، بل لابد أن يستشير مرشدا فى أية مشكلة ، كما قال السيد حافظ عليه الرحمة :

« قال هذا الرفيق الذى ارتفعت به المشنقة

إن كل جرمه أنه أفشى الأسرار »

وكان لميزار حسينعلى من قديم ميل للفلسفة الهندية ورياضاتها ، وكان يتمنى أن يسافر إلى الهند ليتمم معلوماته وليتشرف بمجالس العباد والكهان ، ومن هنا فإنه لم يعجب فى نفسه من هذا الاقتراح فحسب ، بل أنه على العكس استقبله بعقيدة تامة ، و ما إن عاد إلى

منزله فى ذلك اليوم حتى طفق يأخذ الفأل من المتنوى الخطى ..
وخرجت له صدفة هذه الابيات :

« إن النفس لا عهد لها ، وإذن فيجب قتلها

وهى دنيئة وقبلتها دنيئة ايضا .

وما يناسب الميت هو القبر والكفن

والنفس وإن كانت عارفة فهى لا تعرف إلا الصغائر

فإن قبلتها الدنيا ، فأعلم أنها ميتة

وحينما يصل ماء وحى الحق إلى هذه الميتة

ترتد حية من تراب الموت »

وكان هذا الفأل سببا فى أن ميرزا حسينعلى صمم تصميما قاطعا على أن يصرف كل جهده وجده فى التغلب على النفس البهيمية وأن يشغل نفسه بالرياضة . والغريب أنه فى ذلك اليوم كلما تعمق فى كتب الصوفية تأكد عزمه على خوض غمار هذه المبارزة ، وكان مكتوبا فى رسالة نور الوحدة : « أيها السيد يجب أن تأخذ نفسك بالرياضة عدة أيام ، ويجب أن تصرف أنفاسك فى هذا التفكير . حتى يخرج منك خيال الباطل ، ويحل محله خيال الحق » ، وقرأ فى كنز الرموز لمير حسين :

« أخرجها من مقام العناد

فهى حية امارة ، اضربها على رأسها »

وكان مكتوبا فى مرصاد العباد :

« أعلم أن السالك إذا شرع فى المجاهدة ، ورياضة النفس وتصفية القلب ، يتكشف له الطريق السالك بين الملك والملكوت ... وفى كل مقام تتكشف له الوقائع بما يناسب حاله » .

وقرأ ايضا فى أشعار ناصر خسرو :

« إنك تملك كنزا على رأسه ثعبان
فاقتل هذا الثعبان تسلم من الأذى
ولو قويته لقوى سمه
ولعدت بلا نصيب من الكنز الذى لا حد له »

ولم تبق كل هذه الآداب التى كتبت عن قتل النفس والحافلة بالتهديد والوعد والوعيد مجالا للشك والتردد فى قلب ميرزا حسينعلى ، فإن أول قدم فى الطريق هو قتل النفس البهيمية الشيطانية التى تعوق الانسان عن الوصول إلى مطلبه ، وقد أراد ميرزا حسينعلى أن يزكى نفسه بطريقة أهل الرياضة والمجاهدة ، وطريقة أهل النظر والاستدلال ، ومر مايقرب من أسبوع على ذلك ولكن الذى بعث اليأس والفتور إلى قلبه هو الشك والتردد وبخاصة بعد التدقيق فى بعض الأشعار منها مثلا شعر حافظ :

تحدث عن الطرب والخمر ولا تبحث كثيرا عن اسرار الدهر
فلم ولن يفسر أحد هذا العمى بالحكمة .

وقوله أيضا :

اغتنم دائما أوان اللذة أنى وجد
فليس لأحد وقوف على نهاية الامر

وبالرغم من أن ميرزا حسنعلى كان يعلم أن كلمات الخمر والساقى والخرابات والشيخ المجوسى وغيرها من اصطلاحات الصوفية والعارفين وكناياتهم ، فإن بعض رباعيات الخيام كانت معقدة لديه ومشوشة لفكره ... مثل

لم ير أحد الخلد والنعيم أيها القلب
فقل لى من الذى وصل من ذلك العالم
فأملنا وخوفنا ياأيها القلب لشيء
ليس لدينا منه دليل سوى الاسم
وهذه الرباعية ايضا :
اهنأ ياخيام إذا اسكرتك الخمر
وأهنا بمجالسة جميلة الوجه
وإذا كان مصير الدنيا عدما
فاهنأ بما أنت عليه من الوجود »

هؤلاء الاساتذة يدعون إلى السرور فى حين أنه حرم على نفسه السرور من بداية شبابه ، وقد ولدت هذه الافكار فى نفسه أسفا مرا على حياته الماضية ، تلك الحياة التى أغمض عينيه عنها طويلا ، كان يشق على نفسه طويلا فيها ، والآن يقضى أيامه بطريقة مؤلمة فى البحث عن تفكير موهوم . منذ اثنتى عشرة سنة وهو يشقى ويتعب ، وظل بل نصيب من اللذة والسرور ومسرات الشباب ، وبقى مع ذلك خالى الوفاض ، وقد أبرز الشك والتردد كل هذه الأفكار كظلال مهيبة تلاحقه وتسرع وراءه ، وكم من ليال أخذ يتقلب فيها على فراشه البارد وحيدا ... فريدا ، وكلما أراد أن يوجه أفكاره إلى العوالم الروحانية يوسوس فى صدره الف نوع من الشياطين حالما يخطفه النوم ، وتظلم أفكاره . وكم اتفق أن استيقظ مرتاعا من النوم ، وأخذ يصب الماء البارد على رأسه ووجهه ، وفى اليوم التالى لا يأكل إلا قليلا ، ثم ينام ليالى على القش ، إذ أن الشيخ أبا الفضل كان يقرأ عليه دائما هذا الشعر :

« حينما تشبع النفس تتمرد
والحصان المستريح يعاند فى كل جهة »

وكان ميرزا حسينعلى يعلم أنه إذا انزلق مرة ذهبت كل مجاهداته أدراج الرياح ، وعلى ذلك أخذ يزيد فى رياضاته ، وفى تعذيبه ، لجسده وكلما زاد فى ايذاء نفسه زاد شيطان الشهوة فى تعذيبه وصمم أن يذهب إلى رفيقه الوحيد ومرشده الشيخ أبى الفضل ، وينقل إليه تفصيل الأمر ثم يتلقى منه تفصيل النظام كله .

وفى نفس اليوم الذى اهتدى فيه إلى هذا التفكير ، وكان عند الغروب بدل ملابسه ، وأحكم اغلاق أزرة صداره ، وسار نحو منزل مرشده بخطوات منتظمة ... وحينما وصل رأى رجلا فى حالة عصبية يقف أمام المنزل وهو يصيح ويشد شعره ، ويقول بصوت عال :

– قل لسيدنا الشيخ سأحملك غدا إلى المحكمة ... وستجيب هناك ... إنك أخذت ابنتى لتخدمك ، وحملتها ألف بلاء ، وأمرضتها ... وسرقت أجرها أيضا ، اما أن تعقد عليها عقد متعة ، أو أبقر بطنك ... آه لقد ذهب شرف السنين ادراج الرياح .

ولم يستطع ميرزا حسينعلى أن ينتظر أكثر فتقدم منه وقال له بصوت منخفض :

– أخى ... لقد أخطأت ... هذا منزل الشيخ أبى الفضل .

– هو ذلك الذى لا ضمير له ولا أعنى غيره ... ذلك الشيخ المارق الذى لا يعرف الله . أننى أعلم أنه الآن فى المنزل ، لكنه ينكر نفسه ، فلو أنه تجاسر وخرج لى لأغرقته فى دمائه ... ولكننا سنرى بعضنا غدا .

وحينما رأى ميرزا حسينعلى أن الأمر جد ، تنحى جانبا وابتعد بطيئاً ، ولكن هذه الكلمات أيقظته .. أكان على حق ؟ ألم يخطىء ؟ وهل الشيخ أبو الفضل الذى أوصاه بقتل نفسه قبل كل شيء هو نفسه الذى لم يستطع أن يجاهد نفسه ؟ هل انزلق هو نفسه ؟ أم أنه صار مخدوعا عديم الحيلة ، كانت معرفة هذه النقطة مهمة جدا لديه ، هل حق إن كل الصوفية هكذا يقولون مالا يؤمنون به ؟ أم أن الامر قاصر على مرشده الذى أكتشفه من بين الرسل جرجيس وهل يذهب وهو فى هذه الصورة فينقل عذابه الروحى وكل محنه إلى الشيخ أبى الفضل؟ ثم يقول هذا المعلم بضع كلمات عربية له ، ويعطيه نظاما أشد قسوة ، ثم يضحك منه فى أعماق قلبه ... لا ... يجب أن يكشف غموض هذا السر الليلة . وأخذ يتجول فترة فى الشوارع الخالية كالمجنون ، ودخل فى جماعة الناس ، وبدون أن يفكر ، سار ببطء وسط جموع الناس التى كان يعدها وضيعة عادية ... وأحس فى نفسه حياته العادية المادية . ومال إلى أن يسير بين هذا الجمع فترة ، ولكنه عاد ثانية إلى ناحية منزل الشيخ أبى الفضل ... وكأنما وقع له تصميم مفاجىء ، وفى هذه المرة لم يكن أحد هناك .. فقرع الباب ثم قال اسمه للمرأة التى فتحت له الباب ، ومرت فترة طويلة حتى فتح الباب فى وجهه مرة ثانية ، وحينما دخل الحجرة وجد الشيخ ابا الفضل بعينه الحولاء ووجهه المجدور ولحيته الحنائية التى تشبه مربى البرقوق . وكان جالسا على سجادة يسبح وبجواره عدة كتب مفتوحة .. وما أن رآه حتى قام نصف قومة وقال : يا الله ... وتنحنح ، وكان أمامه منديل مفتوح فيه قدر من الخبز المقدد وبصله ، فولى وجهه شطره قائلا :

– تفضل تناول عشاءك الليلة مع الفقراء .

– شكرا .. أغفر لى إن كنت سببا فى مضايقتك ... كنت أمر بالقرب من هنا فجئت .

– لا .. لا ... أية خدمة ... إن المنزل منزلك .

وأراد ميرزا حسينعلى أن يقول شيئاً ، ولكن فى الوقت نفسه ارتفعت الضوضاء . وقفزت هرة إلى داخل الحجرة وفى فمها دجاجة مطبوخة ، والمرأة تجرى خلفها وتزجرها ، ورأى ميرزا حسينعلى أن الشيخ ابا الفضل القى بعباءته دفعة واحدة ، وتناول عصا غليظة من ركن من الحجرة ، وأخذ يجرى خلف القطة بالسروال الداخلى والقميص كالمجانين ، ونسى ميرزا حسينعلى حديثه مما حدث ، وتسمر فى مكانه دهشة ، حتى عاد الشيخ إلى الحجرة بعد ربع ساعة ، ملتهب الوجه ، لاهث الانفاس ، ثم قال « ألا تدر ؟ القطة التى تتلف ما قيمته سبعمائة دينار فما فوق يجب قتلها شرعا » ولم يبق لدى ميرزا حسينعلى شك فى أن هذا الشخص شخص عادى جدا .. وأن كل ما نسبه الرجل الذى كان يقف أمام باب المنزل صحيح فنهض وقال :

– سامحنى إن كنت ضايقتك ... عن إذنك .

وسبقه الشيخ أبو الفضل حتى باب الحجرة . وما أن وصل إلى الشارع حتى تنفس الصعداء ، الآن صار كل شيء واضحا أمامه ، لقد عرف صديقه ، وفهم إن كل هذه الكنايات والأنفاس والمراتب والاثارة التى كان يفعلها الشيخ لم تكن إلا من أجله . فهو يأكل الدجاج فى الوقت الذى يقلد فيه عمر فيضع أمامه الخبز المقدد والجبن القديم والبصل الجاف ليخدع الناس ، ثم يأمره أن يأكل فى اليوم وجبة واحدة وهو ... هو نفسه يعتدى على خادمته وتحمل منه ، ثم يقرأ بكل جرأة هذا الشعر للعطار :

تعفف عن الطعام الشيء يا بنى
ولا تكن كالوحوش وقلل من سفك الدماء
واجعل نفسك دائما فى قيد من الصيام
فالرجل يقنع بلقمة واحدة
وصم كرجل كامل الرجولة
وافرد نفسك عن الناس
ولا تمنع نفسك عن التفكير فى الطعام فحسب بل امنع عن التفكير فى كل أمر سيء .

كان الجو مظلماً ، ودخل ميرزا حسينعلى فى دنيا الناس مرة ثانية ، وأخذ يسير مدة فى الشوارع المزدحمة المحملة بالغبار كطفل تاه فى جمع من الناس ، وأخذ ينظر إلى الوجوه على أضواء المصابيح ، هذه الوجوه كلها كانت مأخوذة حزينة ، وكان رأسه فارغا ، وكانت لديه عقدة صارت كبيرة . هؤلاء الناس الذين كانوا فى نظره وضعاء عبيدا لبطونهم وشهواتهم ، جماعين المال اعتبرهم حينئذ أعقل وأعظم منه ، واشتهى أن يكون مكان احدهم . ولكنه قال فى نفسه : من يدرى ربما كان بينهم من هو أشقى منه . هل يستطيع أن يحكم بالظاهر ؟ أولا يصير السائل على ناصية الشارع أكثر سعادة من أغنى الأشخاص بدرهم واحد ؟ هذا فى صورة أن أموال الدنيا لم تكن لتقل شيئا من الآلام الداخلية لميرزا حسينعلى .

وهجمت عليه كل الكوابيس المخيفة التى كانت تحدث له غالبا بشدة أكثر ، وسرعة أكبر هذه المرة ، وبدا له أن حياته إنتهت بلا فائدة ، ومرت الذكريات المختلفة لثلاثين عاما أمام عينيه ، وأحس أنه أكثر المخلوقات شقاء وأقلهم نفعا ، وأخذت فترات حياته تلمع من

خلف السحاب الاسود المظلم . وكانت بعض طياتها تلمع فجأة ثم تختفى وراء ستار . كلها ذات نغمة واحدة باعثة على المرض واللامبالاة ، أحيانا كان ثمة سرور فارغ قصير يلمع على وجه السحاب المظلم كأنه البرق ، ولكن كل وجوده بدا له وضيعا بلا فائدة . أية مبارزات فارغة وأية مساع تافهة ! ! أخذ يسأل نفسه ، وبعض على شفتيه : لقد مر شبابه بلا فائدة فى العزلة والظلمة بلا سرور ... بلا فرح .. بلا حب – كان لا يهتم بأحد حتى بنفسه ، ترى إلى أى حد يحس بعض الناس أنهم أكثر ضياعا وتشردا من الطائر الذى ينوح فى الليالى المظلمة ؟ ! إنه هو الآخر لا يستطيع أن يصدق أية عقيدة ، وقد إنتهى لقاؤه مع الشيخ أبو الفضل غاليا جدا له ، إذ قلب جميع أفكاره رأسا على عقب ، فإذا به مهدم ظمآن ، قد استيقظ فى نفسه شيطان أو تنين كان يجرحه ويسممه دائما . ومرت سيارة بجواره فى ذلك الوقت ، فأضاءت بمصباحها وجهه العصبى وشفتيه المرتعشتين وعينيه المفتوحتين الباهتتين بصورة مخيفة ، وتاهت نظراته فى الهواء ، وبقى فمه نصف مفتوح ، وكأنه يضحك لشىء بعيد عن متناول اليد .. وأحس بضغط فى أعماق رأسه جعل يمتد حتى شمل أسفل جبهته وفوديه ، وجعله يقطب ما بين حاجبيه .

أحس ميرزا حسينعلى بآلام فوق مستوى البشر ، كان يعلم ساعات اليأس وساعات السرور وساعات التشرد والشقاء ، وكان يعرف ايضا الآلام الفلسفية التى ليس لها وجود خارجى عند عامة الناس ، ولكنه الآن أحس بنفسه وحيدا ضائعا إلى مالا نهاية ، وقد أمست الحياة بالنسبة له كاذبة تدعو للسخرية وأخذ يقول لنفسه .

« أى شىء لدى من حصيلة العمر ؟ لا شىء ! ! »

وقد زاده هذا الشعر جنونا ، وحين خرج القمر بعد الغيبة من خلف السحاب كان سخيفا ، لكنه ارتد إلى أعماق الظل . هذا القمر ، كم كان أمامه فى معظم الأحيان اسطورة فائقة ممتلئة بالرموز ، وكان يقضى الساعات الطوال خارج البوابة فى محاورات ومداعبات مع ضوئه ، الآن صار ضوؤه باردا فاترا لا معنى له يجعله أكثر عصبية . وتذكر ايام الصيف وساعات الدرس الطويلة ، تذكر أيام شبابه حينما كان أقرانه مشغولين بالمرح والسرور والشباب ، وكان يتصبب عرقا مع بعض الطلبة أيام الصيف وهم يقرأون كتابا فى النحو والصرف ، ثم يذهبون للمناقشة مع شيخهم محمد تقى الذى كان يجلس القرفصاء بملابسه الداخلية وأمامه كوب ممتلىء بالماء المثلج ، وفى يده مروحة يجلب بها الهواء لنفسه ، وهو يصيح بكلمة عربية كانوا يشتبهون فى اعرابها وهو منتفخ الأوداج ، وكأن العالم إنتهى .

كانت الشوارع خالية ، وأغلقت المحلات فى ذلك الوقت ، وحينما وصل إلى شارع علاء الدولة مزق شروده صوت موسيقى . وقرأ بأعلى الباب الأزرق اللون على ضوء المصباح الكهربائى « ماكسيم » ، وبلا تفكير أزاح الستارة ودخل وجلس على كرسى إلى منضدة .

وأخذ ينظر حوله بدهشة فلم يكن معتادا على ارتياد المقاهى ، ومن قبل اليوم لم تطأ قدمه مثل هذا النوع من الأماكن . وكان الجو معبأ برائحة دخان اللفائف قد اختلطت برائحة الخضروات واللحم المحمر . وكان هناك رجل قصير ذو شارب كث يداه مرفوعتان واقفا أمام المسقى يحاسب الساقى ، وبجانبه رص صف من الزجاجات ، وعلى مقربة منه كانت امرأة ممتلئة تعزف على البيانو ، ورجل نحيف يداعب أوتار الكمان ، وكان الرواد السكارى من الروس والقفقاز يجلسون

حول المناضد فى هيئة غريبة عجيبة ، وحينئذ أتت امرأة جميلة نسبيا ذات لكنة أجنبية إلى منضدته وقالت مبتسمة :

– عزيزى .. ألا تأمر لى بكأس من الشراب ؟ !

– تفضلى .

وبلا تفكير نادت تلك المرأة النادل وطلبت منه شرابا لم يسمع اسمه من قبل ، فأتى بزجاجة شراب كأسين تركهما أمامه ، فصبت المرأة وناولته ، وشرب ميرزا حسينعلى الكأس الأولى مضطرا فسخن جسده ، واختلطت أفكاره ، وظلت المرأة تسقيه الكأس تلو الكأس ، وكان ثمة نغم شجى ملتاع ينبعث من أوتار الكمان . وأحس ميرزا حسينعلى فى نفسه بحالة خاصة من الإنتشاء والتحرر ، وتذكر جميع مدائح الخمر والتغنى بها التى قرأها فى أشعار المتصوفة ، وعلى ضوء المصباح القاسى ، رأى التجاعيد التى بأسفل عين المرأة الجالسة إلى جواره .. بعد كل ضبط النفس ، صار مصيره شرابا أصفر مر الطعم ، وامرأة غارقة فى الزينة ضائعة متنقلة من يد إلى يد ، ذات شعر أسود خشن .. ولكنه بدا لذلك أكثر سرورا ، إذ أنه يريد أن يذل نفسه بواسطة التغير الروحى والتحول الخاص ، ثم يكون من نتيجة ذلك أن يدمر آلامه ، ويتركها تحت قدمه .. إنه يريد أن يلقى بنفسه من أوج الأفكار العالية ، إلى أكثر اللذات قبحا ، يريد أن يصير باعثا لسخرية الناس ، إن يضحكوا منه ، يريد أن يجد مهربا عن طريق الجنون . وقد رأى نفسه فى تلك اللحظة لائقا وحريا بكل أنواع الجنون ، فأخذ يهمس لنفسه :

حتى وقت الضيق اجتهد فى السكر والعربدة

فإن هذه هى الكيمياء التى تجعل الشحاذ قارونا

وضحكت المرأة الكرجية الجالسة إلى جواره ، وتجلت أمام ميرزا حسينعلى جميع الأشعار التى قرأها للصوفية فى مدح الخمر ومعاقرتها ، وأحس بها جميعا ، وقرأ بوضوح كل رموز وجه المرأة الجالسة قبالته وأسراره ، وكان يشعر بالسعادة لأنه وصل إلى كل ما يأمله ، ورأى من خلف بخار الشراب اللطيف شيئا كان لا يستطيع تصوره مالا يستطيع الشيخ أبو الفضل أن يحلم به ، وما لا يستطيع سائر الناس تتبعه . وظهرت له دنيا أخرى مليئة بالأسرار ، وفهم أن الذين أنكروا هذا العالم قد أخذوا كل لغاتهم وتشبيهاتهم وكناياتهم منه .

وحينما نهض ميرزا حسينعلى ليدفع حسابه لم يستطع أن يقف على قدمه ، فأخرج حافظة نقوده وأعطاها للمرأة ، وخرجا من حانة مكسيم متعانقين . وفى داخل العربة ترك ميرزا حسينعلى رأسه على صدر المرأة ، وأحس بعطرها فدارت الدنيا أمام عينيه ، وتراقصت أمامه أضواء المصابيح ، بينما أخذت المرأة تغنى أغنية كرجية ملتهبة .

ووقفت العربة بباب ميرزا حسينعلى ودخلا معا إلى المنزل . ولكنه لم يذهب ثانية إلى تل التبن الذى كان ينام عليه فى الليالى الماضية ، وإنما حملها إلى نفس الحشية البيضاء القابعة فى مكتبته .

ومر يومان ولم يذهب ميرزا حسينعلى إلى المدرسة ، وفى اليوم الثالث كان مكتوبا فى الجريدة :

« انتحر السيد ميرزا حسينعلى من المعلمين الشبان النشطين لسبب غير معلوم ! » .

(٨)

المحــلل

لم يبق على الغروب سوى أربع ساعات ، ومن ثم كانت « بس قلعة » وسط الجبل ساكنة مظلمة ، وأمام المقهى الصغير صفت على المنضدة قوارير اللبن الزبادى المضروب والمشروبات وكذلك الأكواب المختلفة الألوان ، وكأن هناك جرامافون عتيق ، وأسطوانات قديمة مشخشخة قد وضع على المصطبة أمام المقهى ، وأخذ القهوجى يهز السماور وقد شمر عن أكمامه ليبعد تفل الشاى ، ثم حمل خزان البنزين الفارغ ذا اليد المفتولة من الحبال ، وذهب إلى النهر .

كانت الشمس متوهجة ، وكان الصوت الرتيب للماء الذى يتلقب فى أعماق النهر مسموعاجاعلا للمكان حالة دائمة من الطراوة والجدة . وعلى أحد الطوارات الموجودة أمام المقهى ، كان رجل قد نام على ظهره وغطى وجهه برداء مبتل ، وقد طوى ملابسه وتركها إلى جانبه ، وعلى الطوار المواجه له جلس رجلان متجاورين تحت شجرة توت ، وكانا منصرفين إلى بعضهما ، وحركات فكيهما المتحمسة تبين أنهما يعرفان بعضهما منذ سنين .

أما مشهدى «شهباز» فكان نحيفا ضعيف البنية ذا شارب كث وحاجبين مقرونين وقد جلس القرفصاء فى ناحية الطوار ، وأخذ يحك لحيته المصبوغة بالحناء قائلا :

ـ أمس ذهبت إلى مغ محله (مرغ محله ؟) لأزور إبن خالى إذ أن له حديقة هناك ، وأخذ يقول أنه فى السنة الماضية باع ثمار البرقوق التى أنتجتها حديقته بثلاثين تومانا ، أما هذا العام فقد أصابها الصقيع فأسقط كل ما على الشجر ، وأصبحت كلها فى حالة مؤسفة ، ثم أن أمرأته مريضة منذ نهاية الشهر المبارك حتى الآن وهى تلازم الفراش ، وهو ينفق عليها كل دخله .

فأصلح ميرزا يد الله نظارته ، وأخذ يشغل غليونه بمزاج ، ثم حك لحيته التى أشتعل فيها الشيب وقال :

ـ لقد ذهب الخير والبركة أصلا من كل شيء

فهز شهباز رأسه موافقا وقال :

ـ لا فض فوك .. أننا فى آخر الزمن ، وكل شيء من عادات الزمان قد تدهور ، لقد قدر لى أن أكون مجاورا فى خراسان منذ خمسة وعشرين عاما ، كان من الزيت بدرهمين ، أما البيض فكان العشرة بمليم ، وكنا نشترى الخبز المقدد الذى يبلغ طول الرجل ، ومن ذا الذى كان يحمل هم النقود ؟ فليرحم الله أبى ، لقد أشترى حمارا ساحليا كنا نمتطيه سويا ، وكنت فى العشرين ألعب مع أطفال حارتنا بمخلفات الفخار ، والآن يسقط الشباب من هم القلب والرأس ، ويفنون فى الجرى وراء العيش ، ويشيبون فى شبابهم ، رحم الله من قال فى زماننا : وأنا مع أننى عجوز مرتعش إلا أنى أعدل مائة شاب »
فنفخ يد الله فى عليونه وقال :

KMH

ـ كل سنة أسوأ من سابقتها

فقال شهباز :

ـ فليجعل الله عاقبة عبيده خيرا

فأخذ يد الله نفسه بمظهر جدى وقال :

وحياتك .. ذات وقت كان فى منزلنا ثلاثون شخصا يأكلون ، والآن أفكر كيف أحصل على ريال يوميا أشترى به الدخان والشاى ، ومنذ عامين كنت أعمل بالتدريس فى ثلاثة أماكن متفرقة ، وكنت أحصل شهريا على ثلاثة تومانات ، وأول أمس كان عيد الأضحى ذهبت إلى منزل أحد الأعيان ، وكنت أعلم فيه من قبل ، لأهل على الذبيحة بسم الله ، وقد رفع القصاب القاسى الحيوان الأعجم ، وطرحه أرضا ، ثم أخذ يسن سكينه ، وقاوم الحيوان وضرب بقدميه الخلفيتين ، ولا أدرى ما الذى كان على الأرض ، لقد رأيت عينيه قد أنفجرت وأنهمر منهما الدم ، فسقط قلبى ، وأنصرفت بحجة واهية ، وطوال الليل ورأس الخروف الدامية أمام عينى ، ولم أستطيع أن أمسك لسانى ، ونطقت كفرا وظننت كفرا ، لا .. خرس لسانى ، ليس هناك شك فى طيبة الله ، أما اعدام الحيوانات على هذه الصورة فأنى أعده ذنبا من أعظم الذنوب .. ولكن الهى ، خالقى ، أنك تعلم مالا أعلم .. ومهما يكن فان الانسان محل النسيان .

وأستغرق ميرزا يد الله وحده فى التفكير ، ثم كرر قوله :

ـ أجل ، لو كنت أستطيع أن أقول ما فى قلبى .. ولكى ليس كل شىء يقال .. أستغفر الله ، ان لسانى معقود .

فقال شهباز ، وكأنما بلغ صبره منتهاه

ـ أذهب ، ففكر فى عيشك ، فليس الشمام الا ماء .

فقال ميرزا يد الله فى فتور :

ـ ماذا نستطيع أن نعمله ، هكذا الدنيا منذ بدء الخليقة .

وقال شهباز ·

ـ لقد فاتتنا هذه الأشياء ، نحن كما قال الناس عن الأزمنة الماضية شقت غلايتنا نصفين ، وقد بقينا أحياء لأننا لم نجد الكفن ، أية شعوذة لم نقم بها فى هذه الدنيا الدنية ، ذات يوم كنت بقالا فى طهران ، وكنت أوفر يوميا من دخلى ستة قرانات .

فقاطعه يد الله قائلا :

ـ أكنت بقالا ؟ أنا لا أحب البقالين .

ـ لماذا ؟ ! .

ـ هذا له حكاية طويلة ، أكمل أنت حديثك الآن .

فواصل شهباز الحديث قائلا :

ـ أجل ، كان لى محل بقالة ، وراج حالى ، وقليلا قليلا أقتنيت منزلا وذقت الاستقرار ـــ كم أصدع رأسك ـــ فى ذلك الوقت ظهرت أمرأة سليطة اللسان ، والآن مرت خمس سنوات ، منذ مرغتنى زوجتى فى التراب ، لم تكن أمرأة ، كانت قطعة نار ، وما كدت أصل بدم قلبى واستقر حتى ذرت كل ما جمعت مع الرياح ـــ يا صديقى العزيز ـــ لقد عادت أم أحمد ذات ليلة من حلقة الوعظ ، ثم وضعت قدمها فى الحذاء وقالت « لقد طلبتنى الحضرة يجب أن أذهب ، لأتبرك وأخفف عظامى ، وأخذت تنغص حياتى بدرجة لا توصف ولا تحكى ، قل لى بربك أن كيف أودعت عقلى هذه المرأة ؟ مهما يكون فأن الآدمى منا

رضيع لبنا فجا ، وبينما كنت رجلا يفيض حيوية يقطر الدم من شاربى ، إذا بالمرأة تسرق عقلى ، لا جعل الله المرأة تسيطر على الرجل .

وفى نفس الليلة قالت : « أنا لا أعرف هذه الأشياء ، ليكى مهرى لك ولى حريتى وطلاق . أننى أملك سوارا وقلادة سابيعهما وأرحل ، وقد أستخرت وخرج فألى حسنا ، وبحق حرقة هذا المصباح أما أن تطلقنى أو أخنق طفلك ، سيدى : مهما فعلت لم أستطع علاجها ، أخذت لا تنظر فى وجهى مدة أسبوعين ، وفعلت ما فعلت ، حتى بعت كل ما أملك وأعطيتها النقود فحملت طفلى ذا السنتين وذهبت إلى حيث ينشر البدو الحصير ومنذ ذهبت منذ خمسة أعوام وأنا لا أدرى ماذا حدث لها .

فقال ميرزا يد الله :

ـ فليحفظها الله من شر الأعراب .

ـ أجل من الأعراب العراة الذين لا يفهمون لسانها ، بين هؤلاء العمريين وهذه الصحراء القاحلة ، والشمس المحرقة أصبحت وكأنها الماء الذى يذهب فى أرباض الأرض ، التى بخلت بورقة واحدة ، أنه لحق ما يقال عن النساء أنهن ناقصات عقل ودين .

فقال ميرزا يد الله :

ـ أن التقصير من الرجال ، فهم الذين يدفعونهن إلى مثل هذه الأحوال ، ولا يتركونهن ليفتحن آذانهن وعيونهن .

ولكن شهباز كان مشغولا بحديثة إذ قال :

ـ الشيء الغريب أن هذه المرأة كانت فى الأصل مغلوبة منطوية ، ولا أدرى ماذا حدث لها ، وكيف صارت نارا هكذا ، كانت أحيانا تبكى وحدها ، وتثير مناقشة لكى تتحدث عن زوجها الأول .

فسأل ميرزا يد الله :

ـ أكنت زوجها الثانى ؟! .

ـ أجل .. نعم ماذا قلت ؟ لقد نسيت .

ـ كنت تتحدث عن زوجها الأول .

ـ أجل ، ظننت أولا أن هذا كله من أجل زوجها الأول ، وعلى كل فقد كنت أريد أن أقنعها لكى تكون راضية النفس بكل ما أوتيت من بيان حلو ، ولكنى كنت كمن يتحدث إلى حائط ، وكأن الأجل كان قد ضرب على رقبتها . ولا أدرى ماذا حدث لطفلى ، هل يأتى يوم تلتقى فيه عينانا ؟ ذلك الابن الذى رزقنى الله به بعد نذر ودعاء .

فقال ميرزا يد الله .

ـ لو نظرت إلى شخص لوجدت لديه نوعا من التعاسة ، ولكن لب الحديث أنه لا بد أن يكون الناس آدميين ومتعلمين ، وإلا فما دام الناس حمرا فانا نركبهم ، فى وقت ما كنت أنا نفسى أعتلى المنبر ، وأقول أن أى شخص يرحل مرة إلى الأعتاب يغفر الله له ، ويكون مكانه الجنة .

شهباز : لكنك لست من العلماء .

ـ هذه الحكاية ترجع إلى أثنتى عشرة سنة ، ألا ترانى غير معمم الآن ، ولكنى أحترف كل الأعمال ، ولا عمل لى .

ـ كيف .. أنا لا أفهم .

فأدار ميرزا يد الله لسانه فى فمه وقال وهو فى حالة تأثر وألم :

ـ لقد حطمت حياتى أنا الآخر أمرأة .

ـ ليرحمنا الله من كيد النساء .

ـ لا .. ليس للنساء دخل هنا ، أن هذا الشقاء من صنع يدى ، لو

كنت مو طهران فلابد أنك سمعت أسم إبى ، أنا لم أقطع من شجرة وإنما كان أبى أصيلا ، وأمى ليست بخضراء الدمن ، لقد كان أبى من أولئك الذين يتبرك الناس بوضع نعالهم فى أقدامهم ، وحينما كان شخص ينطق باسمه كان يبدو وكأن مئات ينطقونه ، وحينما كان يصعد المنبر لم يكن هناك مكان لابرة ، وكان العظام يحسبون له حسابا ، وليس قصدى أن أفخر دون أن أدرى ، لأن والدى كان عاديا لكل المفاخر .

ذلك أن أباك كان فاضلا .

ولكن ما الذى نلته من فضل أبيك .

وبعد وفاة والدى صرت خليفة له ، وفتحت باب المنزل ، حسنا لقد ترك منا منزلا مع بضعة من الخرق ، وكنت لا أزال طالبا أحصل على جراية شهرية هى أربع تومانات مع خمسة أمنان من القمح ، وفى شهرى المحرم وصفر كان خبزى مليئا بالسمن ، وكنا نكسب بنفس الطريقة ، ولما كان معروفا أن المرحوم كان مباركا ، ففى ذات ليلة استدعونى إلى مريضة فى الفراش لأدعو لها ، فرأيت صبية فى الثامنة أو التاسعة ممددة وسط الفراش ، سيدى : لقد أنجذبت إليها بنظرة واحدة .. نعم أنه الشباب وما له من نزوات .. وكنت قد عقدت قبلها على زوجتين للمتعة فطلقتهما ، ولكنها كانت شيئا آخر ، نعم حقا يقولون ينبغى أن ينظر إلى ليلى بعين المجنون ، فبعد يومين أرسلت إليها مكسرات فى منديل وثلاث تومانات نقدا وعقدت عليها ، وحينما أحضروها ليلا كانت صغيرة لدرجة أنها كانت محمولة ، فخجلت من نفسى ، ما الذى يخفى عليك ، لقد ظلت هذه الصبية ثلاثة أيام ترتعد كالفروج كلما نظرت إلى ، ولكن ما رأيك فى الرجال الذين فى السبعين ومرضى بألف مرض ومع هذا يتزوجون من صبايا فى التاسعة ، وأنا الذى كنت فى الثلاثين كنت شابا يافعا ..

حسنا ماذا كانت تفيده هذه الصبية من الزواج ؟ لقد خيل إليها أنهم يثقلونها بالزينة وتلبس الملابس الجديدة ، وبدلا من أنها كانت تأكل الفتات وتسمع الشتائم فى منزل أبيها ، فأن زوجها سوف يدللها ويحملها فوق رأسه ، ولكنها لم تكن تعلم أن فى منزل الزوجية لا يوضع لها قدر من الحلوى على النار ، وعلى كل تعبت كثيرا حتى يسلس قياديها لى . ففى الليلة الأولى خافت منى وأخذت تبكى ، وكنت أتمسها وأتقرب منها فقلت لها « أنشدك الله .. لا تريقى ماء وجهنا .. حسنا نامى أنت فى طرف الحجرة وسأنام أنا فى الطرف الآخر ، إذ كان قلبى يلتهب عليها ، وقد كبحت جماح نفسى حتى لا أسلك معها سبيل القوة ، وثمة شيء آخر وهو أن قلبى وعينى كانا راضيين شبعين فقد كنت مجربا خبيرا ، وعلى أى سمعت هى الأخرى نصحيتى .

وفى الليلة الأولى أخذت أقصى لها قصة حتى نامت .

وفى الليلة الثانية بدأت القصة وتركت نصفها لليلة التالية . وفى الليلة الثالثة لم أقل شيئا حتى صاحت الطفلة قائلة : « لقد تركنا الملك جمشيد حتى ذهب إلى الصيد ، لماذا لا تقص بقية القصة ؟ ! » وقلت وكأننى لم يبق لى جلد ولا صبر شوقا إليها : « أن رأسى اليوم تؤلمنى ولن يبلغك صوتى ، فلو سمحت أقتربت منك » وهكذا أقتربت وأقتربت .. حتى تعودت على .

فضحك شهباز وأراد أن يقول شيئا ، ولكن وجه يد الله الجاد والدمعتين اللتين ظهرتا من وراء منظاره جعلاه يمسك زمامه .

وقال ميرزا يد الله بحرارة خاصة :

ـ هذه الحكاية حدثت منذ اثنتى عشرة سنة .. اثنتى عشرة سنة ، أنك لا تدرى أية أمرأة كانت هى ، كانت موافقة مسلية ، كانت تقوم

بكل أعمالى .. آه الآن أتذكر ، كانت دائما مشغولة،تغسل ملابس بيديها الصغيرتين ، وتنشرها ، ترتق جواربى وقمصانى ، وتغسل الأوانى ، وتضع القدر على الأثافى ، وتساعد أختى ، كم كانت طيبة الأخلاق ، كثيرة الحنان ، وقد أرغمت الجميع على حبها والثناء على أخلاقها ، وكم كانت ذكية ، لقد علمتها الكتابة والقراءة ، وبعد شهرين كانت تقرأ القرآن وتحفظ أشعار الشيخ ، لقد عشنا سويا ثلاث سنوات كانت أسعد أوقات حياتى ، وكانت إرادة القدر فى تلك الآونة أن أكون وكيلا لأرملة ، ولم تكن فقيرة ، وكانت أيضا ذات جمال — سيدى كنت أحمى من أجلها أسنانى ، حتى فكرت فى الزواج منها ، ولكن لا أدرى أى شخص لا يعرف الله أخبر زوجتى ، سيدى لا أراك الله يوما أسود ، فهذه المرأة التى كانت فى ظاهرها منطوية مسالمة الطبع ، لم أكن أعلم أنها قاسية الطبع هكذا ، أردت أن أميل رأسها بكل ما أستطيع من بيان حلو ، ولكننى لم أكن أستطيع أن أكون ندا لها ، وغضضت الطرف عن المقدار الذى كنت أستحقه من هذه المرأة من حق الوكالة صغيرا أم كبيرا ، وصفيت حسابنا ، ولكنك لا تدرى ما الذى أحدثته المرأة فى حياتى شهرا ، ربما جنت أو أطعمها أحد شيئا .. لقد تغيرت نهائيا ، كانت تضع يدها على خاصرتها وتطلق سيلا من الشتائم ، لا يمكن أن يوجد فى دكان عطار ، كانت تقول لى « الهى يحطوا منظارك على نعشك ، ويلفوا عمامتك المملوءة مكرا حول رقبتك ، لقد علمت من اليوم الأول أنك لا تليق بى ، فلتحترق روح أبى هذا اللص الذى زوجنى لك ، فحينما فتحت عينى مرة واحدة وجدت نفسى مخدوعة بين أحضانك أنت اللص وبعد ثلاث سنوات قضيتها مع تسولك ، صار هذا جزاء يدى ، لارمى الله المرء فى أحضان من يعدم الرجولة ، والله أننى لأعض بنان الندم ،

وليس هناك قوة تكرهنى على العيش معك ، طلقنى ، ولك مهرى ، والا سأذهب بحرقة هذا النور ، سأذهب وأتحصن . الآن .. نعم الآن » .

وأخذت تقول وتقول حتى خرجت عن طورى ، وقد أظلمت الدنيا أمام عينى ، وكنت أجلس إلى عشائى ، فحملت الأوعية ، وبعثرتها فى الفناء ، وكان الليل قد أقبل وسرنا سويا حتى بيت الشيخ المهدى حيث طلقت أمرأتى ثلاثا فى حضوره ــ وأخذ يضرب كفا بكف ــ وفى اليوم التالى ندمت ، ولكن ما الفائدة حين لا يجدى الندم ، وقد أصبحت أمرأتى حراما على ، وقد أخذت أتسكع أياما فى الشوارع والأسواق كالمجنون ، ولو قابلنى أحد من معارفى ما أستطعت سماع تحيته من تشتت أفكارى .

وبعد هذه المرأة لم أر سرورا قط ولم تذهب صورتها من أمام عينى دقيقة واحدة ، لم آكل ، ولم أنم ، ولم أستقر فى منزلى ، كان الباب والحائط يسبانني وسقطت مريضا لشهرين ، وفى هذيانى لم أنطق بسوى أسمها ، ولما استرددت الرمق صار معلوما أننى لو حركت شفتى لأهدوا إلى مائة فتاة ، ولكنها كانت شيئا آخر . وأخيرا عزمت على أعادتها إلى عصمتى بأية وسيلة تكون ، وأنتهت عدتها ، فأخذت أطرق الأبواب بابا بابا ولم تكن هناك فائدة قط . وبعث كل ما أملك من أثاث وملابس قديمة وقطعات مندرسة من الكتب وفرش قديمة وهيأت ثمانية عشر تومانا ولم تكن هناك وسيلة سوى أن أجد محللا يعقد على زوجتى ثم يطلقها حتى أستطيع أن أردها إلى عصمتى بعد ثلاثة أشهر وعشرة أيام .

وكان فى محلتنا بقال عديم الحس فاقد الغيرة ، لو لعقت وجهه سبعة كلاب لشبعت ، وكان من أولئك الذين يقطعون الرؤوس من أجل بصلة فذهبت إليه ، وأتفقت معه على أن يعقد ربابة ثم يطلقها وأنا أتحمل كل

المصروفات علاوة على خمس تومانات أعطيها له ، وقبل كل ذلك ، وكان ينبغى إلا يخدع الناس ولا سيما بهذا الرجل الأبله .

وغطى شهباز وجهه الشاحب بكلتا يديه وقال :

ـ أكان بقالا ؟ ما أسمه ؟ أى بقال كان ؟ وفى أية محلة ؟ لا .. لا يمكن أن يحدث مثل هذا الشيء ! !

ولكن ميرزا يد الله كان مستغرقا فى الحديث وقد تجسدت الأحداث أمام ناظريه فلم يقطع حديثه :

وقد عقد ذلك الرجل البقال على زوجتى ، لا تتصور كيف كنت ، المرأة التى كانت زوجتى ثلاث سنوات ، ولو نطق شخص بأسمها لبقرت بطنه ، فكر جيدا إذا بى أحملها لتكون قرينة هذا الرجل غليظ الرقبة ، وقد قلت فى نفسى لا بد أن هذا هو أنتقام النسوة اللائى طلقتهن بعين دامعة ، وفى الصباح الباكر أسرعت إلى منزل البقال ، وأخذ يماطل ساعة مرت كأنها قرن ، وحينما جاء قلت له : الوفاء بالوعد ، طلق ربابة وستأخذ الخمس تومانات . وإلى الآن لم تزل صورته الشيطانية أمام عينى وهو يضحك ويقول : « أنها زوجتى .. ولا أعطى شعرة منها ولو أخذت ألف تومان»، وتصاعد الشرر من عينى كالبرق .

فارتعد شهباز وقال :

ـ لا .. لا يمكن أن يحدث ذلك .. أرجوك قل الحق .. أوه فقال ميرزا يد الله :

ـ أرأيت الآن أن الحق بجانبى . أفهمت الآن لماذا أتضايق من جماعة البقالين ، حينما قال أنه لا يعطى شعرة منها بألف تومان ، فهمت أنه يريد نقودا أكثر ، ولكن أين كانت فرصة المساومة ؟ إنك لا تدرى

أى موضع من جسم الانسان يحترق ، وقد أرتفع الدخان من رأسى ، وأنقلب حالى مالا نهاية ، وكنت يائسا من الحياة حتى أنى لم أجبه ، ونظرت إليه نظره واحدة كانت أسوأ من أية سبة . ومن نفس الطريق ذهبت حيث تباع الأشياء القديمة ، وبعث عباءتى وردائى ، وأشتريت قباء خشنا ، ووضعت على رأسى قلنسوة لبدية ، وربطت رباط حذائى ، وسرت فى طريقى ، ومنذ ذلك الوقت حتى الآن وأنا متشرد حائر أذهب من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى ، وخلال أثنتى عشرة سنة لا أستطيع أن أبقى فى مكان ، أحيانا أشتغل حمالا ، وأحيانا معلما ، وأحيانا أكتب الالتماسات والخطابات للناس ، أو أقرأ الشاهنامه فى المقاهى ، أو أنفخ فى الناى ، ووجدت لذة فى السياحة فى الدنيا ، وأريد أن تمر حياتى على هذا النسق ، فإن المرء بهذه الطريقة يعثر على أشياء كثيرة ، ثم أنى قد صرت شيخا الآن .. نستعد للموت وأحدى رجلينا فى هذه الدنيا والأخرى فى الآخرة ، ومما يؤسف له أن تجاربنا لن تفيدنا شيئا فى هذه الدنيا ، وما أحسن قول الشاعر .

« فى هذه الدنيا ينبغى أن يكون للفاصل العاقل عمران يجرب فى أحدهما ويطبق التجربة على الآخر »

وحينما وصل ميرزا يد الله إلى هذا الحد من الحديث تعب كأنما أجهد فكيه ، إذ تحدث بهما أكثر من العادة ، ورفع يده ، وحمل غليونه ، وأخذ يحدق بعينيه إلى النهر ، وينصت إلى الصوت البعيد المخنوق الآتى من خلف الجبل .

ورفع شهباز وجهه من بين يديه وتأوه قائلا :

— ليس هناك اثنان لم يصرا ثلاثة قط .

وكان ميرزا يد الله شاردا مبهوتا ، فلم ينتبه له

فقال شهباز بصوت أكثر أرتفاعا :

ـ أنها تشرد رجلا آخر أيضا

فعاد يد الله إلى وعيه وقال :

ـ من ؟

ـ تلك الربابة المحرقة .

فبرزت عينا ميرزا يد الله من محجريهما ، وسأل مرتاعا :

ـ ماذا تقصد ؟ !

فأطلق مشهدى شهباز ضحكة مصطنعة :

ـ حقا أن الأيام تغير المرء جيدا .. فيتجعد الوجه ، ويبيض الشعر وتسقط الأنسان ، ويتغير الصوت ، لا أنت عرفتنى ولا أنا عرفتك .

فسأل ميرزا يد الله :

ـ كيف ؟

ـ ألم يكن فى وجه ربابة ختم من أثر الجدرى ؟ وألم تكن تطرف بعينيها دائما ؟ !

فصاح ميرزا يد الله قائلا :

ـ من قال لك ؟ !

وضحك مشهدى شهباز :

ـ ألست أنت السيد الشيخ يد الله بن المرحوم السيد الشيخ رسول ، الذين كنتم تملكون منزلا فى حى حمام المرمر ، ألم تكونوا تمرون كل يوم من أمام حانوتى ، أنا المحلل .. أنا نفسى .

فقرب ميرزا يد الله رأسه إليه وقال :

ـ أنت .. أنت نفسك الذى رميتنى أثنتى عشرة سنة فى مثل هذا

العيش .. أنت نفسك شهباز البقال ، كان ثمة وقت لو سقطت فى يدى فيه مثل هذا الجبل والسهل ، لصفيت معك حسابنا .. واآسفاه فإن الأيام قد عقدت يد كل منا وراء ظهره .

ثم أخذ يقول لنفسه كالمجنون :

بارك الله فيك يا ربابة ، لقد أنتقمت لى ، وأوقعته عاجزا فى مثل العيش الذى وقعت فيه .

وسكت ثانية وقد أرتسمت على شفتيه أبتسامة مؤلمة . وتقلب الشخص الذى كان ينام أمامهما على الطوار وتمطى ثم جلس وتثاءب وأخذ يحك عينيه .

وأخذ ميرزا يد الله ومشهدى شهباز يختلسان النظر بعضهما إلى بعض ، ولكنهما كانا يخافان أن تلتقى نظراتهما .. فهما غريمان مسكينان ذهب أوان الجدال فى عشقهما ومعشوقهما .. والآن ينبغى على كل منهما ألا يفكر إلا فى الموت .

وبعد قليل من الصمت ، التفت شهباز إلى النادل وقال :

ـ داش أكبر .. هات شاى لاثنين وبجانبه السكر .

٩

الدوامة

كان همايون يتمتم هامسا :

ـ أحقا هذا ؟! وهل مثل هذا الشاب « بهرام » يمكن أن يكون هناك فى جبانه الشاه عبد العظيم ، راقدا على الثرى البارد الرطب بين آلاف الموتى الآخرين وقد التصق كفنه بجسده ؟! أحقا لن يرى مرة أخرى أول الربيع ؟ ولا آخر الخريف ولا يوما خانقا حزينا مثل اليوم ؟ وهل أنطفا حقا نور عينيه ، وسكت صوته الموسيقى إلى الأبد .. وهو الذى كان ضاحكا إلى غير حدود ، وكان دائما حلو الحديث .

كان الجو مثقلا بالسحب ، وقد غطت طبقة باهتة من البخار زجاج النافذة ، ومن خلفها كان يبدو غطاء السقف المجاور ، والطبقة الرقيقة من الثلج التى كانت تغطيه ، وكانت قطع الثلج تدور فى الهواء ببطء ونظام ، ثم تسقط على حافة السقف ، ومن المدخنة كان الدخان الأسود يخرج تجاه السماء الرمادية فيتلوى وينكسر ثم يختفى بالتدريج .

وكان همايون وزوجته الشابة وابنتهما « هما » يجلسون فى حجرة لهم مهملة حول المدفأة ، ولكنهم على خلاف العادة ، ففى كل يوم جمعة ،

كان الضحك يسيطران على الحجرة ، أما اليوم فكانوا مكسورى الخاطر ساكنين ، حتى أن طفلتهما الصغيرة التى كانت تضفى على المجلس روحا دافئة ، جلست اليوم بوجه شاحب ، وقد تركت دميتها الفخارية إلى جوارها ، وأخذت تنظر فى حيرة وخمود إلى الخارج ، وكأنها أكتشفت هى الأخرى أن شيئا ما قد نقص .. وأن عمها الحبيب بهرام لم يأت كعادته الدائمة ، وأحست أيضا أن حزن أبيها وأمها من أجله ، وهذه الثياب السوداء والأعين الحمراء التى لم تر النوم ودخان اللفائف الذى يتموج فى الهواء ، لا شك أنها أيدت ما ذهبت إليه .

كان همايون يحدق النظر إلى لهيب المدفأة ، أما تفكيره فكان فى واد آخر ، وتذكر بلا وعى أيام الشتاء المدرسية ، يوما مثل اليوم حين كان الجليد القارص يغطى الأرض بسمك شبر ، وعندما كان جرس الراحة يدق ، كان هو وبهرام لا يعطيان للآخرين الفرصة ، وكانت لعبتهم فى ذلك الوقت واحدة ، يدحرجون قبضة من الثلج على الأرض حتى تصير كرة كبيرة ثم ينقسم الأطفال إلى فريقين ، وتبدأ ألعاب كرة الثلج ، وبلا أحساس بالبرد ، وبأيد حمراء تكاد تلتهب بالبرودة ، كانوا يقذفون بكرة الثلج بينهم ، وذات يوم بينما كانوا منهمكين فى اللعب ، أمسك بقبضة من الثلج وكورها ، ثم رمى بها بهرام ، فجرج جبهته ، وجاء المشرف وضربه عددا من العصى على يده ، وربما بدأت صداقته لبهرام منذ ذلك اليوم ، وحتى آخر أيامه كان كلما رأى أثر الجرح فى جبهته يتذكر ما أصاب يديه فى ذلك اليوم ، وخلال ثمانية عشر عاما ، كانت روحاهما وأفكارهما قد تقاربت إلى درجة كبيرة ، حتى أنهما لم يكونا ليتصارحان بأفكارهما وأحساساتهما السرية فحسب ، بل كان كل منهما يدرك ما للآخر من أفكار خفيه لم يبدها لرفيقه

كانا فكرا واحدا وسليقه واحدة وأخلاقا واحدة على وجه التقريب ، وحتى الآن لم يكن قد حدث بينهما أقل أختلاف فى وجهات النظر ، أو أدنى ضغينة ما ، حتى كان أول أمس ، حين تحدثوا مع همايون تليفونيا فى عمله وأخبروه أن بهرام ميرزا قد انتحر . وعلى الفور أكترى همايون عربة وأسرع إلى جوار جثته ، ورفع بلطف النسيجة البيضاء التى كانت تغطى وجهه وقد رشحت منها الدماء .. هذه الرموش الدامية ، ومخه الذى أنتشر على الوسادة ، وبقع الدم المنتشرة على السجاد .. وتلك الزفرات والآهات التى يطلقها ذووه .. كل هذا كان كصاعقة انقضت على رأسه ، وقد ظل ملازما لنعشه حتى ووری التراب عند الغروب ، ثم بعث من يحضر باقة من الورد فوضعها على قبره ، وبعد أن أنصرف آخر المعزين ، عاد إلى المنزل بقلب ممتلىء بالحزن والكآبة . ومنذ ذلك اليوم لم يسترح دقيقة واحدة ، ولم يطرق النوم جفنيه ، وأخذ الشعر الأبيض يتسلل إلى فوديه ، ولم يكن أمامه سوى علبة اللفائف يشعل منها الواحدة تلو الأخرى. كانت المرة الأولى التى يفكر همايون فيها بعمق فى مسألة الموت ، ولكن تفكيره لم يقف عند حد ، ولم يجد أى أقناع أو تفسير من عقيدة وقط وقد ظل مشدوها تماما ولم يعرف لنفسه أمرا أو مهمة ، وكانت تنتابه أحيانا نوبة من الجنون ، ولطالما حاول النسيان ولكنه لم يستطع ، فقد بدأت صداقتهما معا داخل المدرسة ، وكادت حياتهما أن تمتزج ، كانا شريكين فى الحزن والسرور . وكلما كان ينظر فى صورة بهرام كانت كل الذكريات تبعث حية أمام ناظريه .. هو .. بشعره وشاربه الأشعر وعينيه الخضراوين وفمه الصغير وذقنه الدقيقة ، وضحكاته العالية وصدره الطيب الصافى وعنقه ، كل ذلك كان يرتسم أمام عينيه ، ولم يستطع أن يصدق مطلقا أنه مات ، مات بمثل هذا الموت الفجائى ، ويالها من خدمات قدمها له بهرام حين سافر فى مهمة استمرت ثلاث

سنوات ، وكان بهرام يرعى منزله ، وكما قالت له زوجته « بدرى » لم يدعهم يحتاجون إلى شيء ما .

أما الآن فقد أحس همايون بثقل الحياة ، وأخذت الحسرة على الأيام الخوالى تأكل قلبه ، كانا يجتمعان فى نفس هذه الحجرة ويلعبان النرد ، حيث تمر الساعات دون أن يحسا بمرورها ، ولكن الذى كان فى تعذيبه ماذهب يفكر فيه ، فأنه بالرغم من أنهما أصبحا قلبا واحدا وطبيعة واحدة إلى هذا الحد ، ولم يكونا يخفيان عن بعضهما شيئا قط .. كيف لم يحدثه بهرام عن عزمه على الانتحار ؟ أى سبب ملك عليه تفكيره ؟ أصار مجنونا أم أن كل ذلك كان يختفى وراءه سر عائلى ؟ كان يناقش نفسه هكذا ، حين جال فى فكره أن يلجأ لزوجته بدرى ، وكأنما توصل فجأة إلى حل ، فسألها .

ـ ماذا تظنين ؟ ألا تعرفين لم فعل بهرام ما فعل ؟

فرفعت « بدرى » رأسها ، وكانت تبدو منهمكة فى التطريز ، وقالت بعدم مبالاة ، وكأنها لم تكن تنتظر السؤال :

ـ لماذا أعلم أنا ، ألم يكن قد قال لك ؟

ـ لا وأنا أسأل أخيرا لأنى فى عجب من ذلك ، وحينما عدت من السفر أحسست أنه تغير ، ولكنه لم يقل لى شيئا ، فظننت أن أنشغاله هذا لأمور تتعلق بالعمل ، إذ كانت أمور عمله تذبل روحه ، لقد قال لى ذلك عدة مرات ، ولكنه لم يكن يخبىء عنى شيئا قط .

ـ كان رحمه الله نشيطا قوى القلب ، وهذا الأمر كان بعيدا عن التفكير فيه .

ـ لا ، أنه كان يظهر ذلك ، ولكنه كان يتغير أحيانا ولدرجة كبيرة ، وذات مرة كان منفردا ، وحينما دخلت حجرته لم أكد أعرفه ،

فقد وضع رأسه بين يديه وأخذ يفكر ، وأخذت أنا أيضا أفكر فى ذلك ، ولما رآنى بهت وأخذ يضحك لكى يغالطنى ، وأخذ يلقى بالنكات ، كان ممثلا بارعا .

ـ ربما أصابه شىء .. أن أخبرك به حزنت ، فقد كان يرعاك ، فإن لك زوجة وطفلة مهما يكن من أمر ، ويجب أن تفكر فى حياتك ، أما هو ...

وهزت رأسها بحركة ذات معنى ، وكأنها لا أهمية هناك لانتحاره ، ودفعها الصمت إلى التفكير مرة ثانية ، ولكن همايون هناك أحس أن كلمات أمرأته مصطنعة قيلت لتسيير الحياة . نفس هذه المرأة التى كان يعبدها لثمانى سنوات خلت ، وكان لديها أفكار عظيمة تتصل بالحب ، بدت له تلك الساعة ، وكأنما سقطت من على عينيه غشاوة ، أن سلوى هذه المرأة الحبيبة هى أن تنفره من ذكريات بهرام ، ولم يعبأ بامراته فهى عادية غير متطورة جامدة ، تفكر فى المال والحياة ، ولا تريد أن تفتح على نفسها طريق الأحزان والدليل الوحيد الذى تورده أن بهرام لم تكن له أمرأة أو طفلة ، يا له من تفكير وضيع ، وكأنه حين حرم نفسه من هذه اللذة العامة لا يستوجب الحزن عليه ، وهل قيمة طفلته فى الدنيا تزيد على قيمة رفيق حياته ؟ لا .. مطلقا ، وهل بهرام لا يستحق الحزن والأسى ، وهل يستطيع أن يجد فى الدنيا شخصا مثله .

هو يجب أن يموت ، وتبقى هذه العجوز الثرثارة « سيد خانم » ذات التسعين خريفا ، حية تسعى وهى تدق بعصاها آتية من « بإخبار » ، وتسأل عن منزل بهرام ، وتذهب وتأكل من الحلوى التى يخرجونها صدقة على الميت ؟ هذا أمر الله ، وهو فى عرف زوجته شىء طبيعى ، وأمرأته « بدرى » نفسها سوف تكون مثل هذه العجوز « سيد خانم » ..

أجل .. فهى من الآن بدون زينة متغيرة وفاقدة الجمال ، تغيرت صورة عينها وصوتها ، وتبقى نائمة فى الفراش فقدت نضارتها ، ولا بد أن أمرأته تحمل له نفس الاحساس ، من يدرى : ألم يتغير هو الآخر ، وهل بقى نفس همايون الحنون المطيع الوسيم كسابق عهده ؟ ألم يخدع أمرأته ؟ ولكن لماذا تأخذ هذه الأفكار طريقها إلى نفسه ؟ أيكون من أثر السهر أو من أثر حزنه على صديقه ؟

فى ذلك الوقت فتح الباب ، وظهرت الخادم التى كانت تضع طرف طراحتها أسنانها ، وهى تحمل خطابا كبيرا مختوما بالشمع الأحمر ناولته إلى همايون وذهبت ، وعرف همايون خط بهرام الصغير المتقطع من على المظروف . ففضه بسرعة ، وأخرج من طياته ورقة وقرأ :

« الآن وقد مضى من الليل ساعة ونصف ، وفى يوم ١٣ مهرماه ١٣١١ .. أنا بهرام ميرزا أرجن بور أهب كل ما أملك برغبتى ورضاى للآنسة هما هانم ماه آفريد

« بهرام أرجن بور »

وقرأه همايون مرة ثانية متعجبا ، وسقطت الورقة من يده وهو مبهوت ، وسألته بدرى التى كانت تراقبه بطرف عينيها :

ـ ممن الخطاب ؟

ـ من بهرام

ـ ماذا كتب ؟

ـ ألا تعرفين ؟ أوصى بكل ما يملك لـ « هما » ..

ـ يا له من رجل جم الحنان .

وقد زاد هذا التعجب الذى أختلط بشىء من الرقة فى نفور همايون من زوجته ، وسقطت نظرة منه بلا وعى على صورة بهرام ، وعاد ثانية

KMH

فنظر إلى هما ، وفجأة أدرك شيئا جعله يرتجف ، وكأنما سقطت غشاوة أخرى من على عينيه ، أن ابنته « هما » تشبه بهرام بلا زيادة أو نقصان ، أنها لا تشبهه هو ولا تشبه أمرأته ، أن عين أحدهما ليست خضراء ، والفم الدقيق ، والذقن الصغير ، أنها حقا كل ملامح وجهها تشبه بهرام ، الآن أكتشف همايون السبب الذى من أجله كان بهرام يحبها إلى هذا الحد ، وإلى الحد الذى يترك لها ممتلكاته بعد وفاته ، هل هذه الطفلة التى يحبها هو إلى هذا الحد نتيجه علاقة محرمة بينه وبين زوجته ، نفس هذا الصديق الذى كان وأياه روحين فى جسد واحد وكان بينهما كل هذه الثقة ، هل كانت بينه وبين زوجته كل هذه السنوات علاقة ما ، دون أن يعلم ، وطوال هذه المدة وهى تخدعه وتسخر منه ، والآن نفس هذه الوصية ، بل نفس هذه السبه يرسلها إليه بعد وفاته . لا .. أنه لا يستطيع أن يتأكد من كل ذلك بنفسه . وأمسك الصداع بتلابيبه ، وأحمرت وجنتاه ، ورمى بنظرة تتطاير بالشرر إلى « بدرى » وقال :

ـ ماذا تقولين فى ذلك ؟ لماذا فعل بهرام ذلك ؟ أليس له أخ وأخت ؟

ـ أنه يحب هذه الطفلة منذ وقت بعيد حتى الآن ، حينما كنت فى بندر كز وأصيبت « هما » بالحصبة ، أخذ هذا الرجل يصلى أمام فراشها عشرة أيام بلياليها .. فليرحمه الله .

فقال همايون غاضبا :

ـ لا .. ليس بهذه البساطة .

ـ لم لا يكون بهذه البساطة ، ليس الجميع مثلك بلا حنان ، ألقيت بأمرأتك وطفلتك ثلاث سنوات ، ثم عدت و يداك أطول من رجليك ، ولم تحضر حتى جوربا لى ، أن محبة القلب من عطاء اليد ، وحب طفلتك هو حب لك ، ولو لم يكن محبا لـ « هما » فماذا يكون ؟ وأنت ألم تلاحظ أنه كان يحب الطفلة أكثر من عينيه ؟

ـ لا .. لم تقولى الحق

ـ ماذا تريدنى أن أقول ؟ أنا لا أفهم شيئا

ـ أنك تتظاهرين بعدم الفهم

ـ يعنى ماذا ، لقد أنتحر شخص ، ووهب ماله شخص ، وأنا الذى يجب أن أعطى حساب الملكين .

ـ أنك تعلمين ما أعلمه .

ـ أعلم ماذا ؟ أننى لا أعرف الكنايات أو الاشارات أذهب وعالج نفسك ، أن أعصابك مرهقة .. ماذا تريد منى ؟

ـ أتظنين أنى لا أعلم ؟

ـ أذن .. لماذا تسألنى ؟

فصاح همايون بصبر نافذ

ـ كفى .. كفى أنك أتخذتنى سخرية لك .

وأخذ وصية بهرام فكورها ، وألقاها فى المدفأة حيث أشتعلت وصارت رمادا ، فألقت بدرى بالقماش البنفسجى الذى فى يدها بعيدا ونهضت قائلة :

ـ لقد عاندتنى ، أيصح أيضا أن تعاند طفلتك ؟

فنهض همايون ، وارتكن إلى المنضدة ، وقال بلهجة ساخرة :

ـ طفلتى .. طفلتى ؟ إذن لماذا تشبه بهرام ؟

ودفع بمرفقه الاطار المطعم الذى كان يحمل صورة لبهرام فسقط على الأرض .

وبكت الطفلة التى كانت تغالب نفسها حتى ذلك الوقت .. فقالت بدرى بلون شاحب وبلهجة تهديدية .

ـ ماذا تقصد ؟ لماذا تريد أن تقول ؟

ـ أريد أن أقول أنك خدعتنى ثمانى سنوات وسخرت منى ثمانية أعوام كنت بصفة فوق رأسى ولست أمرأة .

ـ بالنسبة لى ، ولا بنتى أيضا ..

فقال همايون ، وهو يشير إلى الصورة بضحكة عصبية وأنفاس لاهثة :

ـ نعم .. أبنتك .. أنهضى وأنظرى ، أريد أن أقول أن عينى قد تفتحتا الآن ، وفهمت لماذا وهب بهرام ماله هذا .. كان أبا حنونا .. أما أنت فعلى حد قولك ثمان سنوات ..

ـ كنت فيها داخل منزلك تحملت فيها أنواع الذل ، أعيش مع بؤسك وضنكك ، ثلاثا منها لم ترع منزلك ، وبعدها أخبرونى أنك كنت عاشقا لأمرأة روسية لعوب فى بندر كز ، والآن هذا هو جزائى ، لا تجد عذرا لك ، فتقول أن ابنتى تشبه بهرام ، لست مستعدة الآن أن أبقى معك ، ولن أبقى دقيقة واحدة أسيرة ذلك المنزل .. تعالى ياحبيبتى .. هيا بنا نذهب .

كانت هما ترتجف فى حالة من الحزن والهلع ، منذ رأت هذا الصراع العجيب الذى لا سابقة له بين أبويها ، فتشبثت باكية بملابس أمها وسارتا نحو الباب . وأخرجت بدرى من جيبها حزمة من المفاتيح ، ألقت بها نحوه بشدة ، فتدحرجت تحت قدم همايون .

وابتعد صوت بكاء « هما » ودبيب الأقدام فى الفناء ، وبعد عشر دقائق كان صوت عجلات العربة مسموعا ، وكان همايون قد وقف حائرا شاردا فى مكانه ، كان يخاف أن يرفع رأسه ، وكأنه لا يريد أن يصدق أن كل هذه الأحداث حقيقية ، وساءل نفسه : ربما صار مجنونا أو فى

كابوس مرعب ، ولكن الشيء الذى كان واضحا من الآن فصاعدا أن تحمل هذا المنزل وهذه الحياة لم يعد ممكنا ، وأنه لم يكن يستطيع أن يرى طفلته « هما » التى كم أحبها .. بعد ذلك لا يستطيع أن يقبلها أو يدللها .. وأن الذكريات الماضية لرفيق حياته قد تعكرت ، وأسوأ من كل ذلك أن زوجته كانت على علاقة بصديقة منذ ثمان سنوات ، وأنها دنست علاقتهما الزوجية ، وكل ذلك من خلف ظهره ، دون أن يدرى ، كلهم كانوا ممثلين بارعين ، أما هو فهو المخدوع الوحيد الذى ضحكوا على ذقنه ، لذلك يئس من حياته كلها ، وكأنه قد أوذى من كل شيء ، ومن كل شخص ، وأحس أنه وحيد وغريب إلى ما لا نهاية ، ولم يكن لديه طريق آخر الا أن يذهب لمهمة ما فى مدينة من المدن البعيدة ، أو ميناء من موانى الجنوب يقضى فيه بقية حياته ، أو أن يلجأ إلى الانتحار ، أو أن يذهب إلى أى مكان لا يراه فيه أحد ولا يسمع فيه صوت أحد .. أن ينام فى حفرة ثم لا يقوم مرة ثانية ، أذ أنه لأول مرة يحس أن بينه وبين كل من حوله دوامة هائلة مخيفة لم يستطع أن يدركها حتى الآن .

وأشعل لفافة وأخذ يذرع الحجرة مسرعا ، وارتكن على المنضدة مرة أخرى ، ومن وراء زجاج النافذة ، كانت قطع الثلج تهبط هناك على غطاء السقف ، بعد أن تدور فى الهواء بنظام وبطء كأنها ترقص على أنغام موسيقى غامضة . وبلا إرادة تذكر الأيام اللذيذة الجميلة حينما كان يذهب مع أبويه إلى قريتهم فى العراق ، والأيام التى كان ينام فيها وحيدا فى ظل شجرة ، نفس المكان الذى كان « شير على » يشعل فيه غليونه ، ثم يجلس النورج ، وابنته التى كانت تلبس خمارا أحمر ، وكانت تنتظر أباها هناك ساعات طوال ، وعجلة النورج ذات الصوت الحزين التى كانت تدرس سنابل القمح الذهبية ، والثيران التى كانت تدور حول نفسها بقرون طويلة ، وجبهات عريضة ، وقد ألهبت ظهورها بالسياط حتى

الغروب ، أن موقفه الآن مثل هذه الثيران التى كانت تدرس الحبوب ، وأحس بما كانت تحس به تلك الحيوانات ، وأدرك أنه كان يدور حول نفسه وعيناه معصوبتان كأنه حصان الطاحونة . وتذكر الساعات الرتيبة التى كان يجلسها فى حجرة الجمرك الصغيرة خلف المنضدة يملأ نفس الأوراق دائما ، وأحيانا كان زميله ينظر فى الساعة ، ثم يتثاءب ويحمل القلم ويكتب نفس الأرقام التى على الأوراق التى يجلس إليها ، ويطابقها معا ويجمعها ويراجع الأوراق ، ولكن ثمة لذة كانت لديه فى ذلك الوقت ، فقد كان يعلم أنه مهما تحللت عيناه وتفكيره وشبابه وقوته قليلا قليلا ، فانه حين يذكر أن بهرام كان يلقى زوجته وإبنته ليلا بابتسامة ، كان ينسى متاعبه ، ولكن الآن ينفر من ثلاثتهم ، فهم الذين رموه فى مثل هذا العيش الذى لا يطاق .

وجلس إلى مكتبه ، وكأنما إستقر رأيه على خطة رسمها ، وفتح درج مكتبة ، وأخرج مسدسه ذا السبع طلقات الذى كان يحمله دائما فى أسفاره ، وإختبره وكانت الطلقات فى مكانها ، ونظر إلى هيكله الاسود البارد ثم حمله ببطء ووضعه على فوديه ، ولكنه تذكر صورة بهرام الدامية ، فوضعه فى جيب سرواله .

ونهض ثانية ، وفى الفناء لبس حذاءه المصنوع من المطاط ومعفه ، ثم حمل مظلته وخرج من المنزل . كان الحى خاليا وقطع الثلج لا تزال تدور فى الهواء ، وسار فى طريقه بدون تردد ، ولم يكن يعلم إلى أين يذهب . كان يريد أن يهرب من منزله وأن يبتعد عن كل هذه الحوادث المخيفة . وإنتهى إلى الشارع أبيض بارد مثير للحزن وقد شكلت عجلات العربات وسطه فجوات غير عميقة وطويلة مختلفة الشكل ، وكانها المحاريث .

وأخذ يسير بخطوات واسعة وبطيئة ، ومرت سيارة بجواره ، فتطاير على رأسة طين الشارع وجليده ، وأخذ ينظر إلى ملابسه الغارقة فى الطين ،

وكأنه يرويها . وفى الطريق صادف غلاما يبيع الكبريت فناداه وأشترى منه علبة ، ولكنه نظر إلى وجهه فوجده ذا شعر أشقر وعينين خضراوين ، وفم ضيق ، فتذكر بهرام فإرتجف جسده وإستمر فى سيره ، فوقف أمام حانوت ، وألصق جبهته بالزجاج البارد لواجهته ، وكان يقع غطاء رأسه ، وكانت قد عرضت خلف الزجاج أسباب اللعب ، وحك كمه بالزجاج عله ينظف البخار المتكثف عليه ، ولكن عبثا ، وكانت أمامه دمية كبيرة بوجه أحمر وعينين زرقاوين تبتسم ، فأخذ ينظر إليها حائرا لبرهة ، وفكر لو كانت هذه الدمية « لهما » كم كانت ستسعدها وفتح صاحب المتجر الباب فسار ثانية ومر بين شارعين صغيرين وفى طريقه رأى بائع طيور يجلس بجوار قفصه ، وقد وضع على القفص ثلاث دجاجات وديكا مقيدة الأرجل ، وأخذت أرجلها الحمراء ترتجف من البرد ، وبجانبه على الثلج كانت بضع قطرات من الدم ، وعلى بعد قليل منه جلس طفل أقرع فى الممر الموصل إلى البيوت ، وكان ساعداه قد ظهرا من اكمامه الممزقة .

وأخذ يلاحظ كل ذلك دون أن يعرف لنفسه مكانا أو طريقا ، وكان لا يحس بالثلج المتساقط فوقه ، والمظلة على حالها مطوية فى يده ، وذهب إلى حارة أخرى خالية ، وجلس على طوار منزل ، وكان الثلج قد أشتد ، فنشر مظلته وأحس بشعور جارف من التعب يثقل رأسه وأغلق عينيه ببطء .

وأعاده حديث المارة إلى وعيه ، فنهض وقد أظلم الجو ، فتذكر جميع أحداث يومه ، حتى الطفل الأقرع الذى رآه فى ممر المنزل وساعداه اللذين ظهرا من اكمامه الممزقة ، وأرجل الطيور الحمراء المبتلة التى كانت ترتجف من البرد على ظهر القفص والدم الذى كان سائلا على الثلج ،

وأحس بشيء من الجوع فاشترى جانبا من الشطائر من بائع حلوى ، وأخذ يأكل فى الطريق ، ويتسكع كالظل من الأزقة بلا ارادة .

وحينما عاد إلى المنزل كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل فسقط على كرسى طويل ، وبعد ساعة استيقظ من شدة البرد ، وذهب بكامل ملابسه إلى فراشه وبسط الغطاء على رأسه فرأى فى النوم أن بائع الكبريت بالحجرة ، وقد أرتدى ثوبا أسود ، وجلس إلى المنضدة ، وكان وجهه وجه دمية بأعين زرقاء مبتسمة ، وقد جلس فى مواجهتها ثلاثة أشخاص وأيديهم فوق صدورهم . ودخلت طفلته هما وفى يدها شمع .. ومن خلفها دخل رجل قد أسدل على وجهه نقابا أبيض عليه بقعة دم ، وتقدم همايون وأخذ يد بائع الكبريت وهما ، وحينها أراد أن يخرج من الباب وظهرت يدان من خلف الستارة تمسكان بمسدس فى أتجاهه .. واستيقظ همايون من النوم مفزوعا .

وسارت حياته طوال أسبوعين على نسق واحد ، كان يذهب إلى عمله بالنهار ، ولكنه كان يعود إلى المنزل فى ساعة متأخرة من الليل لينام ، وأحيانا فى بعض الآصال ، كان بدون أن يدرى يمر بمدرسة البنات التى فيها « هما » ، وكان يختفى وقت خروجها خلف منعطف الشارع خشية أن يراه مشهدى على خادم حميه ، وكانت التلميذات يخرجن واحدة واحدة ، ولكنه لم ير طفلته « هما » بينهن قط . وظل كذلك حتى قبلوا طلبا تقدم به لمهمة فى مكان بعيد ، واقترحوا عليه أن يذهب إلى جمرك كرمانشاه .

وفى اليوم السابق للسفر كان همايون قد أنهى كل أعماله ، واتفق مع صاحب المخزن ، وحدد العربة ، واشترى التذكرة ، لكنه رغم اصرار

صاحب المخزن ، فقد أجل سفره إلى كرمانشاه إلى الصباح بدلا من غروب نفس اليوم ، ذلك أن حقائبه لم تغلق بعد .

وحينما دخل حجرة الجلوس حيث كان مكتبه ، وكانت الحجرة مبعثرة ، وثمة رماد بارد كان مبعثرا أمام المدفأة ، وكان القماش البنفسجى ، والمظروف الذى أرسل فيه بهرام وصيته ما يزالان على المنضدة ، فحمل المظروف ومزقة من وسطه ، ولكنه رأى فيه ورقة مكتوبة لم يلتفت إليها فى ذلك الوقت لشدة عجلته ، فوضع أجزاء الورقة على المنضدة بجوار بعضها وأخذ يقرأ .

« لا بد أن هذه الورقة ستصلك بعد موتى ، أننى أعلم أنك سوف تعجب لتصميمى هذا الفجائى ، لأننى لم أكن أفعل شيئا دون مشورتك ، ولكن من أجل ألا يكون بيننا سر ، أعترف بأننى أحببت زوجتك « بدرى » ، وظللت أقاوم نفسى أربع سنوات ، وأنتصرت أخيرا وقتلت الشيطان الذى كان قد أستيقظ فى نفس وحتى لا أخونك .. وتركت هدية بسيطة لهما هانم أرجو قبولها .. فداؤك بهرام » .

أخذ همايون ينظر فترة إلى الحجرة بدهشة وشرود، الآن لم يبق لديه شك أن « هما » أبنته ، ولكن هل يستطيع أن يذهب دون أن يراها ، قرأ الخطاب مرة أخرى ومرة ثالثة ووضعه فى جيبه ، وخرج من المنزل وذهب مباشرة إلى محل اللعب . وبلا تفكير اشترى الدمية الكبيرة ذات الوجه والأعين الزرقاء ، وذهب إلى منزل حميه ، وحينما وصل هناك طرق الباب ولما رآه مشهدى على خادمهم قال بأعين دامعة :

ـ سيدى أية حسرة نزلت على « هما » هانم

ـ ماذا حدث ؟!

ـ سيدى أنك لا تدرى كم كانت هما حزينة لفراقكم ، كنت أحملها كل يوم إلى المدرسة ، وفى يوم الأحد .. فرت من المدرسة .. أجل ، وقد مرت خمسة أيام منذ ذلك اليوم ، وقالت أنها ذهبت لترى والدها العزيز ، وكم كنا مضطربين ، ألم يقل لكم محمد شيئا ؟ لقد تحدثنا مع الشرطة مرتين فى التليفون ، وجئت إلى منزلكم مرتين .

ـ ماذا تقول .. ماذا حدث ؟

ـ لا شىء .. لا شىء يا سيدى ، فى الليل أحضروها إلى منزلنا ، كانت قد ضلت الطريق ، ومع لسع البرد أصيبت بالنزلة الشعبية ، وحتى لحظة موتها كانت تناديكم ، وأمس حملناها إلى مقابر الشاه عبد العظيم ، وأودعناها التراب إلى جوار قبر بهرام ميرزا .

نظر همايون حائرا إلى مشهدى على ، وحين وصل إلى هذا الحد ، سقط صندوق الدمية من تحت ابطه ، ورفع ياقة معطفه كالمجنون وذهب بخطوات مسرعة إلى مخزن العربات فقد تغاضى عن ربط الحقائب ، وكان كل همه أن يلحق عربة العصر بأقصى ما يستطيع من سرعة .

١٠

الأقنعة

كان « منوجهر » يضع يده اليمنى تحت ذقنه وقد تمدد على أريكة . وكانت ملامحه جادة وعيناه مرهقتين ، وأخذت نظراته تنتقل بين عقرب الساعة ، والزى الذى كان موضوعا على كرسى ، ويبدو أنه قد أستقر على شىء فأخذ يسأل نفسه :

ـ هل ستذهب « خجسته » إلى الحفل الليلة ؟! فى حين أنى لا أستطيع قط !!

كان الجو مظلما خانقا ، والمطر يسقط رذاذا ، فتلتف قطرات المطر المبتسمة على بعضها كالسلاسل ، ثم لا تلبث أن تختفى قليلا قليلا . وبقيت فروع الأشجار ساكنة بلا حراك تحت وطأة المطر ولكن صوت سقوط الرذاذ الرتيب من الميزاب كان مسموعا . كان من تلك الأجواء الثقيلة المؤثرة التى تضغط على القلب ، وتبعث الرغبة فى الانسان فى الابتعاد عن المدينة والانفراد فى ركن بيت هادىء ، وكان ثمة شخص يعزف برقة على البيان ، وطبع هذا المنظر أفكار منوجهر بطابع من الحزن إلى درجة غريبة .

وفجأة وبلا إرادة ، سرح تفكير منوجهر حول الخط الصغير الذى يقع فى زاوية شفة خجسته ، وأثره الذى كان يزيد فى جمالها ، وعينيها الجذابتين والأسنان البيضاء الجميلة التى تبديها حين تبتسم ، والرأس الصغير والتفكير الطفولى الاخاذ ، وهذه النظرة البريئة وكأنها نظرة حمل يحملونه إلى مذبح ، أنها فى نظر منوجهر تمثال أو دمية من الخزف اللطيف لا يستطيع أن يمد يده إليها خشية أن يلوثها . منذ ذلك اليوم الذى عرف فيه خجسته وهو يحبها بجنون ، وكانت كل حركة من حركاتها فى نظره مليئه بالحنان، مليئه بالفتنة، اما التفكير فى هجرها فكان فى نظره أحد المستحيلات .

وفى عصر الأمس دخلت أخته الكبرى فرنكيس إلى حجرته بعينين تدمعان ، وبعد بضعة كلمات مشجعة قالت له « لو تزوجت خجسته فإن شرف السنين سيذهب أدراج الرياح ، ولن نستطيع بعد ذلك أن نعاشر الناس ، وسوف نكون أذلاء حاسرى الرؤوس أمام الجميع إذ سيقال « أن أخاك تزوج خجسته عشسقة أبى الفتح » ثم أظهرت صورة أضاعت كل ما كان فى رأسه من مشروعات . كانت صورة خجسته بعينيها الثمرتين وقد أرتمت فى أحضان أبى الفتح وتصاعد الدخان من رأس منوجهر حين رأى الصورة ، ألم يصطدم بأهله من أجلها ؟ إذن ماذا يفعل ازاء هذا العار ؟ أنه لا يستطيع أن يصرف نظره عن خجسته ، كما أنه لا يستطيع أن يراها مرة ثانية ، وعلى كل فإن هذه الصورة قد قضت على كل الآمال والأفكار التى كان يقيم عليها بناء مستقبله .

بدأ تعرفه عليها فى الخيالة ، إذ أخذ كل منهما ينظر إلى الآخر كلما أضيء النور ، وأثناء الخروج تحدثا سويا ، والذى حدث منذ الساعة الأولى أن منوجهر فتن بخجسته وصار طوع يدها ، وفى نفس المكان

أخبرها أنه يأتى إلى دار الخيالة يوم الأثنين من كل أسبوع ، ومن ثم فقد تكرر هذا اللقاء ثلاثة أسابيع ، وفى الأسبوع الثالث أوصلها منوجهر بسيارته إلى منزلها فى شارع « لختى » ، وقد صار أسير حبها إلى الحد الذى كانت فيه كل تصرفاتها وطباعها ، وحتى الأخطاء الاملائية التى أمتلأت بها خطاباتها التى كانت تبعث بها إليه كانت حبيبة إلى نفسه ، بل أنه كان يعد الشهر الذى عرفها فيه أسعد أيام حياته .

وفى المرة الأولى التى جاءت فيها خجسته إلى منزله ، إلى نفس هذه الحجرة ، ادار الجرامافون بـ « سيراناده » وأخذ يبكى فى أحضانها مدة ليست بالقصيرة . وكانا يرسمان خريطة مستقبلهما حيث كانا مع بعض فى حجرته بمفردهما ، أو فى الحجرة الصغيرة الملحقة بمقهى « وكا » وكان أقتراح منوجهر الدائم أن يذهب معها إلى ضيعته فى مازنداران فيبنى إلى جوار النهر بيتا جميلا صغيرا يعيشان فيه معا ، ولكن هذا المشروع لم يلق قبولا من خجسته إذ لم يكن يلائم طبيعتها ، فقد كانت ترغب فى العيش فى طهران ، حيث تلبس الجديد من الأزياء ، وتذهب فى الصيف بسيارتها إلى « زركنده » للنزهة ، وتغشى حلقات الرقص .

وبالرغم من أعتراض أسرته على زواجه بها ، صمم منوجهر على الزواج من خجسته ، ودخل فى نقاش حاد مع والده من أجل أتمام كل شىء ولكن والده كان من أولئك الأمراء القدامى ذوى الأفكار الرجعية القديمة ، وكان حديثه الدائم عن معجزات الأنبياء ، أو الحكايات التى تشبه المعجزات والتى جمعها أثناء أسفاره ، وقد صف فى حجرته صناديق الحلوى ، فكانت عيناه تبرقان وفكاه لا يكلان عن الحركة دائما ، يشكر الله أن خلق هذه النعم وأعطاه تلك المعدة القوية ، وقد غضب لقرار

منوجهر هذا إلى حد كبير ، وبعد مشادة عنيفة ترك منوجهر منزل أبيه فقد كان قراره فى الزواج من خجسته صارما نهائيا .

فى الشهر الأخير كان شغل منوجهر الشاغل هو وخجسته منصبا على الحفلة التنكرية التى سيقيمها نادى ايران للرقص ، وقد أعد منوجهر لنفسه ملابس بحار ، ولكن خجسته لم تخبره بزيها ، إذ كانت تريد أن تفاجئه ليلة الحفل .

ولكن هذه الصورة المشئومة ، هذه الصورة التى أحضرتها مه أخته فرنكيس لم تصرف منوجهر عن الذهاب إلى الحفلة فحسب ، بل أنها حطمت آماله ورغباته كلها .

وعلى الفور كتب إلى خجسته خطابا أخبرها فيه أنه لم يعد مستعدا لرؤيتها ، ولم يكن هذا كافيا لديه ، فقرر أول الأمر أن يقتل أبا الفتح ويقتل خجسته ثم ينتحر ، ولكن هذا الأمر بدا له طفوليا بعد تفكير قليل ، وأخذ يعد لنفسه مشروعا آخر .

وكان يعلم أنه لا يستطيع الحياة بدون خجسته ، ولكى ينتقم صمم على أعادة علاقته بها كلفه الأمر ، ثم يقضى على تلك الحياة التى منحها لها والداها فى الفراش ذات ليلة بأن يشرب كلاهما السم ، ثم يموتان متعانقين .. وكان هذا التفكير فى نظره لطيفا شاعريا .

ونهض منوجهر وكأنما فرغ صبره ، وأشعل لفافة من التبغ ، وجعل يدور حول حجرته بلا وعى أو ارادة ، وفجأة وقف أمام الكرسى الذى عليه زى البحار وأمسك القناع الذى كان قد أشتراه للحفل وطفق ينظر إليه ، لقد كان شبيها بالوجه الضاحك السمين ذى الفم المفتوح ، وأخذ يفكر « الليلة ، الساعة التاسعة والنصف سيكون الجميع هناك فى القاعة الكبيرة ، هل ستذهب خجسته أيضا ؟ » وأسرعت دقات قلبه ، لأنه لم

يستبعد أن تذهب خجسته مع شخص آخر قد يكون أبا الفتح وترقص معه .. بعد كل ليالى الأرق ، تلك الليالى التى كان يذرع الطريق فيها أمام نافذة منزلها حتى الصباح ، الأيام التى كان يبكى فيها بجوار أسطوانة فى الجرامافون ، كانت ساعات طويلة مثيرة للحزن ولكنها فتانة .. هل هذه خجسته التى كانت مستعدة أن تموت من أجله ؟ خجسته التى لم تقرب الشراب هى نفسها التى سقطت ثملة لا تعقل فى أحضان ذلك الرجل ؟! أمن أجل ماله وسيارته كانت تظهر التعلق به ؟ من أجل السيارة أذن فحين تحدث عن بيعها مرة أو مرتين غضبت خجسته جديا وفى هذا الوقت أرتفع صوت رنين التليفون ، وأخذ يرن لفترة ، فحمل منوجهر السماعة

ـ آلو .. من ؟

ـ من معى ؟

ـ منوجهر شه أندوه

ـ هو حقا ؟!

ـ نعم .. تفضل .

ـ سوف يتحدث معك شخص بين الساعة العاشرة والحادية عشرة فى أمر شديد الأهمية و ..

وعلق منوجهر السماعة من نفاذ صبره ، ولم يترك المتكلم يكمل حديثه ، أنه لا يعرف صوت هذا الرجل .. هل يسخرون منه وهل ثمة موضوع سرى بينه وبين أحد ؟

كان منوجهر من أولئك الناس الذين ينامون وهم يقظى ، يسيرون ويقومون بألف عمل ولكن تفكيرهم يكون فى مكان آخر ، ولكن هذا الاحساس ازداد عنده منذ الأمس ، فأخذ يسأل نفسه « ترى من هو

ذلك الشخص ، أنه لا يمكن أن يكون شخصا آخر غير خجسته التى تريد أن تحضر لتقسم ألف قسم كاذب أن هذه الصورة زورها عليها أعداؤها ، ولكن هل بقى هناك مجال للتردد ، ألا تكفى الخديعة مرة واحدة ؟! بين الساعة العاشرة والحادية عشرة .. أنها حتما هى ، أنها تعلم تعلقى بها ، وتعلم أيضا أننى لن أذهب بعد الحادث إلى الحفل الليلة ، وهى أيضا لابد أنها لن تذهب ، تريد أن تحضر هنا ، ولكن هل أستطيع أن أغلق الباب فى وجهها أو أطردها » .

لم يبق عند منوجهر شك فى أن خجسته سوف تحضر الليلية ولكى يدلل على عدم تعلقه وعنايته منها ، صمم على الذهاب إلى الحفل ولو لنصف ساعة ، حتى يبلغ ذلك أسماع خجسته فتعلم أنه لم يحرم نفسه من مرح الحفل بتأثير الحادث .

وأضاء المصباح وشغل نفسه بسن موسى الحلاقة .

وكانت الساعة العاشرة حين وقفت عربة منوجهر الفيات فى حديقة نادى ايران أمام مبناه ونزل منها بلباس البحارة الأبيض .

كانت القاعة مزدحمة وصوت موسيقى التانجو مرتفعا ، وكل الضيوف يلبسون أزياء غريبة ذات ألوان مختلفة ، ويضعون الأقنعة على وجوههم ، وكانت الألوان المتباينة والأزياء المختلفة إلى جوار دخان اللفائف تغطى الجو ، إلى جانب العطور والطيوب . وسار منوجهر حتى آخر حلقة الرقص وعرف اثنين أو ثلاثة من أصدقائه بالرغم من لباسهم التنكرى المختلف ، ولكنه تظاهر بعدم معرفتهم ، وبدلا من أن يثير فيه هذا التانجو الاسبانى الميل للرقص ، ولد لديه أفكارا مثيرة للحزن ، وتذكر الأيام التى قضاها مع « ماج » ، وكانت تشرح له بعض ملامح حياتها الأوربية ، وقد أظهرتها هذه النغمة أمامه أكبر من الحقيقة .. فخرج من القاعة ودخل

حجرة المقصف وشرب كأسين متتاليين من الويسكى بالصودا ، فتحسنت حاله وعاد ثانية إلى حلقة الرقص ، ووقفت إلى جواره أمراة فى لباس الشيطان (أهريمن) بزى أسود وقناع شبيه بالوجه الصينى ، ولكن حواس منوجهر كانت مشتتة فلم ينتبه إليها ، وكان ثمة جمع غفير يروح ويجىء ، وأخذت الالحان تتوالى هى الأخرى ، وأقتربت الشيطانة من منوجهر وقالت :

ألا ترقص ؟!

فعرف منوجهر صوت خجسته ، ولكنه تظاهر بعدم السماع وأراد أن يبتعد ، ولكن خجسته جذبته من ساعده ، وذهبا معا إلى الحجرة التى كانت بجوار القاعة ، وكانت ثمة خلوة هناك ، ففى ركن منها جلست أمراة ورجل عجوز ، وأخذ رجل سمين بلباس الراجا الهندى يروح عن نفسه بمروحة ، وبلا ارادة جلس منوجهر على كرسى طويل ، وجلست خجسته إلى جانبه ، ولكنها بعد قليل ضربت بيدها على ظهر منوجهر قائلة :

ـ يا هذا .. هل سقطت من فم أسد ؟ ألا تعلم أى سوء أدب أرتكبت .. تدعوك سيدة للرقص فلا ترقص معها ..

ـ ....

ـ اليوم عصرا تحدثت معك بالتليفون أن تبقى الساعة العاشرة فى المنزل ، سوف يأتى شخص ما لمقابلتك .. لم لم تبق ؟ كنت أعلم أنك ستأتى إلى الحفل عنادا لى .

وكأنما أسقط هذا الحديث بسقف الحجرة على منوجهر ، وأكتشف إلى أى حد عرف رأس خجسته الصغير ضعفه ومعنوياته على حين أنه لم يكن يعرف خجسته حتى الآن ، واستسلم لها مغمض العينين ، وفى

تلك اللحظة تحول كل حبه لخجسته وتعلقه بها إلى حقد كبير ، وسألته ثانية .

ـ ما رأيك فى لباسى ؟

فقال منوجهر بعد تفكير قصير

ـ أى لباس رائع تلبسين .. أنه يجسد معنوياتك حق التجسيد .

ـ منوج .. هل تصدق أن هذه الصورة صحيحة حقا ؟

ـ أنها إذن لشيطانك ! ليس هناك خطأ

ـ كنت قد قلت لك فى السنة الماضية أن ابن خالتى خطبنى .

ـ ولكن ثوبك .

ـ وماذا عنه ؟

ـ هو نفس الثوب « التفتا » الذى اشتريته من « لاله زار » منذ شهر الذى نقط بنقط سوداء .. كنت فى الصورة بنفس الثوب .

ـ أخيرا هناك أشياء .. لو كنت تعلم ! أننى لم أجرأ أن أحدثك أى وقت ، ولكننى كنت قد صممت أن أقول لك قبل زفافنا .. هل من الممكن لشخصين أن يتحدثا معا بصراحة ؟

ـ أذن ، أنت تعترفين الآن أنك كنت تكذبين طوال هذه المدة ؟

ـ لا .. ولكننى أريد أن أقول أننى كنت أفكر دائما ، هل يمكن أن يتحدث أثنان بصفاء وبصدر متفتح بأحساساتهما وأفكارهما ولو لدقيقة واحدة ؟ ! !

ـ أننى أظن أن الحديث من وراء قناع يكون أكثر صدقا

ـ كنت أسائل نفسى هل أنت حقيقة تحبنى أم لا ؟

ـ أحببتك ولكن ..

KMH

ـ هذا حق ، ولكن فى خلال هذه المدة .. ألم تكذب على ؟ هل كنت تحبنى من أعماق قلبك ؟

ـ أنت بالنسبة لى صورة لشخص آخر ، أنت تعلمين أنه ليس ثمة حقيقة خارج وجودنا ، فى الحب يكون ذلك أكثر وضوحا ، إذ أن كل شخص يحب شخصا آخر بكل قوة خياله ، فيسر من قوة تصوره لا من المرأة التى أمامه ، ويظن أنه يحبها ، هذه المرأة هى خيالنا الخفى ، وهم يختلف عن الحقيقة .

ـ لم أفهم جيدا

ـ أريد أن أقول أنك لى وهم لوهم آخر ، أى أنك تشبهين شخصا كان لى وهم أول ، كنت قد قلت أنى أحببت « ماج » قبلك .

ـ نفس الفتاة التى تعرفت عليها أثناء الرقص .

ـ هى بعينها .

ـ أحببتها أكثر منى .

ـ أحببتك لأنك تشبهينها ، كنت أقبلك وأعانقك وأتخيلها ، وأتصور بينى وبين نفسى أنك هى ، وأنا الآن أحاسبك لأنك كنت تمثلين وهما ، وقد عكرت ذكرى هذا الوهم .

ـ يا للرجال من مخلوقات حسودة مغرورة .

ـ النساء أيضا جميعهن كاذبات محتالات .

ـ ألم أكن لك ؟! ألم أسلم نفسى لك؟! إذن لماذا تهتم على حد قولك بوهم ؟

أن الدنيا تقلبات متتالية و بعد يومين سنصير ترابا ، لماذا نقتل أوقاتنا فى حديث تافه ، الشىء الباقى هو المتعة ، يجب أغتنام الوقت ، وما يبقى بعد ذلك فهو تافه يورث الندم .

ـ أسفا .. أسفا ، أنك لا تتحدثين من أعماق قلبك ، ولا تملكين شيئا من الاستقلال الروحى ، بل تكررين حديث الآخرين كالاسطوانة .

وحينذاك أقترب منهما رجلان أحدهما يلبس لباس المستوفين القدماء ، والثانى يلبس زيا كرديا ، وأخذت خجسته تقول :

ـ ومع كل ذلك ، يجب أن تعلم أن وقتنا ضيق ، ومن الليلة تغيرت حياتى تغيرا كليا ، لقد تشاجرت مع أسرتى ، ولم يبق لى شىء آخر ، أن شئت صدق أو لا تصدق ، ولكن للمرة الأخيرة سأسلم لك قيادى ، وأنفذ كل ما تأمر به .

ـ إنك أثبت حبك لى دفعة واحدة .. لقد أصبحت مشارا اليه بالبنان فى هذه المدينة ، ومن الغد يجب أن أتجول فى شوارعها بنفس هذا القناع حتى لا يعرفنى أحد .

ـ قلت لك أننى مستعدة من الآن لو أردت أن نذهب إلى أملاكك ونعيش بعيدا عن المدينة ولا نعود إليها قط .

قالت هذه الجملة الاخيرة بحماس . إذ تجسدت أمام ناظريها تلك اللوحة المعلقة فى منزل جدها ، وكانت تمثل غابة ملتفة الأشجار ، تظهر من بين أغصانها قطعة صغيرة من السماء ، كانت هذه اللوحة تبدو لها بصورة شاعرية فائقة ، وتجسد فى خيالها أنها تمسك بيد طفلة قروية السحنة ذات حدود حمراء ، وأخذت تتجول هناك . وهذه الطفلة تكون ثمرة زواجها ، وكأنما أحس منوجهر أن هذا الأقتراح يجعل انتقامه سهلا ، فرفع رأسه وقال :

ـ هيا بنا نذهب الآن .

ونهضا من مكانهما ، وتقدم منوجهر المشرب ، فشرب كأسا من الويسكى ، وبينما كانا ينزلان الدرج قالت خجسته :

ـ لو سرنا بهذه الأقنعة لكان شيئا جذابا .. اننى لن أرفع قناعى .

وأخذ كلاهما مكانه فى السيارة ، وضرب بوقها ، ثم سارت السيارة ، وأزاد من سرعته بعد أن عبر الممرات الخالية الرطبة ، ثم خرج بلا تفكير من بوابة « شميران » ، وبعد ضرب البوق عدة مرات ، وحينئذ كانت السيارة تقفز فى جادة « مازنداران » ، وقد أثار الويسكى وهذه الأحداث والجو المطير دوران الدماء فى بدن منوجهر وأحس أن قوة الحياة فى بدنه قد تضاعفت ، وكان يحس بقوة خارقة فى نفسه ، وكان الجو مظلما ، وليس هناك إلا خيط من ضوء أبيض يضىء أمام السيارة ، وألصقت خجسته نفسها بمنوجهر قائلة :

ـ ليتنا رقصنا التانجو معا لآخر مرة .

ولكن منوجهر لم يلق بالا إلى كلامها فهز كتفيه ، وأخذ يسوق السيارة بأقصى سرعة ، وأرادت خجسته أن تقول شيئا . ولكن الريح ملأت فمها ، وأخذت الوديان والتلال تكبر بدرجة عظيمة ، وكانت تسرع من الجبهة المضادة لسير العربة . وفجأة انزلقت العجلات ، ودارت السيارة حول نفسها ، ودوى فى الفضاء صوت الحديد مختلطا بصوت الفولاذ وصوت تحطم الزجاج ثم سقطت السيارة فى منحدر الطريق ، وسكن الصوت دفعة واحدة ، ولم تبق سوى شعلة زرقاء ترتفع من حطامها .

فى الصباح وجدت كومة من اللحم المحترق ، وحطام السيارة مبعثرة إلى جوار الطريق ، وعلى مقربة منها وجد قناعان أحدهما سمين أحمر ، والآخر أصغر ونحيف وذو سحنة صينية ، وكانا ملتصقى الفم .

١١

ليالى ورامين

من خلال أوراق اللبلاب ، كان ثمة مصباح يبسط نوره على أرض الشارع المملوءة بالحصى والتى تمتد إلى ناحية الباب ، وكان ماء الحوض ساكنا لا يتحرك ، والأشجار العتيقة السوداء المتشابكة تبدو فى ظلام ذلك المساء الرطب للربيع هادئة ساكنة ، وعلى مقربة منها يجلس ثلاثة أشخاص فى أيوان حول منضدة ، رجل فى مقتبل العمر ، وأمرأة شكابه ، وفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، وكان كلبهم الأسود قابعا تحت المنضدة . وأمسكت « فرنكيس » بعود جميل تلمع قبضته الصدفية فى ضوء المصباح وقد حنت رأسها قليلا وجعلت تمعن النظر فى شرود إلى الأرض ، وكأنها تبتسم ، وقد أمسكت العود فى يديها بحنان ، والأنغام العذبة تسمع من أوتاره ، وصوته المتقطع يتموج فى الهواء ، ويرتعش ، ولا يكاد النغم يختفى ويختنق ، حتى تتصاعد من بين أوتاره أنغام أخرى . ولم يكن معلوما لم تعزف لحن « همايون » بالذات ، ويبدو أنها كانت تجيد عزفه ، أو أنها كانت معجبة فيه .

وبين الفينة والفينة كانت بومة تنتحب بين الأشجار ، وكأنها أنعكاس للنغمة ، ووضع فريدون يده فى سترته الكثيفة ، وجعل ينظر إلى الدخان

الأزرق المنبعث من اللفافة نصف المحترقة وهو ينزلق فى الهواء فى ثنايا وأنحناءات .

ورغم أنه كان يمل من الالحان العادية ، إلا أنه كان ينصت إلى هذا اللحن بميل خاص ، مع أنه قد سمعه قبل ذلك مئات المرات ، وبخاصة أن فرنكيس كانت تعزفه ، فقد بعثت الحياة بلا إرادة من جديد فى ذكرياته البعيدة الباهتة وأخذت تمر أمامه كشريط سينمائى .

كانت « كلناز » تنظر بعينيها الناعستين الجميلتين بحسرة إلى ساعد مدربتها وقبضة يدها ، إذ أن فريدون لم يكن يرضى أن تعزف هى الأخرى هذه الأنغام ، ولكنها فى الأيام التى كان فريدون يذهب إلى عمله ، ولا تجد ما يشغلها ، فتذهب إلى فرنكيس لتعلمها العزف سرا على العود .

مرت سنتان منذ عاد فريدون من سويسرا ، وأخذ يزاول الحياة الريفية ، ويشتغل بالزراعة فيما ورثه من ممتلكات ، وكانت هذه الحياة توافق ميوله ، إذ أن دراسته فى أوربا كانت فى الزراعة ، وأخذ يعمل فى نشاط وحماس ، حتى أنتج فى السنتين الأخيرتين خمسة أضعاف ما كانت الأرض تغله من قبل ، وبالرغم من أن أملاكه كانت فى وارمين بالقرب من طهران ، فأنه لم يكن يذهب للنزهة فى المدينة حتى ولا ثلاث مرات فى العام .

وكان طوال اليوم يتجول بين مزارعيه بقميص ممزق وسترة بنية قذرة وحذاء بال . وكان يرشد المزارعين ويحثهم على التعمير والنظافة ، وكان سر سعادته زوجته فرنكيس التى كانت تساعدة وتقوم برعايته ، فحين تستيقظ فى الصباح الباكر لا تستريح دقيقة واحدة . وربما كان من النادر أن تكون هناك علاقة بين زوج وزوجته مثل التى كانت بينهما فلم يحدث خلاف بينهما مرة واحدة ، أو أكتشف أحدهما فتورا وأهمالا من

الآخر . وكان ذلك مناسبا لحياتهم المحدودة التى يحبونها فلم يكن لفريدون معارف أو أقرباء سوى زوجته فرنكيس وأخته غير الشقيقة كلناز وكان ثلاثتهم يعيشون فى ضيعتهم هذه فى بساطة ويسر .

وكان مسكنهم مكونا من عمارتين أحداهما قديمة والأخرى « فيلا » بالغة الجمال ، كان فريدون قد بناها ، ولم تكن فرنكيس تألو جهدا فى جعل كلتا العمارتين جميلة ونظيفة تبعث فى النفس السرور ، فعندما كانوا يدخلون الحديقة كانوا يشمون رائحة الزهور تنبعث فى الجو ، والأعشاب ندية ، بينما النظافة تعم كل مكان ، وقد تسلق اللبلاب الحوائط .

وبينما كانوا منصتين إلى العزف ، دقت ساعة الحائط التاسعة ، فنظر فريدون فى ساعة معصمه ، وفى نفس الوقت أختنق صوت العود ، وضعته فرنكيس جانبا ، ثم وضعت يدها فوق قلبها ، وكأنها تعانى ألما فوق المعتاد ، وأصطكت أسنانها ، ثم جلل العرق جبهتها . وشحب لون فريدون وكان يلاحظ ذلك ، ولكن فرنكيس ظهرت بمظهر اللامبالية ، وأبتسمت ابتسامة سريعة ، ونهضت كلنار ، وكان النوم قد داهمها ونزلت بطيئة من درجات الأيوان ، وكان صوت نسترن باجى مربية كلنار يأتى من بعيد وهى تتحدث مع البستانى .

وقطع فريدون السكون قائلا

– فرنكيس .. ألا تعلمين أنك بهذا الجهد الذى تقومين به تقضين على نفسك ، أنا لست براض ، يجب أن تستريحى فترة ، وأن تأخذى الدواء بانتظام .

ففكرت فرانكيس قليلا ، ثم قالت بلا أعتناء

ـ أية فائدة ، وأنا منذ ستة أشهر أشرب الأدوية أصناف . وهى تزيدنى سوءا

ـ أننى أقصد أن تعتنى بنفسك ، داخل هذا المنزل لا يعمل أحد قدرما تعملين ، إذ ينبغى أن لا يرهق نفسه من هو فى مثل صحتك المتعبة .

فأجابت فرنكيس

ـ الآن أحوالى أحسن ، ليس هناك شىء ، كل شىء سيصير على ما يرام

ـ أتريدين أن أذهب غدا إلى الطبيب ؟ هؤلاء الأطباء الذين لا يهتمون بالمرضى ، ولا ينظرون إلى المرضى ، ولكن عنايتهم كلها فى أقتناص النقود .

ـ ما قدر يكون

ـ من كثرة حديثك عن القدر أكاد أختنق ، لماذا تتحدثين هذا الحديث القديم ؟ فقالت فرنكيس :

ـ نفس قضية البارحة عندما أنكرت الآخرة ، فلعلك صرت أوربيا صرفا وصرت تطعن فى كل شىء .

فقال فريدون :

ـ ليس للأوربيين دخل فى هذا ، ولكنى أريد أن أقول أن تربيتنا سيئة ، أن سر تأخرنا وفسادها ترجع أسبابه أن أقول أن الخرافات التى حشوا بها أدمغتنا منذ صغرنا ، وجعلوا كل الناس أخرويين وقدريين ، لقد تركنا الدنيا وتعلقنا بفكرة وهمية هى الآخرة ، وفى أى شىء نحن أنقص من الآخرين ، من أجل أن الأوربى يقول لطفله : كل الوجود وطن لك

فعمره . يجب أن تتقدم فى الحياة عن الآخرين ، يجب أن تكون مرفوع الرأس . بعكسنا نحن : إذ نقول لأطفالنا أن هذه الدنيا معبر والآخر كل شيء ! أنا لا أعرف من الذى عاد من الآخرة ليخبرنا عن أحوالها ؟ أننا منذ أن نسقط من بطون أمهاتنا نبكي على آخرتنا حتى نموت ، فهل هذه حياة ؟

فقالت فرنكيس وهى تفكر

ـ أننى أفكر مع حنانك الجم ، وخلقك الطيب كيف لا نعتقد فى أى شيء ؟

والخلاف الوحيد الذى كان فى حياتهما الصافية السعيدة هو هذه المشكلة : أن فريدون لم يكن يعتقد فى شيء قط على عكس فرنكيس التى ملأت أمها رأسها بالأفكار المتوارثة القديمة ، فكانت تعاند زوجها خاصة ، وتريد أن تقنعه فكان فريدون يتخلى عن المناقشة .

وقال فريدون مبتسما

ـ أنظرى ، عدنا إلى حيث كنا ، أنا لا أريد الخوض فى هذه الموضوعات ، ولكن الخير والشر فى الانسان لا دخل لهما بعقيدة أو مذهب ، كل الفتن مصدرها رؤوس رجال ، وكل الحروب المذهبية والصليبية قامت من تحت رؤوس القساوسة .

فصمدت فرنكيس وقالت

ـ أنا لست لبقة مثلك ، ولكن قلبى يحدثنى بأن هناك وجودا آخر غير هذه الدنيا ، ولو كان العالم الآخر غير موجود ، أذن لماذا يحلم الانسان ؟ أنت نفسك قلت أن المنوم المغناطيسى ينوم الانسان ، ألم تشر لى ذات مرة فى ذات الكتاب الفرنسى إلى صورة روح ؟ أنك تعتقد فى الأوربيين !

فأجاب فريدون :

ـ من قال هذا ؟ هل كل خرافة يكتبها أوربى تكون صدقا ، كل هذه عقائد نسوة أوربا العجائز .

ثم نظر ثانية فى ساعة معصمه وتثاءب قائلا :

ـ الساعة التاسعة والنصف

ونهض كلاهما من مكانه ، وصعدت فرنكيس وراء زوجها بعد أن جمعت ما على المنضدة . وبعد نصف ساعة أنطفأت المصابيح ونام الجميع إلا بومة كانت تنحب بين الآن والآخر .

بعد شهرين كانت فرنكيس طريحة الفراش بشعر مشعث وجسد نحيل ووجه ذابل وأعين تحتها خدور غائرة زرقاء .

لم تكن لتنام أو لتأكل ، وأحيانا كان قلبها يضطرب ، وتسعل سعالا متقطعا ويشحب لون شفتيها ، وتضيق أنفاسها ، وتتلوى حول نفسها . وكانت تفزع من النوم ، وتأخذ فى الصراخ ، وقد وصل بها الانهاك حدا أرادت أن تشرب زجاجة المقوى كاملة ، ولو لم يصل فريدون فى الوقت المناسب لأراحت نفسها .

كان فريدون يجلس على كرسى بجوار فراشها ليلا ونهارا ، شاحب اللون ، قلق الملامح بأعين لم تر النوم . ولم يكن ليستريح دقيقة واحدة . فكان يجس نبضها ، أو يدون درجة حرارتها فى مذاكرات ، أو يسرع إلى طلب الطبيب أو يسقيها اللبن ملعقة ملعقة . وكلما وقف قلبها أظلمت الدنيا أمام ناظريه .

وذات يوم عند الغروب بينما كان فريدون جالسا بجوار فرنكيس ، وقد ثبت عينيه على وجهها النحيل ، وأخذ ينظر إلى رموشها الطويلة التى

بقيت نصف مفتوحة على ضوء المصباح ، كانت كأنها تبتسم ، وهي تتنفس ببطء ، وكان قد مر نصف ساعة منذ أغمى عليها ، وفجأة فتحت عينيها وأخذت تخاطب نفسها كلمجنونة :

ـ الشمس . أين الشمس ؟ ليل دائم . ليالى مخيفة . أنظر ظلال الأشجار على الحائط ، أرتفع القمر . أخذت البومة تنوح . أفتحوا الأبواب . كسروها . أهدموا الحوائط . هنا سجن . سجن بين أربع حيطان ، كفى . أنى أختنق . لا ليس لى أحد . فلنعزف على العود . أحضروا العود هنا ، هنا داخل الايوان . بصقة . بصقة على هذه الحياة .

وضحكت ضحكة عالية . مجنونة ، وحولت عينيها وثبتتها على فريدون الذى كان قد قرب رأسه منها ، وأخذ يدلك كتفيها النحيلتين .

ـ أهدئى .. أهدئى

وأمتلأت عينا فرنكيس بالدموع وقالت بصوت متقطع مختنق

ـ أنا أموت . ولكن العالم الآخر موجود . وسأثبت لك وتوقف قلبها ، وأخذت ترتجف بشدة ، فأسرع فريدون يجهز قطرات الدواء فى ظرف ولكنه حين عاد ليسقيها أياه ، رأى أن الأمر قد أنتهى فقد تلاصقت أسنانها . وسرت البرودة فى جسدها قليلا قليلا .

فأحتضنها فريدون وأخذ يقبلها ويبكى ، وجاءت نسترن باجى مرتاعة إلى الحجرة ، وجعلت تلطم رأسها ووجهها ، وقد أخرستها الفجيعة . وأقام لها جميع أهل القرية مأتماً ، ولكن كلناز لم يتغير فيها شيء ، فقد كانت تحملق فى الجميع بعينها الناعسة الجذابة ، وعلى سبيل المجاملة ، راحت تخرج منديلها الحريرى وتضعه بالقرب من عينيها .

ولأن فريدون كان بطبعه شديد الحساسية ، كثير الحنان ، فقد أخرجته المصيبة عن طوره ، فانطوى على نفسه ، وأهمل جميع أعماله ،

وكان يظل طوال اليوم جالسا على أحد الكراسى ، قلق النفس ، غارقا فى ذكرياته التى تجسدت أمام عينيه .

ومر أسبوعان على هذا المنوال ، ظل طوالهما فى ثياب الحزن والحداد ، وكان يبدو من عينيه المسهمتين أنه لا يرى شيئا ولا يحس بشىء بل كان كل شىء حوله بغيضا أمام ناظريه وكان دائما فى عذاب نفسى ، وكانت كلناز أخته غير الشقيقة ونسترن باجى يطعمانه الطعام ، ورويدا رويدا انتابته حالة هستيرية ، وطفق يحدث نفسه منفردا فى حجرته ويهذى ، حتى جاء أحد أقرباء زوجته ، وحمله إلى طهران للعلاج .

فى عصر نفس اليوم الذى أحس فيه فريدون بالتحسن ركب سيارته إلى ورامين ، وحينما وصل بالقرب من منزله كان الجو قد أظلم وغطت السماء قطع من السحب .

وأخذ يدق الباب بضع دقائق ، ثم سمع وقع أقدام آتية من بعيد ، وسمع صوت المفتاح فى الباب ، ثم ظهرت نسترن باجى بقامتها المقوسة ، وفى يدها مصباح ، وما أن رأت فريدون حتى أرتدت إلى الخلف خائفة ، وقالت :

ـ سيدى .. سيدى .. أنت

وسأل فريدون

ـ أذن .. أين حسن ؟

ـ ذهب .. ذهب ياسيدى .. كلهم ذهبوا

كان فريدون متعبا شاردا ، فأطرق برأسه وذهب إلى الحديقة ، ووقف بالقرب من الممر المفضى إلى مسكنه ، وتجددت جراحه حين رأى مأواه ، وبعد تردد قليل أخذ الطريق إليه ، وظل ينظر إلى ظله الذى كان يطول ويقصر فى ضوء المصباح على الأرض ويدوس على أوراق الأشجار

المتساقطة التى غطت الطريق .. المكان مشوش غير مكنوس ، وفوضوى ، ومنظره مخيف ، وقد غار ماء الحوض . وحين بلغ الأيوان أخذ المصباح من يد نسترن باجى وصعد فى عجل إلى أعلى وكأن أحدا يطارده ، وحينما دخل الحجرة جلس على المقعد ، وأغلق الباب خلفه ، وكانت المنضدة مغطاة بالتراب والغبار ، وكل الأشياء مبعثرة وملقاة ـ وفتح النافذة ليدخل الهواء النقى الحجرة ، وأضاء المصباح الذى على المنضدة ، وجلس على كرسى طويل ، ورمى بنظره إلى الحجرة وكأنه قام من نوم طويل ، وأخذ ينظر إلى الأشياء بفضول وشغف ، وكأنه يراها لأول مرة ، وفجأة فتح الباب بخفة ، وظهرت نسترن باجى بظهرها المقوس ووجهها المغضن وقالت :

ـ أن شاء الله تكون صحتكم تحسنت

وهز فريدون رأسه

ـ سيدى لماذا جئت فجاءة ؟ ماذا تتعشى

ـ لا أريد .. أكلت

وتظاهرت نسترن باجى بالأسى ماكرة .. وقالت

ـ أن إله العالمين لا يترك منزلا بلا صاحب .. سيدى أنك لا تعلم ماذا أصابنا .

أن أسوأ شىء .. لا .. لا ياالهى

فسأل فريدون مرتاعا :

ـ ماذا حدث

ـ سيدى .. لا شىء .. أخشى أن يضر النبأ صحتك

فتنهد فريدون :

ـ قولى .. ماذا حدث ؟

قالت نسترن باجى فى خوف .

ـ سيدى .. منذ شهر حتى الآن وأنت غائب ، حين ينام الجميع ، يتصاعد صوت النغم حتى ليخيل إلى كأنه توأمها ، كأن فرنكيس هانم تعزف على العود .

فقال فريدون :

ـ ماذا تقولين ؟ أنك تهذين .

قال هذه الجملة بصوت مرتعش ظهر خوفه معه وارتياعه قالت نسترن

ـ لا تؤاخذنى .. أنى وقد ابيض شعرى لا أكذب ، ولا أختلق شيئا ، كل الناس يعلمون ، ولم يعد أحد يستقر فى المنزل ، وقد هرب البستانى مع حسن ، فذهبت وأخذت تعويذة تعيدنى أنا وكلى هانم ، خفت أن يؤذينا الجن .. لقد مات كلبنا الأسود أولا ، فقلت أن هذا هو قضاء الله ، والآن نفس النغم الذى كانت سيدتى تعزفه ، كلهم يقولون أن هذا المنزل صار مسكونا للجن .

فسال فريدون

ـ من هناك فى تلك العمارة ؟ وهل ينام أحد فيها ؟

ـ كما كنا فى الأغلب .. أكون أنا وكلى هانم

ـ ومفتاح القاعة التى تفتح على الحديقة مع من ؟

ـ مع كلى هانم وهى تضعه على المدفأة ، سيدى أننا جميعا نتعزى بأن لا أحد هنا يستطيع أن يعزف ، ولا أحد يجرأ على الذهاب إلى داخل القاعة

فقال فريدون بصبر نافذ

ـ وماذا تقول كلناز ؟

ـ سيدى أعذرنى .. لقد خفت أن أقول لكلى هانم . أجل أنها فتاة

غضة ولم أظهر لها أى شيء ، وقد شعرت بصداع الليلة وذهبت لتنام ولو كانت تعلم أنك ستأتى ، ما كانت لتنام قط .. أنها طفلة ونومها ـــ ما شاء الله ـــ ثقيل ، لو أختطف العالم طوفان ، لا ختطفها النوم ، وأنا أخاف الآن أن أتركها وحدها .

ثم سارت محدودبة وحملت المصباح ، وأدارت وجهها بجوار الباب ، وقالت :

ـ سيدى .. أنك تناولت العشاء ، هل أعد الفراش ؟

ـ لا يلزم . أذهبى لحالك ودعينى وحدى

وأرتسم أمام فريدون ألف نوع من الأفكار الموهومة التى لا رأس لها ولا قدم وأخذ يقول لنفسه :

ـ فى الليل ، يعزفون على العود .. نفس اللحن الذى كانت تعزفه فرنكيس ، ذهب الخادم والبستانى ، مات الكلب .. وأخذ يتنفس بصعوبة ، وطفقت ظلال خيالية تتراقص أمام عينيه ، ووقع نظره على السجادة المعلقة على الحائط ، وكان عليها صورة سيدنا سليمان وثلاثة أشخاص يلبسون العمائم يقفون حول عرشه ، وقد وضعوا أيديهم على صدورهم . أما السجادة الأرضية فكانت مليئة بالتنانين والشياطين والحيوانات المضحكة ذات النقط السوداء فى أجسادها ، والأربطة الحمراء حول خصورها ، هذا الرسم الذى كان كثيرا ما يضحكه بدا له ـــ وكأنما نفحت فيه الحياة ، وأخذ يخيفه ، فنهض بلا ارادة ، وسار عدة خطوات فى طول الحجرة ، ووقف بباب الحجرة المجاورة ، وأدار المفتاح ، ففتح الباب وفى الظلمة رأى عينين تومضان مثبتتين عليه ، فأسرعت دقات قلبه ، فتقهقر ببطء وحمل المصباح وقربه ، فرأى قطة نحيفة تقفز خارجة من زجاج النافذة المكسور فتنفس الصعداء . هنا كانت حجرة

فرنكيس الخاصة وعلى المنضدة زهرية ذات أزهار جافة فأقترب منها وتركها بين أصابعه ، فتناثرت على المنضدة وجرت من عينيه قطرات الدمع ، وكانت رائحة البنفسج منتشرة فى الجو نفس العطر الذى كانت تحبه فرنكيس ، ورأى حذاءها المنزلى تحت الأريكة ، أما نقابها ذو الرباط الأزرق المزين باللون البنفسجى فكان معلقا على مسمار الستارة ، كل هذه الأشياء لم تزل فى أماكنها ، ولم تمتد إليها يد التلف ، ولكن صاحبتها ليست هناك . لا .. أنه لن يستطيع أن يصدق أن فرنكيس ماتت ، أنها تستطيع الآن أن تفتح الباب وتدخل حجرتها . وفجأة وقع نظره على الساعة التى فوق المدفأة ، فكاد يصرخ من الخوف والألم ، فقد رأى عقربيها واقفين على الثامنة وعشر دقائق .. نفس الوقت الذى ماتت فيه فرنكيس بين يديه ، فتصبب كل جسده عرقا باردا ، وحمل المصباح وعاد إلى حجرته ، ولكنه كان يخشى أن ينظر وراء ظهره ، فأشعل لفافة وارتمى على الكرسى الطويل .

وكانت هذه الأفكار السيئة قد أفرغت رأسه ، وأوقفت جسده عن العمل ، وسلبت الأحساس من ارادته ، وتذكر ثانية حديث نسترن إذ تقول « كان توأم فرنكيس يعزف على العود كل ليلة » وتذكر أيضا كيفية موت زوجته حينما قالت له بلهجة تنم على التهديد بدلا من أن توصيه « أننى أموت ولكنى سأثبت لك أن العالم الآخر موجود » هل هناك روح ؟ بل ربما هذه روحها جاءت لتثبت أن العالم الآخر موجود بالفعل . ولكنها روح تعزف الأنغام !! ونهض فأخرج من أحد تجويفات الحائط كتاب فى تحضير الأرواح باللغة الفرنسية .. ونفض عنه التراب ، وجلس وأخذ يتصفح الأوراق بلا أهتمام ، ووقعت عينه على هذه الجملة « لو يعزف فى مجالس تحضير الأرواح لحن ملائم لساعد على تجلى الروح » ، وأخذ يتصفح الأوراق ثانية ، فقرأ فى موضع آخر « أعلم أنه

حينما كان يغمى على الوسيط الخبير « بيابيا لادينو » ، كانت الستارة التى وراء رأسه تقترب وتتحرك ، ويعم صوت النقر على الباب والحوائط ، وتهتز المنضدة ، ويرقص الكرسى ، ويبقى الماندولين معلقا فى الهواء حتى تعزف عليه الأرواح ، ووقع الكتاب من يده ، وغمره هم و حزن غامضان ، وأخذ يحدث نفسه : « هل تعزف الروح ؟ وهل حقا أنها تأتى فى الليال لتعزف على العود .. لا بد أن العالم الآخر موجود .. أجل أنها تعزف نفس لحن همايون .. لا .. ليس بهذه البساطة » وفى نفس الوقت أحس أنه ليس وحيدا ، وأن روح فرنكيس قريبة منه تنظر إليه بأبتسامة ظافرة .

ونظر من النافذة إلى البناء المقابل ، نفس المكان الذى كانت تعزف فيه ليلا ، ولكنه قال فى سره ثانية : « وكيف لى أن أصدق حديث النسوة العجائز ؟ وما دام لم يسمع صوت حتى الآن فلا علم لى .. ربما أختلقت نسترن هى الأخرى هذه الأكذوبة .. أن قلبى هو الآخر ليرتجف من ذلك العالم . لو من المقرر أن يكون للموتى الفانين أيضا كل هذا الضعف والمتع والشهوات والأمور التى تدعو إلى التفكير ، لو أنهم كانوا يأتون حثيثا ليعزفوا على العود ، وليبرزوا الأشياء السخيفة التى يخرجها الناس من أنفسهم على وجه الأرض .. فإن ذلك العالم أيضا طفولى .. لا .. ليس من الواضح أن هذه الأشياء يخرجها الناس من عند أنفسهم . أن المرض قد أضعفنى ، وإنه يجب أن أزيل الحجب عن هذا الأمر صباح الغد .. أحضر العود إلى هذه الحجرة حتى أرى من يعزف هناك » ومزق تفكيره حينئذ صوت رنين طويل ، ورأى فراشة كبيرة تضرب نفسها بفوهة المصباح بجنون ، وكان فتيل المصباح لا يزال يخفق ويدخن ، ونهض فأشعل لفافة أخرى ، ثم رأى أن الغاز قد نفذ فاطفأ المصباح ، وأظلمت الحجرة ، فأحس براحة نفسية .

عندئذ جذب الكرسى الطويل إلى ناحية النافذة ، وأتكأ بيديه على سياجها وأخذ ينظر إلى الخارج ، كان البناء مظلما أمامه وغامضا ، وكان صوت الرياح يأتى وهو يحرك الأوراق الجافة من هنا إلى هناك ، بدا ظل الأشجار كالدخان الأسود الغليظ ، أما الفروع العارية فكانت أشبه بالأيدى اليائسة وقد أمتدت إلى السماء الفارغة ، وهجمت عليه الأفكار المضطربة المخيفة فجأة ، وبدأ له أن هيكلا أسود يتسلل من بين الأشجار ، وكان يقف أحيانا ثم يسير حتى أختفى خلف البناء القديم . فنظر فريدون بعينين مبهورتين وتسمر فى مكانه ، وأخذت رأسه تؤلمه ، وكأن جسمه مرهقا متعبا ، وأسودت أفكاره قليلا ، وتلاقت جفونه ببعضها ، وبدأ له أنه فى ميناء مارسيليا فى مرقص قذر وضيع ، وكان هناك جمع من البحارة والبدو وبعض قاطعى الطريق يجلسون حول المناضد للشرب .

وكان هناك شخصان يلف كل منهما شالا أحمر من القطن حول رقبته ويلبس قميصا ممزقا ، وكان أحدهما يعزف على القانون والآخر على آله موسيقية أخرى ، وكان ثمة نسوة غارقات فى الزينة بملابس حمراء قذرة يرقصن أمام السوقة ، وفتح الباب ودخلت فرنكيس مع رجل بدوى حافى القدم على هيئة قطاع الطرق . كانا متعانقين يضحكان معا ويشيران إليه ، ونهض فريدون من مكانه ، ولكنه رأى الجميع ينهضون من أماكنهم ويتقاذفون بالكراسى ، فوقعت كؤوس الشراب على الأرض ، وتكسرت ، وتقدم البدوى وأخرج سكينا من تحت عباءته وأمسك برقبة شخص بالقرب منه وقطع رأسه ، وظل يضحك بصوت مخيف ، بينما كانت الرأس فى يده تقطر دما .

وأثناء ذلك دخل ثلاثة من الشرطة وفى أيديهم المسدسات فساقوا الجميع وأخرجوهم ، فوقف شاردا فى مكانه ، ورأى فرنكيس أيضا هنا

KMH

وقد تبعثر شعرها الأسود اللامع ، وبدت نحيفة عن المعتاد ، ثم ذهبت فأخذت الآلة الموسيقية التى على المنضدة وبنفس حالتها المنهكة ، كانت تعزف لحن « همايون » ، وتداعب أوتار الآلة الموسيقية بنفس الطريقة والدموع تقطر من عينها .

استيقظ « فريدون » من النوم خائفا ، والعرق البارد يتصبب من جسده ، وظن أولا أنه كابوس ، وفرك عينيه ، ولكنه كان يسمع صوت الآلة الموسيقية .

كان صوت العود يتموج فى الهواء متقطعا كأنه البكاء ، وكلما سمع تراوح نغماته بين العلو والأنخفاض ، كانت عروقه وشرايينه تتفطر ، كأن صوتا مخيفا على غير نظام كالعويل يصل إلى أذنيه ، وكان لحن همايون الذى تحبه فرنكيس .

وكانت كتل السحاب الأسود المائل إلى السمرة تعلن طلوع الفجر ، والنسيم يهب باردا ، أما ظل الجبال الزرقاء الداكنة فقد تجسد فى طرف السماء ، وكان يسمع صوت حصان يحك الحظيرة بحافريه

ونهض فريدون من مكانه متسللا من سلم الممر ، ولما كانت عيناه معتادة على الظلام ، فقد نزل من سلم الايوان ، وفى حذر تام ذهب إلى البناء القديم وكان يسمع صوت الآلة الموسيقية جيدا ، وأخذ قلبه يدق بسرعة حتى كان يسمع دقاته ، وفتح حجرة نسترن باجى ، وخرج من باب آخر يفضى إلى الممر ، وأرهف السمع فوجد صوت الآلة الموسيقية قد صمت ، وكان باب القاعة التى يعزف فيها قريبا منه بعشرة أقدام ، فاقترب وأخذ ينظر من ثقب المفتاح ، فزاد عجبه أن رأى شمعدانا يضىء على المنضدة ، وكان مزلاج الباب مفتوحا من الخارج ، وسمع من بين ما سمعه صوت شخصين ، وبلا إرادة دفع الباب بجسده ،

وسمع صوت تكسير الخشب والأشياء التى وقعت على الأرض وأنطلقت صرخة فزع من الداخل ، وقفز فريدون إلى داخل الحجرة وقد كور قبضته ، ولكن ما أن رأى المنظر حتى وقف فى مكانه .

رأى رجلا فى لباس رمادى ، بوجه أحمر ورقبة غليظة وجسم غير متناسق يتمدد على الأريكة ، وكانت كلناز تقف مندهشة وهى بلباس النوم ، وقد بدت أجمل ، وأكثر أمتلاء عن المعتاد ، وكان العود ذو القبضة المحلاة بالصدف ملقى تحت أقدامها مكسورا . ونظر الرجل بعينيه البراقتين الصغيرتين إلى فريدون من رأسه إلى قدمه ، ثم نهض دون أن يقول شيئا وهو محنى الرأس ، مقوس الظهر ، ثم خرج بخطوات ثقيلة من الباب المؤدى إلى الحديقة .

وضع فريدون يده فى وسطه وأخذ يقهقه ، ويتلوى حول نفسه بقهقهات مخيفة ، وتجمع أهل المنزل أمام باب الحجرة ، ولم يكن هناك شخص يجرأ على التقدم منه ، وظل يضحك حتى رغى فمه ، ووقع على الأرض ، وسمع له صوت ثقيل ، وظل ضوء المصباح يرتعش بضع دقائق ، وقد ظن الجميع أن فريدون أصيب بمس من الجن ، ولكنه كان قد جن .

١٢

الأراجوز

كانت الأجازة الصيفية قد بدأت . ومن فناء المدرسة الثانوية للبنين فى « الهافر » ، كان تلاميذ القسم الداخلى يخرجون وحقائبهم فى أيديهم وهم يصفرون فرحا ، ولكن « مهرداد » كان يمسك بقبعته فى يده ، واقفا على رأس حقائبه حزينا كتاجر غرقت سفينته ، فأقترب منه مشرف المدرسة الأصلع ، تتقدمه بطنه وقال :

ـ ألن تذهب أيضا ؟

فأحمر « مهرداد » حتى أذنيه ، وأحنى رأسه .

فقال المشرف ثانية :

ـ نحن آسفون جدا أنك لن تكون فى مدرستنا السنة القادمة ، فأنت فى الحقيقة من حيث الأخلاق والسلوك قدوة تلاميذنا ، ولكن نصيحة منى إليك : لا تكون خجولا إلى هذه الدرجة . وكن جريئا ، فالخجل لا يليق بشاب مثلك ، والانسان يحتاج فى الحياة إلى الجرأة .

فأجاب مهرداد :

ـ أنا أيضا آسف إذ أترك مدرستكم .

فضحك المشرف ، وربت على كتفه وودعه ، فضغط على يدى المشرف وابتعد . وحمل بواب المدرسة حقائب مهرداد ورافقة حتى آخر شارع أناتول فرانس حتى أركبه سيارة أجرة فأعطاه مهرداد بعض النقود وودعه .

كان « مهرداد » منشغلا بأكمال دراسته فى اللغة الفرنسية منذ تسعة شهور فى مدرسة « الهافر » ، واليوم الذى كان ينفصل عن زملائه فى باريس كان يشبه خروفا يفصلونه عن القطيع بمشقة ، فيسرع إلى الهافر منقادا لا طاقة عنده ، وكان طراز سلوكه وأخلاقة باعثا لاعجاب مشرف المدرسة وناظرها ، كان مطيعا هادئا ساكتا ، وكان دقيقا فى عمله ودروسه يتبع دائما لائحة المدرسة ، ولكنه كان دائما حزينا جامدا ، ولم يكن يعرف سوى ما يكلف به من حفظ الدروس والمثابرة على التعليم ، حتى كان يبدو أنه لم يأت إلى الدنيا لسوى هذه الغاية ، إذ كان تفكيره لا يتجاوز المدرسة وكتب المدرسة . أما مظهرة فكان عاديا ، كان أصفر الوجه ، طويل القامة ، نحيفا ذا عينين مستديرتين غير مستقرتين ، ورموش سوداء ، ولحية جرداء ، يحلقها مرة كل ثلاثة أيام ، وكانت حياة المدرسة المنظمة المرموقة ، والطعام المرسوم ، والدرس بالميعاد ، والنوم بالميعاد ، والاستيقاظ بالميعاد قد جعلت حياته على وتيرة واحدة مما جعله يحس أحساس السجين بالوحدة والحرمان وسط هذه الحوائط العالية القائمة للمدرسة ، ووسط التلاميذ الذين لا يتفق تفكيرهم مع تفكيره ، ولا يعلم لغتهم جيدا ، وليس له معرفة بأخلاقهم وعاداتهم ، كما أن أطعمتهم كانت تختلف عن الأطعمة التى كان يألفها .

وفى أيام الآحاد ، كان الجميع ينالون أجازة لعدة ساعات ، يذهبون فيها للنزهة ، لكنه لما كان لايستمتع بالذهاب إلى الخيالة أو المسرح فقد كان يجلس الساعات الطوال على مقعد فى الحديقة العامة أمام البلدية ،

يتسلى بمشاهدة الفتيات أو الرائحين أو الغادين ، أو بعض اللواتى يطرزن شيئا أو يشاهد العصافير والحمام الأليف الذى يحلق حول الأماكن المخضرة فى انطلاق ، وأحيانا كان يقلد الآخرين فيحمل معه قطعا من الخبز ويفتتها ويرميها للعصافير، وفى بعض الأحيان يذهب إلى شاطىء البحر، فيجلس على مرتفع يشرف على مائها ، و يرقب أمواج البحر أو مشارف المدينة التى ترى من بعيد ، فقد سمع أن لامارتين كان يجلس على بحيرة « بورجة » ويفعل نفس الشيء ، وإذا كان الجو سيئا فإن مهرداد كان يجلس فى مقهى ويستذكر دروسه ، ولما كان صعب المعاشرة فلم يكن له صديق أو جليس ، ولم يكن يعرف إيرانيا يتخذه له صديقا .

كان مهرداد من هؤلاء الفتيان المغمضى الأعين والآذان ، لذا أصبح فى إيران مضرب المثل فى أسرته ، وما زال كلما سمع اسم أمرأة أحمر من جبهته حتى أطراف أذنيه ، وكان التلاميذ الفرنسيون يسخرون منه ، وحينما كانوا يتحدثون عن النساء والرقص والنزهات والمغامرات والرياضة ، كان مهرداد يصدق حديثهم بباعث من الأحترام ، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يزيد على قصص غرامهم بشيء من واقع حياته .

ولما كان طفلا مدللا لأمه ، جبانا ، حزينا ، ذابلا ، فإنه لم يكن قد تحدث على أمرأة غير محرمة قط ، ملأ أبواه رأسه بالنصائح المتوارثة منذ آلاف السنين بقدر استطاعتهم ثم خطبوا له أبنه عمه « درخشنده » وأقاموا له حفلة الخطوبة ، حتى لا يحيد عن الطريق ، ووضعوا بذلك آخر المنن العظيمة التى أنعموا بها على ولدهم ، وعلى حد قولهم كان أبنا عفا طاهر العين والقلب نموذجا فى الأخلاق والتربية ، ويصلح ليعيش قبل ألفى سنة مضت ـــ كان مهرداد فى الرابعة والعشرين ، ولم تكن لديه شجاعه وتجربة أو تربية ولباقة وجرأة غلام أوربى فى الرابعة عشر تقريبا ،

كان حزينا دائما ومأخوذا وكأنما كان ينتظر قارئا للروضة يصعد على المنبر ، ليأخذ هو فى البكاء .

أما الذكرى الغرامية التى كانت لديه فهى تنحصر فى اليوم الذى كان يتحرك فيه من طهران ، وجاءت « درخشنده » لتوديعه بعين دامعة ، ولكن مهرداد لم يجد لسانا ليبث إليها السلوى ، أى أن الخجل كان يمنعه . ورغم أنه كان قد تربى وكبر مع أبنة عمه فى منزل واحد ، وكانا فى طفولتهما يلعبان سويا ، فأنه منذ تحركت السفينة من « بندر بهلوى » ، وشقت عباب البحر ، وأخذ ساحل إيران الأخضر يخفى بالتدريج وراء الضباب والظلمة ، كان يتذكر « درخشنده » . وفى الشهور الأولى لوجودة فى فرنسا كانت تأتى إلى ذكراه فى الغالب ولكن نسيها بعد ذلك قليلا قليلا .

وفى مدة دراسة مهرداد عطلت المدرسة عدة مرات ، ولكنه كان يبقى فى المدرسة مشغولا بأستذكار دروسه . وكان يعد نفسه أنه سيعوض كل ذلك فى الأجازة الصيفية ، والآن وقد تخرج من المدرسة ببراءة ذات درجات عالية نظر إلى مبنى المدرسة القاتم لآخر مرة من شارع أناتول فرانس وودعها بينه وبين نفسه ، ثم ذهب مباشرة إلى نزل كان قد رآه قبلا فأستأجر حجرة فيه ، ومنذ الليلة الأولى أخذ يستعيد حكايات زملائه الغرامية اللذيذة ، وحديثهم عن الحانات الكبيرة والمقاصف وحلقات الرقص وغيره ، وفى نفس الليلة وضع فى حافظته مرتبه الشهرى البالغ ألفا وستمائة فرنك ، علاوة على سبعمائة فرنك أخرى كان قد أدخرها وصمم على الذهاب لأول مرة إلى مشرب .

وفى المساء حلق لحيته ، وتناول عشاءه ولما كان الوقت مبكرا ذهب إلى شارع باريس للنزهة قبل أن يذهب إلى المقصف ، وكان أكثر شوارع الهافر أزدحاما وضجيجا إذ أنه كان يفضى إلى الميناء .

أخذ مهرداد يسير الهوينى من الطريق ، ينظر حوله بامعان ، ثم يدقق النظر إلى واجهات المحلات ، كان ذا مال ، حرا من القيود وأمامه عدة أشهر بل أكثر ، وكان يريد الليلة أن يستفيد من حريته ، ويذهب إلى المشرب فى ذلك البناء اللطيف الذى طالما مر من أمامه ، ولم يجزء قط على الدخول إليه . سوف يذهب الليلة إليه ومن يدرى ؟ ربما سقط فتيات كثيرات صرعى عينيه وحاجبيه السوداوين ، وظل هكذا يسير متسليا حتى وقف خلف واجهة محل كبير وواصل النظر .

وقعت عيناه على تمثال أمرأة ذات شعر أشقر ، وكانت رأسها قد أميلت ، وفمها فى وضع الابتسام ، كانت ذات رموش طويلة وأعين واسعة ورقبة بيضاء وقد وضعت يدها على خصرها وقد أظهرها لباسها الفستقى تحت النور الأزرق المسلط عليها لعينيه على نسق غريب حتى وقف بلا إرادة ، وتسمر فى مكانه ، وغرق فى النظر شاردا مبهوتا . لم تكن دمية ، كانت أمرأة ، لا أحسن ، ملاكا .. ملاكا يضحك له . هذه الأعين الزرقاء القاتمة ، هذه الابتسامة الأصلية الفتانة ، إبتسامة لا يمكن تصورها .. هذا القوام الظريف المتناسب .. كلها كانت فوق ما يفكر من دلائل العشق وشروط الجمال ، علاوة على أن الفتاة لن تتحدث معه ، ولن يكون مضطرا أن يمثل عليها العشق والتعلق والكذب والحيلة .. ولن يكون مضطرا للسعى إليها والغيرة عليها ، فهى صامتة فى حالة واحدة من الجمال .. أنها تجسد كل آماله وأفكاره . لا تريد طعاما ولا ملبسا ولا تتشاجر ولا تمرض .. ولا تكلف شيئا .. راضية دائما ومبتسمة دائما .. وأهم من هذا كله أنها لا تتحدث ، لا تبدى أفكارا ، وليس هناك خوف من أن لا تتفق طباعهما .. الوجه الذى لا يتغضن أبدا ولا يتغير أبدا ، البطن الذى لا يعلو أبدا ، ولا يطرأ عليها أى تغيير .

مرت عليه هذه الأفكار وهو ثابت فى مكانه ، هلى يستطيع ؟ وهلى من الممكن أن يحصل عليها ؟ أن يشمها .. أن يلعقها .. أن يعطرها بالعطر الذى يحبه .. ولا .. ولا يخجل من هذه المرأة أبدا .. إذ أنها لن تخونه ، وهو لن يخجل من جوارها ، وسوف يبقى مهرداد نفسه العفيف العين والقلب ، ولكن أين ياترى سيضع هذا التمثال ؟

لا .. إن أية أمرأة من النساء رآها حتى الآن لن تصل إلى مكانة هذه الدمية ، وهل يمكن أن تصلن إلى قدرها . وبدا له أن الأبتسامة والعينين قد بعثت الحياة فى هذه الدمية بروح غير طبيعية .. كل الخطوط والألوان والتناسب الذى كان يستطيع فرضه من الجمال قد تجسد فى هذه الدمية على خير وجه ، ومما زاد فى عجبه أن صورة الوجه كانت تشبه فى مجموعها صورة درخشنده إلى حد ما ، غير أنها عينيها كانتا عسليتين ، بينما كانت الدمية ذات عينين زرقاوين ، كان شعرها أحمر بينما شعر الدمية أشقر ، ولكن درخشندة كانت دائما ذابلة حزينة ، بينما ابتسامة هذه الدمية تولد السرور ، وتثير ألف نوع من الأحساسات فى المداد .

وقد وضعت ورقة مقواه تحت قدم الدمية كتب عليها (٣٥٠ فرنكا) . هل يمكن أن يعطوه هذه الدمية بهذا المبلغ ، أنه مستعد أن يدفع كل ما يملك بل أن يعطى حتى ملابسه لصاحب المحل وتصير هذه الدمية له ، ونظر فترة حائرا ، وتذكر فجأة أنه من الممكن أن يسخروا منه . ولكنه لم يستطع أن يصرف قلبه عن المشاهدة ، لم يكن ذلك فى إستطاعته ، وصرف النظر عن الذهاب إلى المقصف نهائيا ، وبدأ له أن حياته عديمة الفائدة بدون هذه الدمية ، وهذه الدمية فحسب هى التى تجسد خلاصة حياته ، آه لو كانت هذه الدمية له ، آه لو يستطيع أن

ينظر إليها دائما ، وأنتبه دفعة واحدة إلى أنه يقف أمام واجهة كل ما فيها ملابس نساء ، وأن وقوفه هذا ليس مناسبا ، وظن فى نفسه أن كل الناس قد أنتبهوا إليه ، ولكنه لم يجرؤ على دخول المحل وأتمام الصفقة . وإذا كان ممكنا أن يأتى إليه أحد سرا ، ويبتاع له هذه الدمية ، ويأخذ النقود منه حتى لا يجبر أن يفعل هذا الشيء أمام الناس ، كان يقبل حينئذ يد هذا الشخص ، ويعتبر نفسه أسير فضله حتى آخر حياته ، ودقق فيما وراء زجاج الواجهة ، فرأى أمرأتين تتحدثان من داخل المحل ، وأحداهما تشير إليه بيدها ، فأحمر وجه مهرداد كالبنجر ، ونظر إلى أعلى المحل وقرأ اللافتة « محل سيجران رقم ١٠٢ » ، فسحب نفسه ببطء وابتعد عدة أقدام .

سار بلا ارادة ، وكان قلبه يدق . ولم يكن يرى ما أمامه جيدا . وكانت الدمية بأبتسامتها الساحرة تمر من أمامه ، وكان يخاف أن يسبقه أحد ويشتريها ، وكان يتعجب لماذا ينظر الناس إلى هذه الدمية بهذا القدر من اللامبالاة ؟ ربما كان ذلك من أجل أن يخدعوه !! لا يهتمون بها ، وقد كان هو نفسه يعلم أن هذه عاطفة غير طبيعية .

تذكر أن حياته بطولها مضت فى الظل والظلمة . لم يحب درخشنده ولكنه كان يظهر التعلق بها من قلة حيلته ومجاملة لأمه ، وكان يعلم أيضا أنه ليس من السهولة أن يقيم علاقة مع إمرأة أوربية ، إذ أنه كان لا يعلم شيئا عن الحديث والرقص واللياقة والخفة والملبس الأنيق والتملق وغير ذلك مما يلزم لهذا الأمر ، ذلك إلى جوار أن الخجل طغى على نفسه ولم يجد القدرة على ذلك .

ولكن الدمية كانت كالمصباح الذى أضاء حياته مثل ذلك المصباح المجاور للبحر الذى يلقى بنوره على الماء فى هيئة القوس . هل كان ساذجا إلى هذا الحد ؟ ألا يعلم أن هذه العاطفة غير عواطف الجميع

وأنهم سوف يسخرون منه ؟ ألا يعلم أن هذه الدمية قد صنعت من الورق المقوى والألوان والشمع الصناعى ، تماما مثل الدمية التى يلعب بها الأطفال ، لا تستطيع التحدث وليس لجسدها دف ولا لوجهها تغير ؟ ولكن هذه الصفات هى التى جعلت مهرداد مفتونا بها .. كان يخاف من الأنسان العادى الذى يتحدث ، والذى تدب الحرارة فى جسده ، والذى يتصرف وفق أو ضد تصرفاته ، والذى يحرك روح الغيرة فيه . ولا .. أن هذه الدمية لازمة لحياته ، لا يستطيع من الآن فصاعدا أن يعمل بدونها أو يداوم حياته .. هل يمكن أن يحصل عليها من الآن كلها بـ ٣٥٠ فرنك ؟

وكان مهرداد يمر بين الناس الذين يروحون ويجيئون مسرعين وهو مشوش الفكر لا يرى شخصا فى الطريق ، ولا ينتبه لشيء .

وأخذ يسير مثل رجل من الورق المقوى ، مثل تمثال لا روح فيه ولا إرادة ، مثل أنسان تسلط على روحه شيطان . وبينما كان يسير رأى أمرأة ترتدى معطفا أخضر غارقة فى الزينة ، فسار خلف تلك المرأة بلا قصد أو رغبة ، وتحولت من جوار الكنيسة إلى محلة « سان جاك » ، وكانت محلة ضيقة ذات عمارات قائمة ومظلمة ومخيفة . ثم دخلت منزلا كان يسمع من نافذته المفتوحة أنغام رقص الـ « فكس تروت » من جرامافون ، وكان يكرر نفس اللحن بصوت أنجليزى عذب ، ووقف فترة حتى أنتهت الاسطوانة ، ولكنه لم يستطع أن يدرك ماهية النغم . من كانت تلك المرأة ؟ ولماذا جاءت ؟ ولماذا سار خلفها ؟ لا يدرى . وسار ثانية . ومرت من أمام عينيه الأضواء الحمراء للحانات الوضيعة ، المهربون ، والوجوه الغريبة العجيبة ، والمقاهى الصغيرة الغامضة التى أعدت لهؤلاء الناس الواحدة تلو الأخرى . وأمام الميناء كان النسيم يهب

باردا رطبا ملوثا برائحة القذارة والقطران وزيت السمك . وكانت المصابيح الملونة على رأس البوابات الصغيرة تلمع فى الأبصار وفى وسط السفن الكبيرة والصغيرة والزوارق الشراعيه كان يرى جماعة من العمال .. لصوص ونصابين ونماذج للآدميين من كل ناحية ، ومن هؤلاء الذين يسرقون الكحل من العين . وزرر مهرداد بلا ارادة سترته ، وتنحنح طويلا . وبعد ذلك سار بخطوات مسرعة فى طريق الترسانة البحرية وكان أمامها سد من الأسفلت ، وكانت هناك سفينة كبيرة مصابيحها تومض من بعيد ، كان من تلك السفن التى تشبه دنيا صغيرة .. مدينة سائرة تشق عباب الماء ، وتحضر معها إلى الميناء جمعا من الناس ذا معنويات مختلفة ومظاهر ولغات عجيبة وغريبة فيجذبون إليها من ممالك بعيدة ثم يجذبون ويهضمون ، هؤلاء الغرباء وهذه الحياة العجيبة الغريبة مرت الواحدة تلو الأخرى أمام عينيه ، وأخذ يدقق النظر فى النساء المتزينات ، هل هؤلاء هن اللائى يجعلن الرجال أسارى لهن ومجانين بهن ؟ أليست كل واحدة من أولاء دمية أوضع بمراحل من الدمية الموضوعة وراء الواجهة ؟ وتجلت الحياة كلها أمامه وهمية ومصطنعه لا فائدة منها ، وكأنما كان فى تلك الساعة يتخبط فى مادة غليظة لزجة ، ولا يستطيع أن يخلص نفسه منها . كل شىء أمامه كان باعثا على السخرية .. حتى العاشقان اللذان كانا يجلسان بجوار السور متعانقين كانا يبعثان السخرية فى نفسه ، الدروس التى قرأها ، وبناء المدرسة القاتم ، كلها كانت فى نظره مصطنعه وألاعيب .. كانت هناك حقيقة واحدة بالنسبة لمهرداد .. الدمية خلف واجهة المحل . وعاد فجأة بخطوات منتظمة ، ومر بين الناس ووقف حين وصل إلى محل سيجران ، وأخذ ينظر إلى الدمية ثانية ، وكانت لا تزال فى مكانها ، ودخل المحل وكأنه صمم على شىء للمرة الأولى

فى حياته ، وتقدمت فتاة جميلة ذات ثوب أسود عليه ميدعة بيضاء ، وابتسمت إبتسامة مصطنعة وقال :

ـ أية خدمة يا سيدى .

فأشار مهرداد بيده إلى ما وراء الواجهة قائلا :

ـ هذه الدمية .

ـ هل تريد هذا الثوب الفستقى ؟ لدينا ألوان أخرى هل تسمح ؟ صبرا دقيقة واحدة ، تفضل أن عارضتنا تلبسه الآن فانظره عليها ، لابد أنك تريده من أجل خطيبتك ، أتريد اللون الفستقى بعينه ؟

ـ لو سمحت أريد الدمية .

ـ الدمية ؟ أية دمية ؟! لا أفهم ما تقصد .

أنتبه مهرداد أنه سأل سؤالا سخيفا ، ولكنه لم يرتبك ، فقال على الفور وكأنه ألهم :

أجل .. أجل الدمية بما عليها من لباس أذ أنى أجنبى ولى محل للحياكة وأريد الدمية كما هى .

ـ آه .. هذه مشكلة يجب أن أسأل صاحب المحل .

وتوجهت ناحية أمرأة أخرى وقالت :

ـ سوزان .. نادى مسيو ليون .

ذهب مهرداد ناحية الدمية ، وجاء مسيو ليون بلحية رمادية وقوامه القصير السمين ، وحلته الكحلية اللون ، تطل منها سلسلة من الذهب ، وتقدم من مهرداد بعد أن تحدث مع البائعة وقال :

ـ سيدى هل طلبت الأنموذج ، بما أننا أبناء مهنة واحدة فأنى أبيعه بما عليه بألفين ومائتى فرنك بتخفيض تسعمائة فرنك ، إذ أن هذا التمثال ثمنه ألفان وسبعمائة وخمسون فرنكا وما عليها من لباس يساوى ثلاثمائة

وخمسين فرنكا ، فإنها من أحسن الدمى ، وقد صنعت من الصينى الخالص ، أبارك لك ، ومن الواضح أنك خبير فهى من صنع الفنان المشهور « دى كروه » ، ولقد قررنا أستحضار دمى من طراز جديد ، ونبيع هذه بالرغم مما فى ذلك من ضرر علينا ، ويجب أن تعلم أن هذا استثناء ، وأننا لا نبيع أثاث المحل للمشترى أصلا ، وأذكرك أننا نستطيع أن نضعها لك فى صندوق .

أحمر مهرداد ولم يدر ماذا يقول أمام هذا الحديث المفصل اللطيف من صاحب المحل ، وبدلا من أن يرد ، أخرج حافظته ، وأخرج ورقتين من فئة الألف فرنك وورقة من فئة الخمسمائة واسترد ثلاثمائة فرنك .. هل يستطيع أن يعيش شهرا بثلاثمائة فرنك ؟ أية أهمية لذلك وقد وصل إلى ما كان يرغب فيه !!

بعد ذلك الحادث بخمس سنوات ، عاد مهرداد إلى طهران بثلاث حقائب ، كانت أحداها كبيرة جدا تشبه التابوت، ولكن الشيء الذى كان باعثا لعجب أهله أنه قابل خطيبته برسمية شديدة ، ولم يحضر لها أية هدية . وفى اليوم الثالث نادته أمه ووبخته ، وقد شددت الحديث وبخاصة أنه فى الست سنوات هذه بقيت درخشندة على اسمه فى المنزل وردت خاطبين كثيرين ، وهو مجبر على الزواج منها . وانصت مهرداد إلى الحديث فى فتور ويأس ، وذهلت أمه حين أجاب « أننى غيرت رأيى . وصممت على عدم الزواج مطلقا » ، تأثرت أمهوعلمتأن أبنها هو نفس مهرداد الخجول المطيع لا أكثر . وأعتبرت هذا التغير من أثر معاشرته الكفار ، وأعتبرت ذلك تزلزلا فى عقيدته وأفكاره وعقله .

ولكنهم بعد ذلك كلما دققوا فى أخلاقه وسلوكه وتصرفاته لم يروا عليه شيئا خلاف ما يظهر ، ولم يفهموا إلى أية فرقة أنتسب أخيرا . كان

نفس مهرداد القديم الجبان .. الساكن ، ولكن تفكيره تغير ومهما راقب عدة أشخاص سلوكه بمواظبة ، لم يعرفوا شيئا عن لقاءاته الغرامية .

ولكن ما جعل أهل المنزل يظنون بمهرداد الظنون أن كان لديه فى حجرته الخاصة وراء بابها تمثال لأمرأة تلبس لباسا فستقيا وقد وضعت أحدى يديها على خاصرتها ، والأخرى علقتها فارغة ، وهم تبتسم . وكان قد وضع ستارة أمامها ، وحينما كان يعود ليلا إلى المنزل كان يغلق الباب ، ويضع اسطوانة على الجرامافون ويجلس للشراب ، ثم يرفع الستار من أمام الدمية ، ويظل مشدوها بجمالها ، وأحيانا حينما كانت نشوة الشراب تلعب بعقله ، كان ينهض ويتقدم فيداعب شعرها وصدرها ، كانت كل حياة العشق محدودة لديه بهذا ، وكان التمثال مظهرا لكل عشقه وشهوته ورغبته .

وبعد أكتشفت أسرته وخاصة درخشندو التى كانت شغوفة بكشف هذا السر أن ثمة سرا وراء تلك الدمية ، وقد أطلقت عليها « درخشندة » سخرية أسم « الأراجوز » وأرادت أم مهرداد أن تختبره مرات فأشارت عليه ببيع التمثال وأعطاء ما عليه من لباس هدية لدرخشندة فكان يرد رغبتها دائما . ومن ناحية أخرى فأن درخشندة لكى تخطف قلب مهرداد ، أخذت تدرك ذوقه فى الدمية . فكانت تغير طبيعتها وتغير سليقتها حتى توافق تلك الدمية . فكانت تعد شعرها على طريقتها وتلبس رداء فستقيا يشبه نفس الرداء ، بل أختارت حذاءها من نفس الطراز الذى تلبسه الدمية ، وحينما مهرداد يخرج من المنزل نهارا ، كانت درخشندة تدخل حجرته ثم كان تأخذ فى تقليد الدمية أمام المرآة فتضع أحدى يديها على خاصرتها وتلوى رقبتها كالدمية وتبتسم ، وهى تريد أن تقلد روح الدمية ، وبخاصة حالة العين .. الحالة الفاتنة التى تنظر فى

وجه الانسان زوكأنها تنظر فى فضاء فارغ . ولما كانت ذات شبه قليل بالدمية ، فإن هذا الأمر كان سهلا إلى حد ما ، وكانت تجلس الساعات الطوال تقيس كل جزئيات جسدها بالدمية ، وتجاهد أن تجعل نفسها على نسقها وفى وضعها . وحينما كان مهرداد يدخل المنزل كانت تظهر نفسها له بوسائل عدة ومهارة خاصة . وكان سعيها كله يضيع هباء فى البداية ، ولم يكن مهرداد يلقى إليها بالا ، وكان هذا كفيلا بأن يرغبها ويحمسها للعمل أكثر . وصارت بهذه الوسيلة تجذب أنتباه مهرداد قليلا قليلا ، حيث ولدت فى نفسه حربا داخلية ، حربا قلبية ، وكان مهرداد يفكر : أيهما يترك ، وقد أثار أنتظار أبنة عمة وثباتها الأعجاب فى نفسه ، والتقدير فى قلبه . وكان هناك هذا التمثال البارد ذو اللون الباهت بملابسه الباهتة الذى لا يستطيع أن يصرف النظر عنه ، وكان أنموذجا لشبابه وحبه ومثلا لشقائه ، فمنذ خمس سنوات وهو يخدع أحساساته وميوله مع هذا الهيكل الموهوم المسكين ، وهناك من طرف آخر ابنه عمه التى عانت وصبرت ، وجعلت نفسها مطابقة لما يتخيله ، ولما يوافق ذوقه وطبيعته .. فمن أية واحدة يجب أن يغض نظره ؟ ولكنه أحس أنه ليس بهذه السهولة يستطيع أن يبعد نظره عن هذه الدمية التى كانت مظهرا لحبه ، ألم تكن لها حياة بل مكان منفرد فى قلبه ، كم خدعته وكم أدخلت السرور على قلبه ، وكم ولدت لديه النشوة ، ولم تكن فى مخيلته دمية صنعت من الجص والشعر المستعار ، ولكنها كانت أنسانا حيا له وجود حقيقى بالنسبة له عن بقية الناس والأحياء ، هل يستطيع أن يلقى بها فى المزبلة ، أو يعطيها لأحد يضعها وراء واجهة محل ، ينظر إليها كل غريب بشغف ، ويداعبها الجميع بنظراتهم ؛ بل وربما كسروها ، هذه الشفاه التى منحته كثيرا من القبلات ، هذه الرقبة التى داعبها .. أبدا ، يجب أولا أن يتشاجر معها ثم يقتلها ، كما يقتل الانسان الحى ، يقتلها

بيده ، ومن ثم أشترى مهرداد مسدسا صغيرا ، ولكنه كلما أراد أن يضع تفكيره موضع التنفيذ تردد .

وذات ليلة عاد مهرداد إلى المنزل متأخرا عن عادته ، ثملا لا يعقل ، فأضاء النور وبعد ذلك طبقا لبرنامجه المعتاد رفع الستار وأخرج زجاجة الشراب من الصوان ، وفتح الجرامافون وشرب كأسين من الشراب ، وبعد ذلك سار وجلس فى مواجهة التمثال .. وأخذ ينظر إليه .

مرت فترة أخذ مهرداد خلالها ينظر إلى الدمية ، ولكنه لم يكن يراها فقد نقش شكلها من رأسة تلقائيا ، ولكنه كان يفعل ذلك على سبيل العادة ، كما كان يفعل من سنوات ، وبعد أن نظر فترة حائرانهض وذهب إلى الدمية ، وأمر يده على شعرها ، ثم حملها خلف رقبتها ثم صدرها ، ولكنه سحب يده مرة واحدة ، وكأنه وضعها فى حديد مذاب . وسار بحذر .. هل هذا حق ؟ وهل هذا يمكن ؟ هذه الحرارة المحرقة التى أحسها ، لم يكن هناك مجالا للشك ، ألا يحلم ؟ أليس كابوسا ؟ أليس ذلك من أثر السكر ؟ ومسح عينيه بكمه وسقط على الأريكة يستجمع أفكاره . وفجأة وفى نفس الوقت رأى الدمية تقترب منه بخطوات منتظمة وقد وضعت يدها على خاصرتها وأخذت تبتسم ، فتحرك مهرداد كالمجنون ليفر ، ولكن خاطرا عبر بذهنه ، فوضع يده فى جيب سرواله ، وأخرج المسدس ، وأطلق منه ثلاث طلقات فى وجه الدمية ، وفجأة سمع صوت الصراخ ، وسقطت الدمية على الأرض ، وانحنى مهرداد خائفا ورفع رأسها ، ولكنها لم تكن الدمية ، كانت درخشندة غارقة فى دمها .

۱۳

لاله

KMH

منذ الصباح الباكر أخذت السحب تسير من مكان إلى آخر ، وكانت الرياح تهب باردة لأذعة ، وأمتلأ ما بين الأشجار بالورق المتساقط ، وكانت الأوراق نصف الحية تدور مبعثرة فى الهواء ثم تسقط على الأرض . وثمة سرب من الغربان كان يقصد مكانا مجهولا فى نعيب وجلبة ، وبدت الدور القروية من بعيد كأنها صناديق الكبريت رصت بعضها إلى بعض ، تبدو بنوافذها السوداء وبقتقارها إلى الأبواب فصلية ومؤقتة .

كان « خداداد » بشاربه ولحيته الأسمرين ، يسير جلدا بخطا ثابتة ، وكان يحس بأن قوة جديدة تدب فى عروقة الطاعنة فى السن ، وكانت نظراته تنصب فيما يبدو على الجادة الرطبة البعيدة ، وما يظهر من السهل على أمتداد النظر . كانت الرياح تداعب بشرته أما الأشجار فكان يخيل إليه أنها ترقص أمام عينيه ، وكما لو كانت الغربات تبشره ببشرى الفرح والسرور ، وبدت الطبيعة كلها لناظريه سعيدة جميلة . وكان يلصق تحت أبطه صرة مقلمة ، وكانت عيناه تبرقان ، وكلما خطا

خطوة ظهرت ساقه القوية من خلال سرواله الأسود الواسع . كانت ملابسه زرقاء بلون السماء ، أما غطاء رأسه فكان مصنوعا من اللبدان

كان خداداد رجلا فى الستين من عمره ، ولكنه ذو هيكل متين وقامة طويلة وعينين براقتين ، ومنذ عشرين عاما بالتقريب لم يره أهالى « دماوند » إذ أختار العزلة فبنى لنفسه كوخا من الحجارة والطين بأعلى عين « علا » التى تقع على رأس جادة « مازنداران » ، ومنذ ذلك الوقت وهو يعيش منعزلا وحيدا تاركا الدنيا . كان يحرث الأرض بيديه الخشنتين ويرويها ويزرعها ويحصدها ، نفس العمل الذى كان يقوم به والده وسيقوم به أصلابه من بعده ، وكانت هذه الأرض التى ورثها تدر ثمانين منا من الثمار والغلال ، وقد باع نصفها فى سنة قحط ، أى أنه فقد جزءا كبيرا من أرضه ــ أما الآن فهو يعيش على المحصول الصغير الذى تغله القطعة الباقية منها .

ومما كان يدعو إلى العجب عن الجميع أنه فى السنتين الاخيرتين أو الثلاثة ، كان « خداداد » يرى فى العمران ، وخاصة فى سوق « دماوند » ، وهو يشترى الملابس النسائية والسكر والشاى والخردوات ، وأحيانا كان يرى حول المياه المعدنية فى « الجايين » و « الجليارد » فى أطراف الجبل تصحبه صبية غجرية .

قبل ذلك بأربع سنوات فى ليلة بردها يخمش الوجوه بأظافره الحديدية ، أطفأ خداداد سراجه ثم ذهب إلى فراشه ، فسمع صوتا غريبا وأنات متقطعة لم يدر أهى صوت أنسان أم حيوان ، وظل الصوت يقترب حتى طرق باب كوخه ، فنهض خداداد الذى لم يكن ليخاف من غول أو ذئب ، وجلس ، وأحس أن قطرة من العرق تتدحرج من أعلى سلسلته الفقرية ، وكلما سأل من هناك ؟ وماذا يريد ؟ لم يجب عليه

أحد ، وكلما نام دق الباب ، فأشعل السراج بيد مرتعشة ، وحمل السكين الضخم الذى علقه بالحائط ليكسر به الخشب والصفيح ، وفتح الباب دفعة واحدة وزاد عجبه حين رأى فتاة غجرية صغيرة فى ثوب أحمر وقد تجمدت دموعها على خديها بجوار الباب وهى ترتجف ، عندئذ ألقى خداداد السكين فى أحد أركان الحجرة ، وأمسك بيد الصبية وأدخلها إلى كوخه ثم أجلسها بجوار المدفأة ، وهيأ لها فراشا من ملابسه القديمة .

فى الصباح التالى راح يسألها عن حالها ، وعبثا حاول ، وكأن الطفلة أقسمت ألا تتفوه ببنت شفة ، ولا تذكر له ما يتعلق لها ، ومن أجل ذلك سماها خداد « لال » (أى الخرساء) أولا ثم تدرجت قليلا إلى « لاله » ومن الغريب أن هذه الأيام لم تكن مواسم رحلات الغجر الشتوية والصيفية ولم يدر خداداد من أى مكان فى الأرض أو السماء أتت هذه الفتاة ، فخرج من منزله ، وأخذ يقتفى أثرها ، ولكن آثار أقدامها ضاعت وسط الأوراق الرطبة وسأل الرجل الطحان الذى يدير طاحون عين « علا » عنها فلم يفده بشىء ، وأخيرا صمم على رعاية الطفلة حتى يظهر لها أهل .

وكانت « لاله » صبية قمحية اللون فى الثانية عشر من عمرها وكان لها وجه جميل وعينان جذابتان ، وعلى يديها وفى وسط جبينها وشم أزرق . وفى خلال السنوات الأربع التى قضتها « لاله » فى كوخ « خداداد » لم يستطع أن يهتدى إلى أهلها مع طول بحثه ، ولم يعرفها أحد من الغجر . ولذلك لم يكن خداداد يرغب فى التخلى عنها وأتخذها أبنة له ، ولكنه قليلا قليلا بدأ يكتشف فى نفسه علاقة خاصة بها ، ليست علاقة الأب بالأبنة ، ولكنه كان يحبها كما يحب الرجل المرأة .

ولما كانت وساوس الحب تدور برأسه ، وأسدل ستارا فى وسط الحجرة ، ليفصل مضجعاهما . وأسوأ من ذلك أن « لاله » كانت تنادى خداداد بـ « يا أبى » ، وكانت كلما فعلت ذلك تغير حاله . وحينما عاد إلى كوخه ذات يوم وجد أمامه قبرتين ، وكلما أخذ من نصح لاله أن السرقة حرام ، وأن الله سيعذبها بالحريق ، لم تجب بشىء ، أن ترسم ابتسامة شيطانية على شفتيها ، وتخرج من ميدان المناقشة بذريعة من الذرائع .

وكان لـ « لاله » ميل كبير للنزهة ، وإذا أمطر الجو ليومين أو ثلاثة وأجبرت على المكث فى الكوخ ، فأنها كانت تظل ساكنة حزينة . أما الأيام التى يكون الجو فيها صحوا فكانت تسير منفردة أو مع خداداد ، ولكنها كانت تسير منفردة فى الغالب ، وكان ذلك من أسباب ظن خداداد السىء فيها ، فقد شهدها مع عباس الراعى مرتين أو ثلاثا ولذا كان يعتبره غريما له .

حتى ذلك اليوم رأى فيه عباس يجمع النبق ويضعه فى فم لاله ، وفى نفس الليلة هاجم لاله وأخبرها أنه يجب ألا تتحدث مع رجل غريب ، فتجمعت الدموع فى مآقيها ، وتأثر قلبها الساذج . وقد جاءت أم عباس مرتين لكى تخطب لاله لولدها ، ولكن خداداد كان يعتذر دائما بأنها مازالت طفلة . وكان فيما بينه وبين نفسه يرى أن مثل هذا الـ « عباس » التافه سوف يكون وارثا له ، وأن الأملاك التى جمعها خلال خمسين سنة سوف تؤول كلها إليه ، وحينئذ ماذا تقول أرواح أجداده إذ أختار له وارثا كهذا الشخص الذى لا يعرف له أصلا ولا عقبا ، ولا يستطيع أن يفلح الأرض . يزاد إلى ذلك أن الفتاة التى أعطاها من كوخه ملجأ وأطعمها وكساها وتعب فى سبيلها حتى كبرت ، كانت بالنسبة إليه كشجرة فاكهة رباها وأنبتها ، ثم جاء شخص غريب ليجنى ثمارها ، وهلى التفاح

الناضج حرام على من يده مشلولة ؟ ألا يستطيع أن يأخذ لاله لنفسه ؟ ولم لا ؟ ولكنه أحس المسألة ليست بهذه البساطة ، وأن رضا الفتاة شرط كذلك .. ، وأيضا .. تلك العادة الذميمة التى لدى الفتاة وهى مخاطبتها له بكلمة الأب زادته بأسا . وفى ليالى عديدة حينما كانت الفتاة تغيب فى النوم كان يطيل شريط السراج ويجلس ويشاهد وجه الفتاة وصدرها وسواعدها لفترة طويلة ، ثم يخرج كالمجنون إلى الجبل ولا يعود إلى المنزل إلا متأخرا . وأخذت حياته تمر بين الخوف والأمل ، وكان الخوف يمنعه من أظهار حبه لها ، ولو قالت لاله له : « لا .. أنت عجوز » فإنه لن يجد أملا آخر سوى قتل نفسه .

وكانت هناك صخرة صغيرة منبسطة بالقرب من كوخ خداداد وكانت « لاله » تجلس عليها فى أغلب أوقاتها ، وتلصق عليها أعضاء قدمها العارية الملفوفة ، وتظل مدة طويلة على هذا الوضع ، دون أن تمل ، وأحيانا كانت تترنم بينها وبين نفسها بأغنية جميلة ، وما أن يقترب منها شخص حتى تصمت فجأة ، وقد سمع خداداد هذه الأغنية مصادفة ، وكان لديه ميل شديد لسماعها مرة ثانية .

وفى الصباح حين أراد خداداد الذهاب إلى السوق دماوند ، كانت « لاله » تجلس على الحجر المنسط ، وقد أزدادت سرورا عن أى يوم سبق ، إلا أنها لم ترغب فى الذهاب مع خداداد إلى المدينة فقال لها خداداد .

« سأشترى لك طراحة حمراء »

ورأى خداداد ابتسامتها الطفولية التى كانت تساوى لديه دنيا كاملة ، وحين وصل إلى سوق « دماوند » ذهب إلى حانوت البزاز وأشترى طراحة حمراء مزركشة ومحلاة بالورود والأغصان الخضراء

والصفراء ، وكذلك اشترى سكرا وشايا ، ولفهما فى صرة مقلمة ، وعاد إلى كوخة بخطوات سريعة ، ومع أن بين المدينة والكوخ فرسخين فإن المسافة بدت لخداداد الذى أعتاد السير السريع كميدان واحد ، ومع كبر سنه وعجزه فقد أصبحت لحياته أهداف ومعان ، وكان يفكر طوال الطريق .

هذه الطراحة حرية بكتفى لاله .. سوف تلقيها على كتفها ثم تعقد طرفيها على صدرها » ثم قال فى نفسه وكأنه خجل من أفكاره « يجب أن أعتنى بجمالها حتى أجد لها زوجا صالحا » ولكنه ما أن مرت بخاطره فكرة حب عباس الراعى لها حتى تجمعت الدماء فى رأسه .

وكان يمر بالطرق المرتفعة والمنخفضة ، وبجانب الوادى ، من الجبل والسهل ، ولم يكن يرى أحدا فى الطريق ، ولم يكن يحس بشىء ولم يؤثر فيه تعب الطريق . لقد كان فى معظم المرات التى يمر فيها بالعمران ينظر بكامل وعيه إلى السماء ليرى أثمة مطر أم لا ، ثم ينظر إلى الأرض ليحدس ما يمكن أن يحصل عليه الناس ، ويستفسر عن ثمن الشعير والقمح واللوبيا والتوت والتفاح والبرقوق والكريز . ولكنه الآن لا يفكر سوى فى « دله » ، وكان محصول أرضه غير طيب هذا العام ، ولم يكن هناك بد من أن يخرج قليلا مما أقتصده ، ولكن كل هذا فى نظره لا يساوى شعرة من «لاله» . وفى أثناء ذلك مر من خلال الأشجار وسار فى طريق كانت معرفته به أكثر ، وكان كوخه يبدو فى المرتفع المقابل له ، وكان يبدو كأنه علبتان من الكبريت المكسور وضعتا بجانب بعضهما ، فأسرع فى السير ، وألصق الصرة بجسدة ، وقطع الطريق الذى يعرفه جيدا ، ومر بمرتفع آخر ثم عرج وظهر أمام كوخه . ولكن لاله لم تكن هناك ، ليست على الصخرة ، ولا فى الحجرة ، وجاء إلى جوار الباب ،

ووضع يده على أحدى شدقيه وصاح : لاله .. لالو .. لالو ، ولم يجبه أحد ، فخرج وصاح بملء صوته .. لاله .. لاله .. لالو .. لو ولم يجبه سوى رجع الصدى .. فأسرع إلى الصخرة المواجهة لكوخه ، وأخذ ينظر إلى الأطراف ، ولكنه لم ير أثرا لثوبها الأحمر ، وعاد فدقق النظر فى الكوخ ، وفتح صندوق لاله ، فلم يجد الملابس الجديدة التى أشتراها هذا العام هناك ، وكاد يجن إذ أنه لا يفهم هذه المعميات كلها ، وخرج ثانية والتقى بمعلم القرية الشيخ عند عين علا وكان يجلس تحت شجرة بالبادة طويلة ، وقلنسوة زرقاء ذات شقوق وشال وسروال أسودين وقباء ذى ثلاث شقق وهو يدخن غليونه ، ولكنه ألقى إليه نظرات مسمومة فلم يجرأ خداداد على سؤاله ، وعلى بعد قليل كانت هناك أمرأة بعباءة حمراء وسروال أسود وضفائر مفتولة ، وكانت تربط طفلها على ظهرها ولكنها هى الأخرى لم تستطيع أن تدل خداداد على لاله فعاد أدراجه بلا حيلة .

وأسدل الليل والظلام على كل مكان ، ولكن لاله لم تعد ، ورأى خداداد أحلاما سيئة كثيرة ، بل أن النوم لم يطرق عينيه ، كانت أحلامه كلها كوابيس ، وكان يستيقظ لأقل صوت ويظن أن لاله عادت . ونهض أكثر من عشر مرات ، وكان يفتح الستار الفاصل بين مضجعيهما ويأخذ فى تحسس فراش لاله البارد كالأعمى ، ويرتجف ويسقط فى مكانه ، هل أخذها شخص بالقوة ، هل خدعها أحد أم أنها ذهبت بمحض أرادتها .

وكان الصباح صافيا باردا فحمل خداداد الطراحة التى أشتراها وذهب ليبحث عن لاله ، وفى الطريق كان كل الناس فى نظره جنا وثعابين ، وكانت الجبال الزرقاء والسماء التى غطاها الجليد حتى منتصفها تبعث

فى نفسه الخوف ، وكانت رائحة العشب النابت على حافة النهر تصيبه بالأختناق وفى الطريق التقى بقرويين فسألهما بخوف :

ـ ألم تريا لاله ؟

فظنا أول الأمر أنه مجنون وسألاه :

ـ من لاله ؟ !

ـ فتاة غجرية .

فقال أحدهما .

ـ منذ يومين جاءت طائفة من الغجر ، وضربوا خيامهم فى موج .. لعلك تقصدهم ؟

وتقـــــدم خداداد فى جادة « موج » ، وفى هذة المرة كان يسير بخطوات منزلقة وتحول إلى عدة طرق ومحلات حتى رأى خيمة سوداء على البعد وحين أقترب منها رأى رجلا نائما بجوار النهر وعلى مقربة منه كانت أمرأة غجرية تغربل الجريش ، فلما رأته سلمت وقالت :

ـ نعرف الفأال .. ولدينا خرزة الحيات .. المنمل . الغربال .. الجوز(١) .

فقال خداداد كالمجنون :

ـ لاله .. إلم ترى لالو ؟ .. ألا تعرفين أين هى ؟

ـ سأرى الفال وأقول لك .

ـ قولى سأعطيك نقودا .

ـ أرم بياضك .. لأقول لك .

وكان خداداد متعبا ، فأخرج من جيبه درهما وأعطاه للغجرية ، فتناولت المرأة يده ، ونظرت إليه قائله :

(١) كلمات يستعملها الدجالون .

ـ ليكن على ظهيرك وملجاك يا رجل .. لديك الآن غصة فى القلب إذ فقدت شيئا تعبت عليه أربع سنوات ، ليست فلذة كبدك ، ولكن حبك لها ليس أقل من حبك لفلذة كبدك .

ونظر خداداد إلى الغجرية بعينين دامعتين وقال هامسا .

ـ هذا صحيح .. هذا صحيح .

ـ ولكن لا تحزن فالفتاة بالقرب منك حية وفى صحة جيدة ، وهى تحبك كذلك ، ولكن أية فائدة ، وقد وقع المكتوب .

ـ كيف .. كيف .. أستحلفك بكل عزيز لديك أن تقولى .

ـ لا تدع للأحزان طريقا إلى نفسك ، أنها سعيدة ، لقد تركت باب منزلك مفتوحا فدخل شيطان وأغواها .

ـ أليس أسمه عباس ؟

ـ لا .. لا ..

ـ أنت .. من أنت .. من أين علمت .. قولى الحق بالله .. وسأعطيك ما تطلبين ، ووضع يده فى جيبه ، فأخرج درهما آخر ووضعه فى يد الغجرية ، ولكنه حينئذ رأى أستار الخيمة المقابلة قد فتحت ، وخرجت لاله ، وكانت فى نفس الثوب الأحمر الجديد الذى أشتراه لها .. وكانت تمسك فى يدها تفاحة حمراء وتنظفها بكمها ، وتقضمها وهى ضاحكة ، وتقدمت إلى العرافة وقالت :

ـ أمى العزيزة .. هذا هو أبى خداداد .

وأشارت إليه ، وفغر خداداد فاه من شدة العجب ، وأخذ يوزع نظراته بين وجه لالو وأمها . ولم يكن قد رأى لاله مسرورة نشطة كما هى الآن فمد يده وأخرج من طيات الصرة نفس الطراحة الحمراء ، ونشرها أمامها ، وناولها أياها قائلا :

ـ أشتريت هذه من أجلك من السوق .

فأطلقت لالو ضحكة عالية ، ونشرت الطراحة على كتفيها ــ ثم عقدتها على صدرها ، وأسرعت إلى الخيمة ، ولم تلبث أن خرجت وهى تمسك بيد رجل شاب وأشارت إلى خداداد ثم همست بشىء إلى ذلك الرجل ، ثم شرعت فى الترنم بنفس اللحن الخاص الذى كانت تغنيه ، ولفت عضلاتها الملفوفة على رقبة ذلك الرجل ، ثم مرا من بين أشجار الصفصاف وابتعدا .

وبكى خداداد من الحزن والسرور ، وعاد متعثرا من نفس الطريق الذى جاء منه ودخل كوخه ، وأغلق الباب على نفسه ، ولم يره بعد ذلك .

١٤

المرآة المكسورة

إلى م . مينوى

كانت « أوديت » غضة الشباب ، نضيرة الوجه مثل زهور أول الربيع لها زوج من العيون مسكرا بلون السماء ، وخصلات من الشعر الأشقر كانت تتعمد أن تترك بعض الخصلات تيهدل على وجنتيها . وكانت تجلس الساعات الطويلة إلى نافذة حجرتها وقد أتخذ وجهها وضعا نصفيا شاحبا ، ووضعت ساقا على ساق ، وتأخذ فى قراءة رواية أورتق جورب ، أو تنهمك فى أشغال الأبرة .

وحينما كانت تداعب أوتار الكمان بلحن « فالس جريزريه » كان قلبى يكاد ينخلع من مكانه . كانت نافذة حجرتى تواجه نافذة حجرة « أوديت » وكم من الدقات والساعات وأحيانا كم من أيام الآحاد كنت أراقبها فيها من وراء زجاج نافذتى ، بخاصة فى الليالى حينما كانت تخلع جوربها وتأوى إلى فراشها .

وهكذا نشأت رابطة غامضة بيتى وبينها ، وحينما كان يمر يوم دون أن أراها ، كنت أحس أن شيئا قد ضاع منى ، وفى بعض الأيام كانت تنهض وتغلق أحد مصراعى ، نافذتها من كثرة ما كنت أنعم النظر فيها .

مر أسبوعان ونحن نرى بعضنا كل يوم ، ولكن نظرات « أوديت » كانت باردة لا مبالاة فيها ، دون ابتسامة أو حركة تظهر بها أنها تميل إلى ، فقد كان وجهها بطبيعته جادا صارما .

أما المرة الأولى التى التقينا فيها وجها لوجه ، فكانت ذات صباح حين ذهبت إلى المقهى الذى يقع على ناصية محلتنا للأفطار ، وبينما أنا خارج منه رأيت « أوديت » وكانت تحمل حقيبة الكمان فى طريقها إلى المترو ، فسلمت فابتسمت ، واستأذنت منها أن أحمل عنها الحقيبة وأسير معها ، فأجابت بهزة من رأسها وهى تقول « مرسى » ومن هذه الكلمة بدأت علاقتنا .

ومن ذلك اليوم فصاعدا كنا نفتح نوافذ حجرتينا ونتحدث على البعد بحركة اليد والأشارة ، وتطور الأمر بأن كنا ننزل فنلتقى فى حديقة اللكسمبورج ، ثم نذهب إلى الخيالة أو المسرح أو أحد المشارب ، أو نقضى الوقت بطريقة أو بأخرى ، كانت أوديت تعيش وحدها فى المنزل ، فقد كانت يتيمة الأب أما أمها فقد سافرت مع زوجها إلى مكان ما ، وبقيت أوديت فى باريس لأمور تتعلق بعملها .

كان حديثها قليلا ، ولكنها كانت ذات تصرفات طفولية عنيدة محبة للجاج ، وكانت أحيانا تخرجنى عن طورى .. ومر شهران على صداقتنا . وذات يوم قررنا أن نذهب ليلا إلى حفلات « بوبيه » لقضاء ليلة آخر الاسبوع . فى تلك الليلة لبست أوديت ثوبا أزرق جميلا ، وبدت لى أجمل مما كانت ، ومنذ خرجنا من المطعم ، أخذت طوال الطريق ونحن فى المترو تتحدث معى عن حياتها حتى غادرنا المترو أمام « اللونابارك » .

كان ثمة جمع غفير يروح ويجىء ، وعلى جانبى الطريق صفت أسباب التسلية والمرح من حلقات الحواة والرماية ورؤية الحظ وبيع الحلوى

والسيرك والعربات الكهربائية التى تدور حول محور واحد بالكهرباء والبالونات التى تدور حول نفسها والكراسى المتحركة والألعاب المختلفة . كل ذلك كان موجودا . وأختلطت أصوات الفتيات بالحديث والضحك وتداخلت أصوات الموتورات والموسيقى .

وأردنا أن نوكب عربة مغطاة ، وكانت عبارة عن مقعد متحرك يدور حول نفسه ، وفى أثناء دورانه يسدل عليه ستار من نسيج بحيث يشبه الدودة الخضراء ، وحينما هممنا بالركوب أعطتنى أوديت حافظتها وقفازها حتى لا يسقط منها أثناء الدوران ، وجلسنا متلصقين ، وتحركت العربة وأسدل الستار الأخضر علينا ، وأختفينا عن أعين المتفرجين خمس دقائق . وحتى تولت ستارة العربة كانت شفتانا لاتزالان ملتصقين ، كنت أقبل أوديت وهى لا تقاوم . ثم سرنا وأخبرتنى فى الطريق أن هذه هى المرة الثالثة التى تأتى فيها إلى المعرض فى ليلة العطلة إذ أن أمها كانت تمنعها ، وذهبنا إلى عدة أماكن أخرى للتسلية ، وأخيرا أخذنا طريق العودة فى منتصف الليل وقد هدنا التعب ، ولكن أوديت لم تكن قد ملت بعد فكانت تقف عند كل حلقة ، وأقف معها مضطرا وقد جذبتها من ساعدها مرتين أو ثلاثة ، وكانت تسير معى راضية أو كارهة ، حتى وقفت عند حلقة رجل يبيع شفرات الحلاقة ويجربها ثم يدعو الناس إلى الشراء ، وفى هذه المرة تحركت من مكانى وجذبت ساعدها بشدة وقلت :

ــ هذا الشىء ليس متعلقا بالنساء .

فجذبت ساعدها منى وهى تقول .

ــ أعلم ذلك ، ولكنى أريد أن أرى .

وبدون أن أجيبها وأصلت طريقى إلى المترو ، وحينما عدت كانت محلتنا خالية ، وكانت نافذة حجرة أوديت مطفأة ، وأضأت النور ، وفتحت

النافذة ، ولم يزرنى النوم ، وأخذت أتسلى بقراءة كتاب ، وفى الواحدة من منتصف الليل ذهبت لأغلق النافذة وأنام ، فرأيت أوديت قد حضرت ، ووقفت تحت شباكها مستندة على عمود مصباح الغاز فى الشارع ، وتعجبت من تصرفها هذا ، فأغلقت النافذة غاضبا ، وبينما أخلع ملابسى ، أدركت أن حافظة أوديت المنمقة معى وقفازها فى جيبى ، وعلمت أن نقودها ومفتاح منزلها فى هذه الحافظة فربطتهما ببعض والقيتهما من النافذة .

ومرت ثلاثة أسابيع ، وأنا طوال هذه المدة لا ألقى إليها بلا ، فحيثما كانت تفتح نافذة حجرتها ، كنت أغلق نافذة حجرتى ، وفى أثناء ذلك حدث لى ما يجعلنى أرحل إلى لندن ، وفى اليوم السابق لسفرى إلى أنجلترا قابلت أوديت عند منحنى الشارع وهى تحمل كمانها وتسرع إلى المترو .. وبعد أن سلمت عليها وحيتنى وأخبرتها بسفرى وأعتذرت لها عما حدث فى تلك الليله . ففتحت أوديت حافظتها بفتور وأعطتنى مرآة صغيرة مكسورة من وسطها قائلة :

ـ من تلك الليلة حين ألقيت بحافظتى من النافذة .. حدث هذا .. ألا تعلم .. أنه يجلب النحس .

وأجت بضحكة ، وأنا أقول لها أنها تؤمن بالخرافات ، ووعدتها بأن أقابلها ثانية قبل السفر ولكنى لسوء الحظ لم أفلح فى ذلك .

وبعد شهر تقريبا قضيته فى لندن وصلنى خطاب من أوديت « باريس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٠ .

عزيزى جمشيد .

أنك لا تدرى كم أنا وحيدة ، وهذه الوحدة توذينى ، وأريد الليلة أن أتحدث معك قليلا ، أذ أننى حينما أكتب لك خطابا فكأنى أتحدث

إليك ، وحينما أخاطبك فى هذا الخطاب بصيغة المفرد فأعذرنى ، فأنك لا تدرى إلى أية درجة وصلت الامى النفسية .. كم هى طويلة هذه الأيام ، وعقارب الساعة تدور بطيئة ومتوانية .. ولا أدرى ماذا أفعل بهذا الوقت .. هل يمر عندك بهذا الطول ؟ ربما تكون قد كونت علاقة مع فتاة عندك ، لو لم أكن مطمئنة أن رأسك دائما فى كتاب كما كنت فى باريس فى هذه الحجرة الصغيرة التى هى دائما أمام عينى ويسكنها الآن طالب صينى ، ولكنى وضعت خلف الزجاج ستارا كثيفا حتى لا أرى الخارج ، لأن الرجل الذى أحببته ليس هناك ، وكما يغنى المغنى .

« أن الطائر الذى رحل إلى مكان بعيد لا يعود » .

بالأمس كنت أسير مع هيلين فى حديقة اللكسمبورج ، وحينما وصلنا إلى المقعد الصخرى الذى كنا نجلس عليه ، تتحدث أنت عن بلادك ، وتبذل كل تلك الوعود ، وأصدقها أنا أيضا ، أما اليوم فقد صرت مبعث التسلية والسخرية لدى أصدقائى ، وصارت سيرتى على كل لسان .. أننى أعزف « فالس جريزرية » على ذكراك والصورة التى التقطت لنا فى محل فينيسيا ما زالت على منضدتى ، وحينما أنظر إلى صورتك ينبعث الدفء فى قلبى وأقول فى نفس « أن هذا الرجل لا يخدعنى » لكن وا أسفاه لا أدرى أتعتقد أنت فى هذا أم لا ؟ ولكن منذ تلك الليلة التى كسرت فيها المرآة نفس المرآة التى أعطيتنى أياها ، كان ذلك تحذيرا بحادث غير سعيد لقلبى ، وفى اليوم الأخير الذى التقينا فيه وأخبرتنى أنك ذاهب إلى أنجلترا ، قال لى قلبى أنك ذاهب إلى مكان بعيد وأننا لن نرى بعضنا مرة ثانية .. وحدث ما كنت أخشى أن يحدث . وقد قالت لى مدام بورل : لماذا أنت حزينة هكذا ؟ وأردت أن تأخذنى إلى بريتانى ولكن لم أذهب معها إذ أدركت أننى سأزداد ألما .

دعنا من هذا ، فما مضى مضى ، وحين أكتب إليك هذا الخطاب

بلهجة شديدة أعذرنى فأن هذا من ضيق صدرى ، وإذا كنت قد هيأت لك أسبابا للضيق أرجوك أن تنسانى .. سوف تمزق هذا الخطاب .. خطابى وتمحوه .. إليس كذلك يا جيمى ؟ !

آه لو تعلم كم أن حزنى وغمى شديدان . أننى لا أعبأ بأى شيء ، أنفر من علمى اليومى بصورة لم يسبق لها مثيل ، أتعلم .. أننى لا أستطيع أن أكون قلقة أكثر مما أنا الآن ولو أن أسباب القلق كثيرة ، ولكن تأثيرها كلها لا يبلغ ما بلغ قلقى ، ومع ذلك فقد صممت على الخروج من باريس يوم الأحد ، وأخذ قطار السادسة والخامسة والثلاثين وأذهب إلى « كاليه » آخر مدينة تركتها أنت من هنا .. حينئذ أرى ماء البحر اللأزرق ، هذا الماء الذى يغسل كل المحن ، ويعتبر لونه كل لحظة ، ويأكل وجه الساحل الرملى بصيحاته الحزينة الغامضة ، ويرغى حيث ترتشف الرمال هذه الرغوات وتبتلعها .. ثم .. نفس هذه الأمواج ستحمل أفكارى إليك ، إذ أنها مثل الموت ، حين يبتسم أبتسامة لأنسان ما ، ويجره إليه بهذه الابتسامة .. قطعا ستقول أنها لن تفعل هذا العمل .. ولكنك سترى .. تقبل قبلاتى على البعد .

أوديت لاسور

كتبت خطابين ردا على خطاب أوديت ، ولكن أحدهما ظل بلا جواب ، ورد الثانى وعليه ختم « يرد للراسل » .

وحينما عدت إلى باريس بعد عام ، ذهبت بأقصى سرعة إلى زقاق « سان جاك » نفس المكان كان فيه مسكنى القديم . ومن حجرتى كان هناك طالب صينى يصفر لحن « الفالس جريزرية » ولكن نافذة أوديت كانت مغلقة وقد علقت على باب منزلها لافتة « منزل للايجار » .

تعريف بالقصص

١ - القلعة الملعونة :

كِجسته در . من مجموعة سه قطره خون ص ١٦٥ ص ١٧٩

٢ - الكلب الشريد :

سگ ولگرد. من المجموعة التى تحمل نفس الاسم نشرت سنة ١٩٤٢ والنص مَن كتاب شاهكارهاى نشر فارسى معاصر لسعيد نفيسى . ص ٣٧٢ ــ طهران ١٣٣٠ ه ش

٣ - المخلب :

جنگال . من مجموعة سه قطره خون ١١٣ ــ ١٢٧ .

٤ - ظل المغول :

سايه مغول : ظهرت سنه ١٩٣١ لأول مرة ضمن مجموعة تحتوى على قصتين لبزرك علوى وشين يرتو . والنص من كتاب سعيد نفيسى السالف الذكر ص ٣٢٦ ــ ص ٣٣٦ .

٥ - حى فى مقبرة :

زنده بكَ : من مجموعة تحمل نفس الاسم ظهرت سنة ١٩٣٠ والنص المترجم من كتاب سعيد نفيسى . ص ٣٣٦ ص ٣٥٤ .

٦ - المرأة التى فقدت زوجها :

زنى كه مردش راكم كرد . من مجموعة سايه روشن
ـ أول طبعة سنة ١٩٣٣ ــ والنص من كتاب سعيد نفيسى ص ٢٨٤ ــ ص ٣٠٣ .

٧ - الرجل الذى قتل نفسه :

مرى كه نفسش راكشت . من مجموعة سه قطره خون ص ١٢٧ ــ ص ١٤٨ .

٨ - المحلل :

محلل من مجموعة سه قطرة خون ــ ص ١٤٩ ــ ص ١٦٤

٩ - الدوامة :

كرداب من مجموعة سه قطرة خون ص ٢٣ ــ ص ٤١ .

١٠ - الأقنعة :

صورتكلها من مجموعة سه قطره خون ص ٩٩ ــ ص ١١٢ .

١١ - ليالى ورامين :

شبهاى ورامين من مجموعة سايه روشن ــ كتاب نفيسى ص ٢٤١ ــ ص ٢٥١ .

١٢ - الأراجوز :

عروسك ست برده : من مجموعة ساية روشن والنص من كتاب سعيد نفيسى ص ٣٠٤ ــ ص ٣٢٤ .

KMH

١٣ - لاله :

لاله . من مجموعة سه قطره خون ص ٨٧ ــ ص ٩٨ .

١٤ - المرآة المكسورة :

آيينه شكسته : من مجموعة سه قطره خون ص ٦٢ ــ ص ٧٠ .

رقم الايداع ٥٧٦٠/ ١٩٩٠

I. S. B. N

977-208-007-9